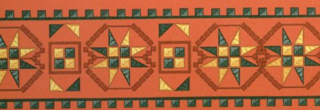
أسلوب المقابلة في القرآن الكريم

دراسة فنية بلاغية مقارنة

الدكتور
كمال عبد العزيز إبراهيم

الدار الثقافية للنشر





أسلوب المقابلة في القرآن الكريم

دراسة فنية بلاغية مقارنة

الدكتور
كمال عبد العزيز إبراهيم

الدار الثقافية للنشر

إبراهيم، كمال عبد العزيز.
أسلوب المقابلة في القرآن الكريم: دراسة فنية بلاغية مقارنة.
كمال عبد العزيز إبراهيم - ط١ - القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠١٠.
٣٨٨ ص ، ٢٤ سم
تدمك ٥ - ٢٧٧ - ٣٣٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٧٢٩/ ٢٠١٠
١ - القرآن - بلاغة
أ. أسلوب المقابلة في القرآن الكريم: دراسة فنية بلاغية مقارنة.
٢٢٥

الطبعـــة الأولـــى

١٤٣٢هـ / ٢٠١١ م

صندوق بريد ١٣٤ بانوراما ١١٨١١

تليفاكس ٢٤٠٢٠٥١٥ - ٢٤١٧٢٧٦٩ - ٢٢٧٥٩٥٠٢

Email: info@dar-althakafia.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

موضـــوع هـــذه الدراسة هو أسلوب المقابلة في القرآن الكريم : دراسة فنية بلاغية مقارنـــة[1]، والقـــرآن الكريم هو كلام الله المنزل على سيد البشر محمد صلى الله عليه وســـلم، ليخرج به الناس من ظلمات الشرك والجهل إلى نور التوحيد ورحاب الهدى والرشاد :

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾[2].

وهو معجزة الإسلام الباقية إلى يوم الدين، ودستور الحياة ومنهاجها القويم، كما أنه المرجع الأول لصحة اللغة العربية، وهو دليل أصالتها ورمز عظمتها، وإنها باقية – بإذن الله – مـــا بقي هذا القرآن، ولولاه لاندثرت في رمال الصحراء، كما اندثر غيرها من اللغات. إنه للمسلمين موئل وسند، وللعرب عزة وفخار وللإنسانية كنز وذخر.

ولذلك التف حوله العلماء والبلغاء والأدباء ينهلون من مورده العذب، ويستروحون في ظلالـــه نسمات العلم والمعرفة. فكان – بذلك – محورا لكل الدراسات الإسلامية والعربية.

ولقـــد وجدتـــني – بحمد الله منذ الصغر – أعيش مع القرآن حفظا ودرسا وتربية، فكنـــت أتشـــوف إلى اليوم الذي أستطيع فيه أن أرد بعض الجميل لكتاب الله عليّ،

---

(١) حصل المؤلف بهذا البحث على درجة الماجستير بتقدير ممتاز عام ١٩٨٥ من كلية الآداب – جامعة الزقازيق بإشراف الأستاذ الدكتور: فتحي عامر و مناقشة الأستاذ الدكتور: عبد المجيد عابدين والأستاذ الدكتور : محمد زغلول سلام

(٢) المائدة : ١٥ – ١٦

وأؤدي في نفس الوقت، شيئا من حق الامانة لديننا الحنيف ولغتنا العربية، إلى أن شاء الله، وأذن بذلك.

ولطول صحبتي للقرآن ومعايشتي له، استرعت – ظاهرة التقابل في أسلوبه – إنتباهي، ولفتت نظري، إذ وجدها تنتظم القرآن كله، فلا تكاد تخلو منها سورة من سوره، أو موقف من مواقفه.

وكانت فكرة دراسة هذه الظاهرة في القرآن الكريم تلح على حين أتأمل الكون من حولي، فأجدها تنتظم الوجود بأسره أيضا.

فالأرض تقابلها السماء، والليل يقابله النهار، وكذلك يتقابل الأبيض والأسود، والخير والشر، والذكر والأنثى، والصدق والكذب، ويمتد هذا التقابل مع امتداد البصر، وجولان الفكر في كل شيء.

وكنت أربط بين ظاهرة التقابل في الكون، وظاهرة التقابل في الأسلوب القرآني، فيروعني صدق العلي القدير وهو يقول: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1]، وأتصور أن هذه الثنائية الضدية التي تنتظم العالم كله إنما هي دليل على تفرد الله ووحدانيته وتنزهه عن الشريك والضد والنظير ولا عجب. فالقرآن الكريم كتاب الكون المفتوح لكل ذي عينين.

كان الدافع لاختياري لهذا الموضوع إذن نابعا من حبي للقرآن الكريم ثم لإلحاح فكرة التقابل على خاطري كلما قرأت في كتاب الله أو نظرت في جنبات الكون، وأخيرا لإحساسي بأن حقل الدراسات القرآنية في حاجة ماسة إلى المزيد من البحوث اللغوية والبلاغية التي تكشف عن أسراره، وتجلي نواحي الجمال في أسلوبه.

وترجع أهمية هذا البحث إلى كون (المقابلة) وهي التي تمثل ظاهرة واضحة في التعبير القرآني، لم تُدرس من قبل في بحث مستقل، إذ لم تحظ من الدارسين قديما إلا ببعض التعريفات المتواترة مع بعض الشواهد من النثر والشعر، ولم يتطرق بحثهم فيها إلى وجودها – كظاهرة – في الأسلوب القرآني، ناهيك بنظرة المتأخرين من البلاغيين إلى الألوان البديعية – بصفة عامة – على أنها من الفنون العرضية التي تجلب لتحسين الكلام وتزيينه بعد تمام المعنى.

---

(١) الذاريات : ٤٩

وأمـــا دراسة ابن أبي الإصبع عن (بديع القرآن) فإنها لم تتناول ظاهرة المقابلة في القـــرآن الكـــريم إلا في صفحتين اثنتين تحت عنوان (باب صحة المقابلات) و لم تقدم شاهدا عليها من القرآن سوى بعض آية هي قوله تعالى :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] .

لقد كان الرجل مشغولا في هذه الدراسة بإثبات إعجاز القرآن الكريم عن طريق ما فيه من البدائع، ومن ثم كان مهتما بإيراد أكبر عدد من ألوان البديع في القرآن، فأوصل عدد المحسنات فيه إلى ثماني محسنات ومائة، ولكن هذا – من جانب آخر – كان يعني تمزيق أوصال علم البديع، وما تبع ذلك من التصنع والتكلف في كثير من الأحيان.

وأمـــا في العصـــر الحديث، فإن أحدا من الباحثين لم يعن بهذا الموضوع في دراسة مستقلة أيضا، ودراسة الدكتور عبد الفتاح لاشين (البديع في ضوء أساليب القرآن)؟ صورة مختصرة من (بديع القرآن) لابن أبي الإصبع.

ومـــن هنا، فإنني أعتقد أن دراسة هذه الظاهرة في القرآن الكريم على نحو متكامل تعتـــبر أمـــرا ضـــروريا، نؤكد به إعجاز القرآن عن طريق التعبير بأسلوب المقابلة في الكلمات والآيات والمواقف. بل وبين السور بعضها والبعض.

هـــذا التعبير الذي كان له الكثير من الأغراض الفنية والدينية، كما سيتضح من هذا البحث.

وهـــو لهذا يعتبر بحثا جديدا في ميدانه، آمل أن أضيف به إلى بحوث البلاغة القرآنية لبنة تساهم في إعلاء قدرها، كما أرجو أن يكون هذا البحث حافزا لمثلي من الدارسين إلى المزيد من هذه الدراسات وفاء للقرآن الكريم، وإثراء للغته.

والمـــنهج الـــذي سلكته في هذا البحث هو المنهج التكاملي الذي يمزج بين المنهج الـــتاريخي والتحليلي اللغوي، وكذلك المنهج الفني والمقارن، فالمنهج التاريخي ضروري هنا لتتبع مفهوم المقابلة وما شاكلها عند البلاغيين والنقاد والمهتمين بالدراسات البلاغية في القرآن.

---

(١) القصص : ٧٣

والمنهج التحليلي اللغوي مفيد هنا في تحليل الآيات لغويا، لإدراك المعنى وما يقابله أو يناظره.

ثم إن بيان هذا التقابل وآثاره البلاغية، وقيمته الجمالية يعتبر عملا فنيا خالصا وذلك إذا أخذنا في الاعتبار أن الفن هو جملة الوسائل التي يستعملها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف، وبخاصة عاطفة الجمال[1].

أما المقارنة في هذه الدراسة، فهي منتشرة في تضاعيفها على شكل موازنة بين موقف وموقف، أو بين طبيعة أسلوب المقابلة في السور المكية وطبيعته في السور المدنية أو بين تناول القرآن لفكرة معينة بأسلوب المقابلة، وتناول الشعراء لنفس الفكرة.

والمصادر التي اعتمدت عليها في هذا البحث كانت في الجزء النظري منه : كتب البلاغيين والنقاد الذين عرضت لرأيهم في معنى المقابلة، وكذلك كتب المهتمين بدراسة البلاغة القرآنية.

وفي الجزء التطبيقي كان القرآن الكريم هو المصدر الأول الذي جمعت منه ظاهرة المقابلة في مختلف الآيات والسور والمواقف، ثم طائفة من كتب التفسير المختلفة للقدامى والمحدثين.

ولم يستغن البحث عن الاعتماد - كذلك - على بعض معاجم اللغة، وكتب الأعلام، وأسباب النزول، وقصص القرآن، بالإضافة إلى لمحات من بعض كتب النقد الحديثة، كانت ضرورية لتجلية غامض أو للكشف عن جديد.

ومع أن هناك بعض المراجع التي لم تتعرض لموضوعنا، إلا أنني استفدت منها في فهم المعنى المراد لبعض الآيات، مما أعانني على إبراز أسلوب المقابلة فيها وبيان أثره البلاغي، مثل كتاب : مجاز القرآن لأبي عبيده، أو تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضى وغيرهما.

وقد اقتضت طبيعة المنهج أن تقوم هذه الدراسة على جانبين أحدهما نظري والآخر تطبيقي، ومن ثم خرج البحث في بابين عدا المقدمة والتمهيد والخاتمة.

في المقدمة : جاءت دوافع البحث وأهميته ومنهجه وطريقة معالجته.

---

(١) المعجم الوسيط مادة (فن)

وفي التمهيد : جولة في معاجم اللغة مع إشارات مجملة لبعض من عرض للمقابلة من العلماء كالرماني وقدامه وابن أبي الإصبع، وقفت فيها على العلاقة بين المقابلة والطباق، ونبهت إلى صعوبة فصل المقابلة عن بعض الفنون البديعية الأخرى التي تشاركها التضاد أو التناظر كالطباق، والعكس والتبديل والتقسيم، مشيرا إلى أن الأفضل ضم هذه الألوان تحت اسم المقابلة، مبينا أسباب هذا الضم وأثره في حفظ البلاغة من الشتات والتمزق.

ولقد جاء الباب الأول – وهو الجزء النظرى من هذا البحث – في فصلين :

الأول بعنوان : (المقابلة عند النقاد والبلاغيين).

والثاني بعنوان : (المقابلة في الدراسات التي تعرضت لبلاغة القرآن).

ورغم أنه من الصعب فصل النقاد والبلاغيين عن العلماء المهتمين ببلاغة القرآن، إلا أنني خصصت لكل منهما فصلا، كنوع من التنظيم من جهة ولغلبة سمة معينة من الدراسات على كل فريق من جهة أخرى.

وقد تناولت في **الفصل الأول** – بالعرض والتحليل والنقد – مفهوم المقابلة عند طائفة من أعلام النقد والبلاغة – حسب الترتيب الزمني – منذ ظهرت عندهم كشذرات منثرة، مختلطة بالطباق وبغيرها من الألوان كما عند الجاحظ وثعلب وابن المعتز: إلى أن بدأ قدامه يضع لها بعض الضوابط، ويحدد لها بعض الملامح.

وهنا وقفت مناقشا فكرة تأثره بأرسطو، ورجحت في النهاية وجهة النظر القائلة بأصالة البلاغة العربية، وعدم تأثر قدامه بالمنطق الأرسطي في موضوع المقابلة بالذات.

وتابع الفصل مسيرته مع البلاغيين والنقاد، فعرض لرأى ابن وهب الكاتب — الذي مزج فيه بين المقابلة وصحة التقسيم ومراعاة النظير ولرأى الجرجاني : صاحب الوساطة. مشيرا إلى أن كتابه يعتبر تطبيقا عمليا للمقابلة بين المتبني وخصومه.

وعرض هذا الفصل كذلك لرأى أبي هلال العسكري مشيدا بمقارنته بين الشعر والقرآن في تناولهما لمعنى من المعاني بأسلوب المقابلة، ومرجحا القول بأن شواهده لبعض الألوان البديعية الأخرى كالعكس والتبديل والسلب والإيجاب يصلح بعضها شواهد للمقابلة، وأن هذا أدعى إلى ضم تلك الألوان وعدم تقسيمها وتمزيقها.

كما حيَّا الفصل جرأة ابن سنان الخفاجي في ضم معظم هذه الألوان تحت اسم واحد هو (الطباق).

ثم عرض لرأي عَلَميْن من أعلام المغرب العربي في هذا المجال، هما ابن رشيق وحازم القـرطاجني، مؤكـدا أنهما لم يستجيبا لموجة الإسفاف والتصنع التي بدأت تتسلل إلى الـبلاغة العربـية، ولذلـك أبرز الفصل نقد ابن رشيق لقدامة، وبين رأيه في المقابلة، وتوسيعه لمفهومها، لتشمل مراعاة النظير وصحة التقسيم.

وعـرض لـرأي (حازم) في المقابلة، ومغزى مجيئها ضمن حديثه الهام عن ماهيات المعاني، وأنحاء وجودها ومواقعها وطرق احتلالها وكيفية التئامها، ثم تفرده بالحديث عن الهدف من المقابلة، وذلك في القرن السابع الذي شهد انحدار الأدب والبلاغة، ومال إلى التكلف والصنعة اللفظية.

وتسـتمر رحلـة البحث عن مفهوم المقابلة في هذا الفصل إلى أن تصل إلى القرن الـثامن الهجري حيث جمدت علوم البلاغة، وتحولت إلى متون ومختصرات، ثم شروح وحواش جافة تكتفي بترديد آراء السابقين.

والفصـل الـثاني من الباب الأول، يطوف حول مفهوم المقابلة في الدراسات التي تعرضت لبلاغة القرآن، بدءا من مجاز القرآن لأبي عبيده معمر بن المثنى، ومرورا بمعاني القـرآن للفـراء، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ثم يناقش رأي الباقلاني في كتابه (إعجـاز القـرآن) الذي دعا فيه إلى استبعاد البديع من وجوه الإعجاز بحجة إمكان التوصـل إلـيه بالتدريب والتعود. فيردُّ هذا الفصل على هذا الرأي بالبرهان والدليل ويؤكـد أن ما ورد في القرآن من المقابلة والطباق، كألوان بديعية – لم يرد اعتسافا. وإنما جاء المعنى فيهما مصورا في ألفاظهما التي أدت المعنى خير أداء وأوفاه ويستعين – في ذلك – بالآراء التي تثبت إعجاز القرآن بكل ما فيه.

كمـا وقف هذا الفصل وقفة متأنية مع عبد القاهر الجرجاني وكتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، مشيرا إلى اعتباره التطبيقَ وسائرَ أنواع البديع عنصرا جوهريا في المعنى وإلى أن الإعجاز عنده يرجع إلى بلاغة النظم الذي هو سر إعجاز القرآن.

وعـرض الفصل – كذلك – لدور الزمخشري في الكشاف، وما قام به من تطبيق عمـلي لنظرية النظم، ثم وقف البحث – هنا – حكما بين القائلين بإهمال الزمخشري للألوان البديعية – بما فيها المقابلة – والقائلين بعكس ذلك مؤكدا بالأمثلة أن الزمخشري لم يسر في ذلك على وتيرة واحدة فهو أحيانا يحفل باللون البديعي حين تنفتح له طاقة الإبداع والإلهام وتتفجر أمامه كوة النور، فيرى في الآية القرآنية أو الموقف القرآني من ألوان البديع ما يزيد المعنى وضوحا والأسلوب جمالا.

وأحـــيانا أخرى يمر على الآية مرورًا عابرا غير محتفل بما تحويه من مقابلة أو طباق، فلا يشير إليهما، ولا إلى ما يؤديانه من معان.

واســـتخرج هـــذا الفصل من الكشاف رؤية الزمخشري الخاصة للمقابلة والطباق، وأشـــار إلى توســـعه في المقصود منهما، وإلى خلطه بينهما وبين بعض الألوان القريبة منهما كاللف والنشر، والتلاؤم بين الألفاظ كما أشاد باحتفاله بتقابل المعاني أكثر من تقـــابل الألفاظ، وذلك حين يكرر في أكثر من موضع قوله: **(وترى المَطَابيع منهم لا يُراعُون الطباق والملاحظة إلا في المعاني)**.

وعـــند الحديث عن ابن أبي الإصبع، أبرز الفصل أن اهتمامه ببديع القرآن كان رد فعل لنفي الباقلاني فكرة الإعجاز عن طريق البديع، فعرض نظرته إلى الطباق والمقابلة، وتقريبه المعنى اللغوي للطباق من المعنى البلاغي، ونوه باهتمامه بالبديع القرآني، وبإثبات الذاتـــية له، ونفى العرضية عنه، وإن أخذ عليه مبالغته في هذا الجانب، ومساهمته بذلك في تمزيق أوصال البديع وتشتيت شمله.

ثم تحدث هذا الفصل عن جهود الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن) وعن إفاضـــته القول في الطباق والمقابلة، ومزجه بينهما حين كان يستشهد بأمثلة كل منهما للآخر.

وعـــرض الفصـــل لما أورده من المقابلات الخفية، كالمقابلة بين الماء والنار في قوله تعـــــالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾﴾ وبين البياض والسواد في قوله تعالى ﴿ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا ﴿٥٨﴾﴾، ووقـــف عـــند تفريعه المقابلة إلى مقابلة بين النظيرين، ومقابلة بين النقيضين، وثالثة بين الخلافيَّين وما ينتج عن ذلك من أشكال رباعية أو سداسية، وضحتها بالرسم لتقريبها إلى الفهم.

ولم ينس الفصل - كذلك - الإشارة إلى إيراده ألوانا جديدة من المقابلة في القرآن الكريم، كمقابلة خمسة ألفاظ بخمسة وستة بستة، على حين وقف السابقون عند مقابلة أربعة بأربعة في سورة الليل.

وخُـــتم هـــذا الفصل بالحديث عن نظرة المرحوم الأستاذ سيد قطب فأبرز أهم ما أضـــافه في هـــذا الجانب، وهو أن التقابل طريقة من طرق التصوير الذي هو الركيزة الأساسية في التعبير القرآني، وعرض لنماذج مما استخرجه سيد قطب من صور التقابل

في القـــرآن الكريم مشيرا إلى أنه قد أكثر من التطبيق العملي لذلك في تفسيره المشهور **(في ظلال القرآن)**.

وفي نهاية الباب الأول عرضت للنتائج التي أمكن استخلاصها من هذا الجزء النظري مـــن البحث والتي كان من أهمها التقاء التيارين النقدي البلاغي، والقرآني حول مفهوم المقابلـــة، حيث دار كلاهما حول معنى التضاد والمماثلة ومراعاة النظير، واقترابهما من بعـــض الصـــور البديعية الأخرى كالعكس والتبديل والتقسيم واللف والنشر، وتأكيد كليهما أن ذلك يكون في المعاني أهم من الألفاظ.

أما الباب الثاني :- وهو الجزء التطبيقي من هذا البحث – فقد جاء في أربعة فصول هي على التوالي :

١- أسلوب المقابلة في القرآن المكي.

٢- أسلوب المقابلة في القرآن المدني.

٣- أسلوب المقابلة في القصص والأمثال القرآنية.

٤- مقابلات متميزة في القرآن الكريم.

وقد مهدت لهذا الباب بحديث مجمل عن الفرق بين موضوعات السور المكية والمدنية حيث اتجهت الأولى إلى بناء العقيدة، والثانية إلى إقامة النظام وتطبيق الشريعة، وإلى ما نشأ عن ذلك من اختلاف في أسلوب المقابلة في كل منهما.

اشتمل الفصل الأول من هذا الباب على أربعة مباحث هي :

١- المقابلة في الدعوة إلى التوحيد وتصحيح العقيدة.

٢- المقابلة في خطاب الكفار والمعاندين.

٣- المقابلة في مشاهد القيامة.

٤- مقارنة بين المقابلة في مشاهد القيامة في السور المكية والمدنية.

ففي المبحث الأول وهو الدعوة إلى التوحيد بينت أنها ارتكزت على أسلوب المقابلة في صفات الله تعالى، وعلى المقابلة في عرض مشاهد الكون والنفس وذلك كالمقابلة بين كونـــه ســـبحانه خـــالق الســـماوات والأرض، المحيي المميت عالم الغيب والشهادة، وأوضحت المغزى الفني والديني من التقابل هنا، وهو الإيحاء بالقدرة المطلقة، أو التوبيخ والاســـتنكار، أو تأكـــيد جدية أمر الوجود والغاية منه، أو تأكيد البعث وتقريبه إلى الأذهان.

أمـــا المقابلـــة في مشاهد الكون والنفس، فلا تكاد سورة مكية تخلو منها، وذلك كالمقابلـــة بين الليل والنهار والشمس والقمر. والحركة والسكون، وهي تأتي مرتبطة بـــالدعوة إلى عـــبادة الله الواحـــد الأحد المسيطر على هذه المظاهر المتقابلة في الطبيعة الكونية والبشرية.

وبينت أن المقابلة – وإن تكررت – إلا أنها في كل مرة تعطي جديدا وتتميز بمذاق خاص ومختلف.

كما عقدت مقارنة بين التعبير بأسلوب المقابلة في مشاهد الكون والنفس في السور المكية ونظيره في السور المدنية.

وفي المبحث الثاني وهو المقابلة في خطاب الكفار والمعاندين. وضحت في البداية أن المقصـــود بخطابهم إنما هو الحديث إليهم والحديث عنهم على السواء، حتى ولو لم يكن بضمائر المخاطب المعهودة عند النحويين.

وقد جاء التعبير بأسلوب المقابلة في خطاب الكفار والمعاندين في مواقف متنوعة كل مـــنها يناسب طورا من أطوار النفس البشرية، أو حالة من حالاتها، وإنها تأتي لأغراض بلاغـــية تتمشى مع هذه الأطوار كالترغيب والترهيب، والإقناع العقلي، ولإزالة ما قد يعلـــق بأفكـــارهم من الشك والتوجس، كما تأتي لإظهار الفرق بين صدود الكافرين وإعراضهم عن الدعوة وإقبال المؤمنين وتحمسهم لها.

أو للتهديد والوعيد. وقد أشار البحث هنا إلى أن المقابلات الواردة في هذا المجال إنما هي مقابلات في المواقف والنتائج، لا تقف عند حدود اللفظة الواحدة وما يقابلها، بل تشمل التقابل في الموقف العام بأكمله وأن ذلك مما تتميز به المقابلة في القرآن الكريم.

وفي المبحـــث الثالـــث من الفصل الأول من الباب الثاني تحدثت عن (المقابلة في مشـــاهد القـــيامة) فأوردت العديد من النماذج للمقابلة في مشاهد القيامة في مختلف المواقـــف، وبينت أن القرآن الكريم اعتمد في وصف يوم القيامة على أسلوب المقابلة، لأن يوم القيامة هو بحق يوم المقابلة حيث يقابل الإنسان عمله، ويواجه مصيره، ويتقابل مـــا أسره في نفسه مع ما أعلنه، ويتقابل التابعون المستضعفون مع الأقوياء المستكبرين، ويـــتقابل أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والأبرار مع الفجار، كما يتقابل المؤمنون متكئين على سرر موضونة. فأسلوب المقابلة هو الأسلوب الأمثل لعرض هذه الصور.

ثم عقـــدت في المبحث الرابع مقارنة بين المقابلة في مشاهد القيامة في السور المكية ونظيرها في السور المدنية، وأظهرت وجه الخلاف بينهما مع التعليل.

أمـــا الفصل الثاني من هذا الباب وهو بعنوان (أسلوب المقابلة في القرآن المدني) فقد عرض للمقابلة في خمسة مباحث هي :-

١- المقابلة في خطاب النبي والمؤمنين.
٢- المقابلة في خطاب اليهود والمنافقين.
٣- المقابلة في آيات التشريع.
٤- المقابلة في مواقف الجهاد.
٥- المقابلة في الآداب الاجتماعية وقواعد السلوك.

في المبحـــث الأول عرض البحث لنماذج للمقابلة في خطاب النبي محمد صلى الله علـــيه وســـلم تهـــدف إلى توضيح مهمته وتبين طبيعة رسالته أو تؤدي غرضا تعليميا وأخلاقيا. كما عرض لنماذج منها في خطاب المؤمنين في مواقف متنوعة كالحث على التمسك بولاية الله أو التحذير من الردة. أو العتاب كما في حديث الإفك، أو لإظهار الفـــرق بيـــنهم وبين غيرهم. ولم يغفل المبحث هنا عقد مقارنة بين أسلوب المقابلة في خطاب النبي والمؤمنين في القرآن المكي ونظيره في المدني، مرجعا الفرق بينهما إلى الفرق بين طبيعة الدعوة في كلا البلدين، ومهمة الرسول في كلتا الحالتين، فامتازت المقابلة في المكي بحدة النبر وغلبة العاطفة وفي المدني بالهدوء والاسترسال.

وفي المبحـــث الـــثاني عرض الفصل لنماذج من المقابلة في خطاب اليهود تدحض كذبهم، أو تحذرهم أو تبين جوانب من أخلاقهم.

كمـــا عـــرض لـــنماذج منها في خطاب المنافقين تفضح نفاقهم، وزيف عقيدتهم وتخاذلهم في الجهاد، كما تصور الفرق بينهم وبين المؤمنين.

وفي المبحـــث الثالث تناول الفصل المقابلة في آيات التشريع من عبادات ومعاملات فـــأورد نمـــاذج منها في تشريع الصلاة والحج وبناء الأسرة، وتحريم الخمر والربا وحد القذف والقصاص، ونماذج للمقابلة في أصول العلاقات بين المسلمين وغيرهم.

وفي المبحـــث الرابع عرض البحث للمقابلة في مواقف الجهاد كالحث على الجهاد والترغيب فيه، وتبكيت المتثاقلين والقاعدين ومنازل الشهداء، ومعاهدات الصلح.

وفي المبحث الخامس عرض لها في الآداب الاجتماعية وقواعد السلوك، كآداب الزيارة والمجالس، ومحاربة الشائعات وآداب الصدقة، ورعاية اليتامى.

وفي كل هذه المواقف يعرض البحث للآية أو للآيات - موضوع المقابلة - بالتحليل فيبين موطن المقابلة فيها، ويظهر الأثر البلاغي والهدف الديني من إيثار القرآن الكريم التعبير بأسلوب المقابلة في هذا الموقف بحيث لا يغني غيره عنه.

أما الفصل الثالث فقد عالج المقابلة في القصص القرآني والأمثال القرآنية وعند حديثه عن المقابلة في القصص القرآني. بين السبب في اعتماد القرآن الكريم على القصة كطريقة من طرق التعبير، والسبب في عرضها بأسلوب المقابلة وهو تصوير الصراع بين الخير والشر، وبين دعوة الإيمان ودعوة الكفر وذلك بالتطبيق على نماذج من قصص قابيل وهابيل، وبعض الأنبياء كنوح وإبراهيم ويوسف عليهم السلام، وأصحاب الكهف والقصص التعليمي وفي الحديث عن المقابلة في الأمثال القرآنية، عرض لنماذج منها في طائفة من الأمثال، كالمقابلة في مثل الشرك والتوحيد، ومثل نور الإيمان وظلمات الكفر، ومثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة.

وأكد البحث في ختام هذا الفصل على أن المقابلة في القصص القرآني إنما تأتي لهدف ديني هو العبرة والعظة، ولغرض فني هو غالبا - إظهار الصراع وإذكاؤه.

كما تأتي في الأمثال القرآنية لتؤدى دورا هاما هو إظهار التناقض بين النماذج موضع المثل لكي يختار الإنسان العاقل النموذج الطيب الصالح ويطرح غيره.

أما الفصل الرابع والأخير في هذا البحث، فقد خصص للحديث عن الجديد والطريف في المقابلات القرآنية تحت عنوان (مقابلات متميزة في القرآن الكريم) عرضت فيه لنماذج اختص بها القرآن الكريم وجاءت مخالفة في الشكل والمضمون للمعهود عند البلاغيين، وهي نماذج لم يسبق أن عرضها أحد من الباحثين، فيما أظن. وذلك كالمقابلة بين مطلع سورتي النساء والحج، حيث تحدث مطلع الأولى عن بدء الخلق، وتحدث مطلع الثانية عن نهايته.

والمقابلة بين ما ورد في سورة الأنفال من ذكر للعهود وما ورد في سورة التوبة من نبذ لها. والمقابلة بين مطلع سورة (المؤمنون) وختامها، وبين مطلع سورة (يوسف) وختامها إلى غير ذلك من المقابلات الجديدة والطريفة.

ثم ألحقـــت بهذا الفصل مبحثا عن أهم خصائص المقابلة القرآنية والملامح التي تميزها عـــن غيرهـــا، لكي يستبين الفرق بين تصور البلاغيين للمقابلة وبين واقعها في القرآن الكريم.

وأما الخاتمة : فقد أجملت فيها ما في البحث من أفكار، وما توصل إليه من نتائج .

وبعد .. فها هو البحث بين يدي القارئ لمناقشته والحكم عليه فإن أكن أصبت فما توفـــيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وإن تكن الأخرى، فحسبي متعةُ القرب من روح القرآن الكريم ومعايشته طوال رحلة البحث والحمد لله أولا وآخرا.

كمال عبد العزيز إبراهيم

بندر سري بَجَاوَان — بروناي دار السلام

تمهيد

لا يستطيع الباحث في لون من ألوان البديع أن يتناوله منعزلا عن بقية الألوان البديعية الأخرى، وبخاصة تلك التي تدور في فلكه أو تتصل به من قريب.

ولقد كثرت أنواع البديع عند المتأخرين من علماء البلاغة، وتداخلت فروعه بدرجة كبيرة، مع أنه بالإمكان ضم المتشابه منها ووضعه تحت مبحث واحد : وعلى سبيل المثال فإن صور المقابلة والمطابقة والتقسيم وإيهام التضاد والعكس والتبديل بينها جميعا نسب ورحم، ويمكن إطلاق تسمية تنطبق عليها كلها نظرا لما بينها من صلة العموم أو الخصوص.

والباحث في المقابلة يجد نفسه - من حيث لا يدري - يتعرض للطباق ولكل لون بديعي قائم على التضاد أو المناظرة.

ومن هنا، فإنني أرى أن أعرض للطباق قبل المقابلة، حتى نتبين مقدار ما بينهما من صلة:

كان الخليل بن أحمد الفراهيدي[1] (١٠٠ - ١٧٠م) أول من تحدث عن المطابقة، وقد نقل عنه كل من ابن المعتز في البديع، وابن رشيق في العمدة ما قاله في المطابقة وهو أنها من (طابقت بين الشيئين إذا جمعت بينهما على حذو واحد وألصقتهما)[2].

وهو تعريف لا يخرج عن الإطار اللغوي لكلمة المطابقة، وهذا في رأيي ينسجم مع طبيعة معجم العين الذي وضعه الخليل بن أحمد.

ولكن سيبويه (ت ١٨٠هـ) يمر على قول الخنساء :

---

(١) انظر الأعلام للزركلي : ٢ / ٣١٤، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠

(٢) انظر البديع لابن المعتز ٦٦١، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، وهو ملحق بكتابه ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، ١٩٤٥م.

وانظر أيضا : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني : ٢ / ٦ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٤، دار الجيل، بيروت : ١٩٧٢م.

تَرتَعُ ما رَتَعَت حَتّى إِذا ادَّكَرَت   فَإِنَّما هِيَ إِقبالٌ وَإِدبارُ

فيشـــير إلى ما فيه من المجاز في الإقبال والإدبار[1]، ولكنه لا يلتفت إلى ما في البيت من طباق بين (نسيتْ) و (ادكرتْ) وبين (إقبال) و (إدبار).

وأنـــا أوافق الدكتور حفني شرف حين يلتمس له العذر في ذلك.[2] فسيبويه نحوي بالدرجة الأولى، فإذا تكلم عن أشياء تتعلق بأسرار التراكيب، وأوجه الدقة في استعمال الألفـــاظ، فإنما يأتي ذلك في سياق حديثه عن بعض قواعد الإعراب. فهو هنا يستشهد بجواز الإخبار عن اسم العين بالمصدر، كقولك : نهارك صائم، وليلك قائم.[3]

ويتعرض الأصمعي[4] (١٢٢ - ٢١٦هـــ) لمعنى المطابقة وأصل الكلمة، فينتقل بها خطوة من المعنى اللغوي إلى المعنى البلاغي حين يقول: (أصلها وضع الرجل في موضع اليد في مشي ذوات الأربع، وينشد لنابغة بني جعدة :

وَخَيلٍ يُطابِقنَ بِالدّارِعينَ   طِباقَ الكِلابِ يَطَأنَ الهَراسا

كما يستحسن الطباق بين الصدق والكذب في بيت زهير :

لَيثٌ بِعَثَّرَ يَصطادُ الرِجالَ إِذا   ما كَذَّبَ اللَيثُ عَن أَقرانِهِ صَدَقا[5]

ويمكن أن نستنتج من كلام الأصمعي، ومن استحسانه لبيت زهير أن المطابقة عنده تعني الجمع بين الشيء وضده في الكلام.

أما معاجم اللغة المتداولة بين أيدينا، فيفهم من التحليل اللغوي فيها لمادة الطباق أنها تعني : الموافقة والمساواة في المقدار.

فهـــذا الراغب الأصفهاني[6] (ت ٥٠٢هـــ) في كتابه (المفردات في غريب القرآن) يستشهد بآيات من كتاب الله تعالى يفهم منها هذا المعنى، مثل قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾[7]

---

(١) انظر الكتاب (كتاب سيبويه) أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر : ١ / ٣٣٧ تحقيق : عبد السلام هارون، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٧٧.

(٢) انظر الصور البديعية بين النظرية والتطبيق، للدكتور : حفني شرف ١ / ١١٠، ط ١، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٦٦.

(٣) كتاب سيبويه : ١ / ٣٣٧.

(٤) انظر ترجمة عنه في الأعلام : ٤ / ١٦٢، ط ٥، بيروت، ١٩٨٠.

(٥) انظر العمدة : ٢ / ٦.

(٦) انظر ترجمة عنه في الأعلام : ٢ / ٢٥٥.

(٥) الملك : ٣

أي بعضها فوق بعض كما يستشهد بقول الشاعر :

إِذَا لاذَ والظِّلُّ القَصِيرُ بِخُفِّهِ   وَكَانَ طِباقَ الخُفِّ أَوْ قَلَّ زَائِدَا

ومن ذلك قولك: جواب يطابق السؤال.(١)

وعلى درب الموافقة والمساواة في المقدار سار ابن منظور(٢) (ت ٧١١هـ) في (لسان العرب)، فهو يذكر أن (المطابقة: الموافقة) وأن (التطابق: الاتفاق) يقال: طابقت بين الشيئين إذا جعلتهما على حذو واحد وألصقتهما وتطابق الشيئان: تساويا.

وهو يتصسر لهذا الرأي بما يورده من كتاب على رضوان الله عليه إلى عمرو بن العاص " كما وافق شَنٌّ طَبَقَةً " محللا هذا القول بأنه مثل للعرب يضرب لكل اثنين أو أمرين جمعتهما حالة واحدة اتصف بها كل منهما، وأصله أن (شنا) و (طبقة) : حيان من أحياء العرب، اتفقا على أمر، فقيل ذلك.

وقيل إن (شنا) رجل من دهاة العرب، و (طبقة) امرأة من جنسه، زوجت منه.

كما إن المطابقة عند ابن منظور تعني – أيضا – (وضع الفرس رجله في موضع يده)، وهو يستشهد على ذلك بقول النابغة الجعدي السابق :

وَخَيلٍ يُطابِقنَ بالدّارِعينَ   طِباقَ الكلابِ يَطَأْنَ الهَراسا(٣)

ولا يبتعد (المعجم الوسيط) كثيرا عن معنى الموافقة حين تحدث عن الطباق من الناحية اللغوية، فـ (أطبق القوم على كذا : اجتمعوا عليه متوافقين وأطبقت عليه الحمى: استمرت به الليل والنهار، وقد قالوا: أطبق الرحى: وضع الطبق الأعلى على الأسفل، وأطبق فمه : ضم شفة إلى شفة وأغلقه، وأطبق الصحيفة، أو طرف الصحيفة: ضمهما وسواهما، وطابق الفرس في مشيه أو جريه مطابقة وطباقا : وضع رجليه موضع يديه.(٤)

والذي يظهر مما سبق أن المعنى اللغوي للطباق غير المعنى الاصطلاحي البلاغي الذي يكاد يجمع عليه البلاغيون، فهو عندهم: (الجمع بين الضدين).

---

(١) انظر مادة (طبق) في (المفردات في غريب القرآن) للراغب الأصفهاني تحقيق وضبط : محمد سيد كيلاني، ط : دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

(٢) انظر ترجمة عنه في الأعلام : ٧ / ١٠٨.

(٣) انظر مادة (طبق) في (لسان العرب) لابن منظور، تحقيق مجموعة من أساتذة دار المعارف، ط : دار المعارف، مصر.

(٤) انظر المعجم الوسيط مادة (طبق): ٢/ ٥٥٠، ط ٢، مجمع اللغة العربية، دار المعارف، ١٩٧٣.

ولذلك يذهب بعض الأدباء كابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) إلى أن تسمية هذا الضرب من الكلام مطابقا (من جانب أرباب هذه الصناعة). إنما كان لغير اشتقاق ولا مناسبة بينه وبين مسماه.[1]

ويفهم من كلامه التعجب من عدم انسجام الاشتقاق اللغوي للكلمة مع ما أجمع عليه البلاغيون تقريبا من أن الطباق هو (الجمع بين الضدين).

ونحن نتعجب معه ونتسائل: كيف يمكن أن ينصرف معنى الموافقة إلى التضاد؟ وكيف ينتقل الشيء إلى نقيضه؟ وقد حاول ابن رشيق القيرواني (٣٩٠ - ٤٥٦هـ) في (العمدة) أن يجيب على هذا التساؤل بأن البلاغيين ربما اعتمدوا على ما ذكره الأصمعي من أن المطابقة في الشعر أصلها من وضع الرجل في موضع اليد في مشي ذوات الأربع، منشدا بيت النابغة الجعدي السابق (وخيل يطابقن ..) حيث شبه الجعدي مشي الخيل بوطء الكلاب الهراس، وهو حطام الشوك فهي لا تضع أرجلها إلا حيث رفعت منه أيديها طلبا للسلامة، وذلك على اعتبار أن الرجل غير اليد أو عكسها.[2]

على أن ابن أبي الأصبع المصري[3] (٥٩٥ - ٦٥٤هـ) في كتابه (تحرير التحبير) لا يتركنا في هذه الحيرة، بل يأخذ بيدنا في تؤدة ورفق إلى تعليل لطيف لانتقال المعنى اللغوي وهو (الموافقة) إلى المعنى البلاغي وهو (التضاد) في المثال السابق، وهو أن البلاغيين رأوا أن البعير قد جمع بين الرجل واليد في موطئ واحد، والرجل واليد ضدان أو في معنى الضدين، فكذلك إذا جمع المتكلم بين الضدين، حسن أن يسمى كلامه مطابقا.[4]

---

(١) انظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير (ضياء الدين) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد : ٢ / ٢٧٩، ط ١، الحلبي، مصر، ١٩٣٩.

(٢) العمدة لابن رشيق : ٢ / ٦، ٧

(٣) انظر ترجمة عنه في : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي المتوفى ١٠٨٩هـ، مجلد ٥: ٦ / ٢٦٥، ط دار الآفاق الجديدة، بيروت – والأعلام : ٤ / ٣٠.

(٤) انظر (تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الأصبع : ١١١، تحقيق المرحوم الدكتور : حفني شرف ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٣٨٣.

ولا يستبعد ابن قيم الجَوْزِيّة[1] (ت ٧٥١هـ) أن يكون البلاغيون قد (سموا هذا الضرب من الكلام مطابقة تسمية مرتجلة، لا اشتقاق لها ولا مناسبة). وهذا هو الظاهر من الأمر في رأيه، لكنه لا يستبعد أيضا أن يكونوا قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم يطلع عليها غيرهم.[2]

ولست أوافق ابن القيم على أي من الاحتمالين، فالعرب لا تطلق الكلام هكذا على عواهنه، دون بصر بمراميه، وإدراك لأسراره، ولا تسمي الأشياء بأسماء مرتجلة لا اشتقاق لها، لأن اللغة العربية من أغنى لغات العالم اشتقاقا، وأغزرها تنوعا.

أما الاحتمال الثاني، وهو أن البلاغيين ربما علموا لذلك مناسبة لطيفة لم يطلع عليها غيرهم: فهو احتمال غير وارد بالمرة، لأن البلاغيين والنقاد، وسائر العلماء، لم يكتموا عنا علما تعلموه ولم يخفوا عنا سرا من الأسرار فقهوه.

كيف ؟ وكتبهم مليئة بالكنوز والنفائس التي كانوا يتبارون في إشاعتها بين الناس، ويتفننون في تسجيلها وتوثيقها، وتناقلها جيلا بعد جيل.

ولكني في النهاية، أميل إلى محاولة ابن رشيق : التوفيق بين المعنى اللغوي وهو (الموافقة) والمعنى الاصطلاحي وهو (التضاد)، والذي يستنصر فيه برأي الرماني[3] في المطابقة، حين عرفها بأنها: (مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان)[4].

فهذا القول مشتمل على المعنيين جميعا، فعندما يجعل الطبق فوق الإناء يكون مساويا له في السعة، ولكنه مخالف له في النوع، وعلى هذا يفسر قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾[5]

---

(١) هو الإمام العالم شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي المعروف بابن القيم إمام الجوزية ت ٧٥١هـ : شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي : ٦ / ١٦٨، دار الآفاق الجديدة – بيروت.

(٢) انظر كتاب (الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان) لابن القيم : ١٤٦، ط : مكتبة المتنبي – القاهرة، وقد صحح الدكتور زكريا سعيد نسبة هذا الكتاب واسمه فنسبه إلى ابن النقيب وطبعه في مكتبة الخانجي بمصر تحت عنوان (مقدمة تفسير ابن النقيب).

(٣) الرماني (أبوالحسن علي بن عيسى) (٢٩٦ – ٣٨٤هـ)، نحوي متكلم، وأحد أئمة المعتزلة المشهورين صاحب رسالة (النكت في إعجاز القرآن) محققة ضمن كتاب : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للخطابي والرماني والجرجاني، تحقيق محمد خلف الله، والدكتور : محمد زغلول سلام. وانظر ترجمة عن الرماني في الأعلام : ٤ / ٣١٧، ووفيات الأعيان ، ٣/ ٢٩٩.

(٤) العمدة : ٢ / ٦.

(٥) الملك : ٣

أي بعضها فوق بعض، مطبقة بالتساوي، وإن كانت كل سماء تختلف عن غيرها.

وأود أن أضيف إلى ما قاله الأصمعي في بيت النابغة الجعدي السابق : أن الخيل تطابق رجلاها يديها وهي مسرعة بالفرسان المدرعين، فتضع رجليها مكان يديها بالضبط والتساوي، كما تفعل الكلاب، وهي تطأ حطام الشوك طلبا للسلامة، ووضع الرجلين موضع اليدين بالتساوي هو الموافقة، لكن التضاد وارد في نفس الوقت، لأن الرجلين عكس اليدين أو غيرهما.

ويؤكد ذلك ما ورد في كتاب الأضداد لابن الأنباري أن بعض أهل اللغة يذكرون أن الضد يقع على معنيين متضادين، ومجراه مجرى (الند)[1] يقال فلان ضدي أي خلافي، وهو ضدي أي مثلي.[2]

فإذا انتقلنا بعد ذلك للبحث في معنى المقابلة في اللغة، وجدنا بينها وبين الطباق صلة كبيرة.

لقد رأينا الطباق ينصرف إلى التضاد، كما ينصرف أيضا إلى التوافق.

وكذلك المقابلة في اللغة : يظهر فيها جانب التضاد، كما يظهر فيها أيضا جانب التوافق والائتلاف.

ففي جانب الائتلاف والاتفاق والتناظر، نرى الراغب الأصفهاني في (المفردات في غريب القرآن) يؤكد هذا المعنى بما يستشهد به من آيات القرآن الكريم.

فالمقابلة والتقابل : أن يقبل بعضهم على بعض إما بالذات وإما بالعناية والتوفر والمودة، قال تعالى:

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾[3] و ﴿ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾[4]،

---

(١) فقد ذكر في موضع آخر أن الند يقع على معنيين متضادين يقال : فلان ند فلان إذا كان ضده، وفلان نده إذا كان مثله، ص ١٩.

(٢) انظر : الأضداد في اللغة، محمد بن القاسم ابن بشار الأنباري النحوي : المطبعة الحسينية، القاهرة.

(٣)الواقعة : ١٦.

(٤) الحجر : ٤٧.

ويفهـــم معنى التوافق هنا من كون أهل الجنة المتقابلين على السرر أو الأرائك لا بد أن يكونــوا متســـاوين في الدرجة والمنزلة وصالح الأعمال، وإلا لما اجتمعوا في مكان واحد.

وفي جانـــب المضادة والمواجهة، يستدل الراغب على دلالة المقابلة على ذلك بقوله (يقال : لا قِبَلَ لي بكذا، ويقول تعالى ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾[1] أي لا طاقة لهم على استقبالها ودفاعها).

ويـــتأكد معنى المواجهة والمضادة من تقليب الفيروزابادي[2] (٧٢٩ - ٨١٧ هـــ) لمادة (قبل) على وجوهها المتعددة في القاموس المحيط، فعنده أن (قبل) نقيض (بعد)، و (قُبالـــته) بالضـــم: (تجاهه)، و (القَبَل) محركة: نشز من الأرض يستقبلك، و (قابله): (واجهه) و (قابل الكتاب): (عارضه)، و (تقابلا): (تواجها).[3]

ويفهـــم من ذلك أن المقابلة لغويا تعني : المواجهة بين شيئين، فالقَبْل يواجه البعد، ومقابلـــة الكتاب بغيره تعني : المواجهة بينهما والبيوت المتقابلة : أي التي يواجه بعضها بعضا.

وممـــا يحمـــد لابن منظور في (لسان العرب) أنه يتوسع في التمثيل للمقابلة بمعنى المواجهـــة، لتشمل المقابلة في الألفاظ والأشخاص وفي المواقف، بل وفي جميع الحالات المادية والمعنوية.

وهـــذا التوســـع اللغـــوي من ابن منظور له أهمية كبرى في بحث المقابلة في القرآن الكريم، فإنها - على ما سنرى - تتسع لتشمل ما ذكر ابن منظور وأكثر.

وقـــد مثل ابن منظور للمقابلة بين الأشخاص بقوله : تقابل القوم : استقبل بعضهم بعضا، ويفسر قول الله تعالى في وصف أهل الجنة ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾[4]، أي لا يـــنظر بعضـــهم في أقفاء بعض ويمثل للمقابلة بين الإنسان والجماد بقوله : أقبَلَه الشيء: قابله به، وأَقْبَلْتُه الشيءَ: أي جعلته يلي قُبَالَتَهُ، ويقال : أقبلْنا الرماح نحو القوم.

---

(١) النمل : ٣٧.

(٢) انظر ترجمة عنه في الأعلام : ٧ / ١٤٦.

(٣) القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيزاوي، ط ٢، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة - ١٣٤٤هـــ.

(٤) الحجر : ٤٧

كمـــا يقابل الكلمة بالكلمة، مستشهدا بقول اللحياني : هذه كلمة قبال كلمتك، كقولك حيال كلمتك. ويقابل بين الأشياء : فيقول أخذت الأمر بقوابله : أي بأوائله وحدثانه.

والمقابلة : المواجهة، والتقابل مثله، وهو قبالك وقبالتك أي تجاهك.

ويستشـــهد بالشعر على أن الرجل الكريم الطرفين من قبل أبيه وأمه يسمى (رجل مقابَل ومدابر). فهذا شاعر يفتخر بكرم نسبه فيقول :

إنْ كُنْتَ في بَكْرٍ تمت خُئُولَةً   فَأنَا المقابَل في ذَوِي الأعْمَامِ

ويقال : هذا جاري مقابلي ومدابري، وأنشد :

حمتك نفسي مع جاراتي   مُقابلاتي ومُدابراتي

ولا نجـــد في المعجم الوسيط اختلافا كبيرا عما سبق في معنى المقابلة، فقابله : لقيه بوجهه، والقبال : أن يَتقابل صدرا القدمين ويتباعد عقباهما، ورأيته قبلا : أي عيانا.

ونستخلص مما سبق في معنى الطباق والمقابلة في اللغة : أنهما يشتركان في التضاد والمواجهة و المقابلة.

كمـــا أن معنى المساواة في الطباق، لا يبعد كثيرا عن مراعاة النظير والتماثل بين الشيئين المتقابلين في المقابلة.

ومـــن هـــنا يمكن القول بأن المصطلحين يدوران في فلك واحد وأنه لا مانع من الجمع بينهما في مبحث واحد، وإطلاق اسم المقابلة عليهما معا لأن في هذا الجمع ما يحفظ لبعض الألوان البديعية وحدتها ويحميها من الشتات، ويصونها من التمزق الذي أصابها ضمن ما أصاب البلاغة العربية عموما.

ولديـــنا من الأسباب – التي نظنها مقنعة – ما يحفزنا إلى هذا الجمع بين الطباق والمقابلة، ويجعلنا ندرسهما في إطار واحد، بل ونُضيفُ إليهما – أيضا – ما يدور في فلكهما كالعكس والتبديل وإيهام التضاد والتقسيم.[1] ومن هذه الأسباب :

---

(١) العكس والتبديل: أن يقدم في الكلام جزء ثم يؤخر مثل قوله تعالى: ﴿ **يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميِّتِ ويخرجُ الميتَ مِن الحيِّ** ﴾ وإيهام التضاد : مما يلحق بالطباق كقول دعبل :

لا تَعْجَبي يا سلمُ مِنْ رجُلٍ   ضَحِكَ المشيبُ برأسه فَبَكَى

لأن الضحك هنا كناية عن كثرة الشيب، ولكنه من جهة اللفظ يوهم المطابقة.

والتقسيم : ذكر متعدد ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين وهو أنواع كثيرة، ومثاله قوله تعالى: ﴿ **فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ .. فأما الذين شقوا..** ﴾ الخ الآيات) انظر الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني من (١٩٥ – ٢٠٥)، ط : محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٧١.

(١) أنه لا يمكن الفصل بين علوم البلاغة من معان وبيان وبديع فصلا حازما، فعلم المعاني يهتم كما يقول المتأخرون (بصحة المعنى، ويحترز به عن الوقوع في الخطأ[١]) ومن ثم فهو معنى بالإسناد وأحواله وبمتعلقات الفعل وبالفصل والوصل... إلى آخر الأبواب التي تسهم معرفتها في الأداء الصحيح للمعنى.

وعلم البيان (يهتم بإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز[٢]). وهي الطرق التي يلجأ إليها الأديب لإبراز المعنى في صورة مجسمة محسوسة.

وعلم البديع (يهتم بوجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال[٣]).

أقول: إذا كانت تلك هي اهتمامات علوم البلاغة، بهذا التقسيم المفتعل، فإن الثلاثة – في مجموعها – تكون الأسلوب الذي هو طريقة الأديب في التعبير عن نفسه في تناوله لموضوع ما أو قضية من القضايا، ولا بد أن يعبر الأديب عن المعنى الذي يدور في ذهنه بعبارة موحية عما يشعر به، مصورة لأحاسيسه، وبألفاظ مُشعّة بما استَكَنَّ في أعماقه، بحيث تخرج العبارة في النهاية غير قابلة للتجزئة إلى معنى وصورة ولفظ بل تبدو متماسكة حية ونابضة يتعاون في حياتها الشكل والجوهر.

ومن هنا، فإن البلاغة الحديثة تطرح هذا التقسيم القديم جانبا، وتدرس ما يسمى بعلم الأسلوب بما يشتمل عليه من عناصر تتضافر جميعها في عملية التأثير في نفس الملتقى عن طريق ما أحس به الأديب نقلا صادقا وأمينا.[٤]

(٢) أن علم البديع نفسه قد تشعبت فروعه، وتعددت ألوانه لدرجة تدعو إلى العجب، حتى أن ابن أبي الأصبع أوصل عدد المحسنات إلى مائة واثنين وعشرين محسنا.[٥]

---

(١) الإيضاح للقزويني ٩.

(٢) نفسه : ١٢٠.

(٣) نفسه : ٩.

(٤) انظر الأسلوب : دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية : الفصل الخامس ص ٣٦، الأستاذ أحمد الشايب، ط ٦، النهضة المصرية، ١٩٦٦.

(٥) انظر: (بديع القرآن) لابن أبي الأصبع: ٨٧، تحقيق: د. حفني شرف، ط ٢، دار نهضة مصر، ١٧٥٧.

ويكفـي دليلا على هذا التمزق والتشتت أن ابن أبي الأصبع يباهي بأنه استطاع أن يجمـع في بيت واحد من تأليفه ستة عشر ضربا من البديع، وهو البيت الذي يمدح به الملك الأشرف موسى الأيوبي، ويقول فيه :

فَضَحْتَ الحَيَا والبحرَ جودًا فَقَدْ بَكَى الـ ـحَيَا مِنْ حَيَاءٍ مِنْكَ والتَطَمَ البحرُ

فهو يعلق على هذا البيت قائلا : وقع لي فيه ستة عشر ضرباً من البديع :

ففيه الاستعارة في ثلاثة مواضع :

١- افتضاح الحيا ٢- وبكائه ٣- وحيائه

٤- والمبالغة : إذ جعلت الممدوح يفضح الحيا والبحر بجوده.

٥- والتفسير : في قوله (جودا) و (حيا).

٦- والاغراق : لما في جملة القوافي من زيادة.

٧- والترشيح : بذكر الاستعارة الأولى للاستعارة الثانية.

٨- والتجنيس : بين الحيا والحياء.

٩- والتورية : في قوله (التطم البحر).

١٠ - والترشيح للتورية : بذكر البكاء.

١١- وصـحة التقسيم : في حصر القسمين اللذين يضرب بهما المثل في الجود ولا ثالث لهما.

١٢- والتصدير : في كون البحر مذكورا في صدر البيت وهو في قافيته.

١٣- والتعليل : في كون العلة في بكاء الحيا والتطام البحر وفضحهما بجوده.

١٤- والتسهيم : في كون صدر البيت يدل على عجزه.

١٥ - وحسن النسق : في كون جمله عطفت على بعضها بأصح ترتيب.

١٦- والإرداف : في التعبير عن عظم الجود ببكاء الحيا من الحياء والتطام البحر[١]

ولعمري : لئن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على مقدار التكلف والتصنع لا غير.

(٣) وثالـثا وهـو الأهـم : ما وجدته من خلط بعض علماء البلاغة بين الطباق والمقابلـة والتجنيس والعكس والتبديل، ومن إدخال بعضهم كل هذه الألوان تارة في الطباق، وأخرى في المقابلة.

(١) انظر : ابن أبي الأصبع المصري بين علماء البلاغة / ٣٢، دكتور : حفني شرف، ط ١، مكتبة نهضة مصر.

فهذا قدامة بن جعفر[1] (٢٦٥ - ٣٣٧هـ) في كتابه (نقد الشعر[2]) يضم المطابق إلى المجانس باعتبارهما داخلين في باب ائتلاف اللفظ والمعنى، ولا يفرق بينهما إلا أن الأول: معنيان اشتركا في لفظة واحدة بعينها مثل قول زياد الاعجم :

وَنُبِّئْتُهُم يستنصرون بكاهلٍ وللُّؤْمِ فيهم كاهلٌ وسنام

والثاني : معان اشتركت في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق مثل قول حيان بن ربيعة الطائي :

لَقَد عَلِمَ القَبائِلُ أنَّ قومي لَهم حَدٌّ إذا لُبِسَ الحَديدُ

ولسنا نرى فيما استشهد به قدامة سوى جناس تام في البيت الأول بين (كاهل وكاهل) وجناس ناقص في البيت الثاني بين (حد وحديد).

وفي الوقت نفسه نرى قدامة يعرف التكافؤ تعريفا ينطبق على الطباق عند غيره من العلماء، ويستشهد له بأمثلة يستشهد بها غيره للطباق.

فالتكافؤ عنده (الجمع بين معنيين متكافئين أي متفاوتين إما من جهة المضادة أوالسلب والإيجاب أو غيرهما من أقسام التقابل[3]).

وما سماه قدامة (التكافؤ) اعتبره ابن أبي الأصبع ضربا من الطباق يحمل نفس الاسم وهو (ما أتى بألفاظ المجاز[4]).

واشترك الاثنان في التمثيل لذلك بقول أبي الشغب العبسي :

حُلوُ الشَمائِلِ وهو مُرٌّ باسلٌ يَحْمِي الذِّمَارَ صَبِيحَةَ الإرْهَاقِ

وذهب كل منهما مذهبه في تفسير موطن الشاهد وهو (حلو ومر).

وهـذا ابن سنان الخفاجي (٤٢٢ - ٤٦٦هـ) في (سر الفصاحة) يطلق لفظ المطابق على المقابلة، وعلى العكس والتبديل، وكل ما فيه تقابل أو تضاد.[5]

---

(١) انظر الأعلام : ٥ / ١٩١.

(٢) انظر نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر: (١٦٢ - ١٦٣)، تحقيق كمال مصطفى، ط ٣، الخانجي، مصر، ١٩٧٨.

(٣) نقد الشعر : ١٤٣.

(٤) انظر تحرير التحبير : ١١١.

(٥) انظر: سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي: ١٩٣ شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، ط صبيح، ١٩٦٩.

وعلى العكس من ذلك يرى ابن الأثير أن (الاليق من حيث المعنى إطلاق اسم المقابلة على المطابقة[1]).

بينما يمزج ابن وهب[2] وابن رشيق[3] المقابلة بالتقسيم والطباق.

من هذا وغيره، مما سنراه بالتفصيل بعد ذلك - يحق لنا أن نمزج بين هذه الألوان، ونفسح لها المجال في هذه الدراسة، حتى نخرج في النهاية بمفهوم موحد يجمع بين هذه الألوان - قدر الإمكان، دون تعسف - لعل هذا المفهوم يستوعب ظاهرة التقابل أو المقابلة في القرآن الكريم.

---

(١) انظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير (ضياء الدين) : ٢ / ٢٨٠.

(٢) انظر : البرهان في وجوه البيان لابن وهب: ١٣٩، تحقيق الدكتور: حفني شرف، ط: مكتبة الشباب بالقاهرة، وقد نسب هذا الكتاب حينا من الدهر - على سبيل الخطأ - إلى قدامة باسم: نقد النثر.

(٣) انظر (العمدة في محاسن الشعر ونقده) لابن رشيق القيرواني: ٢ / ١٥، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٤، دار الجيل، بيروت - ١٩٧٢.

الباب الأول

مفهوم المقابلة

الفصل الأول

المقابلة عند النقاد والبلاغيين

ســـوف أحاول في هذا الفصل توضيح رأى النقاد والبلاغيين في المقابلة، لنقف على مـــدى الـــتطور الذي لحق هذا اللون البديعي، ولنتعرف على نظرهم إليها : هل هي عندهم عنصر أساسي وهام في البنّية الفنية للعبارة؟ أم عرض يجلب لمزينة الشكلية فقط؟

وســـوف أحـــاول - قدر الإمكان - الالتزام بالترتيب التاريخي، تمشيا مع المنهج العلمي المطلوب لمثل هذه الدراسة.

١- الجاحظ[١] (ت ٢٥٥ هـ)

إن الناظر في كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ أو في (رسائل الجاحظ) لا يكاد يعثر على تعريف - يشفى الغلة لمعنى المطابقة أو المقابلة.

فهو إذ يتحدث عن (التطبيق) فإنما يعني به (إصابة الكلام الغرض المسوق له[٢]).

وواضـــح أن التطبيق بهذا المعنى، إنما ينسجم مع معنى البيان والتبيين ومعنى الفصاحة والبلاغة، وهي الأمور التي انصب عنيها اهتمام الجاحظ فيما يبدو.

والتطبـــيق بمعنى إصابة الكلام الغرض المسوق له غاية لا وسيلة، فهو بهذا لا ينطبق على ما عرف في علم البديع بالجمع بين الضدين.

٢- ثعلب[٣] (٢٠٠ - ٢١١ هـ)

فـــإذا انتقلـــنا إلى عصر التأليف البلاغي في البديع، وجدنا الرائد في هذا المجال هو (ثعلـــب) صـــاحب كتاب قواعد الشعر (الذي يعتبر أول محاولة مستقلة لدراسة بيان

---

(١) الأعلام : ٥ / ٧٤

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (أبي عثمان عمرو بن بحر): ١ / ٨٧ تحقيق الأستاذ: عبد السلام هارون، ط ٤، الخانجي، مصر - ١٩٧٥

(٣) (ثعلب) هو: أحمد بن يحيى الشيباني أبو العباس - ٢٠٠ - ٢١١ هـ. ومن مؤلفاته المجالس، ومعاني القرآن، وقواعد الشعر، انظر الأعلام : ١ / ٢٦٧

الشعر وصلت إلينا بعد أن ظل الناس يعتقدون أن كتاب " البديع " لابن المعتز يحوز هذا الفضل وحده)[1] فعلى الرغم مما ذكره ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) في (البديع) من قوله: (ما جمع فنون البديع غيري، ولا سبقني إليها أحد[2]) فإنه يبدو أن " ثعلبا " سابق له بتأليفه كتاب (قواعد الشعر) هذا الكتاب الذي تناول فيه قواعد الشعر وأغراضه، وبعض الألوان البلاغية الأخرى كالإفراط في الإغراق، ولطافة المعنى، والاستعارة، وحسن الخروج وجزالة اللفظ، واتساق اللفظ.

وعندما تحدث عن (المطابق[3]) عرفه بأنه تكرير اللفظ بمعنيين مختلفين، مثل قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾[4].

وقول حسان :

إنَّ الَّتي نَاوَلْتَني فَرَدَدْتُها ... قُتِلَتْ قُتِلْتَ فَهاتِها لم تُقْتَلِ

ونحن نرى أن هذا التعريف وتلك الشواهد لا تنطبق على (الطباق) بمعنى (المساواة أو التضاد) بل تنطبق على ما عرف عند البلاغيين بالجناس.

لكن (ثعلبا) وهو يتحدث عن (مجاورة الأضداد[5]) في الشعر عرفها ومثل لها بما يتفق وما عرف عند البلاغيين بالطباق، فهي عنده (ذكر الشيء مع ما يعدم وجوده) كقوله تعالى: ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾[6] وكقول الشاعر : حُمَيْد بن ثَور يصف ذئبا :

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي الـ ... ـعدو بأخرى فَهُوَ يقْظانُ هاجعُ

فإن الطباق ظاهر بين الموت والحياة في الآية وبين يقظان وهاجع في البيت.

---

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، د. محمد زغلول سلام : ٢٠، ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٩٦١

(٢) انظر: البديع لابن المعتز: ٢١٠ ملحق بكتاب: (ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان) تأليف: محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٤٥

(٣) قواعد الشعر، لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب: ٦٤، تحقيق الدكتور: رمضان عبد التواب، ط ١، دار المعرفة، القاهرة ، ١٩٦٦

(٤) الحج : ٢

(٥) قواعد الشعر : ٦٢

(٦) طه : ٧٤

وبذلك تكون المطابقة هي مجاورة الأضداد عند ثعلب، ويكون الطباق عنده هو الجناس عند البلاغيين.

وهذا يوحي بتداخل المصطلحات وعدم تحديدها عنده، وهو شيء طبيعي في بداية التأليف. ولم يتحدث ثعلب عن المقابلة بقليل أو كثير.

٣- ابن المعتز[1] (ت ٢٩٦هـ)

لكن ابن المعتز - وإن سبق بثعلب - لم يتناول هذا الفن من الوجهة النظرية البحتة التي تتسم غالبا بالجفاف، وإنما استخدمه كثيرا في شعره، ولا غرو فهو الأمير الشاعر.

وبالإضافة إلى ذلك، وجدناه ينظر للبديع في كتابه المسمى (البديع) وقد ألفه كما يقول: (ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم، لم يَسْبِقُوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر في أشعارهم، فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم. وإنما غرضه من هذا الكتاب: تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع[2]).

وقد عد ابن معتز (المطابقة) ضمن فنون البديع الخمسة، وهي الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد العجز على الصدر والمذهب الكلامي[3].

وقد تحدث عن المطابقة حديث السابقين، فأورد ما قاله الخليل والأصمعي، ولكن الجديد عنده هو كثرة الشواهد التي اختارها بعناية.

وقبل أن نورد تلك الشواهد، يهمنا أولا أن نورد طائفة من شعره هو: لنرى كيف أجاد استخدام المقابلة ولم تكن عنده مجرد حلية لفظية، بل (كانت فنا ساحرا وجمالا، لا ينقصه شيء من الروح والحياة، وقل أن تجد في شعره طباقا نافرا غير مقبول[4]).

تأمل معي روعة تلك المطابقات التي توشي شعره بالسحر والجمال، وتملوءه حيوية وحـركة، وتعبر عن صدق شعوره، ومقدار ما يعانيه من وجد وصبابة تجاه من يحب: إنـه يطابق بين النوم واليقظة والسهر والرقاد والقيام والقعود، والظلام والنور، والحزن

---

(١) انظر ترجمة عنه في الأعلام: ٤ / ١١٨

(٢) البديع لابن المعتز (المقدمة) وقد نشر هذا الكتاب للمرة الأولى المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشوفسكي سنة ١٩٣٥م، ثم شرحه وعلق عليه ونشره: محمد عبد المنعم خفاجي وألحقه بالدراسة القيمة عن ابن المعتز، في كتاب يحمل اسم (ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان) ط ٢، دار العهد الجديد للطباعة، القاهرة، ١٩٥٨م

(٣) المرجع السابق: ٥٧٤ - ٥٧٥

(٤) ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان: ٢٧٢

والســرور، والحســنات والذنوب، والحبس والإطلاق، كل ذلك في سلاسة وعذوبة، ودون أدنى تكلف، والأبيات من قصائد مختلفة[1]:

يقول :

أبصرتُه في المَنَام مُعْتَذِرا   إليَّ ممَّا جَناه يَقظَانَا

ويقول :

سَهِرْتُ نيلاً أَرْقَدَه   حَظُّ الحسود كَمَدُه

يا من عَنَاني جَسَدُه   يُقيمُهُ وَيُقْعِدُهُ

ويقول :

وَشَعْرُه من ظَلامٍ   ووَجْهُهُ مِنْ نُور

ويقول :

ساءَتْ بكَ الدنيا وسرَّتْ مرةً   فأَراكَ من حَسَنَاتِها وذُنُوبِها

ويقول :

حَبَسْتُ بها لَحْظِي وأطلَقْتُ عَبْرَتي   وما كان لي في الصَّبْر لو كان لي عُذْرُ

وكمــا حفل شعره بالطباق الجميل، حفل أيضا بالمقابلة (وهي مع صعوبتها الفنية تجيء في شعر ابن المعتز جميلة رائعة، ساحرة وبليغة، تحوز من القارئ والسامع الإعجاب والثناء[2]).

فــنراه يعــبر عن تشاؤمه من المستقبل، وأسفه على لذائذ الماضي يقوله مقابلا بين الماضي السعيد والمستقبل المر :

فأمامي المُرُّ من عُمْري   وَوَرائي مِنْهُ ما طابا

ويصف طبائع الناس في عصره: يبالغون في التملق والزلفى للشخص إذا أثرى وامتلأ كيسه، وينصرفون عنه حين يقل ماله:

إذا ما قَلَّ ما لي قَلَّ مَدْحي   وَإِنْ أَثْرَيْتُ غالُوا في امتداحي

ويفتخر بقوته وشجاعته وإنكاره لذاته، في مقابلة لطيفة، فيقول:

أنا جَيْشٌ إذا غَدوتُ وحيدًا   وَوَحيدٌ في الجَحْفَلِ الجَرَّارِ

كما يظهر تأثره بالقرآن الكريم في قوله:

---

(١) انظر ديوان ابن المعتز : لعبد الله بن المعتز الخليفة العباسي صفحات ٤٢٧، ١٥٨، ٢٢٨، ٦١، ٤٠، ١٣٩، ١٩٧، ٤٧١

(٢) ابن المعتز وتراثه : ٢٧٣

رُبَّ أمْرٍ تَتَّقيه   جَرَّ أمْرًا تَرْتَجيه
خَفِيَ المحبوبُ منْه   وَبَدَا المكروهُ فيه

ولعلـه في هـذا متأثر بقول الله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

وبقوله جل شأنه: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[2].

أمـا الشـواهد التي أوردها، فإنه ينتقيها بعناية فائقة من عيون الشعر العربي، ودرر المأثورات العربية، وهو يختارها اختيار الفنان القدير والناقد البصير ولكنه نادرا ما يعلق عليها، ربما لشدة وضوحها وعدم خفاء موطن الشاهد فيها.

ولكن الذي نلاحظه على معظم هذه الشواهد، أنها تصلح للمقابلة بمعناها العام. مع أنه يوردها تحت اسم المطابقة، ونستنتج من ذلك أن ابن المعتز لا يرى فرقا جوهريا بين الطـباق والمقابلة، فحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار: (إنكم لتكثُرون عـند الفَزَعِ وَتَقِلُّونَ عند الطمع) يستشهد به ابن المعتز للمطابقة[3]، مع أنه مقابلة بين حالـتين للأنصـار: فهم ينفرون جميعا في كثرة كاثرة إذا دعا داعي الجهاد، فلا يكاد يتخلف منهم أحد، ولكنهم وقت توزيع الغنائم، وحيث تظهر الأطماع، لا تكاد تراهم في هذا الوقت تعففا وكرما[4]

ومثل ذلك ينطبق على ما استشهد به من قول عيسى بن طلحة لعروة بن الزبير حين ابتـلي في رجله: (إنْ ذهب أَهْوَنُكَ علينا فقد بَقِي أعَزُّك علينا) فهو مقابلة بين الذهاب والبقاء وبين الهين والعزيز).

وقبل أن نترك ابن المعتز، نورد هنا طائفة من شواهده التي انفرد بها[5].

– مـن كلام الحجاج في خطبته: (إن الله كفانا مئونةَ الدنيا وأمرنا بطلبِ الآخرة، فليت الله كفانا مئونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا).

---

(١) البقرة : ٢١٦

(٢) النساء : ١٩

(٣) البديع لابن المعتز : ٦٦١

(٤) انظر شرحا وافيا لهذا الحديث في (الكامل في اللغة والأدب) لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد: ١/ ٣ ط مكتبة المعارف، بيروت

(٥) انظر المزيد من هذه الشواهد البليغة في فصل (المطابقة) من كتاب (البديع) لابن المعتز.

– وقـــول ابن السماك وهو من النساك الزاهدين: (لأنْ أكونَ في السوق وقلبي في المسـجد، أحب إليَّ من أن أكون في المسجد وقلبي في السوق). وهي شواهد تصلح لـــلمقابلة عـــلى اعتبار الجمع بين ضدين فأكثر ولا يفوت ابن المعتز – وهو كما قلت الـــناقد البصير – أن يورد طائفة من معيب المطابقة في الكلام والشعر، ولكنه لا يعلق علـــيها، كما لم يعلق – من قبل – على الجيد منها، بل يكتفي بقوله: (وهذا من غث الكلام وبارده[1]) من غير أن يبين لنا سببًا لتلك الغثاثة أو لهذا البرود، وذلك مثل تعليقه على المقابلة في قول الأُخَيْطِل:

قُلْتُ المقامُ وناعبٌ قال النَّوى فعصيتَ أمْري والمطاعُ غُرابُ[2]

٤- قدامة بن جعفر (٢٦٥ - ٣٣٧هـ)

وفي القـــرن الرابع الهجري يطل علينا قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) بمفهوم للمطابقة، ينحو فيه منحى ثعلب، ويخالف به ابن المعتز وغيره.

فهو يضم المطابق إلى الجناس، ويدخلهما في باب (ائتلاف اللفظ والمعنى) ويتحدث عـــن الطـــباق تحت اسم (التكافؤ) وقد ألمحت إلى ذلك عند الحديث عن الأسباب التي تدعونا إلى الجمع بين الطباق والمقابلة في مبحث واحد.

وإذا كان قدامة قد خالف من قبله في مفهوم المطابقة، فإنه – فيما – يختص بالمقابلة – قد سبق غيره من العلماء، ووضع لمن أتى بعده الأساس الذي بني عليه أغلبهم نظرتهم إلى المقابلة.

إن قدامـــة لا يعتبر المقابلة مجرد حلية أو زينة، وإنما ينظر إليها كفن جميل داخل في صـــميم المعـــنى وجوهـــر الفكرة، فقد تحدث عنها في سياق حديثه عن أنواع المعاني وأجناسها تحت عنوان (صحة المقابلات)، وعرفها بقوله:

(هـــي أن يضع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض أو المخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف على الصحة، أو يشرط شروطا، ويعدد أحوالا في أحـــد المعنـــيين، فيجب أن يأتي بما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدده، وفيما يخالف بأضداد ذلك[3]).

---

(١) السابق : ٦٧٥

(٢) الناعب : الغراب، النوى : الفراق

(٣) نقد الشعر : ١٣٣

ورغـم الإطـناب الملحوظ في هذا التعريف، إلا أنه يعني ببساطة مقابلة أو مناظرة بعض المعاني ببعض سواء على جهة الموافقة أو المخالفة.

وقد استشهد قدامة لذلك بعدة أبيات من الشعر، وتولى بيان وجه المقابلة فيها.

ومن ذلك قول بعضهم:

فَوَا عَجَبًا كَيْفَ اتَّفَقْنَا فَناصِحٌ وَفِيٌّ ومطْويٌّ على الغِلِّ غادرُ

فقد أتى بإزاء كل ما وصفه من نفسه بما يضاده على الحقيقة ممن عاتبه، حيث قال بإزاء (ناصحٌ): (مطويٌ على الغل)، وبازاء: (وفيٌ) : (غادر).

ومثله: مقابلة الطول والمرارة بالقصر والحلاوة في قول الشاعر:

وإذا حديثٌ ساءني لم أكْتَئِبْ وإذا حديثٌ سَرَّني لم آشرِ

وكذلك المقابلة التي استجادها قدامة في قول الشاعر:

جَزَى اللهُ عنّا ذات بعلٍ تَصَدَّقَتْ على عَزَبٍ حتى يكون له أهلُ

فإنّا سَنَجْزِيها كما فعلتْ بنا إذا ما تزوجنا وليس لها بعلُ

إذ يرى قدامة أن الشاعر أجاد حيث وضع مقابل أن تكون المرأة ذات بعل وهو لا زوج له، أن يكـون ذا زوج في وقت عزب المرأة، وقابل حاجته وهو عزب بحاجتها وهي عزبة، من غير أن يغادر شرطا ولا أن يزيد شيئا[1].

ونحن مع قدامة في أن الشاعر قد أجاد رص الكلام بازاء بعضه، و لم يغادر شرطا و لم يزد شيئا.

ولكنا نعجب كيف لم يلتفت قدامة – وهو صاحب الباع الطويل في نقد الشعر – إلى مدى التكلف الواضح في البيتين.

وكيف لم تأخذه الدهشة والعجب من هذا الشاعر الذي يدعو على هذه المرأة من حيـث أراد الدعاء لها، ويعدها برد الجميل الذي قدمته له حين يتوفى عنها زوجها أو يطلقها وتصبح عزبا لا بعل لها، فإن كان صادقا في عزمه ووعده، فلا شك أنه يتعجل هـذا الوقت الذي تترمل فيه هذه المرأة أو تطلق من زوجها، فأي مشاعر قبيحة وراء هذا الشعر إن كان صادقا! وأي تعمل ظاهر وتكلف بغيض في هذا القول إن كان غير ذلك!

---

(١) السابق : ١٣٥

ويجـرنا الحديث إلى قضية أخرى أثارها بعض الأخيار من علمائنا الأفاضل، وهي مدى تأثر قدامة بأرسطو، وهل الطباق يوناني أو عربي؟

فعند حديث أستاذنا الدكتور شوقي ضيف عن أثر قدامة في تطور البلاغة، يفترض أن قدامة متأثر بأرسطو في اهتمامه ببعض وجوه معاني الشعر وصحتها، وخاصة (صحة التقسيم) و (صحة المقابلات).[1]

ولقـــد بدأ الدكتور شوقي ضيف حديثه بالظن، وانتهى به إلى اليقين الذي لا شك فـــيه، بـــناء على مقارنة بين نص لقدامة عن صحة التقسيم وصحة المقابلات، ونص لأرسطو في نفس المجال.

فقدامـــة يعرف صحة التقسيم بقوله: (أن يستوفي الشاعر جميع الأقسام لما ابتدأ به كقول نصيب:

فقال فريقُ القوم: لا وفريقُهم نعم وفريقٌ قال: وَيْحَكَ ما نَدْري

ويعلق عليه بأنه ليس في أقسام الإجابة عن مطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام.

أمـــا نـــص أرسطو الذي أورده أستاذنا فهو: (الكلام الموصول، ربما كان اتصاله أقساما، ويسمى: المقسم، كقولهم: إني تعجبت من فلان الذي قال كذا وكذا - أو من فـــلان الذي عمل كذا وكذا، فهؤلاء أقسام المتعجب منهم، وربما كانت الأقسام إلى التقابل، كقولهم: منهم من اشتاق إلى الثروة، ومنهم من اشتاق إلى اللهو، وكقولهم: أما العقلاء فاخفقوا، وأما الحمقى فأنجحوا، والمتقابلات إذا توافقت أحدثت رونقا لظهور بعضها ببعض[2]).

وحين عقب الدكتور شوقي ضيف على نص قدامة بدأ بالظن فقال: (وان كنا نظن ظـــنا أن قدامة إنما جلب اصطلاحه من حديث أرسطو في (الخطابة) عن صورة تأليف الكلام بذكر الأقسام ودقة عرضها فيه) ثم انتقل من الظن ظنا إلى اليقين الذي لا شك فـــيه، عـــند تعقيبه على صحة المقابلات عند قدامة، فقال: (ومما لا شك فيه أن قدامة استمد هذا المصطلح - كما استمد سابقه - من أرسطو في الخطابة وحديثه عن تأليف العبارة).

---

(١) انظر هذه القضية في كتاب (البلاغة تطور وتاريخ) للدكتور شوقي ضيف: (٨٧ - ٨٨)، ط ٢، دار المعارف، مصر.

(٢) تلخيص الخطابة، لابن سينا: ٢٢٨ طبعة وزارة التربية والتعليم وقد أورده الدكتور شوقي ضيف في كتابه: البلاغة تطور وتاريخ، ص ٨٧

ولا يكتفي أستاذنا بهذا اليقين، بل يفاضل بين الرجلين، ويضع أرسطو في الكفة الراجحة، ويبالغ في تفوقه على قدامة لأن كلام أرسطو - على حد تعبيره (أدق من كلام قدامة؛ لأن أرسطو لاحظ أنها تحمل في طواياها التقسيم، ولأنه ذكر الغرض والفائدة من المقابلة، فهي تجعل الشيء كالمحسوس المشاهد).

ومع عميق احترامنا للأستاذ العلامة، وتقديرنا المطلق لجهوده التي لا تنكر في خدمة أدبنا وتراثنا، ومع إيماننا بأن تيار الثقافات يسرى بين الأوطان والشعوب مسرى النسيم في الجو، وأن للفلسفة الإغريقية والمنطق الأرسطي أثرا ملموسا في الفكر العربي إلا أننا نرى أن قدامة وغيره، ليسوا بحاجة إلى التأثر بأرسطو أو غيره في هذا الموضوع بالذات، فإن صحة التقسيم والمقابلات والطباق، وجدت في الشعر الجاهلي بكثرة وفيرة كما وجدت في وصايا الحكماء العرب في الجاهلية،ولم نسمع عن جاهلي قرأ لأرسطو أو غيره.

كما أن القرآن الكريم، وهو كتاب الله الذي نزل بلغة العرب - حافل بهذه الألوان البلاغية وغيرها، وحاشا لله أن تكون تلك الروائع في الذكر الحكيم أثرا يونانيا!

إن التضاد والمقابلة فكرة إنسانية تخطر لكل عقل إنساني، فإننا في حياتنا العادية نرى الظلام فنتذكر النور، ونصادف الشر فتتمنى الخير، والحياة بأسرها قائمة على أساس هذه الثنائية الضدية، سواء في ذلك الجمادات أو النباتات أو الحيوانات، أو المعنويات، فهذه الأرض وفوقها السماء وهناك الذكر والأنثى، والعلم والجهل، والصدق والكذب، وحتى الذرة - مؤلفة من (الكترون) سالب و (بروتون) موجب، كما تشير البحوث الطبيعية الآن[1].

وصدق الله عز وجل إذ يقول: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2]، و ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾[3] و ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾[4] وقد ناقش الدكتور إبراهيم سلامة هذه الفكرة مناقشة موضوعية في كتابه القيم: (بلاغة أرسطو

---

(١) الذرة في خدمة الزراعة: دكتور محمود يوسف الشواربي: (٣، ٤) المكتبة الثقافية، العدد ٣٦، وزارة الثقافة، مصر.

(٢) الذاريات : ٤٩

(٣) النبأ : ٨

(٤) النجم : ٤٥

بين العرب واليونان) فهو لا ينكر تأثر قدامة بأرسطو وبالفكر اليوناني، بدليل أننا نراه يـــردد في مواضع كثيرة من كتابه (نقد الشعر) قوله - وهو يعقب على بعض الأمور (وكـــذا يـــرى فلاســـفة اليونان في الشعر على مذهب لغتهم كما لا ينكر استحسان أرســـطو للطباق في حديثه عنه في الفقرة الثامنة من الفصل التاسع من الكتاب الثالث لـــلخطابة، إذ يقول: (هذا النوع من الأسلوب مقبول، لأن المتضادات تعرف بسهولة، ولأن الأفكار الموضوعة وضعا متقابلا سهلة الإدراك. أضف إلى ذلك أن هذا الأسلوب يشبه قياسا منطقيا).

ولكن الدكتور سلامة يرى أن تناول أرسطو للطباق يختلف عن تناول رجل كابن المعـــتز مـــثلا لنفس الفن،لأن نظرة ابن المعتز شاعرية جمالية لغوية، لما فيها من التعادل والتســـاوي حين يعرف الطباق بأنه : (من طابقت بين الشيئين إذا جمعت بينهما على حـــذو واحد)، أما نظرة أرسطو فهي منطقية تقريرية، والفرق بين النظرتين هو الفرق بـــين العالم والأديب، وإذن يكون الطباق بمعناه الشعري اللغوي من استعمال العرب، ومما يعرفونه من قَبْلِ أرسطو لأنه مساير للذوق العربي.[1]

وفي الـــنهاية يرى الدكتور إبراهيم سلامة أنه إذا كان الطباق يونانيا، لأنه مبني على التضـــاد، والتضـــاد منطقي وإذا كانت المقابلة يونانية لأنها مبنية على التشابه، والدلالة بالتشـــابه وبالمـــثل دلالة منطقية يعرفها أرسطو، وإذا كان الجناس يونانيا، لأنه مخاتلة وتلاعـــب بالألفاظ، فإن كل هذه المعاني - زيادة على أنها إنسانية وحيوية في كل لغة حية - تتجه إليها الأذهان إذا وجد في طبيعة اللغة وفي حيويتها ما يساعد على ذلك.

وإذا كانـــت العواطـــف والانفعالات إنسانية أيضا، كان التعبير عن هذه العواطف وهـــذه الانفعالات مما تدعو إليه طبيعة اللغة، وطبيعة الأمة الحساسة التي تطاوعها هذه اللغة.

ثم يضرب الدكتور سلامة - في ختام كتابه - مثلا سافرا يحاول أن يحسم به المعركة لصالح الأصالة العربية فيقول :

مـــن العبـــث مثلا أن تقارن بين (هومير) إذا وصف المعركة بعد حصولها ووصف حظـــوظ الأسرى القتلى بعد انجلائها فقال (كان نصيب بعضهم شقاء الموت، وكان نصيب الآخرين خجل الحياة).

---

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : دراسة تحليلية نقدية تقارنية للدكتور : إبراهيم سلامة : ١٢٦، ط ٢، الأنجلو المصرية.

وبين " الطِّرماح " مثلا، الذي وقف هذا الموقف فقال :

أَسَرناهُم وَأَنعَمنا عَلَيهِم وَأَسقَينا دماءَهُمُ التُرابا

فَما صَبَروا لِبَأسٍ عِندَ حَربٍ وَلا أَدَّوا لِحُسنٍ يَدٍ ثَوابا

فمن العبث أن نقرر هنا – لمجرد التشابه بين عاطفتين إنسانيتين وفي شخصين تفرق بينهما هذه المسافات الزمنية السحيقة، بأن هناك نقلا أو أخذا أو تقليدا، وليس أقل من ذلــك في بــاب العبث – أننا إذا رأينا أن أرسطو يمدح بشرف المنبت وبرقته، ورأينا العــرب يجــرون في هــذا الطريق – أن نقول : هذا هو ذاك، أو هذا من ذاك فكلها مكارم، وآثار خلقية تعتزها الأمم الراقية.[1]

ويضــيف الدكتور سلامة إلى هذا القول بُعْدًا آخر في مقدمة ترجمته لكتاب الخطابة لأرســطو، وهو أنه حتى وإن كان العرب قد قرأوا وتأثروا بكتب أرسطو، فإنه يبقى للعرب في ذلك فضلان هما :

١- أن الدقة العلمية في التقسيم والتحديد عندهم أكثر مما عند أرسطو.

٢- إيــراد العرب شواهد مستمدة استمدادا مباشرا من أدبهم ومن كتابهم (القرآن) وآثارهم، وتلك علامة يعتمد عليها الباحثون في إثبات الأصالة.[2]

ونحــن نحمد له هذا التأصيل للبلاغة العربية، والفكر العربي، ونضيف إليه أن لغتنا العربية لغة شاعرة بطبيعتها، عبَّرت وما تزال تعبر عن جميع المعاني والعواطف الإنسانية الممكــنة، ومــن ينظر في هذا الكم الهائل مما بقي لدينا من التراث العربي، تروعه – لا شك – قدرة هذه اللغة على استيعاب كل هذه الأفكار الإنسانية المتنوعة ويأخذه سحر وجمال التعبير عنها، فلماذا نستكثر عليها ذلك، وتتلمس وجوها للتأثير في غير ما حاجة لذلك ؟

ولقد حسم ابن الأثير (ضياء الدين) هذه القضية، حين كان يرد على من يزعم تأثر شــعرائنا بكتب اليونان بقوله: (هذا باطل بي أنا، فإني لم أعلم شيئا مما ذكره حكماء الــيونان ولا عرفــته، ومــع هذا فانظر إلى كلامي، فقد أوردت لك نبذا منه في هذا الكــتاب، وإذا وقفت على رسائلي ومكاتباتي وعرفت أني لم أتعرض لشيء مما ذكره

---

(١) السابق : ٤٠٣.

(٢) كتاب الخطابة، لأرسطوطالس: ٦٥ ترجمة وتقديم وتحقق الدكتور إبراهيم سلامة، ط ٢، الأنجلو المصرية، ١٩٥٣.

حكمـــاء اليونان في حصر المعاني، علمت حينئذ أن صاحب هذا العلم من النظم والنثر بنجوة من ذلك كله، وإنه لا يحتاج إليه أبدا، وفي كتابي هذا ما يغنيك وهو كاف[1].

ونخلـــص مـــن ذلك إلى أن الطباق أو المقابلة أو صحة التقسيم إنما هي فنون عربية خالصة لم يقتبسها العرب من غيرهم، وأن قضية التأثر بالفكر اليوناني لا تنطبق – على الأقل – على هذه الألوان البلاغية.

٥ - ابن وهب الكاتب (ت ٢٨٥هـ)[2]

ونعـــود إلى تسلســـل المقابلة تاريخيا عند النقاد والبلاغيين بعدما جرنا الحديث عن قدامـــة إلى قضية التأثير، فيصادفنا على هذا الدرب الطويل. وفي القرن الرابع الهجري أيضا، كتاب ثار الجدل كثيرا حول عنوانه وصاحبه، وهو كتاب : (البرهان في وجوه البيان)، فقد أتى عليه حين من الدهر سمي فيه باسم (نقد النثر) ونسب إلى قدامة بن جعفـــر، عـــلى غرار نقد الشعر له؛ إلى أن حسمت هذه القضية في النهاية لصالح ابن وهب.[3]

وكما تحدث قدامة في نقد الشعر عن صحة المعاني، وبين أنها تكون بصحة التقسيم، وصـــحة المقـــابلات، وصحة التفسير، تحدث ابن وهب (الكاتب) عن عدة الشاعر، وصـــحة الشـــعر، وعد من ذلك صحة المقابلة وحسن النظم، وجزالة اللفظ، واعتدال الوزن، وقلة التكلف، والمشاكلة في المطابقة.

ويهمنا هنا حديثه عن صحة المقابلة :

فـــرغم أنه لم يعطنا مفهوما اصطلاحيا لها يمكن الرجوع إليه، إلا أننا – من خلال تعليقه على ما ساقه من شواهد للمقابلة القبيحة — ندرك أنه يعني بـــ (صحة المقابلة): ما عناه قدامة من قبل وهي أنها (وضع الشاعر لمعانٍ يريد التوفيق بين بعضها وبعض... الخ).

انظر إلى تعليقه على هذا الشاهد حين يقول :

وأساء الآخر المقابلة حيث يقول :

---

(١) المثل السائر : ١ / ٣١١.

(٢) الأعلام : ١ / ١٣٢.

(٣) انظر مقدمة كتاب البرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب : ٢٣ — ٢٤، تحقيق د. حفني محمد شرف، ط مكتبة الشباب، القاهرة.

أَمُوتُ إِذَا صَدَّ عَنِّي بِوَجْهِهِ   وَيَفْرَحُ قَلْبِي حِينَ يَرْجِعُ لِلْوِصَالِ

فجعل حذاء الموت : فرح القلب، وحذاء الصد بالوجه : الوصل

وهذه مقابلة قبيحة، ولو قال :

أَمُوتُ إِذَا صَدَّ عَنِّي بِوَجْهِهِ   وأُحْيَا إِذَا مَلَّ الصُّدُودَ وَأَقْبَلا

فجعل حذاء الموت: الحياة، وحذاء الصد بالوجه : الإقبال، لكان مصيبا.(١)

ونلاحظ – أيضا – من خلال تعليقه على بعض الشواهد على صحة المقابلة، أنه يدمجها مع صحة التقسيم، ومع مراعاة النظير.

فحين عرض لقول الشاعر :

أُمِيلُ مع الذِّمامِ عَلى ابنِ أُمّي   وَأَحْمِلُ للصَّديقِ عَلى الشَّقِيقِ

وأُفْرِقُ بَين مَعروفي وَمَنّي   وَأَجْمَعُ بَينَ مالي وَالحُقوقِ

نراه يعلق قائلا: (فأحسن القسمة في المقابلة، ومال مع ما ينبغي أن يمال معه، وحمل على ما يحسن الحمل عليه، وفرق بين ما لا ينبغي أن يجمعه.(٢)

وحين تحدث ابن وهب عن المطابقة ضمَّها مع المشاكلة و لم يعط لها تعريفا محددا، كما لم يعط للمقابلة.

لكن ما استشهد به للمطابقة يفهم منه المقابلة والطباق والجناس فقد استشهد في هذا المجال بقول الشاعر :

نُعَرِّضُ لِلطعانِ إِذا اِلتَقَينا   وُجوهاً لا تُعَرَّضُ للسِّبابِ(٣)

ففي هذا البيت طباق بالسلب بين (نعرض) و (لا نعرض) وفيه جناس أيضا بين الكلمتين.

أما المقابلة فيمكن أن تكون بين حالتي الحرب والسلم لقومه، فهم في الحرب شجعان يلاقون العدو بوجوههم مقبلين وفي السلم كرام الوجوه أصحاب شرف وعزة لا يعرضون أنفسهم للسباب أو سفاسف الأمور.

---

(١) البرهان في جوه البيان، لابن وهب : ١٤٠ تحقيق الدكتور حفني شرف، ط : مكتبة الشهاب، القاهرة.

(٢) السابق : ١٣٩.

(٣) السابق : ١٤٤.

أمـــا المشاكلة في البيت وهي (ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا[1]). فلأن الوجوه في الحقيقة لا تعرض للشتم والسباب، وإنما الذي يعرض لذلك الأشخاص، ولكنه عرضها للسباب مشاكلة لتعريضها للطعان.

وهكذا نرى أن ابن وهب يوسع من حيث يدري أو لا يدري مفهوم المقابلة لتشمل (صـــحة المقابلـــة، وصـــحة التقسيم، ومراعاة النظير) كما رأينا في تعليقه على قول الشـــاعر: (أمـــيل مـــع الذمام...) وتشمل (الطباق والجناس والمشاكلة) كما رأينا في (نعرض للطعان ..)

وذلك يدعم حقنا في مزج هذه الألوان - قدر الأمكان - في لون واحد هو المقابلة، علّه يتسع - كما قلنا من قبل - لاستيعاب ظاهرة التقابل أو المقابلة في القرآن الكريم.

٦ - القاضي الجرجاني[2] (ت ٣٩٢هـ) صاحب الوساطة :

ومـــا دمنا نبحث عن معنى المقابلة في القرن الرابع الهجري، فلا غنى لنا عن الإشارة إلى عـــلم من أعلام البلاغة والنقد في هذا القرن وهو (أبو الحسن علي بن عبد العزيز، الشهير بالقاضي الجرجاني) والذي ترجع شهرته إلى كتابه القيم : (الوساطة بين المتنبِّي وخصومه).

وكـــتاب الوســـاطة - كمـــا يتضح من عنوانه - عبارة عن تطبيق عملي للمقابلة والموزنة بين المتنبي وخصومه.

والـــذي يقـــرأ مقدمة المؤلف يستبين بسرعة المنهج العلمي الذي سار عليه القاضي الجرجاني في هذا الكتاب :

إنـــه رأى - منذ لحق بجملة الأدباء - أن الناس في أبي الطيب فئتان : من مطنب في تقـــريظه، مـــنقطع إليه بجملته، ملتزم بنصرته على طول الخط، وعائب يروم إزالته عن رتبته، فلم يسلم له فضله، ويحاول حطه عن منزلة بوأه إياها أدبه.

وفي رأيه أن كلا الفريقين (إما ظالم له، أو للأدب فيه، فكما أن للانتصار جانبا من العـــدل لا يســـده الاعتذار، كذلك للاعتذار جانب هو أولى به من الانتصار، ومن لم يفرق بينهما، وقفت به الملامة بين تقريظ المقصر، وإسراف المفرط[1].

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني : ١٩٨.

(٢) الأعلام : ٤ / ٣٠٠.

وبهــذا المــنهج الــذي سار عليه يمكن القول بأن الكتاب مقابلة عملية بين طرفين متناقضين أو متناظرين، وقد أخذ الرجل يستعرض كلا الجانبين ويقابل بينهما، ويحكم لهذا الجانب أو لذاك.

انظر إليه يوازن بين قصيدة أبي الطيب في الحمى :

وَزائرَتي كَأَنَّ بها حَياءً ... فَلَيسَ تَزورُ إلا في الظَّلامِ

بَذَلْتُ لَها المَطارِفَ وَالحَشايا ... فَعافَتها وَباتَت في عِظامي

وقصيدة عبد الصمد بن المعذل في وصف الحمى :

وبنتُ المنية تنتابني ... هدوًّا وتطرقني سَحْرَةً

إذا وردتْ لم يَدَعْ وِرْدُها ... عن القلبِ حجبًا ولا سُتْرَةً

فيقول (فأنت إذا قِسْتَ أبياتَ أبي الطيب - على قصرها - وقابلت اللفظ باللفظ، والمعــنى بــالمعنى، وكنت من أهل البصر، وكان لك حظ في النقد، تبينت الفاضل من المفضــول، أما أنا فأكره أن أبتَّ حكما أو أفصل قضاء، أو أدخل بين هذين الفاضلين وكلاهما محسن مصيب[2]).

هكذا عرض الرجل القصيدتين، ودعانا لمقابلتهما لفظا بلفظ ومعنى بمعنى، وترك لنا الحكــم، ثم رأي هو - بلباقة - ألا يحكم لإحداهما، لأن كليهما - في رأيه - محسن مصيب.

ونحن نرى أن أبيات المتنبي أجمل تصويرا وأحفل بالحركة.

فــإذا أراد الحديث عن المفهوم الاصطلاحي للمقابلة أو المطابقة، نراه لا يقصد إلى ذلــك قصدا، ولكنه يعرض لها عرضا سريعا مبينا أن للمطابقة شعبا خفية، لا تتميز إلا للنظر الثاقب والذهن اللطيف.

ويمر سريعا - أيضا - على أقسام المطابقة المعهودة، ما بين مطابقة بالإيجاب وأخرى بالنفي أو السلب، ممثلا لكل قسم منهما بأمثلة السابقين، محذرا من أن (بعض من يقصر علمه ويسوء تمييزه قد يخلط بالمطابق ما ليس منه).

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي الجرجاني أبي الحسن علي بن عبد العزيز : ١٣، تصحيح وشرح أحمد عارف الزين، ط : صبيح، القاهرة.

(٢) السابق : ١٠٥.

ومعـــنى ذلـــك أن أبا الحسن لم يأت بجديد في هذا المجال من الناحية الاصطلاحية التقنيـــية، ولكن الجديد - كل الجديد - عنده هو الجانب العملي التطبيقي لأسلوب المقابلة عن طريق تلك الموازنات بين المتنبي وخصومه.

٧ - أبو هلال العسكري[١] (ت ٣٩٥هـ)

ونختم القرن الرابع الهجري - ذلك القرن الحافل بالعلماء - بعلم من أعلام البلاغة والـــنقد وهـــو (أبـــو هـــلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري) صاحب كتاب (الصناعتين: الكتابة والشعر).

وقـــد تحـــدث في هـــذا الكتاب عن الطباق والمقابلة والعكس والتبديل والسلب والإيجاب وكلها ألوان تدور في فلك بحثنا عن المقابلة.

وفي حديـــثه عن الطباق أو المطابقة لم يأت بتعريف جديد، وإنما أورد إجماع الناس على أن المطابقة في الكلام (هي الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطـــبة، أو بيت من بيوت القصيدة، مثل الجمع بين السواد والبياض، والليل والنهار، والحر والبرد[٢]).

كما أبرز أبو هلال مخالفة قُدامة بن جعفر لهذا الإجماع، وعاب عليه تعريف المطابقة بما لا يخرج عما سماه أهل الصنعة، التعطف أو التجانس[٣].

كمـــا اهتم العسكري بذكر المعنى اللغوي للطباق وهو (الجمع بين الشيئين، يقولون طـــابق فلان بين ثوبين) وبين كيف تطور المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي، (فقيل طابق البعير في سيره، إذا وضع رجله موضع يده).

وأورد بيت الجعدي السابق :

وَخَيلٍ يُطابِقنَ بالدّارِعينَ   طِباقَ الكِلابِ يَطَأْنَ الهَراسا

ولكنه يؤكد هذا المعنى اللغوي بالقرآن الكريم، فيورد قوله تعالى :

---

(١) الأعلام : ٢ / ١٩٦.

(٢) كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري : ٣١٦، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، الحلبي، مصر.

(٣) سمي الأخفش ما ذكره قدامة : (التجنيس) وذلك في محاورة بينه وبين أبي الفرج الأصفهاني، انظر : سر الفصاحة لابن سنان : ١٩١.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾[1] أي بعضها فوق بعض، كأنه شبه بالطـبق يجعـل فـوق الإناء وكل فقرة من فقر الظهر والعنق طبق، وذلك أن بعضها منضود على بعض.[2]

وبذلك يكون أبو هلال قد كشف – كما يقول الدكتور حفني شرف شيئا ما عن الصلة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، بما فيهما من الجمع بين الشيئين.[3]

لكـن مـا يذكر لأبي هلال بالحمد والثناء، هو كثرة الشواهد من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، والأقوال المأثورة ونلاحظ على هذه الشواهد أن بعضها لا يختص بالطباق فقط، وإنما يصلح شاهدا للمقابلة على اعتبار الجمع بين أكثر من ضدين وهـذا يقوى ما نزعمه من تداخل هذه الألوان في القرآن الكريم ليصبح الجميع مقابلة قرآنية.

ألسـت تـرى معي أن ما نستشهد به للطباق في قوله تعالى ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾[4] يصـلح شـاهدا للمقابلة الصريحة بين أكثر من ضدين ؟ أي بين الباطن والظاهر، وبين الرحمة والعذاب ؟

وكذلك في قوله تعالى ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[5] مقابلة بين الأسى على ما فات، والفرح بما هو آت.

كما أن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم للأنصار : (إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع). وكذلك قول الحسن رضي الله عنه : (إنَّ مَنْ خَوَّفَك حتى تبلغ الأمن خيرٌ ممن أَمَّنَكَ حتى تلقى الخوف) كلاهما مقابلة اثنين باثنين.

ولا بـد من التنوية والإشادة بما أورده العسكري من مقارنة بين القرآن والشعر في هـذا المجال، وإبرازه لجوانب السمو والرفعة في القرآن الكريم، وهي جوانب يعز على الشعر أن يسمو إليها أو يجاريها.

---

(١) الملك : ٤.

(٢) كتاب الصناعتين : ٣١٦.

(٣) الصور البديعية : ٢ / ٧٧.

(٤) الحديد : ١٣.

(٥) الحديد : ٢٣.

فعـــند استشـــهاده بقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾[1] أورد تنازع الشعراء هذا المعنى، كقول ابن مطير :

كل يوم بأُقْحُوانٍ جديد   تضحك الأرضُ من بكاء السماءِ

وقول الآخر :

فله ابْتِسَامٌ فِي لَوَامِعِ بَرْقِهِ   وله بكًا من وَدْقَةِ الْمُتَسَرِّبِ

وقول الآخر :

لا تَعْجَبِي يَا سَلْمَ مِنْ رَجلٍ   ضَحِكَ المشيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

ثم علق على هذا مقارنا بين تناول القرآن لهذا المعنى، وتنازع الشعراء له قائلا: (فلم يقـــرب أحـــد من لفظ القرآن في اختصاره وصفاته، وورونقه وبهائه، وطلاوته ومائه، وكذلك جميع ما في القرآن من طباق[2]).

ورغم أن تعليقه يضفي على القرآن الكريم صفات القداسة والبهاء والجمال، إلا أنه كان عليه أن يظهر بعض الصفات التي تميز الأسلوب القرآني، ولا توجد في غيره – من ذلك مثلا: الاختصار الشديد مع الوفاء الكامل بالمعنى، وإطلاق لفظ (أضحك) ولفظ (أبكى) مع حذف المفعول به ليشمل كل حي في كل زمان ومكان.

وكـــتلك الفاصـــلة المنتهـــية بالمد والتي توحي بامتداد الفعل عبر الزمان والمكان، بالإضافة إلى حسن التقسيم والازدواج في الآيتين.

وقـــد ألمح الدكتور محمد زغلول سلام إلى شيء من ذلك حين ذكر أن أبا هلال لم يشـــر إلى ما في قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ من حركة ذهنية نتيجة الانقلاب في الصور والمعاني، وفي هذا ما فيه من قوة الدلالة في الـــنفس، ويكتفي بالحكم على اللفظ وما فيه من صفاء ورونق، وطلاوة وماء، وهذه كلمات عامة، لا تفيد معنى محددا ذا قيمة كبيرة في الآية.[3]

وجـــريا عـــلى عادة العلماء السابقين في تثبيت الحكم بذكر ضده وجدنا أبا هلال يذكر بعض الأمثلة (للتطبيق المعيب).

---

(١) النجم : ٤٣ – ٤٤.

(٢) كتاب الصناعتين : ٣١٧.

(٣) أثر القرآن في تطور النقد العربي، د. محمد زغلول سلام : ٣٢٤.

ولكن يؤخذ عليه – كما أخذنا على أستاذه ابن المعتز من قبل – عدم تعليل العيب أو الفساد تعليلا نقديا مقبولا، فهو يكتفي – كسلفه – بإطلاق الأحكام وتعميمها فقط: كتعليقة على بيت الأخطل السابق :

قَلْتُ المُقام ونَاعِبٌ قال النَّوى فَعصيْتَ أَمْري والمُطاعُ غُرابُ

بأن هذا (من غث الكلام وبارده) دون أن يبين وجه الغثاثة وسبب البرود.

وقريب من هذا التعليق – أيضا – تعليقه على قول أبي تمام :

يَومٌ أَفاضَ جَوىً أَغاضَ تَعَزِّياً خاضَ الهَوى بَحرَي حِجاهُ المُزبِدِ

إذ يذكر أبو هلال أنه لا يعرف عاقلا يقول : إن العقل يزبد.

ويسد الباب في وجه من يلتمس العذر لأبي تمام بأن يعرب المزبد صفة للبحرين، إذ لو أراده أبو تمام نعتا للبحرين لقال : (المزبدين) – كما أن حوض الهوى بحر التعزى استعارة بعيدة.

ونحن نعتبر نقد أبي هلال في غير موضعه لسببين :

أولهما: أنه وقد أورد مثالا للتطبيق المعيب – كان يجب عليه أن يبين سبب العيب في التطبيق، لا غير، لكنه ترك التعليق على الطباق بين (أفاض) و (أغاض) وبين (الجوى) و (التعزى)، وأمسك بعجز البيت يتلمس فيه خطأ ما أيا كان هذا الخطأ.

ثانيهما: أنه حين عممَّ الحكم قائلا : لا أعرف عاقلا يقول أن العقل يزبد، قد جاوز الصواب، إذ لا مانع من وصف العقل بالزبد على سبيل الاستعارة لشدة الذكاء، وتصوير ثورة الأفكار في عقله.

وفوق ذلك، فإن أبا تمام معنى بالغريب، ومشهور بالجرأة في ابتداع التراكيب.

وبعدما عرضنا لما قاله العسكري في الطباق، ورأينا مدى اختلاطه – من الناحية التطبيقية – بالمقابلة، ينبغي علينا أن نعرض لما قاله في المقابلة – لنرى الجديد في هذا القول إن وجد.

عرف أبو هلال المقابلة بأنها (إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى أو اللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة[1]).

---

(١) السابق : ٣٤٦.

وهـــو تعريف موافق • في جملته – لتعريف قدامة السابق، لكن شواهد العسكري جديــدة كل الجدة، وتعقيباته عليها تنم عن نظر عميق، وأفق واسع – وإحاطة وشمول لكل أقسام المقابلة الممكنة بين المعاني والألفاظ موافقة ومخالفة.

أ- فقد مثل للمقابلة في المعنى على جهة الموافقة بقوله تعالى :

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا ﴾،(١) لأن خــواء بـيوتهم وخرابها بالعذاب مقابل لظلمهم.

وبقوــله تعــالى ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾.(٢) فالمكـــر من الله تعالى (العذاب) جعله الله عز وجل مقابلا لمكرهم بأنبيائه وأهل طاعته.

ومـــــــنه ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾(٣) و ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.(٤)

غير أننا نلاحظ على هذه الأمثلة أنها تشتمل – إلى جانب المقابلة على بعض الألوان البديعية الأخرى كالمشاكلة والمزاوجة والجناس.(٥)

وهذا يؤكد مرة أخرى ما قلناه سابقا من تداخل وتقارب بين هذه الألوان.

ب- ومـــثل العســـكري أيضـــا للمقابلة في المعاني على جهة المخالفة بالمثال الذي استشـــهد به قدامة بن جعفر، وسار عليه معظم من أتى بعده، وهو قول الطرماح بن حكيم :

أَسَرناهُم وَأَنعَمنا عَلَيهِم   وَأَسقَينا دماءَهُمُ التُرابا
فَما صَبَروا لِبَأسٍ عِندَ حَربٍ   وَلا أَدَّوا لِحُسنٍ يَدٍ ثَوابا

فجعــل بــازاء الحـــرب أن لم يصبروا، وبازاء النعمة أن لم يثيبوا، فقابل على وجه المخالفة. ولو كان على جهة الموافقة لصبروا عند الحرب، ولأثابوا وقت الإنعام عليهم، لأن هذا هو الفعل المناسب والموافق.

---

(١) النمل : ٥٢.
(٢) النمل : ٥٠.
(٣) التوبة : ٦٧.
(٤) الرعد : ١١.
(٥) المزاوجة : أن يجمع بين الشرط والجزاء في ترتيب لازم من اللوازم عليهما معا. (البديع في ضوء أساليب القرآن)، د. عبد الفتاح لاشين : ١١٤ – ط ١، دار المعارف، ١٩٧٩.

ومعنى هذا أن أبا هلال يعني بالموافقة هنا: الموازاة، وهو ما عناه قدامة من قبل.

ج- ومثل للمقابلة في الألفاظ على جهة الموافقة بقول عدى بن الرقاع:

فَلَقَد تَبيتُ يَدُ الفَتاة وِسادَةً لي جاعلاً يُسرى يَدَيَّ وِسادَها

وفيه مقابلة بين كون يدها وسادة له، ويده وسادة لها.

ومثله قول عمرو بن كلثوم:

وَرِثناهُنَّ عن آباءِ صدقٍ وَنُورِثُها إذا متْنا بَنينا

د- أما المقابلة في الألفاظ على جهة المخالفة، فكقول الجعبري:

فَتىً كانَ فيه ما يَسرُّ صَديقَهُ عَلى أنَّ فيه ما يَسوءُ الأعاديا

وقول الآخر:

وَإذا حَديثٌ ساءَني لَم أكتئب وَإذا حَديثٌ سَرَّني لَم آشرِ[1]

ونلمح إعجاب العسكري بهذين الشاهدين من قوله: (وهذا في غاية التقابل)، ذلك أن الشاعر الأول قابل بين (ما يسر) و (ما يسوء)، وبين (الصديق) و (الأعادي).

والثاني قابل بين (ساءني) و (سرني) وبين (لم اكتئب).

و (لم آشر) أي لم أتبَطَّر وأفرح.

وكلا الشاهدين تقابل في الألفاظ على جهة المخالفة أو التضاد.

وأبو هلال العسكري بهذا التعريف الدقيق للمقابلة، وبذلك التقسيم الشامل لها، وبتلك الأمثلة الرائعة لكل قسم، يوسع مفهوم المقابلة لتشمل أي تضاد أو مخالفة سواء بالألفاظ أو المعاني وسواء أكان هذا التضاد أو تلك المخالفة على جهة الموافقة أو على جهة المخالفة.

وهذا الذي فعله العسكري له أهمية كبيرة في بحثنا عن المقابلة في القرآن الكريم وخاصة المقابلة المعنوية، أو مقابلة المعاني. تلك المقابلة التي لم يفطن إليها غير أصحاب الطبع السوى كما يقول الزمخشري: (فترى المطابيع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني[2]).

---

(١) كتاب الصناعتين: ٣٤٧.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل: للزمخشري (جار الله محمود ابن عمر بن أحمد الخوارزمي): ٤ / ١٤٥، ط - مطبعة الاستقامة، مصر.

وكما تحدث قدامة في (نقد الشعر) وابن وهب في (البرهان) عن فساد المقابلات، نرى أبا هلال – أيضا – يشير إلى فساد المقابلات.

وكأني هؤلاء العلماء، يذكرون المقابلة الفاسدة، ليقابلوا بينها وبين المقابلة الصحيحة، فيكون ذلك درسا عمليا تطبيقيا لمعنى المقابلة، لكي نقابل نحن بين الصحيح منها والفاسد، وندرك الفرق بينهما.

وأبو هلال يرى أن المقابلة الفاسدة هي (أن يذكر معنى يقتضي الحال ذكر ما يوافقه أو يخالفه، فيؤتى بما لا يوافق ولا يخالف مثل أن يقال: فلان شديد البأس، نقي الثغر، أو جواد الكف أبيض الثوب، أو تقول: ما صاحبْت خيِّرًا ولا فاسقا، وما جاءني أحمر ولا أسمر، ووجه الكلام أن تقول: ما جاءني أحمر ولا أسود، وما صاحبت خيرا ولا شريرا، وفلان شديد البأس، عظيم النكاية، وجواد الكف كثير العرف، وما يجري مع ذلك، لأن السمرة لا تخالف السواد غاية المخالفة، ونقاء الثغر لا يخالف شدة البأس ولا يوافقه، فاعلم ذلك وقس عليه.[1]

والعسكري بذلك يضع مقياسا نقديا للحكم على صحة المقابلة أو فسادها، وهو بذلك يفعل ما غفل عنه عند حديثه عن التطبيق المعيب.

وقبل أن نغادر أبا هلال وغيره من علماء القرن الرابع إلى غيره من العلماء نجد أنفسنا في حاجة إلى إلقاء نظرة خاطفة على ما أورده الرجل من مقاييس بلاغية للونين آخرين من ألوان البديع نرى أنهما وثيقا الصلة بالمقابلة، وهما : العكس والتبديل، والسلب والإيجاب.

فالعكس عنده (أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول، وبعضهم يسميه التبديل[2]).

وقد ساق أبو هلال لذلك أمثلة كثيرة ومتنوعة، ما بين المنظوم والمنثور، من القرآن والحديث والشعر والحكم، أستطيع – بلا مبالغة – أن أقرر أن أغلبها شواهد للمقابلة أو الطباق، ويكفي أن أسوق بعضها هنا لنرى صحة هذا الزعم.

---

(١) كتاب الصناعتين : ٣٤٨.

(٢) السابق : ٣٨٥.

يستشـــهد بقوله تعالى ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾(١) وهي مقابلة صريحة تبين قدرة الله سبحانه على إخراج الميت من الحي، في مقابلة قدرته على إخراج الحي من الميت.

ويستشهد بقول القائل :

(اشكرْ لِمَنْ أنعمَ عليك، وأنعِمْ على من شكرك) وهو مقابلة الإنعام على من يشكر بالشكر على من ينعم.

ومما يؤكد هذا الزعم أنه استشهد ببيت عدى بن الرقاع :

فَلَقَد تَبيتُ يَدُ الفَتاة وِسادَةً ... لي جاعلاً يُسرى يَدَيَّ وِسادَها

مع أنه قد استشهدبه عينه منذ قليل للمقابلة في الألفاظ على جهة الموافقة.

أفـــلا يعني ذلك أن العكس والتبديل لون من ألوان المقابلة زاد عليها : تكرار اللفظ في الجزء الأخير من الكلام، ولكن بطريقة معكوسة ؟

ومـــثل ما قلناه نقوله فيما أورده من تعريف وشواهد لما يسمى (السلب والإيجاب) وهو (أن نبني الكلام على نفي الشيء من جهة وإثباته من جهة أخرى، أو الأمر به في جهة والنهي عنه في جهة أخرى، وما يجري مجرى ذلك.(٢)

ومـــثاله من القرآن قوله تعالى ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾(٣).

فقد نهى عن القول ثم أمر به، كل على وجهه.

ومثله : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾(٤)

ومن الشعر قول السموءل :

وَنُنكِرُ إن شئنا عَلى الناسِ قَولَهُم ... وَلا يُنكِرونَ القَولَ حينَ نَقولُ

فقد أثبت الإنكار ثم نفاه.

وهـــذا الذي ذكره أبو هلال داخل فيما سمي بطباق السلب وهو (الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي أو أمر ونهى(٥)).

---

(١) الروم : ١٩

(٢) كتاب الصناعتين : ٤٢١.

(٣) الإسراء : ٢٣.

(٤) المائدة : ٤٤.

(٥) الإيضاح للقزويني : ١٩٣.

وهو كثير جدا في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ﴾، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[2].

وبذلك يكون العسكري - بتعريفاته وشواهده - قد قارب ما بين الطباق والمقابلة والمشاكلة والمزاوجة والعكس والتبديل والسلب والإيجاب.

وعلى ذلك، فلعلنا لا نعدو الصواب إذا أدخلنا هذه الألوان ضمن أسلوب المقابلة في القرآن الكريم.

٨ - ابن سنان الجفاجي (ت ٤٦٦ هـ).

وفي القرن الخامس الهجري نلتقي بعلمين من أعلام النقد والبلاغة أحدهما مشرقي هو ابن سنان والآخر مغربي وهو ابن رشيق.

أما الأول فهو الأمير أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الجفاجي الحلبي[3]، ومن أشهر كتبه (سر الفصاحة)، وقد استعان فيه بمؤلفات من سبقه كنقد الشعر لقدامه والموازنة للآمدي والوساطة للجرجاني والبيان والتبيين للجاحظ، ومع ذلك فإنه كما يقول الدكتور أحمد إبراهيم موسى صاحب (الصبغ البديعي): (يمتاز بحرية الرأي والاعتداد بالنفس، والجنوح عن التقليد حتى في أيسر المسائل وأهونها شأنا، إذ كثيرا ما ينقد كلام غيره، ويختار غير اختياره معتمدا في ذلك على فكره وعقله[4]).

حين تحدث ابن سنان عن الطباق أو المطابق، جاء ذلك في سياق حديثه عن تناسب الألفاظ من طريق المعنى، وقد بين أنها تتناسب على وجهين:

أحدهما : أن يكون معنى اللفظ متقاربا.

والثاني : أن يكون أحد المعنيين مضادا للآخر، أو قريبا من المضاد، فإذا خرجت الألفاظ عن هذين القسمين فليست بمتناسبة.

والذي يعنينا هنا هو الوجه الثاني من هذه الوجوه، وفيه يذكر ابن سنان إجماع أصحاب الصنعة على تسميته بالمطابق وخروج قدامة على هذا الاجماع بتسميته

---

(١) الزمر : ٩.

(٢) النحل : ٢٠.

(٣) الأعلام : ٤ / ١٢٢.

(٤) الصبغ البديعي : ٢٠٣.

المتكافئ، ويذكر استنكار الآمدي والأخفش لإطلاق قدامة اسم التكافؤ على الطباق والطباق على التجنيس.

ثم يعرض ابن سنان لاختلاف السابقين حول مفهوم الطباق والمقابلة والتضاد والسلب والإيجاب، والتكافؤ والتجنيس، ويخرج علينا برأي جديد وعملي في آن واحد وهو (تسمية الجميع بالمطابق[1]).

وهو رأي ينسجم مع ما ذكره عن تناسب الألفاظ من جهة المعنى إذا كان أحد المعنيين مضادا للآخر، أو قريبا من المضاد.

فجميع هذه الأبواب التي ذكرها ينتظمها التضاد الصريح أو الضمني.

ويعلل ابن سنان هذا الرأي الجريء بأن الطبق للشيء إنما قيل له طبق لمساواته إياه في المقدار إذا جعل عليه أو غطى به، وإن اختلف الجنسان، وفي المثل (وافق شنٌّ طبقه) ومنه (طباق الخيل)، ويورد تفسيرا لقوله تعالى ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾[2] يتسق مع هذا الفهم، فالمراد منه (حال بعد حال) ولم يرد تساويهما في نفس المعنى، وإنما أراد تساويهما في المرور عليكم والتغيير لكم.

فإذا كان هذا حقيقة الطباق، وهو مقابلة الشيء بمثله الذي هو على قدره، سمي المتضادان إذا تقابلا متطابقين.[3]

ثم يسوق ابن سنان أمثلة رائعة لما يستحسن من الطباق، يؤكد بعضها شمولية نظرته في تسمية كل ما فيه تضاد (مطابقة).

ومن ذلك استشهاده ببيت شهير لأبي الطيب يستشهد به معظم البلاغيين على المقابلة، ويعدونه جامعا لاقصى عدد من المقابلات[4] وهو مقابلة خمسة بخمسة وهذا البيت هو :

أَزورُهُم وَسَوادُ اللَيلِ يَشفَعُ لي ... وَأَنثَني وَبَياضُ الصُبحِ يُغري بي

فهو يعلق عليه قائلا : (... فهذا البيت مع بعده من التكلف، كل لفظة من ألفاظه مقابلة بلفظة هي لها من طريق المعنى بمنزلة الضد : فأزورهم وأنثني، وسواد وبياض، والليل والصبح، ويشفع ويغري، ولي وبي.

---

(١) سر الفصاحة : ١٩٢.

(٢) الانشقاق : ١٩.

(٣) سر الفصاحة : ١٩٣.

(٤) من هؤلاء العلماء : النويري في نهاية الأرب ٧ : ١٠١، والقزويني في الإيضاح ١٩٥.

ثم يقسم الطباق إلى محض وغير محض، وهو يقصد بالمحض ما تضاد فيه اللفظان تضادا تاما وصريحا، مثل (سواد وبياض)، وبغير المحض : ما كان قريبا من التضاد ويفهم بالمعنى مثل : (الليل والصبح)، فإن الصبح ليس ضد الليل على الحقيقة، ولكن ضده النهار.

ونؤكد مرة أخرى على شمولية نظرته حين يدخل في المطابق (العكس والتبديل) وهو ينص صراحة على ذلك بقوله: (ومما يجري مجرى المطابق أن يقدم في الكلام جزء ألفاظه منظومة نظاما، ويتلى بآخر يجعل فيه ما كان مقدما في الأول مؤخرا في الثاني وما كان مؤخرا مقدما مثل قول بعضهم (اشكرْ لمن أنعمَ عليك وأنعم على من شكرَك[1]).

وقد سبق أن بينت أن في هذا المثال مقابلة عند الحديث عن أبي هلال.

كما يدخل ابن سنان الخفاجي أيضا في المطابق (طباق الإيجاب والسلب[2]) ويستشهد بقول السموأل السابق :

وَنُنكِرُ إن شئنا عَلى الناسِ قَولَهُم ... وَلا يُنكِرونَ القَولَ حينَ نَقولُ[3]

ولا ينسى الخفاجي أن يورد - كما أورد السابقون - بعض الأمثلة للطباق المعيب والقبيح، ولكنه - مثلهم أيضا - لا يبين سببا كافيا لهذا العيب أو القبح.

وذلك مثل تعليقه على الطباق في قول حبيب بن أوس :

لَعَمري لَقَد حَرَّرتَ يَومَ لَقيتَهُ ... لَوَ انَّ القَضا وَحدَهُ لَم يُبَرِّدِ

وقوله :

وَإِن خَفَرَت أَموالَ قَومٍ أَكُفُّهُم ... مِنَ النَيلِ وَالجَدوى فَكَفّاهُ مَقطَعُ

إذ يقول معميا الحكم: (فإن الطباق بين (حررت) و (يبرد) وبين (خفرت) و (مقطع) من الطباق القبيح الذي لم يرد حُسن معناه، وسلامة لفظه، بل لتكون في الشعر مطابقة فقط.[4]

---

(١) سر الفصاحة : ١٩٦.

(٢) يفرق الدكتور : عبد الفتاح لاشين في كتابه (البديع في ضوء أساليب القرآن) بين نوعين من الطباق هما : طباق الإيجاب وطباق السلب، فالأول : ما اتفق فيه المتقابلان سواء بالإيجاب مثل (وأنه هو أضحك وأبكى) أو السلب مثل (ثم لا يموت فيها ولا يحيى). والثاني ما كان أحد الطرفين فيه مثبتا والآخر منفيا مثل ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ : ص ٢٦.

(٣) سر الفصاحة : ١٧٩.

(٤) السابق : ١٩٥.

أما حديثه عن المقابلة، فقد جاء في سياق حديثه عن صحة المعاني، بعد أن ذكر ما سبق في سياق حديثه عن صحة الألفاظ وتناسبها.

فقد ذكر أن من الصحة : صحة المقابلة في المعاني.

وحين ينص ابن سنان على أن المقابلة إنما تكون بالمعاني فإنما يؤكد بذلك رؤية أوسع من حدود التقابل اللفظي ويدعم رؤية الزمخشري[1] في أن الأصل هو تقابل المعاني لا تقابل الألفاظ.

وتعريف ابن سنان للمقابلة، لا يخرج عن تعريف قدامة لها وتعليقه على ما استشهد به للطرماح بن حكيم :

أَسَرناهُم وَأَنعَمنا عَلَيهِم وَأَسقَينا دِماءَهُمُ التُرابا

بأن (هذه مقابلة صحيحة[2]) يؤكد سيره في ركاب قدامة ومن تبعه.

وإذ يورد ابن سنان أمثلة رائعة للمقابلة الصحيحة، لا ينسى - أيضا - أن يورد أمثلة أخرى لفساد المقابلة كما فعل معظم السابقين.

٩ - ابن رشيق القيرواني (٣٩٠ - ٤٦٣هـ)

في القرن الخامس الهجري ظهر في الساحة الأدبية والنقدية علم أضاء المغرب العربي، وامتد سناه إلى المشرق، ذلك هو (أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني الأزدي) الذي اشتهر بكتابه الهام: (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده).

ومن المفيد في مجال بحثنا أن نتعرف على رأي ابن رشيق في المطابقة والمقابلة وبعض الألوان القريبة منها لنتبين وجهة النظر المغربية في القرن الخامس الهجري. حتى تكتمل الصورة وتتضح.

تحدث الرجل في (العمدة) عن المطابقة في الكلام فأشار إلى أنها عند جميع الناس: (جمعك بين الضدين في الكلام) وبيَّن - كغيره من العلماء - خروج قدامة على هذا الإجماع بتسمية هذا الجمع بين الضدين تكافؤا : (إذ لم يسمه التكافؤ أحد غيره وغير النحاس في جميع من علمته[3]).

---

(١) الكشاف : ٣ / ٣٠٢.

(٢) السابق : ٢٥٨.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني : ٢ / ٥' تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٤.

ثم عرض ابن رشيق بالتفصيل لرأي الخليل والأصمعي في المطابقة، وكشف عن ميله لــرأي الرماني في كونها (مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان) فوصف هذا الرأي بأنــه (أحسن قول سمعه في المطابقة من غيره، وأجمعه لفائدة، وهو مشتمل على أقوال الفريقين وقدامة جميعا[(١)]).

ولشــدة اقتناعه برأي الرماني، نراه يفسر أمثلة الخليل بن أحمد – في هذا – تفسيرا يوافق هذا الرأي، ويعتبر ما قاله الخليل عن المطابقة من أنها (أن تجمع بين الشيئين على حذو واحد وتلصقهما) مساواة للمقدار من غير زيادة ولا نقصان كما يذهب الرماني.

وبالمـثل، نراه يحلل قول الأصمعي تحليلا يتفق مع المساواة، فإن قوله: (أصلها من وضع الرجل موضع اليد في مشي ذوات الأربع) هو مساواة المقدار أيضا.

ثم نــراه ينــتحل الأعــذار لقدامة بن جعفر، حين يُحمِّل كلامه في المطابق معنى (المســاواة) ويفســر قوله في المطابق: (هو ما اشترك في لفظة واحدة بعينها[(٢)]) بأنه – أيضا – مساواة لفظ للفظ[(٣)].

وهكذا نفهم من حديث القيرواني عن المطابقة أنها تعني (المساواة) حتى وإن اختلف الجنسان.

وهــو هنا يتفق مع ابن سنان في تفسيره للطباق (بأن الطبق للشيء إنما قيل له طبق لمساواته في المقدار إذا جُعِل عليه أو غُطِّي به وإن اختلف الجنسان[(٤)]).

ثم يســوق ابن رشيق – في تمكن ظاهر وذوق جميل – أمثلة شيقة للطباق تدل على مقدار فهمه، ودقة اختياره، من مثل قول كُثيِّر بن عبد الرحمن (كثير عزة):

فَوَاللهِ ما قارَبْتُ إلا تَباعَدَتْ　　　بِصَرمٍ وَلا أكثَرتُ إلا أقلَّتِ

وقول أعرابي لصاحبه:

(إن يســار النفس أفضل من يسار المال، فإن لم ترزق غنى، فلا تحرم تقوى، فرب شــبعان مــن النعم غرثان من الكرم. واعلم أن المؤمن على خير، ترحب به الأرض، وتستبشــر به السماء، ولن يساء إليه في باطنها، وقد أحسن على ظهرها). وقول سيد

---

(١) السابق: ٢ / ٧.
(٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر: ١٦٢.
(٣) العمدة: ٢ / ٨.
(٤) سر الفصاحة: ١٩٣.

البشـــر في بعض خطبه (فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار).

وإن معنى المساواة في المقدار، - وهو ما يهدف إليه ابن رشيق - واضح فيما اختاره من أمثلة، وخاصة إذا علمنا أنه يعني المساواة، حتى وإن اختلف الجنسان، فكثير عزة قد طابق وساوى بين مقدار قربه وبعدها، وبين مقدار إكثاره من المودة وإقلالها منها.

والأعـــرابي في قولـــه لصـــاحبه، يضع كل أمرين - وإن اختلفا - حذو بعضهما بالتســـاوي والـــتطابق بين (ترزق وتحرم) و (شبعان وغرثان) و (الأرض والسماء) و (يساء إليه في باطنها وقد أحسن على ظهرها).

وهـــو واضح أيضا في خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم وكلامه كما يقول ابن رشيق هو (الذي لا تكلف فيه، ولا مطمع في الإتيان بمثله(١)).

ألا ترى التطابق بين (الدنيا والآخرة) و (الشبيبة والكبر) و (الحياة والموت) و (الجنة والنار)؟ ومثله من القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾(٢).

ويورد شعرا رقيقا لبعض الشعراء، يصف ما تضمنه من طباق بأنه مَن أخف الطباق روحا، وأقله كلفة، وأرسخه في السمع وأعلقه في القلب، وهو :

١) ألا لَيْتَ أيّاماً مَضى لي نَعيمُها	تَكُرّ عَلَيْنا بالوِصال فنَنْعَم
٢) وصَفراءَ تَحْكي الشمسَ من عهد قيصر	يَتُوق إليها كلُّ مَنْ يَتَكَرّمُ
٣) إذَا مُزِجَتْ في الكأسِ حلْتَ لآلئًا	تَنَشَّرُ في حَافَاقا وتنظّمُ
٤) جَمَعْنَا بِهَا الاشْتَاتَ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ	على أنه لَمْ يُغْشَ في ذاك محرم

(١) العمدة : ٢ / ٨.
(٢) فاطر : ١٩ – ٢٢.

فطـــابق بين (تنشر وتنظم) وبين (جمعنا والأشتات) أسهل طباق وألطفه من غير تعمـــل ولا اســـتكراه، وأتى في البيت الأول من قوله (مضى وتكر) بأخفى مطابقة وأظرف صنعة على مذهب من انتحله[1] ويتحلى ابن رشيق في (العمدة) بروح الناقد المنصف، والحكم البصير العادل.

فهـــو إذا وجد خطأً بينه وأوضح سببه، وسخر من خطل صاحبه ولكنه – في نفس الوقت إذا وجد صوابا، أشاد به واحتفل بصاحبه الذي سخر منه منذ قليل.

تراه يسخر من القاضي الجرجاني إذ يستلطف قول الطائي :

مَها الوَحشِ إلا أنَّ هاتا أُوانِسٌ   قَنا الخَطِّ إلا أنَّ تلكَ ذَوابِلُ

لمطابقـــته بـــين (هاتـــا) و (تلك) وإحداهما – كما زعم أبو الحسن – للحاضر، والأخرى للغائب، فكانتا في المعنى نقيضتين، وبمنزلة الضدين.

ويعقـــب ابن رشيق على قول الجرجاني بقول لاذع تظهر منه القسوة والشدة على الـــرجل. فيقول: (وليس عندي بمحقق، إنما إحداهما للقريب، والأخرى للبعيد المشار إليه، ولكن الرجل أراد التخلص فزل في العبارة[2]).

لكنه سرعان ما يتبنَّى وجهة نظر الجرجاني – الذي سخر منه للتو – حين يحذر من الخلـــط بين الأمور، وإدخال ما ليس من المطابق في المطابق، ويستعين في تحذيره بقول الجـــرجاني في الوساطة: (وقد يخلط من يقصر علمه ويسوء تمييزه بالمطابق ما ليس منه) كقول كعب بن سعد الغنوي :

لَقَد كانَ أمّا حِلمُهُ فَمُرَوَّحٌ   عَلَيَّ وَأَمّا جَهلُهُ فَعَزيبُ[3]

لمـــا رأي الحلم والجهل، ووجد مروحا وعزيبا، جعلها في هذه الجملة، أي (في جملة الطـــباق)، ولو ألحقنا ذلك بها لوجب أن يلحق أكثر أصناف التقسيم، ولاتسع الخرق فيه، حتى يستغرق أكثر الكلام.[4]

ورغـــم أن القيرواني، يسخر من الجرجاني، ثم ينقل عنه ويحفل به، إلا أنه لا يوافقه على طول الخط، بل يدلي برأيه فيما استكره الجرجاني في هذا البيت، ويرى أن المقابلة أو المطابقـــة في هـــذا البيت صحيحة، لمقابلة الشاعر فيه (كلمتين بكلمتين تقربان من

---

(١) العمدة : ٢ / ١١.

(٢) السابق : ٢ / ٩.

(٣) مروح علينا : مريح لنا كما يروح بالمروحة لتجلب نسيم الهواء، عزيب : بعيد، (المعجم الوسيط)، ط ٢، دار المعارف، ١٩٨٠.

(٤) الوساطة بين المتنبي وخصومه : ٤٦.

مضـــادتهما، وليستا بضدين على الحقيقة، لأن (الحلم) ليس ضده في الحقيقة (الجهل)، وإنمـــا ضده (السفه والطيش) وضد (الجهل) (العلم والمعرفة)، وما شاكلهما، وكذلك (المروح) ليس ضده (العزيب)، وإنما ضده (المغْدُوّ به أو المبكر) وما أشبههما[1].

ولكن ابن رشيق يرى صحة ذلك على سبيل التسامح، وهذا – في رأيي – ما عناه ابن سنان (بالطباق غير المحض[2]) وهو الذي يكتفي فيه بمجرد المخالفة لا المضادة.

وأضيف إلى ذلك أن في البيت مقابلة بين قرب حلمه وبعد جهله، وذلك إذا اعتبرنا مـــا في الحلم من معنى الترويح عن النفوس كالمروحة تجلب الهواء البارد الذي يلامس الوجـــوه ويخفـــف من هجير الجو، فكذلك حلمه قرب إليهم الأمن والاطمئنان ولكن جهله بعيد لا يصيبهم بأي أذى.

ويضـــع ابـــن رشـــيق قـــاعدة لذلك إذ يقول: (لأن الناس متفقون على أن جميع المخلوقـــات: مخالف وموافق ومضاد، فمتى وقع الخلاف في باب المطابقة؛ فإنما هو على معنى المسامحة وطرح الكلفة والمشقة[3]).

وعـــلى ذلك فإن ابن رشيق يجَوِّز الطباق بين الحلم والجهل في بيت كعب بن سعد الغنوى السابق، وفي بيت أبي تمام :

وَلَقَد سَلَوتُ لَوَ انَّ داراً لَم تَلُحِ وَحَلُمْتُ لَو أَنَّ الهَوى لَم يَجهَلِ

ويرى ابن رشيق أن التفرقة بين المضاد والمختلف والمؤتلف تتطلب من الأديب ومن القـــارئ خبرة ومعرفة بمعاني الألفاظ وأضدادها، حتى يمكن التمييز بين الطباق المحض وغير المحض، فإن بين الجمال والقبح، والنعيم والضر، طباقا غير محض، يغلط فيهما كثير من الناس، ويظنون أنهما من الطباق المحض، ومن ذلك قول بعض المحدثين :

وَجْهُهُ غايةُ الجمالِ ولَكِن فعله غايةٌ لكلِّ قَبيح

لأن ضد الجمال : الدمامة، وضد القبح : الحسن.

وقول أبي بكر الصولي يصف قلمه :

ناحِلُ الجسم ليسَ يَعْرِفُ مُذْكَا نَ نَعيمًا وليس يَعْرِفُ ضرًا

لأن ضد النعيم : البؤس، لا الضر.

---

(١) العمدة : ٢ / ١٠.

(٢) سر الفصاحة : ١٩٤.

(٣) العمدة : ٢ / ١٠.

ويعيب على البعض أنه يدخل – خطأً – الطباق المحض في غير المحض، كما فعلوا في قول أبي الطيب :

فالسِّلْمُ تَكْسِر من جَنَاحَيْ مَاله بنَواله ما تُجْبرُ الهَيْجَاء

إذا اعتبر البعض أن الطباق بين (السلم والهيجاء) طباقا غير محض، بينما هو في الواقع طــباق محض، لأن المراد بالهيجاء : الحرب، وهي اسم من أسمائها، فكأنه قال: (ما تجبر الحرب) فأتى بضد السلم حقيقة.[1]

كمــا يعقــد القــيرواني بابــا لــ (ما يختلط فيه التجنيس بالمطابقة)، ويبين سبب اختلاطهما، ويرد السبب الأول في هذا الخلط إلى قلة التمييز وعدم الإحسان، ويسوق لذلك أمثلة عديدة توقفنا على مدى خبرته بمرامي الكلام وأسرار الألفاظ.

ولقــد دلــنا الرجل على أن بعض الكلام باطنه مطابقة وإن كان ظاهره التجنيس، (كــأن يقــع في الكلام شيء مما يستعمل للضدين كقولهم: (جلل) بمعنى: (صغير) و (جلل) بمعنى (عظيم)، وكذلك: الجون: الأبيض، والجون: الأسود، وما أشبه ذلك.

ومثله ما يدخله النفي كقول البحتري :

يُقَيِّضُ لي منْ حَيْثُ لا أعلمُ الهوى ويسرى إليَّ الشوقُ منْ حيثُ أعلمُ

فهذا مجانس في ظاهره، وهو في باطنه مطابق، لأن قوله: (لا أعلم) كقوله: (أجهل). ومثله في القرآن الكريم ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

ومما ظاهرة تجنيس وباطنه طباق أيضا : الوعد والوعيد، كما قال الشاعر :

وَإِنِّيَ إن أوعَدتُهُ أو وَعَدتُهُ لَمُخْلِفُ إيعادي وَمُنْجزُ مَوعدي

ومن هذا الباب قولك : فاعل ومفعول نحو خالق ومخلوق وطالب ومطلوب، وهما ضــدان في المعــنى تجانسا في اللفظ وكذلك ما كان اسم الفاعل منه (مُفْعِل) والمفعول (مُفْعَل) نحو مُكْرِم مُكْرَم، ومُعْطٍ ومُعْطَى، وما جرى هذا المجري أو زاد عليه في البناء.

ومما جاء ظاهره طباقا وباطنه تجنيسا، ما قاله العتابي يعاتب المأمون وقد حُجب عنه، وكان به حفيًّا :

تَضْرِبُ الناسَ بالمهنَّدة البيــــ ـضِ على غَدْرِهم وتَنْسَى الوَفَاءَ.

---

(١) العمدة : ٢ / ١٢.

(٢) الزمر : ٩.

ونستنتج مما سبق : أن القيرواني يرى أن هذه الألوان قد تختلط ببعضها بحيث يصبح المجانس مطابقا وبالعكس، وأنه لا حرج في هذا ما دام الأساس موجودا وهو التضاد الصريح أو الضمني بين الأطراف.

وحين خص القيرواني المقابلة بالحديث، عرفها بما اتضح عنده مما لم يُسبق إليه، فقال: (هي مواجهة اللفظ بما يستحقه في الحكم) وهي عنده ممتزجة بالتقسيم[1] والطباق، وتتصرف في أنواع كثيرة.

ولقد مر بنا أن ابن وهب الكاتب صاحب (البرهان في وجوه البيان) يدمج المقابلة مع صحة التقسيم ومراعاة النظير، فلعل القيرواني متأثر بهذا الاتجاه حين يمزج المقابلة بالتقسيم والطباق في أنواع كثيرة.

والقيرواني ينص على أن الأصل في المقابلة هو ترتيب الكلام على ما يجب، فيعطى أول الكلام ما يليق به أولا، وآخره ما يليق به آخرا، ويأتي في الموافق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه.[2]

وهذا التعريف مسبوق إليه من قدامة ومن تبعه.

ويربط ابن رشيق بين الطباق والمقابلة حين ينص على أن أكثر ما تجئ المقابلة في الأضداد، فإذا جاوز الطباق ضدين، كان مقابلة، ويستشهد لذلك بما أنشده قدامة وهو:

فَوا عَجَبًا كيفَ اتَّفَقْنَا فَنَاصِحٌ   وَفِيٌّ وَمَطْوِيٌّ على الغِلِّ غادِرُ

ويؤكد مزج المقابلة بالتقسيم حين يشيد بقول أبي تمام :

فَكُنتَ لناشئهم أَبًا وَلِكَهْلِهم   أَخًا ولِذَوي النُّفُوس والكبيرة ابْنَمَا

فيصف هذا القولَ بأنه (من أحكم المقابلة، وأعدل القسمة، وأن المقابلة كلما توفر حظها من التقسيم والطباق كانت أفضل[3]).

---

(١) التقسيم : هو استقصاء الشاعر جميع أقسام ما ابتدأ به، كقول بشار يصف هزيمة :

بِضَرب يَذوقُ المَوتَ مَن ذاقَ طَعمَهُ   وَتُدرِكُ مَن نَجّى الفِرارُ مَثالِبُه

فَراحوا فَريقاً في الإِسارِ وَمِثلُهُ   قَتيلٌ وَمِثلٌ لاذَ بِالبَحرِ هارِبُه

فالبيت الأول قسمان : إما موت وإما حياة تورث العار، والبيت الثاني ثلاثة أقسام : أ. ر وقتيل وهارب، فاستقصى جميع الأقسام، ولا يوجد في ذكر الهزيمة زيادة على ما ذكر. (العمدة : ٢ / ٢١).

(٢) السابق : ٢ / ١٥.

(٣) السابق : ٢ / ٢٠.

لكـــنه وإن أخذ عن قدامة جزءا من التعريف وهو (أن يأتي في الموافق بما يوافقه وفي المخالف بما يخالف)، إلا أنه ينتقده في عدم مبالاته بالترتيب ومراعاة التقديم والتأخير.

ففي رأيه أن ما أورده قدامة للطرماح:

أَسَرناهُم وَأَنعَمنا عَلَيهِم   وَأَسقَينا دماءَهُمُ التُرابا

فَما صَبَروا لِبَأسٍ عِندَ حَربٍ   وَلا أَدُّوا لِحُسنِ يَدٍ ثَوابا

لا ينطبق على حد المقابلة، فإنه قدم ذكر الإنعام على المأسورين وآخر ذكر القتل في البيت الأول، وأتى في البيت الثاني بعكس الترتيب، وذلك أنه قدم ذكر الصبر عند بأس الحرب، وآخر ذكر الثواب على حسن اليد. اللهم إلا أن يريد بقوله (فما صبروا لبأس عـــند حرب): القوم المأسورين، إذ لم يقاتلوا حتى يقتلوا دون الأسر وإعطاء اليد، فإن المقابلة حينئذ تصح، وتترتب على ما شرطنا[١].

وعاد القيرواني ليؤكد ما بدأه من تعريف المقابلة بأنها: (مواجهة اللفظ بما يستحقه في الحكـــم). فذكر أن هذه تسمى عندهم: مقابلة الاستحقاق، ويقرب ذلك إلى الأذهان حين يستشهد على هذه المقابلة بقول أبي الطيب المتنبي :

رِجلاهُ في الرَكضِ رِجلٌ وَاليَدانِ يَدٌ   وَفِعلُهُ ما تُريدُ الكَفُّ وَالقَدَمُ

لأن الكـــف من اليد بمنزلة القدم من الرجل، فبينهما مناسبة، وليست مضادة، ولو طُلـــبت المـــضادة، لكان الرأس أو الناصية أولى، كما قال تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾.[٢]

وهـــو بهـــذا يفـــتح بـــاب المقابلة على مصراعيه أمام المضاد والقريب من المضاد، والتناسب بين الألفاظ والمعاني، بحيث يواجه كل لفظ بما يستحقه في الحكم.

والدلـــيل علـــى ذلـــك – بالإضافة إلى ما سبق – رؤية الرجل نفسه لوجه الجمال والحسن في المقابلة في قوله تعالى ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾.[٣]

---

(١) العمدة : ٢ / ١٥ – ١٦.

(٢) الرحمن : ٤١.

(٣) القصص : ٧٣.

في حين لم يلتفت إلى التضاد بين الليل والنهار، وبين السكون والحركة الناجمة عن ابتغاء الفضل.

ومعنى ذلك: أن ابن رشيق يوسع مفهوم المقابلة لتشمل الطباق والتقسيم والتناسب ويدخـــل فيها أيضا نوعا – يختص باسم الموازنة[1]، وهو ما ليس مخالفا ولا موافقا – كما شرطوا – إلا في الوزن والازدواج[2] فقط.

وممّا يوضح لنا هذا، استشهاده بقول أبي الطيب:

نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال

حيث وازن قوله: (في حياتك) بقوله (في منامك) وليس بضده ولا موافقه. وكذلك صنع في الموازنة بين (حبيب) و (خيال) فهما متحدان في الوزن وفي التقطيع العروضي وإن اختلف حرف اللين فيهما. فكلاهما (فعولن).

ومما يؤكد حرصه على مزج الموازنة بالمقابلة، تعقيبه على قول النابغة الجعدي:

فَتىً تَمَّ فيه ما يَسُرُّ صَديقَهُ عَلى أنَّ فيه ما يَسُوءُ الأعاديا

بأن (هذا جيد، ولو كان كل مقابل على وزن مقابله في هذا البيت لكان أجود)[3].

وكمـــا فعل معظم السابقين – حين تناولوا هذا الفن – أورد ابن رشيق طائفة من عيون الشعر، وروائع النثر، ودررا من القرآن الكريم، كأمثلة للمقابلة الصحيحة.

كما عني – أيضا – بذكر أمثلة أخرى للمقابلة المعيبة، محللا بعضها، وتاركا البعض الآخر لفطنة القارئ وذكائه.

فمـــن أمـــثلة المقابلة الجيدة من القرآن الكريم، قوله تعالى ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[4]

ومن الشعر قول عمرو بن معدي كرب الزبيدي:

---

(١) الموازنة: هي أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية كقوله تعالى ﴿ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ﴾. الإيضاح للقزويني: ٢٢٤.

(٢) الازدواج هـــو: تجانس اللفظين المجاورين نحو (من جَدَّ وَجَدَ، ومن لَجَّ وَلَجَ). انظر في ذلك جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي ط ١٢، دار الفكر، بيروت ١٩٧٨م، ص ٤٠٤، وانظر أيضا ٤/٩٥ – ٩٦ من كتاب: بغية الإيضاح، عبد المتعال الصعيدي، ط ٢، مكتبة الآداب ومطبعتها، مصر.

(٣) العمدة: ٢ / ١٦

(٤) سبأ: ٢٤.

وَيَبقى بَعدَ حِلمِ القَومِ حِلمي وَيَفنى قَبلَ زادِ القَومِ زادي

فقال (يبقى بعد) ثم قال (يفنى قبل).

وقول الفرزدق :

وَإنّا لتمضى بالأَكُفّ رِماحُنا إذا أُرعشَت أَيديكُمُ بالمَعالق[1]

ومن النثر قول بعض الكتاب (فإن أهل الرأي والنصح لا يساويهم ذوو الأفن والغش، وليس من يجمعُ إلى الكفاية الأمانةَ، كَمَنْ أضافَ إلى العجز الخيانةَ[2]).

ومما أورده من معيب المقابلة، وما سقط فيه الشاعر عبد الكريم من جهة المقابلة – وإن كان تمثيلا وتشبيها – حين مدح نزار بن معد صاحب مصر :

إلى ملكٍ بيْن الملوكِ وبينه مسافَةُ ما بين الكواكب والترُّب

لأنه لما أتى بالملوك أولا، وبضمير الممدوح (وهو هاء بينه) بعد ذلك، ثم لما أتى بـ (الكواكب) وهي جماعة تقابل (الملوك) وبـ (الترب) وهو واحد يقابل الضمير باتحاده، أوجب له بهذا الترتيب أن يكون هو الترب – وتكون الملوك هم الكواكب، و لم يرد عبد الكريم إلا أن يجعله موضع الكواكب، ويجعلهم موضع الترب، ولكن حكم عليه بما حكم على ابن المعتز[3] الذي انتهى إليه التشبيه وسر صناعة الشعر.[4]

ولا ننسى قبل أن نترك ابن رشيق إلى غيره أن ننوه بجهوده، وبالجديد الذي أتى به في باب المقابلة، وأن نشيد بسعة أفقه ونفاذ بصيرته حين وسَّع مفهوم المقابلة هذا التوسيع الذي يحفظ للبديع بعضا من وحدته التي تمزقت، ويجمع النظير إلى نظيره كلما أمكن ذلك.

---

(١) العمدة : ٢ / ١٦.

(٢) العمدة : ٢ / ١٨.

(٣) عاب الجرجاني على ابن المعتز قوله :

بَياضٌ في جَوانِبِه احمِرارٌ كَما احمَرَّت مِنَ الخَجَلِ الخُدودُ

لأن الخدود متوسطة، وليست جوانب، وهذا من سوء المقابلة وإن عده الجرجاني غلطا في التشبيه (العمدة : ٢ / ١٨).

(٤) العمدة : ٢ / ١٩.

١٠ - السكاكي[١] (٥٥٥ - ٦٢٦ هـ)

في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع نلتقي بالسكاكي: (سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي). فنجد علوم البلاغة، وخاصة البديع (تنحدر رويدا رويدا إلى هاوية الإسفاف والانحطاط ويفقد البديع صبغته الأدبية التي أبرزته في معرض الإشراق والإعجاب، ويتعثر في قيود ضيقة قدَّها له المنطق والفلسفة حتى صار همُّ العلماء تعديد ألوانه، والاكتفاء بتحديدها، كما تحدد الكلمات اللغوية، وسوق الأمثلة التقليدية التي يتوارثونها كابرا عن كابر، حتى صارت الكتب الكثيرة التي ألفت فيه بعد السكاكي - زعيم هذه الحلبة - كأنها كتاب واحد، فمن وقف على أحدها غني به عما عداه[٢]).

وفي كتابه (مفتاح العلوم) يتحدث عن المطابقة والمقابلة ضمن (الوجوه المخصوصة التي كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام[٣]).

ومعنى ذلك أنه يعتبر البديع عموما: علم الزينة اللفظية، وزخرفة الكلام، وأن هذا هو المقصد الأول منه، مع أن البديع وخصوصا المقابلة في القرآن الكريم تأتي لتؤدي دورا جوهريا في المعنى، وليست لمجرد الحلية والزينة كما سيتضح فيما بعد.

وهذه الوجوه المخصوصة التي تقصد لتحسين الكلام عند السكاكي تنقسم إلى قسمين:

قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ، ولحسن الحظ، أنه يعتبر المطابقة والمقابلة مما يرجعان إلى المعنى.

وكما كان عصر السكاكي، عصر الشروح المطولة، كان أيضا عصر الاختصار والمتون.

لذلك فإننا نجد السكاكي يتحدث في عدة سطور عن المطابقة، عرفها بأنها (الجمع بين متضادين) واستشهد لها ببيت واحد من الشعر، وبثلاث آيات من القرآن الكريم، دون أن يكلف نفسه عناء الإشارة إلى سر جمالها أو توضيح موطن الطباق فيها.

---

(١) الأعلام : ٨ / ٢٢٢.

(٢) الصبغ البديعي : ٢٤٣.

(٣) مفتاح العلوم، للسكاكي (سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر): ٢٠٠، ط : الحلبي - القاهرة.

وبالمــثل حــين تحدث عن المقابلة، لم يتجاوز تعريفها والاستشهاد لها بمثال واحد، وتكرم ببيان وجه الاستشهاد به.

عــرف المقابلــة بأنها (الجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر، وبين ضديهما)، وهو تعريف متواتر عن سبقه.

لكــن مــا زاده السكاكي على تعريف المقابلة هو قوله (ثم إذا شرطت هنا شرطا شرطت هناك ضده).

واستشــهد لها بقوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ ﴾(1)

لمــا جعــل (التيســير) مشتركا بين الإعطاء والاتقاء والتصديق جعل ضده وهو (التعسير) مشتركا بين أضداد تلك وهي المنع والاستغناء والتكذيب.

وبهذا الاختصار (فتح السكاكي الباب لمن بعده، حتى وصلت البلاغة إلى الحد الذي يثير الضحك ويبعث على التندر(2)).

وهكــذا اختصر السكاكي الحديث عن الطباق والمقابلة اختصارا أذهب برونقهما وبهائهما اللذين لمسناهما عند من سبقه.

١١- ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ)

إن أي عصر مهما اشتد ظلامه، لا بد أن تبرق في سمائه ومضة تحيي الأمل، وشعاع يبعث في النفوس الحياة، والتشوف لفجر جديد.

ففــي وســط موجه الإسفاف، والانحطاط، وجمود البلاغة والبعد بها عن الصبغة الأدبــية، نجد عالما فاضلا يحاول أن يخرج بالبلاغة من الوهدة التي تردت فيها، فيجدد شبابها ويضعها في مسارها الصحيح.

ذلك هو ابن الأثير: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري أبو الفتح ضياء الدين المعروف بابن الأثير(3).

---

(1) الليل : ٥ - ١٠.

(2) الصيغ البديعي في اللغة العربية، الدكتور أحمد إبراهيم موسى : ٢٥٤، ط - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩.

(3) ضياء الدين بن الأثير: أصغر ثلاثة أخوة الذين عرفوا ببني الأثير، أكبرهم مجد الدين (المحدث) ت ٦٠٦، وأوسطهم: عز الدين (المؤرخ)، وأصغرهم ضياء الدين (- ٦٣٧) الأعلام : ٨ / ٣١

وقـــد سبق أن أشرت إلى جهده المشكور في تأصيل الفكر العربي والثقافة العربية، وعدم تأثرها بالفكر اليوناني[1].

وأول مـــا يلفـــت نظـــرنا في حديثه عن المطابقة والمقابلة، أنه تحدث عنهما ضمن الحديث عن تناسب المعاني، فقد بين أن وجوه هذا التناسب تندرج في ثلاثة أنواع:

الأول: المطابقة،

الثاني: صحة التقسيم،

الثالث: ترتيب التفسير وما يصح من ذلك وما يفسد.

وفي حديثه عن المطابقة، عرض لحقيقتها، واستعرض ما قاله السابقون عنها وخروج قدامـــة على الإجماع، حين عرف المطابقة تعريفا ينطبق على الجناس فقال بأنها (إيراد لفظين متساويين في البناء والصيغة مختلفين في المعنى).

لكـــنه رأى أن الاشتقاق اللغوي يؤيد رأى قدامة، على اعتبار أن المطابقة مأخوذة مـــن: طـــابق البعير في سيره: إذا وضع رجله موضع يده، فاليد غير الرجل لا ضدها، والموضع الذي يقعان فيه واحد، فكذلك المعنيان يكونان مختلفين واللفظ الذي يجمعهما واحد. فقدامة سمى هذا النوع من الكلام مطابقا، حيث كان الاسم مشتقا مما سمي به، وذلك مناسب وواقع في موقعه[2].

وكمـــا سمى ابن سنان الجميع (مطابقا)[3]. كذلك ذهب ابن الأثير إلى أن الأليق مـــن حيث المعنى إطلاق اسم المقابلة على المطابقة[4] ثم شرع في تعليل مذهبه، وحينئذ غلبت عليه لغة العصر في التعليل والتقسيم العقلي والمنطقي.

إن الأمر عنده – على حد قول المناطقة – لا يخلو من وجهين: فإما أن يقابل الشيء بضده، أو أن يقابل بما ليس بضده، وليس هناك وجه ثالث.

فأما ما يقابل بضده، فينقسم إلى نوعين:

الأول: مقابلـــة في اللفظ والمعنى مثل قول علي رضي الله عنه لعثمان رضي الله عنه: (إنَّ الحـــقَّ ثقيلٌ مريء والباطلَ خفيف وبيء، وأنت رجل إن صدقتُ سخطتَ، وإن كذبتُ رضيتَ).

---

(١) ارجع إليه ص (٣٨) من هذا البحث، وفي المثل السائر : ١/ ٣١١

(٢) المثل السائر: ٢ / ٢٧٩

(٣) سر الفصاحة : ١٩٢

(٤) المثل السائر : ٢ / ٢٨٠

فقابل الحق والباطل، والثقيل المريء بالخفيف الوبيء، والصدق بالكذب، والسخط بالرضا، في خمس مقابلات في هذه الكلمات القصار[1].

والثاني: مقابلة في المعنى دون اللفظ، مثل قول المقنع الكندي من شعراء الحماسة:

لهمْ جُلُّ ما لِي إنْ تتابَعَ لِي غِنًى وإنْ قَلَّ ما لي لم أكلِّفْهم رِفْدًا

لأنه قوله: (تتابع لي غنى) بمعنى قوله (كثر ما لي).

وأما ما يقابل بما ليس ضده، فقد قسمه إلى ضربين:

أحدهما: ألا يكون مثلا، والآخر أن يكون مثلا.

وقسم الضرب الأول إلى فرعين: ما كان بين المتقابلين نوع مناسبة وتقارب، وما كان بينهما بعد، وأدخل في الأخير: المؤاخاة بين المعاني، والمؤاخاة بين المباني ولعلها هي التناسب أو مراعاة النظير الذي تحدث عنه ابن رشيق[2] من قبل، كما قسم الضرب الثاني إلى فرعين أيضا: مقابلة المفرد بالمفرد، ومقابلة الجملة بالجملة.

وركز اهتمامه على الأخير باعتباره تقابلا من جهة المعنى ومثّل له بقوله تعالى: (قُلْ إنْ ضللت فإنما أضلّ على نفسي وإن اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي) فهذا تقابل من جهة المعنى، ولو كان من جهة اللفظ، لقال: (وإن اهْتَدَيْتُ فإنما أَهْتَدي إليها)[3].

ثم نوه - بعد هذه التقسيمات والتفريعات - إلى أن في تقابل المعاني بابا عجيب الأمر يحتاج إلى فضل تأمل وزيادة نظر[4]، وهو ما نوه به الزمخشري في الكشاف[5] والزركشي في البرهان[6].

ورغم الجفاف الذي يبدو من هذه التقسيمات المنطقية التي غلبت على ابن الأثير، إلا أنه حين عرض الشواهد وعلق عليها ظهرت فيه روح الأديب الفنان، ورؤية الذواقة البصير فجاءت بأسلوب أدبي رائع مبلل بقطر الندى، مما لطف من جو الجفاف المنطقي، هذا بالإضافة إلى ما طعم به حديثه عن المقابلة من شواهد من تأليفه هو كأن

---

(١) السابق : ٢ / ٢٨٠

(٢) العمدة : ٢ / ١٦

(٣) المثل السائر : ٢ / ٣٠٠

(٤) السابق : ٢ / ٣٠١

(٥) الكشاف : ٤ / ١٤٥

(٦) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (الإمام بدر الدين محمد عبد الله بن بهادر) : ٣ / ٤٦٣، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، الحلبي، مصر ١٩٥٧

يقــول: (ومـــن كلامي في هذا الباب ما كتبته في صدر مكتوب إلى بعض الإخوان: صـــدر هـــذا الكتاب عن قلب مقيم وجسد سائر وصبر مليم وجزع عاذر، وخاطر أدهشته لوعة الفراق فليس بخاطر[1]).

وهـــذا يـــدل على أن الرجل وإن غلبت عليه لغة العصر، إلا أنه كان يحاول تجديد شباب البلاغة بتعليقاته وشواهده.

١٢- حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ)

ونعـــود مرة أخرى إلى المغرب العربي، فنلتقي في القرن السابع الهجري بقطب بارز مـــن أقطـــاب البلاغة والأدب، وهو (أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم القرطاجني المـــتوفى بتونس ٦٨٤هـ[2]). وهو صاحب كتاب (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) ذلك الكـــتاب الـــذي عدت عليه عاديات الزمن (ولم يبق منه سوى قسمين أحدهما يتعلق بالمعاني والثاني يتعلق بالمباني[3]).

ولا بد لمن يريد الانتفاع بهذا الكتاب أن يتسلح بالصبر، وأن يفهم - قبل الدخول فـــيه - الاصـــطلاحات والـــرموز التي استخدمها حازم وتختلف عن المعهود في كتب المشارقة.

فهو يستعمل اصطلاحات خاصة مثل كلمة (مأم) وتعني: مقصد أو فصل من باب، وكلمة (إضاءة) وتعني: رأس فقرة ومثلها في المعنى (تنوير)، كما أن الحرف (ق) يرمز إلى (قسم).

والقارىء لهذا الكتاب يهوله ذلك الثراء الفكري، وهذا العمق الكبير والبصر بمرامي الكـــلام، كمـــا يروعه اهتمام حازم البالغ بالمعاني وأحوالها، وخاصة من حيث كونها ملائمـــة للنفوس أو منافرة لها فتحت هذا العنوان الضخم (المعاني) وهو القسم الأول من كتابه تحدث الرجل عن تفريعات شتى، لا غنى عنها في صناعة الأدب، كلها تدور حول المعاني، مما يوحي بأن المعنى هو دينه وديدنه وشغله الشاغل.

---

(١) المثل السائر : ٢ / ٢٨١

(٢) الأعلام : ٢ / ١٥٩

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني (من المقدمة)، تحقيق وتقديم : محمد الحبيب بن الخوجة، ط ١، دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٦٦

تحدث عن الإبانة عن ماهيات المعاني، وانحاء وجودها ومواقعها، والتعريف بضروب هيئاتها، وجهات التصرف فيها وما تتغير به أحوالها في جميع ذلك، من حيث كونها ملائمة للنفوس أو منافرة لها، وكأنه بذلك يرسي مبدءا نقديا هاما، يجب أن تراعيه الأعمال الأدبية إذا أرادت أن يُكْتَبَ لها النجاح والخلود .

كما تحدث عن طرق اجتلاب المعاني وكيفية التئامها وبناء بعضها على بعض، وطرق العلم بكيفيات مواقع المعاني في النفوس وطرق استثارة المعاني من مكامنها، والعلم بالمناسبة بين بعض المعاني والمقارنة بين المتناظر منها.

وفي سياق حديثه عن تلك الأبواب، وخاصة طرق اجتلاب المعاني وكيفيات التئامها، وبناء بعضها على بعض؛ تحدث عن المطابقة والمقابلة.

ومعنى ذلك أنه يعتبرهما جزءا جوهريا في باب المعاني، وليستا مجرد لونين من ألوان الزينة اللفظية، والحلى البديعية.

وهكذا، وفي الوقت الذي توشك فيه شعلة العلم أن تخبو في المشرق، وفي الوقت الذي يسود فيه الإسفاف، ويغلب فيه الجمود الفكري، تبزغ شمس المعرفة والعلم في المغرب، ويحمل الشعلة المقدسة رواد جدد، لأن الله تعالى يريد للغة القرآن أن تظل نابضة بالحياة، دفاقة بالفكر، فياضة بالنور، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[1]

حين تناول القرطاجني المطابقة والمقابلة بالحديث، اعتبرهما ضمن طرق اجتلاب المعاني، وبناء بعضها على بعض، فهما إذن ركن ركين وأساس متين في المعنى والصورة على حد سواء.

فالمطابقة عنده تعني (وضع أحد المتضادين أو المتخالفين من الآخر وضعا متلائما[2]).

وهو إذ يضيف إلى تعريف السابقين كلمتي (وضعا متلائما) فإن ذلك ليكشف عن اهتمامه بطرق اجتلاب المعاني، وكيفيات التئامها، وملاءمتها للنفوس.

وفي أثناء ذلك، يورد – كما أورد غيره – خروج قدامة على هذا المعنى، وتسميته تضاد المعنيين (تكافؤا)، كما يعرض للأصل اللغوي للفظ المطابقة، بما لا يخرج عما

(١) الحجر : ٩

(٢) منهاج البلغاء، لحازم : ٤٨ وما بعدها.

رأيـناه عـند الخليل بن أحمد، كما يقسم المطابقة إلى محضة وغير محضة ويعطي تعريفا لكل منهما، ويوشح ذلك بالأمثلة مع بعض التعليقات البسيطة.

كما يعرض للمطابقة بالإيجاب والسلب مستشهدا بقول السموءل:

ونُنكر إن شئنا على الناس قولهم   ولا ينكرون القول حين نقول

وقول البحتري:

تَقَيَّضَ لِي مِن حيثُ لا أعلم النَّوَى   ويَسْرِي إِلَيَّ الشَّوْقُ مِن حيثُ أعلم

ويدخل في المطابقة ما وقع بغير اللفظ كقول بعضهم:

فإنْ تَقْتُلُونِي فِي الحديد فإنني   قَتَلْتُ أخاكُم مُطلقًا لم يُكَبَّلْ

فإن (مطلقا) تقابل في المعنى (في الحديد)

ويلفـت النظر إلى أنه قد يوجد في الكلام ما صورته صورة الطباق، وليس بمطابقة من جهة المعنى، كقول قيس بن الخطيم:

وإني لأُغْنَى الناسِ عن متكلِّف   يرى الناسَ ضُلالا وليس بِمُهْتَدِي

فإن (ليس بمهتدي) لا تضاد ولا تخالف (ضلالا) بل هي في معناها.

ويـبدو أن حازما - في هذا - متأثر بالقاضي الجرجاني وابن رشيق في التحذير من خلط ما ليس من المطابق بالمطابق[1].

كمـا يدخـل حـازم التبديل ضمن المطابقة، وهو عنده: (تخالف وضع الألفاظ لـتخالف في وضع المعاني، ولنسبة بعضها من بعض فيقع بذلك بين جزءين من أجزاء الكلام نسبتان مختلفتان مثل:

أنتَ للمال إذا أَصْلَحتَهُ   فإذا أَنْفَقْتَهُ فالمالُ لكَ

وقد روى ابن رشيق صدر هذا البيت بغير الوجه الذي هو عليه في هذا النص، فجاء (إذا أمسـكته[2]) بـدل (إذا أصلحته) ولكن ابن رشيق كان يستشهد به للطباق بين (أمسكته) و (أنفقته)، أما حازم فيستشهد به للتبديل بين (أنت للمال) و (فالمال لك).

وتَناوُلُ حازم للطباق - بهذه الصورة - يعيد إلى الأذهان ما فعله القاضي الجرجاني وابـن سـنان، في تقسيمهما الطباق إلى محض وغير وحض، وفي حديثهما عن العكس والتبديل. والإيجاب والسلب.

(١) الوساطة : ٤٦

(٢) العمدة : ٢ / ٨

أما حين تحدث القرطاجني عن المقابلة، فقد بسط القول في تعريفها، ليوضح الهدف من المقابلة، وهذا هو الجديد عنده، لأن معظم من سبقه بالحديث عن المقابلة لم يذكر الهدف منها، أما وصاحبنا مشغول بالمعنى، ومَعْنِيٌّ به – فقد اعتبر أن الهدف من المقابلة هـــو كونها: (مَأَمٌّ من مذاهب البلاغة المستشرفة بمعلم طرق العلم بالمناسبة بين بعض المعـــاني وبعـــض، والمقارنة بين ما تناظر منها[1]) أي أن الهدف هو كونها مقصدا من مقاصد البلاغة، تطلب وتقصد مناسبة بين بعض المعاني وبعضها الآخر، وللمقارنة بين المتناظر من هذه المعاني.

.. ولذا، وجدناه يطيل في تعريفها إطالة يقصد من ورائها إفهام القارىء والأديب، المغزى الذي يتحقق من المقابلة وبيان مدى ما أسهمت به في خدمة المعنى.

انظر إليه يقول:

(تكـــون المقابلة في الكلام بالتوفيق بين المعاني التي يطابق بعضها بعض، والجمع بين المعنـــيين اللذيـــن يكون بينهما نسبة تقتضي لأحدهما أن يذكر مع الآخر، من جهة ما بيـــنهما مـــن تباين أو تقارب، على صفة في الوضع تلائم بها عبارة أحد المعنيين عبارة الآخر، كما لاءم كلا المعنيين في ذلك صاحبه).

ويفهم من هذه العبارة أن المقابلة تشمل: الطباق ومراعاة النظير والتناسب.

وهـــي – عـــلى طولها – لا تبعد كثيرا عما عناه قدامة في قوله: (أن يضع الشاعر معـــاني يـــريد التوفـــيق بين بعضها وبعض أو المخالفة، فيأتي في الموافق ما يوافق وفي المخالف بما يخالف، أو يشرط شروطا ويعدد أحوالا في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي بما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدده، وفيما يخالفه بأضداد ذلك[2]).

كما يتفق هذان القولان تقريبا مع قول ابن رشيق: (مواجهة اللفظ بما يستحقه في الحكم).

وربما كان الخلاف بين هؤلاء العلماء في طريقة العرض فقط.

ولا يتوســـع حازم في الشرح والتفصيل والتمثيل للمقابلة، بل يكتفي بالقول: (بأنها أنـــواع تتشعب، وقل من تجده يفطن لمواقع كثيرة منها في الكلام[3]) ويورد القليل من الأمثلة للمقابلة الصحيحة كقول هند بنت النعمان:

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٥٢، ومعنى (مأم): مقصد وطلب ومثلها معنى (معلم)

(٢) نقد الشعر: لقدامة بن جعفر : ١٣٣

(٣) منهاج البلغاء لحازم : ٥٢

(شَكَرَتْكَ يدٌ نالتْها خَصَاصَةٌ بعد نعْمة، ولا مَلَكَتْكَ يدٌ نالتْ ثروةً بعد فاقة).

ويكشـــف - كغـــيره - عن الخلط بين المقابلة وما ليس منها، ثم يذكر أنها تكون أفضـــل بالتضـــاد (أو التخالف، وكأنه يعني بذلك ما عناه غيره بالمقابلة المحضة، وغير المحضة).

والجديـــد عـــنده أنه لا يشترط الترتيب بين أطراف المقابلة: (إذ ليس شرطا تحاذي عبارتي المعنيين المتقابلين في طرفي الكلام في الرتبة[1] وقد استشهد لذلك بما أورده قدامة من قبل: و لم تتحاذ فيه عبارتا المعنيين، وهو قول الشاعر:

أسرناهم وأنعمنا عليهم — وأَسْقَيْنا دماءَهم الترابا
فما صبروا لبأس عند حرب — ولا أدوا لحُسْنٍ يدٍ ثوابا

حيـــث قـــابل ما في صدر البيت الأول بما في عجز الثاني وما في عجز الأول بما في صدر الثاني.

وتجويز حازم لمثل هذا النوع من المقابلة - على ندرته - يوحي بسعة أفقه ورحابة صـــدره، عـــلى نقيض ما رأينا من ابن رشيق وهو ينتقد - بمرارة - قدامة على عدم مبالاته بالترتيب[2]، فقد وجدت أثناء بحثي عن المقابلة في القرآن هذا النوع النادر الذي لم يلـــتزم فيه القرآن الترتيب بين الأطراف المتقابلة، وذلك كالتقابل بين الآية السابعة والســـتين، والحادية والسبعين من سورة التوبة على ما سيأتي بيانه بالتفصيل في موضعه من هذا البحث إن شاء الله[3].

فـــإذا مـــا تركنا القرن السابع إلى القرن الثامن، ألفينا نغمة العلماء تتحد، وأقوالهم تتشـــابه، وتقسيماتهم تتساوى ذلك لأن المنهل الذي نهلوا منه جميعا واحد وهو تراث السابقين، ولأن المورد الذي امتاحوا منه لم يضن عليهم بشيء.

وسنعرض لآراء ثلاثة من أعلام المائة الثامنة، عاشوا في عصر واحد، ونهلوا - كما قلت - من منهل واحد.

---

(١) السابق : ٥٣

(٢) العمدة : ٢ / ١٥ - ١٦

(٣) انظر (٣٦٧) من هذا البحث. في فصل (مقابلات متميزة في القرآن الكريم)

ولذلــك لن نجد فارقا بينهم، لا في الإتجاه العام، ولا في الجوهر الأصلي للموضوع الــذي نعالجه، وأولئك الثلاثة هم: النويري، والقزويني، الجرجاني (محمد بن علي بن محمد).

١٢- النويري (٦٧٧-٧٣٣هـ)

والــنويري هو (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم التيمي الــبكري القرشي، المعروف بالنويري صاحب الكتاب الشهير " نهاية الأرب في فنون الأدب "[١].

وقــد عــرض في الجــزء السابع من كتابه للحديث عن الطباق والمقابلة والعكس والتبديل[٢].

وهــو يعــرف الطباق، تعريف السابقين بأنه (الجمع بين ضدين مختلفين) ويورد تأكيد الأخفش على الفرق بينه وبين التجنيس حين قال – وقد سئل عنه – أجد قوما يخــتلفون فــيه: فطائفه – وهم الأكثر – يزعمون أنه الشيء وضده، وطائفة تزعم أنه اشتراك المعنيين في لفظ واحد كقول زياد الأعجم:

ونبئتُهُم يستنصرون بِكاهلٍ وللؤم فيهم كاهلٌ وسنامُ

ثم قــال (الأخفش): وهذا هو التجنيس بعينه، ومن ادعى بأنه طباق، فقد خالف الأصمعي والخليل، فقيل له: أو كانا يعرفان ذلك؟ فقال: سبحان الله! وهل أعلم منهما بالشعر وتمييز خبيثه من طيبه[٣]؟

وكأني بالأخفش هنا يعرض بقدامه حين خرج على هذا الإجماع.

ويذكر النويري أن الطباق يسمى المطابقة والتضاد والتكافؤ.

وينبه على ضرورة مراعاة التقابل، حتى لا نجيء باسم مع فعل ولا بفعل مع اسم.

كمــا يعرض للشواهد المشهورة في هذا الباب، ونذكر منها ما لم نورده لغيره من قــبل، مــن مــثل قوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾[٤]

---

(١) الاعلام : ١ / ١٦٥

(٢) نهاية الأرب في فنون الأب، شهاب الدين النويري : ٧ / ٩٩ – ١٠٣، ط ١ ، مطبعة دار الكتب – مصر ١٩٢٩م

(٣) السابق : ٩٩

(٤) الرعد : ١٠

وقول البحتري :

وأُمَّة كانَ قُبحُ الجَورِ يُسخِطُها دَهراً فَأَصبَحَ حُسنُ العَدلِ يُرضيها

ولم يبين موطن الشاهد لوضوحه.

كما عرض لرأي ابن أبي الأصبع في الطباق، وكونه على ضربين :

ضرب يأتي بألفاظ الحقيقة، وضرب يأتي بألفاظ المجاز،

فالأول هو الطباق، والثاني هو التكافؤ.

لكنه لم يوافق على ما استشهد به ابن أبي الأصبع للجمع بين الطباق والتكافؤ في بيت دعبل الخزاعي :

لا تَعجَبي يا سَلمَ مِن رَجُلٍ ضَحِكَ المَشيبُ بِرَأسِه فَبَكى

على اعتبار أن (ضحك المشيب) مجاز، و (بكاء الشاعر) حقيقة، وحجة النويري في رفض هذا الشاهد، أنه إذا كان الطباق عند ابن أبي الأصبع هو التضاد من حقيقتين، والتكافؤ هو التضاد من مجازين، فليس في البيت ما شرطه.

والنويري مصيب في اعتراضه على تخريج ابن أبي الأصبع، لأن المجاز في البيت لا يقابله مجاز مثله، والحقيقة فيه لا تقابل بمثلها.

كما عرض النويري في كتابه لطباق النفي والإثبات، ولطباق السلب والايجاب، وزاد عليهما طباق الترديد، وهو أن يرد آخر الكلام المطابق إلى أوله، ولم يمثل له، لكن مثاله من القرآن الكريم هو ﴿ عسى أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[1].

ومن كل ما سبق من حديث للنويرى عن الطباق: يتضح لنا أنه لم يضف شيئا جديدا إلى ما قرره السابقون من العلماء حول هذا الفن، واكتفى بعرض آرائهم والتعليق عليها تعليقا غير ذي بال.

وحين تحدث عن المقابلة: كان - أيضا - مجرد ناقل عمن سبقه: تعريفا وشواهد من غير تعليق.

عرض تفصيل أئمة البلاغة لمقابلة اثنين باثنين: كقوله تعالى ﴿ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا ﴾.

---

(١) البقرة : ٢١٦

والمقابلة ثلاثة بثلاثة : كقول ابي نواس :

أنا استَدعيتُ عَفْوَكَ مِنْ قريبٍ   كما استَعْفَيْتُ سُخْطَكَ مِنْ بَعيدِ

والمقابلة أربعة بأربعة، بآية " الليل " المشهورة :

﴿ فأمـــا مـــن اعطـــى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى. وكذب بالحسنى. فسنيسره للعسرى ﴾.

وهـــنا رأيـــنا النويري يحاول أن يخرج معنى (استغنى) على أنها (زهد فيما عند الله، واستغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة؛ وذلك يتضمن عدم التقوى [(١)].

وقـــد لجـــأ إلى هذا التخريج الذي يتضمن عدم التقوى، لكي يقابل (استغنى) ب (اتقى) وهي محاولة طيبة منه، إذا اعتبرنا ذلك داخلا في المقابلة المعنوية أو غير المحضة.

واستشهد لمقابلة خمسة بخمسة، بقول المتنبي المشهور :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي   وأنثني وبياض الصبح يغرى بي

ثم عـــرض – بعد ذلك – للعكس والتبديل، ولم يبد رأيا فيه، ولم يحدد ما إذا كان داخلا في المقابلة أم لا.

وقد سبق أن رأينا ابن سنان في (سر الفصاحة) يدخل العكس والتبديل في المقابلة[(٢)] وملنا إلى هذا الرأي في موضعه[(٣)].

لكن ما يحمد للنويري في هذا الباب، هو تقسيمه العكس والتبديل إلى ثلاثة أقسام :

١– أن يقع بين طرفي الجملة، كقول بعضهم :

عادات السادات   سادات العادات

٢– أن يقع بين متعلقي فعلين في جملتين، كقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ [٤].

وقد قلنا – سابقا – إن في الآية مقابلة صريحة تبين قدرة الله على إخراج الميت من الحي، في مقابلة قدرته على إخراج الحي من الميت.

٣– أن يقع بين كلمتين في طرفي جملتين، كقوله تعالى ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [(٥)].

---

(١) نهاية الارب : ٧/ ١٠٣

(٢) سر الفصاحة لابن سنان : ١٩٣

(٣) انظر (٥٠) من هذا البحث .

(٤) الروم : ١٩

(٥) البقرة : ١٨٧

وفيها – أيضا – مقابلة خفية لطيفة بين كون الرجال لباسا للنساء في مقابل كونهن لباسا للرجال.

ومن حديث النويري عن المقابلة، ومقارنة هذا بحديث من سبقه، نستطيع أن نحكم على الرجل بالتقليد والنقل، ولعل عذره في ذلك أن هذه كانت سمة العصر الذي عاش فيه، حيث كان التراث العربي مهددا بخطر الضياع والنسيان، فاتجه العلماء إلى نقله بغية الحفاظ عليه.

١٤ – الخطيب القزويني (٦٦٦ - ٧٣٩هـ)

أما القزويني فهو (قاضى قضاة الإقليمين جلال الدين محمد بن عبدالرحمن بن عمر ابـن احمد الذي ينتهى نسبه إلى أبي دلف العجلى القزويني ثم الدمشقى الشافعى، الذي اشـتهر بالخطيب القزويني، ألف في البلاغة كتبا أشهرها : الايضاح في علوم البلاغة، وتلخيص المفتاح في المعاني والبيان [١].

و لم يَنْـبُ الرجل عن مقاييس عصره في التلخيص والتقسيم والتبويب ولن نجد بينه وبـين غـيره مـن العلماء اختلافا كبيرا، اللهم إلا في التحديد الدقيق للمصطلحات، وكذلك في دقة التقسيم.

فالطبـاق والمقابلـة – عـنده – يقعـان ضمن القسم المعنوى من أقـسام البديـع[٢].

وعـنده أن الطباق يشتمل على المقابلة، ولعله في هذا متأثر بابن الأثير وابن سنان، وقد سبق أن رأينا ابن الأثير يرى أن الأليق إطلاق اسم المقابلة على المطابقة[٣].

وابن سنان يسمى الجميع مطابقا[٤].

كما يطلق القزويني اسم (التضاد) على الطباق، ويقسمه إلى نوعين: طباق الإيجاب، وطباق السلب، وألحق به إيهام التضاد، وأدخل فيه المقابلة.

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحى بن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٩٨٠ هـ : ٦/ ١٢٣، ط دار الآفاق الجديدة بيروت، الأعلام : ١٩٢/٦

(٢) الإيضاح : ١٩٢ - ١٩٦

(٣) المثل السائر : ٢٨٠/٢

(٤) الفصاحة : ١٩٢

كما برع في تقسيم الطباق إلى :

١- طباق بلفظين من نوع واحد : اسمين أو فعلين أو حرفين.

٢- طباق بلفظين من نوعين مختلفين: كقوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾[1] أي ضالا فهديناه.

وقسمه أيضا إلى طباق ظاهر وطباق خفي.

فالظاهر: ما لا يحتاج إلى تأويل، وما يظهر فيه التضاد صريحا.

والخفي: ما يحتاج إلى تدبر وروية لاستخراجه واستخلاصه ويغلب أن يكون اللفظ الثاني مستلزما لما يضاد الأول، كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾[2].

لأن إدخال النار يستلزم الإحراق المضاد للإغراق، أو لأن الغَرَق من صفات الماء، فكأنه جمع بين الماء والنار.

ومثله قوله تعالى: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [3]، فإن الرحمة مسببة عن اللين الذي هو ضد الشدة، (... ولا شك أن الطباق الظاهر والخفي عنده – هذا المفهوم – هو ما عناه ابن سنان[4]، وابن رشيق[5] بالطباق المحض وغير المحض.

ويفهم من عرض الخطيب للطباق أنه يحبذ اشتمال الصورة على أكثر من لون بديعي، فذلك – في رأيه – يزيد من حسنها وتأثيرها، إنه حين يستشهد بقول الفرزدق:

قَبَحَ الإلَهُ بَنِي كُلَيبٍ إنَّهُم ... لا يَغدِرونَ وَلا يَفونَ لِجارِ
يَستَيقِظونَ إلى نُهاقِ حِمارِهِم ... وَتَنامُ أَعيُنُهُم عَنِ الأَوتارِ

يحاول أن يظهر فيه الوانا أخرى غير الطباق الظاهر في :

(يستيقظون – تنام) ويذكر أن فيه – إلى جانب الطباق – تكميل حسن في البيت الأول، إذ لو اقتصر على قوله: (لا يغدرون) لا حتمل الكلام ضربا من المدح، إذ تجنب الغدر قد يكون عن عفة فقال: (ولا يفون)، ليفيد أنه للعجز، كما أن ترك الوفاء للؤم.

---

(١) الأنعام : ١٢٢

(٢) نوح : ٢٥

(٣) الفتح : ٢٩

(٤) سر الفصاحة : ١٩٤

(٥) العمدة : ١٠/٢

وفــيه مــع ذلك إيغال[1] حسن، لأنه لو اقتصر على قوله: (لا يغدرون ويفون) تم المعنى الذي قصده، ولكنه لما احتاج إلى القافية، أفاد بها معنى زائدا، حيث قال (لجار)، لأن ترك الوفاء للجار أشد قبحا من ترك الوفاء لغيره.

ومــع ذلك فاننا في النهاية لا نزيد على القول بأن عمله في الطباق ليس إلا تجميعا وتنظيما لأقوال السابقين، دون إضافة تذكر له في هذا المجال.

أما المقابلة عنده فهي داخلة - كما قلنا - في الطباق، وهو في تعريفه لها لا يشذ عن الســابقين في الحــد: (الإتيان بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب[2]).

وقســمها إلى مقابلة اثنين باثنين وثلاثة بثلاثة، وأربعة بأربعة وخمسة بخمسة، ومثل لكل قسم منها.

ولم ينس أن يظهر روح النقد عنده حين وازن بين المقابلة في بيت أبي دلامة : -

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبحَ الكفرَ والافلاسَ بالرجلِ

وبيت أبي الطيب :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وانثني وبياض الصبح يغرى بي

فقــد رجح بيت ابي الطيب بكثرة المقابلة، مع سهولة النظم، وبأن قافيته متمكنة، وقافية ذاك مستدعاة، فإن ما ذكره مختص بالرجال.

وامــتاز بيت أبي دلامة بجودة المقابلة، فإن ضد الليل المحض هو النهار، لا الصبح، كما ذكر المتنبي،

وكمــا أدخــل القزويني المقابلة في الطباق، أدخل العكس والتبديل فيه، وسار في التعريف به والتمثيل له سيرة النويري.

---

(١) الايغال هو: ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها، ومنه في القرآن (اتبعوا من لا يسألكم اجرا وهم مهتدون) فإن كلمة (وهم مهتدون) إيغال، لأن المعنى يتم بدونه اذ الرسول مهتد لا محالة (انظر: معترك الاقران في إعجاز القرآن، للسيوطي: ٣٦٧/١ تحقيق علي محمد بجاوي، ط ، دار الفكر العربي ، بيروت).

(٢) الايضاح : ١٩٥

١٥ - (الجرجاني : محمد بن علي بن محمد - ٨٣٨هـ [(١)])

أمـــا وقـــد طوفنا كل هذا التطواف عبر هذه القرون، والتقينا بمختلف العلماء من لغويين ونقاد وبلاغيين، فلنختم الحديث بعالم له باع طويل في البلاغة، وقدم راسخة في الـنقد، وهو الجرجاني (محمد بن على بن محمد) صاحب كتاب (الإشارات والتنبيهات في عـــلم البلاغة) وقد نهج في هذا الكتاب منهجا متميزا عمن سبقه، فهو يتخذ لنفسه مـنهجا نقديـــا يعتمد على مناقشة ما عرضه السابقون في علم البلاغة وبيان الصواب والخطـــأ في حديثهم، ويدل ذلك على عمق ثقافته وسعة اطلاعه (فلم يترك شاردة أو واردة من مسائل البلاغة إلا عرضها عرضا مفصلا دقيقا، سواء التي كانت في عصره أو قـــبل عصـــره ممن عرض لها من علماء البلاغة الأفذاذ، ولم يكتف بذلك بل ذيَّل كل مســـألة مـــن مسائل البلاغة التي وجد فيها عوجا أو خللا، فابرز الوهم الذي وقع فيه غيره. وناقشه مناقشة العارف البصير، ثم ينبه على الصواب. والطريقة التي اتبعها لذلك؛ أن يعرض المسألة البلاغية أولا تحت عنوان (إشارة) ثم يناقشها ويبين خطأها، ويردها إلى الصواب تحت عنوان (وهم وتنبيه) وهكذا من أول الكتاب إلى آخره، فعل ذلك مـــع ابن سنان وعبد القاهر والزمخشري والسكاكي والخطيب القزويني، دون أن يكل، فهدفه الدقة والتمحيص، وتغيير ما ينبغي أن يطرأ عليه من التغيير والتجديد [٢].

وقد عرض في هذا الكتاب للمطابقة والمقابلة والعكس والتبديل تحت عنوان (إشارة) بـــين فيها أقوال السابقين في هذا المجال، بنفس التعريفات والتفريعات التي رأيناها عند القزويني.

ولم نـــره يضع شيئا منها تحت عنوان (وهم وتنبيه) ومعنى ذلك أنه لا يعترض على شئ مما أورده للسابقين في هذا الموضوع.

ولكـــن ذلـــك لا يغـــض من قيمة الكتاب وما ورد فيه من آراء جديرة بالاحترام والـــتقدير فلقـــد أوشك في بعض المواضع من كتابه أن يصل إلى وحدة علوم البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) بعد ما أصابها من التمزق، إذ يقول (فبلاغة الكلام تجرى مجـــرى الجنس لعلم البديع، والمحسنات المذكورة تجرى مجرى الفصل، وحينئذ: الكلام

---

(١) الإعلام : ٦/٢٨٨

(٢) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، لمحمد بن علي بن محمد الجرجاني، تحقيق عبد القادر حسين : مقدمة المحقق ص.ل، ط، نهضة مصر ١٩٨١.

الذي فيه صناعة البديع أقصى مراتب الكمال في الكلام. فإذا عرفنا الكلام الكامل غاية الكمال قلنا : إنه كلام بليغ محسن ببعض التحسينات المذكورة[1].

وهو رأى له قيمته، لولا ما شاب كلامه من مصلحات الجنس والفصل والاغراق في حدود المنطق، وتقسيمات علماء الكلام.

(١) السابق : ٢٠٨

الفصل الثاني

المقابلة في الدراسات التي تعرضت لبلاغة القرآن

تمهيد :

كـان القـرآن الكـريم محورا لدراسات كثيرة من علماء المسلمين على اختلاف مشاربهم، وتباين نزعاتهم، يلتمس منه كل فريق بغيته، ويجد فيه طلبته.

اهـتم القـراء بضـبط لغاته، وتوجيه قراءاته، وعد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه.

واهـتم المفسرون ببيان معاني الألفاظ والآيات، ومعرفة أسباب الترول، واستجلاء مواطـن العـبر، ودلائل القدرة وعنى النحاة واللغويون بإعرابه وفهم أسرار التراكيب الـواردة فيه. وتوضيح العلاقات بين ألفاظه ومعانيه، واهتموا بأسمائه وأفعاله وحروفه ودلالة كل منها، باعتبار القرآن مثلا أعلى في ضبط اللغة وفقه أسرارها.

وأقبل البلغاء والنقاد على القرآن الكريم يتدارسون جزالة ألفاظه وبديع نظمه وحسن بـيانه، وما ورد فيه من مواضع الوصل والفصل والقصر والإيجاز والإطناب والمساواة وصور المجاز.

وكان مرجعا ضروريا لعلوم البلاغة كما صورها البلاغيون من المتأخرين وقسموها إلى معان وبيان وبديع.

ولقد كان القرآن الكريم السبب الرئيسي في نشأة علوم اللغة والأدب، وما صاحبها مـن علوم أخرى ومعارف متنوعة ولذلك. فإنه من العسير أن نفصل بين هذه العلوم والدراسات فصلا جازما، لأن المعين الذي استقوا منه واحد وهو القرآن الكريم.

وقد تحدثت في الفصل الأول من هذا الباب عن معنى المقابلة عند النقاد والبلاغيين.

وفي هـذا الفصـل نعرض لمعناها في الدراسات التي اهتمت ببلاغة القرآن الكريم، ونبين موقف هؤلاء الدارسين منها، ومن البديع عموما، وهل يعتبرون ذلك دليلا على إعجاز القرآن أم لا ؟

وبالطـبع لـن يمكن في هذا البحث – استعراض كل الدراسات القرآنية لمعرفة ما كتـب فـيها عن المقابلة، فذلك ما لا يتسع له هذا البحث وما يفوق الطاقة والجهد وحسبنا أن نعرض لبعضها، باعتبارها نموذجا لتناول هذه الدراسات لموضوع المقابلة.

وقد رتبت هذه الدراسات ترتيبا تاريخيا – بقدر الإمكان –، كما فعلت في الفصل الأول، حتى يمكن الوقوف على تطور مدلول المقابلة في هذا الحقل.

ومـــن ثم يمكنـــنا في نهايـــة هذا الباب الخروج بمفهوم للمقابلة من الوجهة النظرية نسترشد به في الجزء التطبيقي من هذا البحث.

١) مجاز القرآن : لأبي عبيدة معمر بن المثنى[١] (١١٠ - ٢٠٩ هـ)

من أوائل العلماء الذين عنوا في بحوثهم بدراسة القرآن، وتوضيح ما فيه من دلالات ومعان (أبو عبيدة معمر بن المثنى). وقد ألف في هذا الجانب كتاب (مجاز القرآن).

(ويعتـــبر الكـــتاب مرحلة أولية من مراحل تطور النقد والدراسة البيانية لأسلوب القرآن وتطور الأدب العربي عامة[٢]).

وقـــد يظـــن القـــارئ للعـــنوان أن أبا عبيدة يعني بالمجاز هنا ما يقابل الحقيقة عند البلاغـــيين، لكن هذا الظن سرعان ما يتبدد عندما نقرأ فيه بعض الصفحات، فإذا بنا نكتشف أنه يعني بمجاز القرآن معنى الآية، أو الطريق إلى معناها.

وفي سبيل الوصول إلى هذا المعنى، نراه (يعنى بالنظرة التفسيرية اللغوية)[٣] فيبين أصل الكلمة ومعناها، ويؤيد ما وصل إليه بالفصيح من أشعار العرب.

تـــراه يقول في قوله تعالى ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾[٤]: مصدر شاقَقْته، وهو المشاقة أيضا، وشاقَّة : باينه كقول النابغة الجعدي :

وكانَ إلَيْهَا كالذّي اصْطَادَ بكْرِها   شقَاقًا وبُغْضًا أو أطَمَّ وأَهْجَرا[٥]

ويقول في قوله تعالى ﴿ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ ﴾[٦]: المعلّمة بالسيماء، ويجوز أن تكون (مسوَّمة): مُراعاة، من أسَمْتُهَا، تكون هي سَائمة والسائمة: الراعيةُ: وربُّها يُسيمُها.[٧]

وفي قوله تعالى ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[٨]

---

(١) الأعلام : ٧ / ٢٧٢.

(٢) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، للدكتور : فتحي أحمد عامر : ١٦ ط منشأة المعارف بالإسكندرية.

(٣) المرجع السابق : ١٤

(٤) البقرة : ١٣٧

(٥) مجاز القرآن : لأبي عبيدة معمر بن المثنى : ٥٨ تحقيق د. محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٤٥.

(٦) آل عمران : ١٤

(٧) السابق : ٨٩

(٨) التوبة : ٦٧.

أي يُمْسكون أيديهم عن الصدقة والخير، ويقال : قبض فلان عنا يده : أي منعنا[1].

فلفظة المجاز في عنوان الكتاب (ليست قسيم الحقيقة، كما ذهب إلى ذلك البيانيون من بعد، ولكنها تساوي طريق الجواز إلى فهم اللفظة القرآنية، وهي أقرب إلى تفسير غريب القرآن منه إلى الكشف عن وجوه البيان فيه بالمعنى الذي يريده عبد القاهر والزمخشري والسكاكي[2]).

ولم يتعرض أبو عبيدة في مجاز القرآن لبحث أبواب بلاغية محددة.

وبالتالي، فإننا لا نكاد نظفر في كتابه على تعريف للمقابلة، لكن اهتمامه بتحديد المعنى اللغوي للفظة القرآنية، يفيد فائدة جليلة في فهم معناها، ومن ثم في تحديد ما يقابلها في الآية الكريمة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر : تتضح المقابلة بين موقف المنافقين والمنافقات، والمؤمنين والمؤمنات، عندما يفسر أبو عبيدة معنى (ويقبضون أيديهم) من قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾[3] بأنه (يمسكون أيديهم عن الصدقة). وذلك في مقابل ما يتصف به المؤمنون والمؤمنات بأنهم (يؤتون الزكاة) في قوله تعالى ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.[4]

وقد استفدت من هذا الكتاب أثناء البحث عن المقابلات في القرآن الكريم استفادة غير مباشرة في فهمي للنصوص القرآنية، ولمعاني بعض الألفاظ.

---

(١) مجاز القرآن : ٢٦٣.

(٢) بلاغة القرآن : د. فتحي عامر : ١٥.

(٣) التوبة : ٦٧.

(٤) التوبة : ٧١.

٢ - معاني القرآن : للفراء[1] (ت ٢٠٧ هـ).

إذا كان أبو عبيدة قد عني بالمعنى اللغوي، وبتفسير الغريب، فإن الفراء (أبا زكريا يحيى بن زياد) قد عني في كتابه (معاني القرآن) بالإعراب وصحة التراكيب من الوجهة النحوية، وشيء طبيعي - كما يقول الدكتور فتحي عامر - أن يتجه أكبر عالم من علماء النحو في الكوفة هذا الاتجاه، ويترع ذلك المترع[2].

وهو إذا يعرض لبعض التأملات البلاغية، فإنما هي شذرات يغلب عليها الطابع الجزئي، ولا تتجاوز الصورة الجزئية إلى مجال التصوير الكلي.

وفيما يختص بالمقابلة، فقد كان يمسها مسا خفيفا، دون أن يسميها، كما نلمح من تفسيره لمعنى قوله تعالى ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[3] حيث يقول : (بدأكم في الخلق شقيا وسعيدا، فكذلك تعودون على الشقاء والسعادة[4]).

وقد كان يمكن - لولا نزعته النحوية - أن يستمر في الحديث لإظهار المغزى البلاغي للتقابل بين البدء والإعادة، والهدى والضلال، ولكنه سرعان ما ينتقل - وقد غلبت عليه حرفته - ليقول: (ونصبُ الفريقين بـ (تعودون) وهي في قراءة أُبيّ: تعودون فريقين. فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة، ولو كانا رفعا كان صوابا كما قال تبارك وتعالى : قد كان لكم في فئتين التقتا فئةٌ تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة وفئةً - بجواز الرفع والنصب... الخ[5]).

وبالطبع فإن اهتمامه بالجانب النحوي، لا يغض من قيمة الكتاب، أو يقلل من شأن صاحبه، فالنحو هو الأساس لفهم المعنى الأول للنص، والبلاغة هي السبيل إلى المعنى الثاني، وكلاهما مكمل للآخر.

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء الزمان،لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان : ٦ / ١٧٦ / ١٧٧، تحقيق د. إحسان عباس، ط : دار الثقافة بيروت، ١٩٧٧.

(٢) بلاغة القرآن : د.عامر : ١٧.

(٣) الأعراف : ٢٩-٣٠.

(٤) معاني القرآن للفراء (أبي زكريا يحيى بن زياد) : ١ / ٣٧٦، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، ومحمد على النجار، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠.

(٥) السابق : ١ / ٣٧٦.

٣ - تأويل مشكل القرآن : لأبي قتيبة[1] (٢١٣ - ٢٧٦ هـ)

انصرف اهتمام أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) إلى الرد على الطاعنين في إعجاز القرآن البلاغي، وخصوصا المعتزلة والملحدين، الذين يتناولون المتشابه من القرآن ويطعنون فيه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

ومــن ثم فإن المعاني البلاغية عنده (شذرات تتناثر في تضاعيف كتابه[2] ومن ذلك حديثــه عن بعض الفنون البلاغية كالاستعارة والكناية، والحذف والاختصار وتكرار الكلام والزيادة فيه[3]).

(وتتجــلى في هذا الكتاب ثقافة المؤلف الواسعة. فهو حين يعرض للمسألة الدينية، كخلق الكون، يتناولها في الكتب السماوية - إلى جانب القرآن فيأتي بما جاء في التوراة والإنجــيل، وحــين يتكلم في مسألة جدلية كثرت حولها آراء الفلاسفة، يدلي بموجز لآرائهم تلك مع تعقيب عليهم بما يراه هو. ولكن الجانب الغالب عليه هو تلك الثقافة اللغوية والأدبية الواسعة مع الإلمام الدقيق بخفايا الأسلوب العربي وأسراره، بحيث يمكنه أن يوجه معاني الآيات توجيها سديدا يتفق وتصوره، ولا يتعارض مع الذوق[4]).

وإذا كنــت لم أعثر له على حديث في المقابلة أو الطباق، إلا أنه وهو يتحدث عن مخالفة ظاهر اللفظ معناه، أورد آيات من القرآن الكريم اعتبرها من أتى بعده من علماء البلاغة – كأبي هلال العسكري – مقابلة في المعنى على جهة الموافقة، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[5] وقوله: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾[6] و ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[7]، ويراها بعض المتأخرين كالخطيب القزويني (مشاكلة): أي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته[8].

---

(١) الأعلام : ٤ / ١٣٧.

(٢) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ : ٨٢.

(٣) انظر هذه الموضوعات في كتاب (تأويل مشكل القرآن لأبي قتيبة)، تحقيق : السيد أحمد صقر، ط ٢، دار التراث بالقاهرة، ص (١٣٥، ٢١٠، ٢٥٦، ٢٣٢).

(٤) ابن قتيبة : د. محمد زغلول سلام : ٣٤، دار المعارف، مصر.

(٥) التوبة : ٧٩.

(٦) آل عمران : ٥٤.

(٧) التوبة : ٦٧.

(٨) الإيضاح للقزويني : ١٩٨.

وبذلـــك يكـــون ابن قتيبة ممثلا للإرهاصات الأولى للمقابلة القرآنية التي تضم في أعطافها العديد من الألوان البديعية كالطباق والعكس والتبديل والمشاكلة.

٤ - النكت في إعجاز القرآن للرماني[١] (٢٩٦ - ٣٨٤ هـ).

الـــرماني هو (أبو الحسن على بن عيسى الرماني) أحد أعلام المعتزلة في عصره، جمع بين النحو وعلم الكلام.

حـــين نتصفح أشهر رسائله (النكت في إعجاز القرآن) لا نكاد نعثر له على كلام صريح في المقابلة أو الطباق.

ولكنـــنا نجد ابن رشيق في (العمدة) يورد تعريف المطابقة نقلا عن الرماني، ولعله نقله من كتاب آخر له غير (النكت)، يقول ابن رشيق (وقال الرماني: المطابقة مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان[٢]).

وقـــد سبق في الفصل الأول - عند الحديث عن ابن رشيق - أن بينت مدى تأثره برأي الرماني حين يعلق عليه بقوله: (هذا أحسن قول سمعته في المطابقة من غيره وأجمعه لفائدة، وهو مشتمل على أقوال الفريقين) وحين يحاول تفسير قول الخليل: (إذا جمعت بيـــنهما على حَذْوٍ واحد وألصقتهما) تفسيرا ينسجم مع رأي الرماني السابق، إذ يقول تعقيـــبا على ذلك: (فهو مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان كما قال الرماني)، يشهد لذلك قول لبيد :

تَعاوَرنَ الحَديثَ وَطَبَّقْنهُ كَما طَبَّقتَ بالنَعلِ المِثالا

كما نلمح هذا التأثر - أيضا - حين يحلل قول الأصمعي عن المطابقة بأن (أصلها من وضع الرجل موضع اليد في مشى ذوات الأربع) تحليلا يوافق هواه ويظهر اقتناعه برأي الرماني في المطابقة، فينص على أن هذا: (هو مساواة المقدار أيضا[٣]).

غـــير أنـــنا من خلال القراءة المتأنية لرسالة الرماني (النكت في إعجاز القرآن) نراه يـــتحدث عن البلاغة باعتبارها إحدى النكت في إعجاز القرآن[٤]، ويذكر أن البلاغة

---

(١) الأعلام : ٤ / ٣١٧، و (وفيات الأعيان) : ٣ / ٢٩٩.

(٢) العمدة لابن رشيق : ٢ / ٦.

(٣) العمدة : ٢ / ٧.

(٤) رد الرماني إعجاز القرآن إلى سبع جهات هي :
١- ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ٢ - التحدي للكافة ٣ - الصرفة ٤ - البلاغة ٥ - الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ٦ - نقض العادة ٧ - قياس القرآن بكل معجزة (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني : ص ٦٩ تحقيق وتعليق محمد خلف الله، و د. محمد زغلول سلام، ط ٢، دار المعارف، ١٩٦٨.

عـــلى ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا، والعليا هي بلاغة القرآن، والوسطى والدنيا هي بلاغة البلغاء حسب تفاوتهم في البلاغة.

وعـــندما قسم البلاغة إلى عشرة أقسام[1] لم يذكر من أقسامها المقابلة أو الطباق، ولكنه ذكر (التجانس) وأنه على وجهين: مزاوجة ومناسبة.

ويهمـــنا هنا حديثه عن المزاوجة[2]، لأنه استشهد لها بآيات قرآنية نلمح في بعضها (طباقا) بالمعنى الذي ذكره له ابن رشيق وهو: (مساواة المقدار).

فالمـــزاوجة عنده كنوع من التجانس، تقع في الجزاء كقوله تعالى ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[3].

إذ نراه يفسرها بقوله (أي جازوه بما يستحق طريق العدل إلا أنه استعير للثاني لفظ الاعـــتداء، لتأكـــيد الدلالة على المساواة في المقدار، فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان[4]) ويستشهد لها أيضا بقوله تعالى ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[5] مفسرا إياها بقوله: (أي جازوهم على مكرهم، فاستعير للجزاء على المكر اسم المكر، لتحقيق الدلالة على أن وبال المكر راجع عليهم ومختص بهم) – غير أننا رأينا منذ قليل عند حديثنا عن ابن قتيبة أن هذه الآيات قد استشهد بها أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـــ) للمقابلة في المعنى على جهة الموافقة[6]، كما أنها قريبة من المشاكلة، التي هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، والعسكري معاصر للرماني (ت ٣٨٤هـــ).

على هذا يمكن حمل ما سماه الرماني (مزاوجة) على معنى المقابلة والطباق، والأهم من ذلك هو اعتباره الطباق أو المقابلة أو المزاوجة – أيا كانت التسمية – عنصرا هاما

---

(١) الأقسام العشرة هي :

١- الإيجاز	٢ – التشبيه	٣ – الاستعارة	٤ – التلاؤم	٥- الفواصل
٦ – التجانس	٧ – التصريف	٨ – التضمين	٩ – المبالغة	١٠ – حسن البيان

(السابق : ص ٧٠).

(٢) المزاوجة : أن يجمع بين الشرط والجزاء في ترتيب لازم من اللوازم عليهما معا انظر (البديع في ضوء أساليب القرآن : ١١٤).

(٣) البقرة : ١٩٤.

(٤) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٩٩.

(٥) آل عمران : ٥٤.

(٦) كتاب الصناعتين : ٣٤٦.

مـــن عناصر التجانس في البلاغة القرآنية، فإذا تحقق هذا التجانس كانت البلاغة وجها هاما من وجوه إعجاز القرآن الكريم[1].

٥ - إعجاز القرآن : للباقلاني[2] (٣٣٨ - ٤٠٣ هـ).

يعـــد الباقلاني (أبو بكر بن الطيب) أحد العلماء البارزين الذين حملوا على عاتقهم مهمة إثبات الإعجاز القرآني، كما أنه من أبرز أعلام المتكلمين الأشاعرة.

وفي كـــتابه (إعجـــاز القرآن) نجده مشغولا بالرد على فكرة (الصرفة) التي قال بها بعض المعتزلة كالرماني والنظام واعتبروها وجها من وجوه الإعجاز.

وقـــد رأي الباقلاني أنها لا تنهض دليلا على إعجاز القرآن، لأن القول بها يعني أنه كان بإمكان العرب معارضة القرآن أو محاكاته، لولا أن صرفهم الله عن ذلك. وبذلك لا يكون القرآن معجزا بذاته وبلاغته.

وبدلا من ذلك، يرجع الباقلاني الإعجاز إلى :

١ - ما تضمنه القرآن من الإخبار عن الغيبيّات.

٢ - ما حواه من سير السابقين التي لم يطلع عليها محمد.

٣ - بلاغة القرآن التي وصلت إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه.

ويهمنا هنا حديثه عن البديع بصفة عامة، وعن المقابلة بصفة خاصة. فعلى الرغم من أن الـــباقلاني يعد البلاغة أحد الأعمدة الثلاثة لإعجاز القرآن، إلا أنه وقف من البديع موقفا خاصا.

لقـــد بـــدأ حديثه عن البديع بقوله : (إن سأل سائل فقال : هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع ؟[3])

---

(١) يرى الدكتور زغلول سلام أن المزاوجة والمناسبة نوع من التعبير اللفظي يهدف إلى ناحيتين : الأولى : صوتية وهي توفير نوع خاص من الانسجام في النغم والتقارب في الأصوات، والثانية : معنوية وهي سرعة الاستدعاء اللفظي للمعنى المراد التعبير عنه، وهذا ما أراده الرماني في كلا القسمين المزاوجة والمناسبة إذ المعروف أن ليس المراد بالاعتداء هذا المعنى نفسه إنما المراد جزاء الاعتداء وهو القصاص، ولكن النظم القرآني راعي سرعة الاستدعاء ليحقق سرعة القصاص مع العدالة، فجانس بين اللفظين ليحقق المعنيين: سرعة الاستدعاء، وتوكيد العدالة والمساواة، أما المساواة فيتحقق فيها الجانب الموسيقي أكثر من الجانب المعنوي وإن كان الغرض أيضا هو سرعة التداعي - (أثر القرآن : ٢٤٤).

(٢) الأعلام : ٦ / ١٧٦ و (وفيات الأعيان) : ٤ / ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني : ٦٦ تحقيق السيد أحمد صقر، ط ٤، دار المعارف.

وقبل أن يجب الباقلاني عن هذا السؤال آثر أن يتريث وأن يؤجل حكمه إلى أن يعرض لبعض الألوان البديعية، (ليكون الكلام واردا على أمر مبين وباب مقرر[1]).

ونحن نحمد للباقلاني هذه الموضوعية في الحديث، وهذا المنهج العلمي الدقيق في البحث، فالرجل في هذا يعتبر من الرواد السابقين الذين أرسو الدعائم لمناهج البحث، سابقا بذلك علماء مناهج البحث الحديثة، حين يلاحظ الظاهرة أولا ثم يجمع عنها المعلومات ويحللها وفي النهاية يحكم لها أو عليها.

إنه لا يريد أن يحكم بإعجاز القرآن عن طريق ما ورد فيه من البديع إلا بعد أن يستعرض مما قيل عن البديع عند المختصين بعلوم البلاغة ثم بعد ذلك يعلق ويقارن ويستنتج، وحينئذ يكون كلامه – بالفعل – وارادا على أمر مبين، وباب مقرر مصور.

عرض الباقلاني لما قاله البلاغيون في المطابقة والمقابلة والإشارة والمبالغة والغلو والإيغال وكثير من ألوان البديع.

وهو في حديثه عن المطابقة لم يأت بشيء جديد من عنده، وإنما عرض لرأي الخليل والأصمعي وابن المعتز، وبين مخالفة قدامة لابن المعتز حين أطلق المطابقة على صور الجناس، وروي من شواهد المطابقة الكثير من القرآن والحديث والشعر ومأثور الكلام[2].

واختصر الباقلاني الحديث عن المقابلة اختصارا حين عرفها (بأن يوفق بين معان ونظائرها والمضاد بضده[3]). واستشهد لها من الشعر بقول النابغة الجعدي :

فَتًى تَمَّ فيه ما يَسُرُّ صَديقَهُ عَلى أَنَّ فيه ما يَسُوءُ الأَعاديا

ومن القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝ ﴾[4].

و لم يعط الباقلاني تعريفا لأي من رد العجز على الصدر أو صحة التقسيم أو التكافؤ أو السلب والإيجاب أو العكس والتبديل، واكتفى بقوله (ومن البديع.. كذا) موردا الأمثلة المعهودة في ذلك والتي سبق أن قررنا أن معظمها داخل في إطار التضاد أو التماثل ورأينا إدراجها في المقابلة.

---

(١) السابق : ٦٦.

(٢) انظر حديثه عن المطابقة في إعجاز القرآن : ٨٠ – ٨٢.

(٣) إعجاز القرآن : ٨٧ – ٨٨.

(٤) النحل : ٥٣ – ٥٤.

والآن وبعــد أن استعرض الباقلاني أقوال الشهود من البلغاء في هذه القضية – يأتي دور النطق بالحكم ويئون أوانُ الإجابة عن السؤال السابق وهو : هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع؟

لقد حكم الرجل بأن الإعجاز لا يكون عن طريق ما تضمنه القرآن من البديع وأن ألــوان الـــبديع لا تؤخذ كدليل على إعجاز القرآن، (لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه علـــيها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود، والتصنع لها، وذلك كالشعر إذا عرف الإنسان طريقه صح منه التعمل له وأمكنه نظمه[1]).

ومـــن ثم يـــرى أن القرآن معجز بوجوه ليس في مقدور البشر التصنع لها والتوصل إلـــيها، ويستدل على أن البديع مقدور عليه من البشر بأن المحدثين وخاصة أبا تمام، قد استطاع أن يحشو لاميته بمعظم أبواب البديع، ومن ذلك قوله فيها :

مَتى أَنتَ عَن ذُهلِيَّةِ الحَيِّ ذاهلُ ... وَقَلبُكَ منها مُدَّةَ الدَهرِ آهلُ

تُطِلُّ الطُلولُ الدَمعَ في كُلِّ مَوقِفٍ ... وَتَمثُلُ بالصَبرِ الديارُ المَواثِلُ

حـــتى أن مـــن الأدبـــاء من عاب عليه هذه الأبيات ونحوها مما قد تكلف فيها من البديع، وتعمل من الصنعة فقال :

(قـــد أذهبَ ماءَ هذا الشعر ورونقَه وفائدتَه اشتغالا بطلب التطبيق، وسائر ما جمع فيه[2]).

ثم يواصـــل حملـــته عـــلى أبي تمـــام، ويورد من مبالغته، واستعاراته ما يصفه بـــ (الاستعارات القبيحة والبديع المقيت[3]).

وهـــو في غمـــرة ذلك لا ينسى أن يفضل البحتري على أبي تمام لأنه (لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام، ويقل التصنع له[4]).

ثم يصل في النهاية إلى نتيجة مؤداها: أن فن البديع ما دام مقدورا عليه هكذا بالتعلم والـــتدرب فإنـــه (لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ووصـــفوه فـــيه وذلك لأن شأن القرآن ليس له مثال يحتذى، ولا إمام يقتدى به، ولا يصح مثله اتفاقا[5]).

---

(١) إعجاز القرآن : ١٠٧.

(٢) السابق : ١٠٨ – ١٠٩.

(٣) السابق : ١٠٨ – ١٠٩.

(٤) السابق : ١١٠.

(٥) السابق : ١١١ – ١١٢.

ونظرا لأن الباقلاني لا يعترف بالبديع وجها للإعجاز القرآني، فإنه عند تناوله للبديع لا يقدم لنا تعليلا نقديا أو استشهادا بلاغيا - يوحي بأسرار الإعجاز فيما يقدم من شواهد قرآنية، بل يطلق أحكاما عامة (وألفاظا رنانة وعبارات فخمة في الفصاحة والبراعة والفخامة والسلاسة والنضارة والغضارة والرونق والماء، والحسن والبهاء، والبهجة والسناء، والنور والضياء، والدر والياقوت، وفريدة العقد، وعين القلادة ودرة الشذر، والبحر الزاخر، والنجوم الزاهرة والكبريت الأحمر[1]).

وأحيانا نجده يخفف من تحامله على البديع حين يقرر أنه باب من أبواب البراعة وجنس من أجناس البلاغة، وأنه لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغتهم ولا وجه من وجوه فصاحتهم، فإذا ورد هذا المورد، ووضع هذا الموضع كان جديرا به. وهو وإن لم يجعل الإعجاز متعلقا بالبديع أو وقفًا على مثله؛ إلا أنه لا يغض من قيمته وتأثيره في أخذ الجملة بحظ من الحسن والبهجة (إذا وقع الكلام على غير وجه التكلف المستبشع والتعمل المستشنع[2]).

ونحن لا نوافق الباقلاني على كل ما ذهب إليه من اعتبار البديع ليس وجها من وجوه الإعجاز القرآني بحجة أنه مقدور عليه من البشر، وأنه ممكن بالتدريب والتعود والتصنع، لأنه لو صحت هذه المقولة، لوجب أن يصح قول القائل : إن التشبيه مقدور عليه وكذلك الاستعارة والكناية، وأن ما ورد من هذه الصور البيانية ليس وجها من وجوه الإعجاز، ما دام الشعراء والخطباء قد ضمنوا شعرهم وخطبهم من بليغ التشبيهات وروائع الاستعارات والكنايات الكثير والكثير.

ومما يدعم حجتنا هذه : أن القرآن - وإن نزل بلغة العرب، واشتمل على ما اشتملت عليه لغتهم من فنون البلاغة- إلا أن له طريقته الخاصة في الأداء المتميز تلك الطريقة التي لا يشركه فيها فن قولي آخر، فهو معجز جملة وتفصيلا، ومهما أجاد الشعراء ألوان البديع، وتفننوا في تدبيج شعرهم بها، فلن يبلغوا شأو البديع في القرآن الكريم، لأن ما ورد منه في القرآن قد جاءت الألفاظ فيه على قدر ما يتطلبه المعنى، بحيث لا يغني غيرها غناءها ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾.[3]

---

(1) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق - للدكتورة بنت الشاطئ: ١٠٦، ط دار المعارف، ١٩٧٣.

(2) إعجاز القرآن: ١١٢.

(3) النساء: ٨٢.

فكيف لا يكون بديع القرآن معجزا، وهو داخل في نظمه الخاص، لم يأت للزينة أو الزخرفة التي تحتل دورًا ثانويا بعد استيفاء المعنى؟

(إن ما ورد في القرآن من الطباق والمقابلة، لم يجئ اعتسافا، وإنما جاء المعنى مصورا في ألفاظهما التي أدت المعنى خير أداء وأوفاه: فالطباق في قوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝ ﴾[1] في غاية الإعجاز، لأن الآيات في معرض الموازنة بين هذه الأضداد، وأسلوب الطباق وحده – هو الذي يبرز عدم استوائها في ميزان العدالة والثواب والعقاب[2]).

أما القول بأن ألوان البديع غير معجزة بحجة أن البشر في مقدورهم التوصل إليها بالتدريب والتعود، فهو قول مردود بأن الشعراء أنفسهم عندما يحاولون تقليد القرآن، فإن الفرق يبدو واضحا بين الأصل والتقليد، وأصغ إلى حسان بن ثابت وهو يقول :

وَهَل يَستَوي ضُلّالُ قَومٍ تَسَفَّهوا　　　عَمىً وَهُداةٌ يَهتَدونَ بِمُهتَدِ

أخذه من قوله سبحانه ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ ﴾[3].

فأنت ترى أن حسانا يوازن بين ضلال وهداه، وليس الفرق بينهما من الوضوح والقوة كالفرق بين الأعمى والبصير، والظلمات والنور. إذ الفرق بينهما في الآية واضح ملموس يشعر به الناس جميعا، حتى إذا اطمأنت النفس إلى هذا الفرق، وآمنت بأن هناك بونا شاسعا بينهما، انتقلت من ذلك إلى تبين مدى ما بين الضال والمهتدى من فرق بعيد[4].

وقد أحسن الدكتور أحمد بدوي صنعا، حين ركز على الفرق بين أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الشعر، في معرض الموازنة والمقارنة. وإذا كنا نؤمن أن أسلوب القرآن لا يجارى ولا يبارى، وأن نظمه يجل عن النظير ويسمو على المقارنة، فإننا نسلك سبيل الموازنة لنجلى هذه الحقيقة. حقيقة السمو الفائق في التعبير القرآني.

---

(١) فاطر : ١٩ – ٢٢

(٢) من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوي : ١٨٥، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٥٠م.

(٣) الرعد : ١٦.

(٤) من بلاغة القرآن : ٣٩٤.

ولنتأمل – مع الدكتور أحمد بدوي (الفرق في الأسلوب عندما حور النابغة الجعدي أسلوب القرآن قليلا فقال :

الحَمدُ للّه لاَ شَريكَ لَهُ مَن لَم يَقُلها فَنَفسَهُ ظَلَما
المُولِجِ اللّيلَ في النهارِ وَفي الليلِ نَهاراً يُفَرِّجُ الظُّلَما

فقد صور قوله سبحانه ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾[1].

لكـنَّ حذف (المولج) وتقديم (في الليل) وتنكير (نهارا) والمجيء بجملة (يفرج الظلما) كل ذلك أضعف أسلوب الشاعر، وباعد بينه وبين الأسلوب القوى للقرآن[2].

إن المقابلـة في قـول حسـان والجعدي لم تعرض بنفس الدقة واللطف والإحاطة والشـمول، كما عرضت في القرآن، و لم تنقل المعنى المقصود بمثل الإيحاء والتأثير، كما نقـل القرآن، ذلك لأن كلا الشاعرين قد قصدا المقابلة قصدا، و لم تأت منهما بصورة طبيعـية، والقصـد – كمـا يقـول الدكتور فتحي عامر – يفسد الصورة ويحرمها مغناطيسـية العاطفـة، وذبذبـات الانفعال التي تكسو المعنى برداء شفاف من الجلال والمتعة[3].

والعجب كل العجب – من الباقلاني الذي ينكر أن يكون القرآن معجزا عن طريق مـا فيه من البديع، بحجة قدرة الشعراء على الإتيان به في شعرهم مع أنه هو نفسه – يستبعد تماما أن يبلغ الشعر شأو القرآن وما فيه حين يقول (فمن توهم أن الشعر يلحظ شأوه بان ضلاله، ووضح جهله، إذ الشعر سمت قد تناولته الألسن، وتداولته القلوب، وانثالت عليه الهواجس، وضرب الشيطان فيه بسهمه، وأخذ منه بحظه[4]).

إن القـرآن الكريم معجز بكل ما فيه، بمعانيه، وبيانه، وبديعه، يبحث الإنسان عن إعجـازه في جانب منه. فيروعه الإعجاز في الجانب الآخر. هكذا.. في سلسلة متصلة الحلقـات متينة العرى، قوية الروابط : (إنه نمط من أنماط التعبير لم تصل إليها مدارك البشر، ولن تصل، مهما طال الزمان، وهذا النمط يندرج تحته البيان، كما تندرج تحته المعاني، وكذلك البديع، لأنها طرق من القول تفنن فيها القرآن، ليفحم ويعجز ويتفرد، إنه معجزة قولية في محيط الكلام البشري الزاخر بما يصيب وما لا يصيب[5]).

(١) فاطر : ١٣.

(٢) من بلاغة القرآن أحمد بدوي : ٣٩٦.

(٣) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ : ٣٣٧.

(٤) إعجاز القرآن للباقلاني : ٣٠٢.

(٥) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ : فتحي عامر : ٢٠٦.

ومـــا يقوى ما نذهب إليه من أن القرآن معجز بكل ما فيه، ما ذهب إليه الأديب الكـبير مصـــطفى صادق الرافعي من أن (أعجب ما في إعجاز القرآن وإحكام نظمه، إنـــك تحسب ألفاظه هي التي تنقاد لمعانيه، ثم تتعرف ذلك، وتتغلغل فيه، فتنتهي إلى أن معانـــيه منقادة لألفاظه، ثم تحسب العكس، وتتعرفه متثبتا فيه، فتصير منه إلى عكس ما حسبت، وما إن تزال مترددا على منازعة الجهتين كلتيهما حتى ترده إلى الله الذي خلق في العرب فطرة اللغة؛ ثم أخرج من هذه اللغة ما أعجز تلك الفطرة[1]).

كما يمكن اعتبار ما قام به ابن أبي الإصبع من تأليف كتاب خاص عن بديع القرآن، محاولة عملية للرد على الباقلاني وغيره ممن لا يعتبرون البديع وجها من وجوه الإعجاز القـــرآني، وتـــبعه السيوطي في معترك الأقران في إعجاز القرآن، فجعل (وقوع البدائع البليغة في القرآن[2]) وجها من وجوه الإعجاز القرآني أفاض فيه القول عن كل لون من ألوان البديع الواردة في القرآن الكريم.

والـــباقلاني نفسه يصرح بأنه ليس في مقدور البشر معارضة القرآن الكريم ولو كان في استطاعتهم، لبادروا إلى معارضته ومنافسته، فدواعيهم لتلك المعارضة لا انتهاء لها، ولا حد لكثرتها (لأنهم لو كانوا عارضوه لتوصلوا إلى تكذيبه، ثم إلى قطع المحامي دونه، أو تنفيرهم عليه وإدخال الشبهات على قلوبهم – وكان القوم يكتفون بذلك عن بذل الـــنفوس ونَصَبِ الأرواح، والإخطار بالأموال والذراري في وجه عداوته، ويستغنون بكلام – هو طبعهم وعادتهم – عن محاربته وطول مناقشته ومجاذبته[3]).

وقد أفاض الباقلاني القول في سمو القرآن ورفعته، وعلو شأنه، عندما عرض للموازنة والمقارنـــة بين القرآن وغيره من كلام البشر، ومنهجه في الموازنة لا يعتمد على تعليل نقـــدي أو منطقي لإعجاز القرآن، بل أنه يترك الأمر لذوق القارئ وقدرته على فهم الفرق بين نظم القرآن وغيره.

ويتهم من لم يستطع الفهم، ولم يقع على الفضل بالتقليد والجهل والخروج عن أهل اللسان.[4]

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي : ٤٧، ط ٦، القاهرة، ١٩٥٦م.

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي : ١ / ٣٧٣، تحقيق علي محمد بجاوي، دار الفكر العربي، بيروت.

(٣) إعجاز القرآن، الباقلاني : ٢٤٩.

(٤) السابق : ١٢٨

إنه يورد بعض خطب الرسول وكتبه، ويترك لفطنة القارئ وذكائه إدراك الفرق بين بـــراعة القـــرآن وما ذكره من كلام الرسول، وهو يقدر (أنك ترى بين الكلامين بونا بعيدا، وأمدا مديدا، وميدانا واسعا، ومكانا شاسعا[1]).

وقد فعل الشيء نفسه مع خطب الصحابة والبلغاء، ومع معلقة امرئ القيس حيث أخـــذ يــبين مـــا فيها من وجوه العيب، وما بين أبياتها من الجودة والرداءة والسلاسة والانعقـــاد، والاسترسال والتوحش، معلقا في النهاية بأنه: (لا سواء كلام ينحت من الصـــخر تارة، ويذوب تارة، ويتلون تلون الحرباء ويختلف اختلاف الأهواء، ويكثر في تصرفه اضطرابه، وتتقاذف به أسبابه وبين قول – هو القرآن الكريم – يجري في سبكه عـــلى نظام، وفي رونقه على طريق، مختلفه مؤتلف، ومؤتلفه متحد، ومتباعده متقارب وشـــارده مطيع، ومطيعه شارد، وهو على متصرفاته واحد لا يستصعب في حال، ولا يتعقد في شأن[2]).

فكيف بالله بعد أن جعل بلاغة القرآن تصل إلى حد الإعجاز الذي يعلم عجز الخلق عـــنه، وبعد أن بين أن المعارضة ليست في مقدور البشر، كيف يُخرج بديع القرآن من قضية الإعجاز بحجة أنه مقدور عليه؟

فهل بديع القرآن كبديع البشر؟ وقد علمنا منه أن (شأن القرآن ليس له مثال يحتذى ولا إمام يقتدى؟[3])

وهـــل كانـــت ألوان البديع فيه إلا خيوطا في نسيج الأسلوب القرآني كله لا يمكن فصلها عنه، ولا ينفرد بحكم دونها ؟

(إن البديع في القرآن لون تعبيري يشتمل على كثير من الخصائص المعجزة في نظمه وتركيبه لأن القرآن لا يقتصر على طريقة واحدة أو نمط واحد من أنماط الأسلوب وإنما هـــو يبدع ويتفنن في كل طريق من طرق القول التي سلكها العرب البلغاء ومارسوها بطبائعهم وفطرهم، ومن ثم أفحم وأعجز، ووقف الجميع دونه في حيرة وذهول[4]).

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ١٣٦.

(٢) السابق : ١٨٢.

(٣) السابق : ١١٢ ط ٤، تحقيق : سيد صقر.

(٤) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، د. فتحي عامر : ٢٦٧.

ورغم أننا لم نوافق الباقلاني على استبعاد البديع من وجوه إعجاز القرآن إلا أننا لا نملك إلا أن نحيي فيه روح البحث وجدية التفكير، واتباع المنهج العلمي في بحثه، وإخلاصه في الذود عن القرآن، ومحاولته دحض الشبهات المثارة حول إعجازه.

٦ - أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز: للجرجاني[1] (ت ٤٧١ هـ)

ولنترك الباقلاني، لنبحث عن المقابلة عند عبد القاهر الجرجاني، شيخ البلغاء إمام عصره، ونابغة زمانه.

وحين نفتش في أشهر كتابين له متصلين بالبلاغة القرآنية، وهما أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، فإننا لا نكاد نعثر له على حديث خاص بهذا العنوان (المقابلة) اللهم إلا ذكره لهذا اللفظ حين كان يتحدث عن نظريته في توخي ترتيب الكلمات حسب ترتيب المعاني، مستشهدا لهذا بقوله تعالى ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾.

حيث ذكر من بلاغة النظم في هذه الآية: مقابلة (قيل) في الخاتمة بـ (قيل) في الفاتحة[2]، مما يوحي بأن المقابلة عنده تعني نوعا من الجناس ولكنه يتحدث عن البديع بمعنى عام لا يريد به ما عرف عند البلاغيين من أنه (علم يراد لتحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال).

إن حديثه عن البديع لا ينفصل عن نظرية النظم، تلك القضية التي تفرغ لها، وجاهد من أجلها طوال حياته.

فلقد جاء عبد القاهر على قدر، جاء في القرن الخامس الهجري (وقد دب السقم إلى الأساليب العربية، وهد الهزال من كيانها، فطغت دولة الألفاظ، واستفحل أمرها، وتعاظم خطرها، واستبدت بأقلام الكتاب حتى صرفتهم عن المعاني، فراحوا لا يحفلون إلا بجناس ولا يقصدون إلا إلى سجع، فانبرى عبد القاهر لحرب هذه الطائفة يحمل أمضى سلاح، وأحد سنان، ومضى يجالد حتى أقام للمعاني الدولة، ومكن لها، وقضى على الألفاظ عند من أغرموا بها، وهو فيما بين ذلك لا ينسى حظ الألفاظ، ولا ينكر دورها في خدمة المعاني)[3].

---

(١) الأعلام: ٤ / ٣٨ - ٣٩.

(٢) دلائل الإعجاز ٣٧ تصحيح الشيخ محمد عبده، ط ٦، صبيح، القاهرة، ١٩٦٠.

(٣) الصبغ البديعي في اللغة العربية، د. أحمد إبراهيم موسى، ص ٢٢١، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٩.

وترجع حملته العنيفة على الألفاظ في كتبه، إلى إحساسه بطغيان الشكل على الجوهر عند أدباء عصره، ومن ثم، فإنه حين كتب أسرار البلاغة انتصر للمعنى، واعتبر الألفاظ خادمة للمعاني.

(إن البلاغة عنده ترجع إلى المعنى، وإن الألفاظ تبع للمعاني، وهي تترتب في النطق عـــلى حسب ترتيب المعاني في النفس، ومن ثم فخير طريقة للنتاج الأدبي عنده هي أن تـــنطلق المعاني انطلاقا لا تكلف فيه ولا غموض ولا التواء، حيث تقع على ما يليق بها من الألفاظ فتلبسها متمكنة منها مهما اختلفت الأساليب، وتعددت ألوان التعبير، وما عرضه من البديع يبعد عنه الصفة اللفظية المحضة ويطرد مع منهجه المعنوي الذي يستقيم وفكـــرة النظم[1]) والنصوص الواردة في كتابه (أسرار البلاغة) تؤكد هذا المعنى وتحض عليه.

(فالألفـــاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجـــه مـــن التركيب والترتيب، فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر، فعددت كـــلماته عـــدا، كيف جاء واتفق، وأبطلت نضده، ونظامه الذي بني عليه، وفيه أفرغ المعـــنى وأجرى وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد كما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد نحو أن تقول في :

قِفَانَبْكِ مِن ذِكْرِي حبيبِ ومنزلِ   منزل قفا ذكرى من نبك حبيب

فحينـــئذ يصـــبح البيـــت ضربا من الهذيان، ولا يفيد معنى، بل لا يمكن نسبته إلى صاحبه، إذ محال أن يكون لهذا النوع من الخبل إنسان عاقل وإذا ثبت بالدليل أن النظم إذا انـــتقض صـــار انكاثـــا من بعد قوة علمنا أن المعنى الأصلي لبيت الشعر أو فصل الخطـــاب لا يتضـــح إلا بترتيب الكلام على طريقة معلومة وحصوله على صورة من التأليف مخصوصة[2]) ولن نجد شخصا يستحسن الشعر أو يستجيد النثر ويثني عليهما من جهة اللفظ، فإنما ذاك بسبب ما أفاده اللفظ من معنى وبهذا المقياس نظر عبد القاهر إلى ألوان البديع التي عرض لها في أسرار البلاغة كالتجنيس والسجع والتطبيق.

---

(١) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، الدكتور فتحي عامر : ١٢٤، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥.

(٢) انظر أسرار البلاغة في علم البيان للجرجاني : ١٤ تعليق وإيضاح وتنقيح الأستاذ / محمد عبد العزيز النجار، ط : صبيح، ١٩٧٧م.

لقد اشتملت نظرية النظم عنده على كل هذه الألوان، وإذا كان لأي منها من فضيلة فإنما يرجع ذلك لنصرة المعنى (إذا لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن[1]).

ومن ثم، فإن الكاتب أو الشاعر إذا أولع بالبديع في كتابته أو شعره، وأكثر منه، واهتم بالألفاظ على حساب المعنى (فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء وإن يوقع السامع في طلبه في خبط عشواء وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى فأفسده، كمن ثَقَّل العروس بأصناف الحُلي حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها[2]).

ونظرا لأن عبد القاهر رجل نظم بالدرجة الأولى، فإننا نجده قد أدرج التطبيق مع الاستعارة.

وعلى الرغم من أنه لم يفض القول في التطبيق؛ إلا أننا نفهم من كلماته المعدودة عنه أنه يعتبر التطبيق أو المقابلة ألوانا بديعية، لا تجلب لمجرد الزينة اللفظية، وإنما يؤتى بها في الكلام لتؤدي دورا هاما في خدمة المعنى.

وقد أكد هذا الأمر حين كرره في صفحة واحدة بقوله أولا (وأما التطبيق فأمره أبين، وكونه معنويا أجلى وأظهر، فهو مقابلة الشيء بضده). وثانيا حين قرنه وسائر أقسام البديع بالاستعارة وأكد على أن مرجع الجمال فيها إنما هو للمعنى يقول: (وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع، فلا شبهة أن الحُسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب، أو يكون لها في التحسين تصعيد وتصويب[3]).

وهو من أجل ذلك، يصرف استحسان النقاد للشعر من جهة الألفاظ إلى شيء آخر، ويرجع هذا الاستحسان المزعوم في الألفاظ إلى حسن الترتيب وجمال النظم الذي يوصل المعنى بسهولة إلى القلب، أو إلى سلامته من الحشو أو التقصير.

وبالجملة فإنه يرجع هذا الحسن إلى النظم الذي هو (تعليق الكَلِم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض[4]).

---

(١) المرجع السابق : ١٧.
(٢) المرجع السابق : ١٨.
(٣) أسرار البلاغة : ٢٨.
(٤) دلائل الإعجاز : ١٢.

وهذا التعليق في رأيه يعطي الجملة معناها ويثمرها ثمرتها. فالألفاظ لا تستحسن إلا إذا تلاءمت وأخواتها في المعنى واتسقت في نضد واحد مؤتلف ومتجانس.

ويستدل على ذلك بأن اللفظة تروقك وتؤنسك في موضع وتثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، فلو كان الحسن راجعا لذاتها وليس إلى نضدها مع أخواتها في نظم، لما اختلف بها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبدا أو لا تحسن أبدا[1].

وإذا كان عبد القاهر لم يتحدث عن المقابلة أو الطباق بطريقة مباشرة إلا أننا نفهم منه أنهما وسائر أنواع البديع لا يعرض لهما الحسن أو القبح إلا من جهة المعاني، ومعنى ذلـك أنـه يعتبرهما من العناصر الجوهرية في المعنى، وليسا عرضا شكليا يجلب للزينة والبهرج، فهو بذلك يعتبر من القائلين بذاتية البديع لا عرضيته.

٧ - الكشاف للزمخشري[2] (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ)

في نهاية القرن الخامس وأوائل القرن السادس ظهر في أفق العالم الإسلامي عالم جليل مـلأ طباق الأرض علما، وترك بصمات واضحة ومعالم مشرقة في الدراسات القرآنية، وبخاصة في الجانب التطبيقي للبلاغة القرآنية. ذلكم هو جار الله محمود بن عمر بن أحمد الخوارزمـي الزمخشري المفسر اللغوي والنحوي والأديب أحد أئمة المعتزلة وصاحب الكشاف وأساس البلاغة.

ولقـد جـاء الزمخشري في وقت كانت الدراسات القرآنية والبلاغية فيه أحوج ما تكـون إلى مثله ذكاء ونفاذ بصيرة وعمق رؤية وقدرة على تطبيق ما نادى به من قبله عـبد القاهـر الجرجاني. (فقد كانت الدراسات القرآنية قبل الزمخشري تفتقد الجانب التطبـيقي، إلى أن كـان الزمخشري صاحب الباع الطويلة في النظر إلى فنون البلاغة ومقتضياتها وطرائقها المختلفة فغطى هذا الجانب المفتقد بدراسته التفسيرية البلاغية التي جـاءت فريدة في لونها بين الدراسات السابقة واللاحقة، وذلك في كتابه (الكشاف) الذي أحدث دويا ورنينا في العالم الإسلامي، لا يزال صداه يرن في آذاننا حتى اليوم - نظرًا لما للكتاب من سمة متميزة بين سمات الكتب، وتنحو دراساته نحوا يخالف ما نراه لـدي محمـد بن جرير الطبري وغيره من المفسرين الذين سبقوه، ولقد كان بارعا في

---

(١) السابق : ٤٦.

(٢) انظر الأعلام : ٧ / ١٧٨، ط ٥، بيروت ١٩٨٠.

الشعر والنثر، فطنا رقيق الحس رهيف الشعور حاد الذكاء، ومن ثم، جاءت نظراته التطبيقية دليلا على أصالته وتمكينه وشدة المراس فيه[1].

والذي يقرأ دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجاني ثم يقرأ الكشاف للزمخشري، يدرك بسهولة أن الأخير تلميذ نجيب لأستاذ قدير. فقد طبق الزمخشري عمليا في تفسيره نظرية المعاني وارتباطها بالنظم تلك النظرية التي شغلت تفكير عبد القاهر واستحوذت على اهتمامه ردحا طويلا من الزمن.

وبما أن هذه النظرية تتجلى بصورة واضحة في المعاني والبيان، ولا يدخل الجرجاني فيها من البديع إلا ما جاء لخدمة المعنى، ودون تأتٍّ له وتكلف، ونظرا لأن الزمخشري قد مضى على هدى أستاذه شارحا ومفصلا، ومدعما للإعجاز القرآني عن طريق النظم والأسلوب، نظرا لهذا ذهب بعض الباحثين إلى أن الزمخشري قد أهمل البديع واعتبره قشرا بجانب اللب أو ذيلا لعلمي المعاني والبيان.

وقد عرض الدكتور محمد محمد أبو موسى في كتابه (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري[2]) لهذه القضية، مقدما لها بما قاله الأستاذ الصاوي الجويني صاحب كتاب (منهج الزمخشري في تفسير القرآن) والذي يذهب إلى أن الزمخشري قد جعل البديع ذيلا تابعا لعلمي المعاني والبيان (وأنه في هذا يتأثر عبد القاهر الذي يرى مزية الكلام الجمالية في معناه، وأما اللفظ فهو خادم المعنى، ولهذا فلن تظفر في تفسيره بأكثر من ثلاثة ضروب من البديع على كثرتها، وليس الزمخشري بهذا منكرا للصنعة البديعية، فبها يحسن الكلام، ولكنها قشر بجانب اللب، وما اللب إلا الظلال المعنوية والنفسية التي يوحيها نظم الكلام[3]).

ثم يعرض الدكتور أبو موسى - أيضا - لرأي كل من الدكتور شوقي ضيف والدكتور أحمد الحوفي، حيث يرى الدكتور شوقي ضيف أن الزمخشري كان مطبقا لما أورده الجرجاني في أسرار البلاغة من مباحث التشبيه والاستعارة والمجاز بنوعية اللغوي والعقلي أو الإسناد الحكمي وأن الزمخشري لم يعد البديع علما مستقلا بل كان يراه

---

(1) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ : د.فتحي عامر : ١٨٠.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور محمد محمد أبو موسى : ٤٨٠ : ٤٨٥؛ ط ١، الناشر / مكتبة وهبة.

(٣) انظر : منهج الزمخشري في تفسير القرآن للصاوي الجويني : ٢٥٦ ط دار المعارف بمصر.

ذيــلا لعــلمي المعاني والبيان[1] ويقرر في موضع آخر أن الزمخشري مضى على هدى الجــرجاني الــذي كان يرى – كما رأى المتكلمون من قبله – أن البديع لا يدخل في قضــية الإعجاز القرآني، لأن كثيرا من ألوانه مستحدث، وما جاء في القرآن إنما جاء دون تــأنٍ له وتكلف – فمضى الزمخشري على هذا الهدى لا يعنى بما جاء في الآيات الكريمة من بديع إلا عرضا[2].

وإلى هــذا أيضــا ذهب الدكتور الحوفي في كتابه (الزمخشري) حيث ينص على أن (علم البديع في رأي الزمخشري تابع للمعاني والبيان وليس قائما بذاته[3]).

وبعــد ذلــك يبدأ الدكتور أبو موسى في تفنيد هذه الأقوال والرد على تلك الآراء بطــريقة علمية يلتمس فيها العذر لهؤلاء الأساتذة بأنه ربما دفعهم إلى رأيهم هذا أنهم وقفــوا عند كلام الزمخشري في التجانس من مثل قوله في تفسير (وجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بنبأ) إن الجــناس هــنا من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع، وهو من محاسن الكلام الــذي يــتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعا أو يضعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صــحة المعنى وسداده، ثم يقول في موقعه من القرآن : ولقد جاء هنا زائدا على الصحة فحســن وبــدع لفظــا ومعنى، ألا ترى أنه لو وضع مكان (بنبأ) (بخبر) لكان المعنى صحيحا، وهو كما جاء أصح، لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

ويعلل الدكتور أبو موسى هذا الموقف من الزمخشري بأننا لا نسمع هذه النغمة منه إلا في فــن الجناس، وأن ذلك راجع إلى انصراف اهتمام الأدباء والشعراء في عصره إلى هذا الفن حتى صار صناعة ثقلية متكلفة ويضيف الدكتور أبو موسى ردا آخر على من ذهب إلى أن الزمخشري قد أهمل البديع هو أنه ربما دفعهم إلى هذا الرأي ظنهم أن عبد القاهر – أستاذ الزمخشري – إنما أهمل ألوان البديع، ولم يبسط القول فيها كما فعل في ألوان البيان وصور النظم؛ لأنها لا تدخل في الإعجاز البلاغي للقرآن، ثم يدفع هذا الظن بقوله إن هذا وَهْمٌ، لأن عبد القاهر أشار إلى أن الاستعارة داخلة في الإعجاز، وهي من

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف: ٢٢١ / ط ٢ دار المعارف

(٢) المرجع السابق: ٢٦٥

(٣) انظر كتاب الزمخشري للدكتور أحمد الحوفي: (٢٠٣) ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر

البديع كما يقول،وأشار إلى أن المزاوجة من صور النظم، وأنه يبلغ الغاية في دقته وتماسكه في صورها، ومثلها الجمع والتقسيم.

وأما ما ذكره الدكتور الصاوي الجويني من أننا لا نظفر في الكشاف بأكثر من ثلاثة ضروب من البديع على كثرتها، فليس صحيحا في نظر الدكتور أبي موسى لأنه أحصى في الكشاف أكثر من ضعف هذا العدد.

وموقفنا من هذه القضية هو أننا لا نرجح كفة أي من الفريقين، ولا ننحاز كلية لأي من الطرفين، فلا نشتط في القول ونتهم الزمخشري بإهمال البديع والتفريط في جنبه واعتباره قشرا بجانب اللب. كما ذهب الأستاذ الجويني، أو النظر إليه على أنه تابع وذيل للمعاني كما ذكر الأستاذان شوقي ضيف وأحمد الحوفي.

كما أننا لا نزكيه أو نبرئه تماما، ونتلمس له من القول ما لا يقصد، أو من العذر ما يشك في قبوله كما أراد الدكتور أبو موسى بل نلاحظ أن الرجل في مجال البديع القرآني - كانت له أحيانا لمحات فنية رائعة تدل دلالة أكيدة على دقة تفكيره، وعمق فهمه، وحساسيته لأثر اللون البديعي في السياق، كما تدل على بصر بأسرار اللفظة القرآنية وإيحاءاتها وإعجاز التراكيب ودقتها.

ونحس حينئذ أن الزمخشري لا يهمل البديع، بل يوليه من العناية والاهتمام بمقدار ما أعطى البديع الموقف القرآني من الإيحاء والدلالات.

وأحيانا أخرى يجيء البديع عنده على هامش البحث، ويمر عليه مرورا عابرا، غير محتفل بما يمكن أن يؤديه اللون البديعي من خدمة جليلة في إبراز المعنى.

وليس في هذا غرابة أو عجب، فالزمخشري كأديب مفسر، وبلاغي شاعر، تنفتح له طاقة الإبداع والإلهام، وتتفجر أمامه كوة النور فيرى في الآية أو الموقف القرآني من الأسرار والنفحات، ومن البلاغة والتأثير ما لا يراه في آية أخرى، أو موقف مغاير، ويعرف ذلك جيدا كل من مارس الكتابة حول القرآن الكريم، إذ ربما يقرأ الباحث في القرآن الآية أو السورة مرارا وتكرارا، فلا يرى فيها إلا ظاهر المعنى، ومعجم الألفاظ وفجأة وفي لحظة من لحظات الإشراق والصفاء الروحي - ينكشف عنه الغطاء، ويتجلى له المستور، ويعطيه القرآن من النور ما يهديه لاجتلاء ما كان غامضا، وإظهار ما كان للتو أمام ناظريه خافيا.

وهكذا شأن القرآن، وها هنا موضع العجب فيه، فقد ﴿ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1] و ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [2] و ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3].

ونسوق هنا أربعة نماذج من الكشاف، لندلل بها على صحة ما رأيناه: نموذجين لبيان مدى اهتمامه بالبديع واحتفاله بمغزاه، ونموذجين آخرين من البديع القرآني، لا يعيرهما الزمخشري اهتماما كبيرا، ويمر عليهما مرور الكرام، ويهتم بما فيهما فقط من المعاني أو البيان.

وقد آثرت أن تكون النماذج مشتملة على المقابلة ما أمكن فهي موضوع بحثنا.

النموذج الأول: تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[4].

حيث يقول (ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز. إذ كل واحد منهما غاية في بابه، لأن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل، والاشمئزاز أن يمتلئ قلبه غما وغيظا حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه[5]) فاستبشارُ وتهللُ الكافرين بذكر آلهتهم مقابل انقباض وجوههم وقَتَرها، وضيق صدورهم وحرجها بذكر الله، ملمح دقيق وضحه الزمخشري بذكر التحليل اللغوي لكل من الفعلين (اشمأزت) و(يستبشرون).

النموذج الثاني: يمزج فيه الزمخشري بين اللفتة النحوية والنكتة البلاغية وبين المقابلة كلون بديعي، والمجاز كصورة بيانية، ويصهر الجميع في بوتقة النظم القرآني وأسلوبه الرفيع المعجز، حتى لا ندري أي تلك الوجوه كان سبب الإعجاز.. وذلك النموذج هو تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾[6]

---

(١) الفرقان : ٦

(٢) الأنعام : ٨٨

(٣) الحج : ٥٤

(٤) الزمر : ٤٥

(٥) الكشاف للزمخشري: ٤ / ١٠٢ ط – مطبعة الاستقامة، مصر

(٦) غافر : ٦١ وتمام الآية هي (إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون).

يقـــول فـــيه (فإن قُلْتَ لم قرن الليل بالمفعول له، والنهار بالحال، وهلا كانا حالين أو مفعـــولا لهما، فيراعي حق المقابل؟ قلت: هما متقابلان من حيث المعنى، لأن كل واحد مـــنهما يـــؤدي مؤدي الآخر ولو قلت: ليبصروا فيه: فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجـــازي، ولو قيل: ساكنا والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج وساكن لا ريح فيه – لم تتميز الحقيقة من المجاز[1]؟)

ويهمنا هنا التأكيد على ما ذكره الزمخشري من التقابل المعنوي، فهذا يؤكد أنه يعتبر الـــبديع داخلا ضمن النظم الذي يتكون من مجموع الألفاظ والمعاني وليس البديع عنده مجرد زينة شكلية أو عرض ظاهر، ويظهر ذلك بصورة أوضح عند حديثه عن الصورة الســـابقة في سورة أخرى في قوله تعالى ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾[2] حيث يقول : (جعل الإبصار للنهار وهو لأهلـــه، فإن قلت: ما للتقابل لم يراع في قوله: (ليسكنوا .. مبصرا) حيث كان كان أحدهمـــا علة والآخر حالا؟ قلت: هو مراعي من حيث المعنى – وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف، لأن معنى مبصرا: ليبصروا فيه طرق التقلب في المكاسب[3]).

الـــنموذج الثالث: يقع البديع فيه تحت ناظريه في صورة تشتمل على البديع والمعاني فلا يعير البديع من اهتمامه إلا القليل بينما يبرع ويجيد، ويبدئ ويعيد في متطلبات علم المعـــاني التي وردت في نفس الصورة، انظر إليه يعلق على آية سبأ: ﴿فأعرضوا فأرسلنا علـــيهم سَيْلَ العَرِم وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِم جَنَّتَيْن ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيءٍ من سِدْرٍ قلـــيلٍ ﴾[4] بقوله: " تسمية البدل لأجل المشاكلة وفيه ضرب من التهكم.. " ولا يزيد على ذلك.

فـــإذا تخطى نطاق البديع أتى بمعان أغرب وأعمق وأدل على ذكاء وعمق وبصيرة يقـــول : المؤمن تكفَّر سيئاته بحسناته، والكافر يحبط عمله فيجازى بجميع ما عمله من الســـوء ووجـــه آخـــر: هو أن الجزاء عام لكل مكافأة يستعمل تارة في معنى المعاقبة، وأخـــرى في معنى الإثابة، فلما استعمل في معنى المعاقبة في قوله: (جزيناهم بما كفروا)

(١) الكشاف : ٤ / ١٣٧
(٢) النحل : ٨٦
(٣) الكشاف : ٣ / ٢٠٣
(٤) سبأ : ١٦ – ١٧

بمعـنى عاقبـناهم بكفـرهم، قيل (وهل نجازى إلا الكفور)؟ على اختصاص للكفور بالجـزاء، والجزاء عام للكافر والمؤمن، لأنه لم يرد الجزاء العام، وإنما أراد الخاص وهو العقـاب، بل لا يجوز أن يراد العموم، وليس بموضعه، إلا ترى أنك لو قلت: جزيناهم بما كفروا، وهل يجازى إلا الكافر والمؤمن لم يصح و لم يعد كلاما[1].

(وهـذا كلام له وزنه وخطره فيما وراء الجزاء من دلالات بلاغية يخصصها موقف الآيـة، ممـا يـدل على أن الرجل يمر بالبديع مرورا عابرا فإذا عرض لصورة العموم والخصوص، وهي من متطلبات المعاني برع وأجاد[2]).

والنموذج الرابع والأخير: يجيء فيه حديثه عن التقابل كلون بديعي - على هامش البحـث، أمـا المعاني ففيها العمق والاستقصاء، وإحكام الربط، والكشف عن مناط الإعجاز، ونقتطف هنا بعضا مما أورده في هذا الجانب: يقول في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝﴾[3] (.. فـإن قلـت: كيف اتصلت الجملتان بالرحمن؟ قلت استغنى فيهما عن الوصـل اللفظي بالوصل المعنوي لما علم أن الحسبان حسبانه - والسجود له لا لغيره، كأنـه قـيل: الشمس والقمر بحسبانه، والنجم والشجر يسجدان له، فإن قلت: كيف أخل بالعاطف في الجمل الأولى، ثم جيء به بعد؟ قلت: بَكَّتَ بتلك الجمل الواردة على سـبيل الـتعديد، ليكون كل واحدة من الجمل مستقلة في تقريع الذين انكروا الرحمن وآلاءه، كمـا يُبَكِّـتُ منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه في المثال الذي قدمـته، ثم رد الكـلام إلى مـنهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف.

فإن قلت: أى تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف؟

قلـت: إن الشمس والقمر سماويان، والنجم والشجر أرضيان، فبين القبيلين تناسب من حيث التقابل، وإن السماء والأرض لا تزالان تذكران قرينتين، وإنَّ جَرْيَ الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله، فهو مناسب لسجود النجم والشجر[4].

---

(١) الكشاف : ٢ / ٥٥٩

(٢) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ للدكتور عامر: ٢٠٨

(٣) الرحمن : ٥ - ٧

(٤) الكشاف : ٤ / ٤

(فهـو لم يذكر من المعاني الثانية وراء البديع إلا التناسب في تقابل الشمس والقمر والـنجم والشجر، أما فنون المعاني من الفصل والوصل، والتناسب بين الجمل، والمعاني الثانية التي تشع من خلال التركيبات في ذلك كله فشيء يفوق الحصر[١]).

رؤية الزمخشري للمقابلة :

وسـواء أهمل الزمخشري البديع أو احتفل به، فلا مندوحة لنا من الحديث عن رؤيته للمقابلة في القرآن الكريم من واقع تفسيره (الكشاف) فهل عرفها كما عرفها غيره من علماء البلاغة؟ أم عرض لها في سياق التفسير تاركا لنا مهمة وصفها وبيان ما يعني بها؟

الحـق أنـي مـن خلال قراءتي للكشاف لم أعثر للزمخشري على تعريف للمقابلة كمصطلح بلاغي، على غرار ما ذكره علماء البلاغة، لكنه كان إذا وجد مقابلة في آية ما؟ نص على أن ها هنا تقابلا بين كذا وكذا مما يدل على أنه لا يحفل كثيرا بالتسمية قدر احتفاله بالمسمى، أو بتعبير أدق، لا يهتم بالنظرية قدر اهتمامه بالتطبيق، ومع ذلك فيمكن لنا استخلاص رؤيته للمقابلة في النقاط الآتية:

١) أحيانا كثيرة نجده يصف التطابق والغرض البلاغي منه ولا يسميه: وينص على أن الذكر الحكيم يهتم بإيراد الشيء مع نقيضه أو نظيره لما في ذلك من إثارة وتأثير ففي قولـه تعـالى في سورة البقرة[٢] ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وقبـلها ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ يقول: (من عادته عز وجل في كتابة أن يذكر الترغيب مع الترهيب، ويشفع البشارة بالإنذار، إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف، والتثبيط عن اقـتراف ما يتلف، فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب، قَفَّاهُ ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة، من فعل الطاعات وترك المعاصي، وحموها من الاحباط بالكفر والكبائر بالثواب[٣]).

٢) يركـز على المقابلة المعنوية وكذلك الطباق المعنوي، إذ يرى أن المقابلة اللفظية مـن السهل الإتيان بها، أما المقابلة المعنوية، فلا يؤتي فهمها إلا ذو طبع سليم، وقدرة على الغوص وراء المعاني لاستخراج التقابل بينها.

---

(١) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ للدكتور عامر : ٢١٢

(٢) البقرة : ٢٤ - ٢٥

(٣) الكشاف : ١ / ٢٥٣ (ط دار الفكر، بيروت)

ولذلـــك كثيرا ما ترد هذه العبارات عند حديثه عن المقابلة المعنوية: (ترى المطابيع مـــنهم لا يـــراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني)[1]، (هو - التقابل - مراعي من حيـــث المعنى، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف[2])، (هما متقابلان من حيث المعنى، لأن كل واحد منهما يُؤَدِّي مُؤَدَّى الآخر[3]).

٣) وأحـــيانا يطلق لفظ المقابلة على المشاكلة، وذلك مثل تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[4] فلـــيس في الآية ما يوحي بالـــتقابل، ومـــع ذلـــك يقول: (يجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة فقالوا: أما يستحي ربُّ محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت؟

" مجاز على سبيل المقابلة، وإطباق الجواب على السؤال. "

وواقـــع الأمـــر أن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ مشاكله وليس مقابلة أو مطابقة لأن المشاكلة هي (ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته[5]).

وهـــنا أطلق لفظ (لا يستحي) على الله سبحانه وتعالى مشاكله لما قاله الكفرة: أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت.

ورغـــم أن الزمخشري سمى ذلك مقابلة، وإطباق الجواب على السؤال، إلا أنه بعد ذلك اعترف بأن مثل ذلك يسمى مشاكله، حين استشهد بقول أبي تمام:

مَنْ مُبْلِغٌ أَفْنَاءَ يَعْرُب كلَّها　　　أَنِّي بَنَيْتُ الجارَ قَبْلَ المنزِل

فالذي يسوغ بناء الجار هو مراعاة المشاكله، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار، ثم يضـــيف أن ذلـــك مـــن عجائب القرآن الذي أحاط بفنون البلاغة جميعها، لا تكاد تستغرب منها فنا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسد مدارجه.[6]

ونستنتج من ذلك أن الزمخشري لا يهتم كثيرا بالاصطلاحات الحرفية، وأنه يرى أن صور البديع - على كثرتها - متقاربة، بل ومتداخلة.

---

(١) الكشاف : ٤ / ١٤٥ مطبعة الاستقامة
(٢) الكشاف : ٣ / ٣٣
(٣) الكشاف : ٤ / ١٣٧
(٤) البقرة : ٢٦
(٥) الإيضاح للقزويني : ١٦٨
(٦) الكشاف : ١ / ٨٥

وإطـــلاق المقابلة على المشاكلة من جانب الزمخشري في هذا الموقف واضح لا لبس فيه ولا غموض، كما ينص هو نفسه على ذلك في التعليق على بيت أبي تمام.

ولكـــن القطب الرازي (محمد أو محمود بن محمد الرازي أبو عبد الله قطب الدين) (٦٩٤ – ٧٦٦ هـــ) صاحب الحاشية على الكشاف[١] في حاشيته على الكشاف يرى أن الزمخشـــري – في حديثه عن المقابلة واطباق الجواب على السؤال – إنما يريد المعنى اللغـــوي لـــلمقابلة، ولهذا عطف عليه – على سبيل التفسير – (واطباق الجواب على الســـؤال) والا فالمقابلة – كما يقول القطب – في اصطلاح ارباب البديع أن يجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر أو بين ضديهما[٢] .

وســـواء أراد الزمخشري المعنى اللغوي أو المعنى الاصطلاحي، فإن التداخل بين صور الـــبديع واضح عنده، بدليل أنه يمزج أيضا بين اللف والنشر والطباق وذلك إذا كانت الصـــفات الـــراجعة إلى المذكور متقابلة، نرى ذلك عنده في تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾[٣] حيـــث يقـــول: (وشبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو من اللف والطباق[٤] ونحـــن نعرف أن اللف هو: ذكر المتعدد على جهة الاجمال، ثم ذكر ما لكل على جهة التفصيل، ثقة بأن السامع سيرده إلى موضعه[٥] .

ويمكن أن نضيف إلى رؤية الزمخشري للمقابلة ما توصل إليه الدكتور أبو موسى في بحثه في هذا المجال[٦] وهو:

٤) إن المقابلـــة عنده قد تكون بين لفظين متقابلين كالاستبشار والاشمئزاز في قوله تعـــالى ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[٧] .

---

(١) الاعلام : ٧ / ٣٨

(٢) انظر: حاشية قطب الدين التحتاني على الكشاف: ٢٥٤ (ويسمى أيضا قطب الدين الرازي ولكنه ليس الرازي المفسر المشهور)، رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية. جامعة الأزهر، القاهرة)، من اعداد إبراهيم طه الجعلي، ١٩٨١

(٣) هود : ٢٤

(٤) الكشاف : ٢ / ٢٠٣ ط : الاستقامة

(٥) الإشارات والتنبيهات للجرجاني (محمد بن علي) : والبديع في ضوء أساليب القرآن (٨٨)

(٦) انظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٤٩٤ : ٤٩٧

(٧) الزمر : ٤٥

٥) وقد تكون المقابلة بمعنى الموافقة في نظم الجمل، وذلك كالتقابل من حيث المعنى في قوله تعالى (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) وقد مر الحديث عن تخريج هذا التقابل المعنوي منذ قليل.

٦) أما الطباق عند الزمخشري فلا يبتعد كثيرا عن المقابلة عنده، كما أنه - أيضا - يخرج عن معناه الاصطلاحي إلى معان أخرى منها:

أ- قد يراد به مقابلة الكلمات من حيث التضاد وهذا أقرب إلى المعنى البلاغي الذي هو الجمع بين المتضادين مثل قول الزمخشري في قوله تعالى:﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾[1]: شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو من اللف والطباق: وقد سبق الحديث عن ذلك عند التنبيه على أن الزمخشري يمزج بين الألوان البديعية ونحن نرى أنه لا فرق في هذا بين الطباق والمقابلة بين اللفظين في آية الزمر السابقة.

ب- وقد يذكر الطباق ويراد به موافقة أحوال الكلمات لمعانيها، فالكلام المطابق هو الذي تتنزل فيه الأحوال على وفق المعاني، يقول في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾[2] وقال: (ليسكن) فَذَكَّر بعدما أنَّث (واحدة، منها، زوجها)، ذهابا إلى معنى النفس، ليبين أن المراد بها آدم، ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها فكان التذكير أحسن طبقا للمعنى[3].

ج- وقد يذكر الطباق بمعنى لا يبعد كثيرا عن معنى اللف الذي سبق ذكره. يقول في قوله تعالى:

﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[4] :

فإن قلت ما معنى ثم؟ قلت: ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال كما تقول: هي محكمة أحسن الإحكام، مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل - وكتاب: خبر مبتدأ محذوف، وأحكمت: صفة له - وقوله: " من لدن

---

(١) هود : ٢٤
(٢) الأعراف : ١٨٩
(٣) الكشاف : ٢ / ١٤٥ ط الاستقامة
(٤) هود : ١

حكـــيم خبير " صفة ثانية، ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر، وأن يكون صلة لأحكمت وفصـــلت، أي من عنده إحكامها وتفصيلها – وفيه طباق حسن، لأن المعنى أحكمها حكيم، وفصلها أي بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور[1].

د- وقـــد يذكر الطباق بمعنى مراعاة تلاؤم الألفاظ ووقوعها في مواقعها. وقد يبدو مـــن ظاهـــر التعبير ما يخالف هذا الأصل. أي تبدو الكلمات وكأنها متباعدة، وحينئذ يحاول الزمخشري أن يكشف تطابقها المعنوي، مشيرا إلى أن المطابيع هم الذين يراعون طـــباق المعـــاني، يقول في قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾[2] : (فـــإن قلـــت: هلا قيل على قلوبنا أكنة، كما قيل: وفي آذاننا وقر لـــيكون الكلام على نمط واحد ؟ قلت: هو على نمط واحد، لأنه لا فرق في المعنى بين قولـــك: (قلوبنا في أكنة)، وقلوبنا على أكنة[3]، ولو قيل : وجعلنا في قلوبهم أكنة، لم يختلف المعنى، وترى المطابيع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني[4]).

ويقول في قوله تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ ﴾[5] :

فـــإن قلت: كيف طابق قوله: لم تكونوا بالغيه قوله: وتحمل أثقالكم، وهلا قيل: لم تكونـــوا حاملـــيها؟ قلت: طباقه من حيث أن معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمـــتم أنكـــم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة، فضلا أن تحملوا على ظهورهم أثقالكم ويجوز أن يكون المعنى: لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الا نفس[6]).

ونخلـــص مـــن ذلك إلى أن الزمخشري يعتبر المقابلة كفن من فنون البديع داخلة في الـــنظم والإعجـــاز، وإلى أنـــه يركز على التقابل في المعنى – وأن ذوي الطبع السليم وحدهـــم هـــم القادرون على إدراك ذلك، ونحن مع د. فتحي عامر في أن الزمخشري بالـــرغم من أنه استفاد استفادة واضحة بالتجارب التي سبقته كان صورة واضحة على استقلال العالم في البحث وأن كشافه جاء نموذجا تطبيقيا على إعجاز القرآن البلاغي[7]

---

(١) الكشاف : ٢ / ١٤٥
(٢) فصلت : ٥
(٣) الأنعام : ٢٥
(٤) الكشاف : ٤ / ١٤٥
(٥) النحل : ٧
(٦) الكشاف: ٢ / ٤٦٣
(٧) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ : ٢١٣

٨- بديع القرآن - لابن أبي الأصبع.

في الوقــت الذي كانت شمس الحضارة الإسلامية والعربية تؤذن بالأفول في كل من المشــرق العباسي والمغرب الأندلسي كانت مصر قد بدأت تزدهر فيها الحضارة العربية وتحمل لواء العلم والمعرفة بفضل العلماء الوافدين إليها من الشرق والغرب تحت ضغط التــتار والفرنجة. وفي وسط هذا الجو العلمي وجد (الإمام العلامة عبد العظيم بن عبد الواحــد بــن ظافــر بن عبد الله بن محمد بن جعفر بن الحسن زكي الذين أبو محمد البـغدادي ثم المصــري المعروف بأن أبي الأصبع (٥٨٥ - ٦٥٤هــ)[١] وكان شاعرا وبلاغيا وناقدا.

وقد انصرف جل اهتمامه للبلاغة، وخاصة ما يتصل منها ببديع القرآن الكريم وهو يتخذ من ذلك منطلقا لإثبات إعجاز القرآن، مبينا كيف أبرزت الألوان البديعية معاني القــرآن وجمـــال أسلوبه وقوة تأثيره، ومن أهم كتبه في هذا المجال كتابان هما (تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن) و (بديع القرآن).

وفي تحريــر التحبير: (جمع ألوان البديع، وجعل منها أصولا وفروعا، فالاصول هي تلك التي أتى بها ابن المعتز من قبله، والفروع ما اكتشفه العلماء بعد ذلك[٢])

وقد أولع ابن أبي الأصبع بصور البديع أيما إيلاع، وتتبعها في بطون الكتب حتى جمع مــنها اثـــنين وتســـعين محسنا، ثم أضاف إلى ذلك ثلاثين محسنا جديدا سلم له منها عشــــرون، أمـــا الباقي فمسبوق إليه أو متداخل عليه[٣]. وكتاب (بديع القرآن): قد اختصره من (تحرير التحبير) لبيان ما في القرآن الكريم من الألوان البديعية، وقد أتى فيه بالعجب العجاب، ليدلل على أن الانواع البلاغية غير مقصورة على شعر الشعراء ونثر الكتاب، بل هي موجودة أيضا في القرآن، وقد أوصل الرجل عدد المحسنات البديعية في القرآن الكريم إلى مائة محسن وثمانية[٤].

---

(١) ارجع في ترجمته إلى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي : ٧ / ٣٧ ط مصورة عن طبعة دار الكتب، وشذرات الذهب : ٥ / ٢٦٥ ط دار الآفاق، بيروت والاعلام : ٤ / ٣٠ ط بيروت .

(٢) مقدمة (تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن ابي الأصبع تحقيق المرحوم د. حنفى شرف، ط المجلس الاعلى للشئون الإسلامية – ١٩٨٣ م

(٣) البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف : ٣٥٩، دار المعارف، مصر

(٤) انظر مقدمة (بديع القرآن) لابن ابي الأصبع، تحقيق د / حنفى شرف ط ٢، دار النهضة – مصر

ولكـــنا نلاحظ كما لاحظ من قبلنا الدكتور شوقي ضيف أن بعض أبواب المعاني متداخلة عنده مع بعض صور البديع[(١)].

وكـــتاب بديع القرآن يعتبر ميدانا تطبيقيا وعمليا لكل صور البديع جهد فيه مؤلفه لإثـــبات الإعجـــاز القرآني عن طريق ما فيه من البديع (إذ يبدو أن فكرة هذا الكتاب كانـــت رد فعل لفكرة الباقلاني التي بسطها في إعجاز القرآن والتي ذهب فيها إلى أن الإعجاز القرآني لا يلتمس من ناحية ما اشتمل عليه من البديع، ولذلك حاول ابن أبي الأصـــبع في كتابه أن يستخرج من القرآن غرر هذا البديع التي تفوق ما وقف عليه من بديع الكتاب والشعراء في العصور المختلفة[(٢)].

فماذا قال عن المقابلة بعد أن رأينا أنه يعتبر البديع القرآني آكد وجوه الإعجاز فيه؟

عرفنا أنه أوصل عدد المحسنات البديعية في القرآن إلى مائة محسن وثمانية ورغم هذه الكـــثرة الكاثرة من ألوان البديع عنده إلا أنه لا يفتأ يدخل هذا في ذاك، وذاك في هذا، فتراه يحمّل الآية الواحدة باكثر من محسن بديعي، وكأنه يجتهد لاثبات أن القرآن الكريم بديـــع كله، وتتكرر منه هذه النغمة عقيب الحديث عن الصورة البديعية التي يعرضها. اسمعه يقول معقبا على الطباق في قوله تعالى ﴿ وأنه هو اضحك وأبكى، وأنه هو امات واحـــيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾: (فانظر إلى فضل هذا الطباق كيف جمع إلى الطباق البليغ التسجيع الفصيح بمجيء المناسبة التامة في فواصل الآية[(٣)] .

ويقول في موضع آخر معقبا على صحة التقسيم في قوله تعالى ﴿ وهو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا ﴾ : (وحصل في نظم هذه الكلمات التي هى بعض آية مع صحة التقسيم التي اقترنت بصحة التفسير : حسن التهذيب والترتيب[(٤)].

ولقـــد سبق في الفصل الأول من هذا البحث أن بينت مدى ولوعه باستنباط وجوه الـــبديع والوانـــه، حين باهى بأنه وقع له في بيت واحد من تاليفه ستة عشر ضربا من البديع وهو قوله في مدح الملك الاشرف موسى الايوبي :

فَضَحْتَ الحَيَا والبحر جُودًا فَقَدْ بَكَىَ الـــ   حيَا مِنْ حَيَاءٍ مِنْكَ وَالْتَطَم البَحْرُ

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ٣٧٩
(٢) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ : ٢٦٧
(٣) بديع القرآن : ٣٣
(٤) السابق : ٦٦

وحين تحدث عن الطباق في كتابه بديع القرآن، لم يورد تعريفا محددا له، بل بدأ في تقسيمه إلى ضربين : حقيقي ومجازي، وبين أن كلا من الضربين على قسمين : لفظي ومعنوي واعتبر أن ما جاء بألفاظ الحقيقة فقط يسمى الطباق، أما ما كان كله أو بعضه بالفاظ المجاز، فإنه يسمى تكافؤا[1] (وبذلك يكون قد جمع بين رأيي قدامة وجمهور البلاغيين[2]) واستشهد للتكافؤ بقوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ [3]، فان اشتراء الضلالة وبيع الهدى مجاز، وبقوله تعالى ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ ﴾ [4] أي ضالا فهديناه، فان الموت والحياة ها هنا مجاز، ومعنى ذلك في رأيه (أن التكافؤ لابـد أن يتضمن استعارة فان لم يكن استعارة فلاتكافؤ[5]) ثم قسم الطباق الذي يأتي بألفاظ الحقيقة إلى ثلاثة أقسام :-

طباق سلب، وطباق إيجاب، وطباق ترديد.

ومثل للأول: بطائفة من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[6]، وقولـه تعالى ﴿ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ ﴾[7].

وهو وان لم يعط تعريفا لطباق السلب، إلا أن الآيات التي استشهد بها يفهم منها انه يعـني به ما كان أحد الطرفين مثبتا والآخر منفيا ومن الجدير بالذكر أنه قد عقد بابا شـبيها بهذا سماه (باب السلب والإيجاب) وهو بناء الكلام على نفي الشئ من جهة وإيجابه من جهة أخرى أو أمر بشيء من جهة، ونهي عنه من غير تلك الجهة[8]، ومثل لذلـك بقولـه تعـالى ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ۝ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾[9] فإنـه سـبحانه نهـى الولد عن أن يقول

---

(١) عرف قدامة التكافؤ بانه (الجمع بين معنيين متكافئين أي متفاوتين إما من جهة المضادة والسلب والإيجاب، أو غيرهما من أقسام التقابل) نقد الشعر : (١٤٣)

(٢) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق للدكتور حنفي شرف : ٧٨/٢

(٣) البقرة : ١٦

(٤) الأنعام : ١٢٢

(٥) بديع القرآن : ٣٢

(٦) البقرة : ٦

(٧) المائدة : ١١٦

(٨) بديع القرآن : ١١٦

(٩) الاسراء : ٢٣ & ٢٤

للوالديـــن أدنى قول مؤلم أو ما فيه غضاضة، وأمره بالقول الكريم وخفض الجانب لهما ذلا وتواضـــعا فأمـــره سبحانه بأمرين وفاه عن أمرين، ومثله ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾(1).

ونحـــن نرى في هذه الشواهد مقابلة بين طرفين، فان القول الكريم وخفض الجانب مقابل للقول المؤلم والفاحش المفهوم من التأفف والزجر.

ومـــثل للثاني: وهو طباق الإيجاب بقوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ ﴾(2)، وقوله : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾(3) أي مـــا تنقص وما تزيد، ومع انه لم يعرف طباق الإيجاب أيضا إلا أنه يعني به كما هو واضح من الأمثلة أنه ما كان التضاد فيه بدون أداة نفي.

أما الثالث : وهو طباق الترديد، فقد عرفه بأنه (رد آخر الكلام المطابق على أوله، فإن لم يكن مطابقا فهو رد الأعجاز على الصدور).

وقـــد قســـم طباق الترديد إلى ضربين سلب وإيجاب، فمن الموجب قوله تعالى ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾(4) و لم يمثل لطباق الترديد بالسلب.

ونحن نرى أن تقسيم ابن أبي الأصبع للطباق إلى حقيقي ومجازى لا يخرج عن تقسيم ابـــن ســـنان وابـــن رشيق والقرطاجنى حيث قسموا(5) الطباق إلى محض وغير محض، والمحض ما كان التضاد فيه حقيقيا والثاني ما احتاج إلى تأويل.

وقـــد تحـــدث ابن ابي الأصبع عن كل من الطباق والمقابلة تحت عنوانين مستقلين، وذكر ان الفرق بينهما يأتي من وجهين :

أحدهما ان الطباق لا يكون إلا بالجمع بين ضدين فذين (مفردين) فقط، والمقابلة لا تكون إلا بما زاد على الضدين، من الأربعة إلى العشرة.

---

(1) المائدة : ٤٤

(2) النجم : ٤٣ – ٤٥

(3) الرعد : ٨

(4) البقرة : ٢١٦

(5) انظر سر الفصاحة : ١٩٣ والعمدة : ١٢/٢ ومنهاج البلغاء : ٤٨

والوجه الثاني : ان المقابلة تكون بالاضداد وبغير الاضداد[1].

ومع انه تحدث عنهما منفصلين وأبان الفرق بينهما، إلا انه حين يستشهد بآية للطباق يجمع معه المقابلة، بدليل تعليقه على آية ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ التي استشهد بها لطباق الترديد الموجب، حيث يقول: (فجمعت هذه الآية بين المقابلة وبين طباق السلب المعنوي، فالمقابلة جاءت من صدرها حيث قابل الكراهية بالحب، والخير بالشر، والطباق المعنوي في قوله ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾، لان تقدير المعنى فيه: والله يعلم وأنتم تجهلون.

وقد سبق في صدر هذا البحث أن رأينا كيف قرب لنا ابن ابي الأصبع المعنى اللغوي للطباق وهو (الموافقة) إلى المعنى البلاغي وهو التضاد في قول نابغة بن جعدة (وخَيْل يُطَابِقْنَ بالدارعين ... طِبَاقَ الكلاَبِ يَطأْنَ الهَرَاسا).

ويظهر في هذا التقريب روح النقد اللاذع لابن الأثير الذي يعيب على علماء البلاغة تعريفهم المطابقة بأنها (مأخوذة من طابق البعير في مشيه إذا وضع خف رجله موضع خف يده) ووجه اعتراض ابن الأثير على هذا التعريف أن (أصل الاشتقاق يقتضي الموافقة لا المضادة[2]) لكن ابن ابي الأصبع يتصدى لابن الأثير فيخطئه في ذلك بقوله (وهو أولى بالخطأ منهم لأن القوم رأوا ان البعير قد جمع بين الرجل واليد في موطئ واحد، والرجل واليد ضدان، أو في معنى الضدين. فرأوا أن الكلام الذي قد جمع فيه بين الضدين يحسن أن يسمى مطابقا، لأن المتكلم به قد طابق فيه بين الضدين)[3].

وقد اختار ابن أبي الأصبع أن يتحدث عن المقابلة تحت عنوان: (صحة المقابلات)[4] وهي نفس التسمية التي أطلقها قدامه على المقابلة في نقد الشعر[5].

وعرفها بأنها عبارة عن (توخي المتكلم ترتيب الكلام على ما ينبغي فإذا اتى في صدره بأشياء قابلها في عجزه بأضدادها، أو بأغيارها من المخالف والموافق على

(١) بديع القرآن : ٣٢

(٢) المثل السائر لابن الأثير : ٢٧٩/٢

(٣) تحرير التحبير : ١١١

(٤) انظر بديع القرآن : ٧٣ - ٧٤

(٥) انظر نقد الشعر لقدامه : ١٣٣ ط ٣ الخانجي بمصر سنة ١٩٧٨ م.

الترتيـــب، بحيث يقابل الأول بالأول والثاني بالثاني، لا يخرم من ذلك شيئا في المخالف والموافق، ومتى أخل بالترتيب كان الكلام فاسد المقابلة).

وهو حين يؤكد على وجوب الترتيب كي تكون المقابلة صحيحة، إنما يؤكد ما قاله ابـــن رشيق في العمدة حين ينص على (أن الاصل في المقابلة هو ترتيب الكلام على ما يجب، فيعطى أول الكلام ما يليق به أولا، وآخره ما يليق به آخرا، ويأتي في الموافق بما يوافقــه وفي المخالف بما يخالفه[1])، ولأن صاحبنا مشغول بإثبات الإعجاز القرآني عن طـــريق ما حواه من البديع، فإننا نجده يتألق في تحليل ما يستشهد به من القرآن الكريم ومن معجز هذا الباب عنده قوله تعالى ﴿ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾[2].

فهو يحاول استخراج اكبر عدد ممكن فيها، مبينا دلالة كل لون منها على قوة المعنى، وما اضافه هذا اللون أو ذاك من ايحاءات وظلال مما يعني أن الرجل ينظر إلى البديع على أنه جوهري لا عرضي وأنه في القرآن الكريم – معجز أيما إعجاز، ولا يقل عن نظيريه البيان والمعاني يقول: (فانظروا إلى مجئ الليل والنهار في صدر الكلام، وهما ضدان ومجئ الســـكون والحـــركة في عجز الكلام، وهما ضدان، ومقابلة كل طرف بالطرف الآخر على الترتيب، وكيف عبر سبحانه عن الحركة بلفظ الإرداف: فاستلزم الكلام ضربا من المحاســـن زائدا عن المقابلة، والذي أوجب العدول عن لفظ (الحركة) إلى لفظ (ابتغاء الفضـــل) كون الحركة تكون لمصلحة ولمفسدة، وابتغاء الفضل حركة للمصلحة دون المفســـدة، وهـــي اشـــتراك الاعانة بالقوة وحسن الاختيار الدال على رجاحة العقل، وسلامة الحس ويستلزم اضاءة الطريق الذي تلك الحركة المخصوصة واقعة فيه، ليهتدى المـــتحرك إلى بلـــوغ المشارب ووجوه المصالح، وينفى أسباب المعاطب، والآية سيقت للاعتداد بالنعم، فوجب العدول عن لفظ الحركة إلى لفظ هو ردفه وتابعه، ليتم حسن البـــيان، فتضـــمنت هذه الكلمات التي هي بعض آية عدة من المنافع والمصالح التي لو عددت بألفاظها الموضوعة لها، لاحتاجت في العبارة عنها إلى ألفاظ كثيرة، فحصل في الكلام بهذا السبب عدة ضروب من المحاسن ألا تراه سبحانه جعل العلة في وجود الليل والـــنهار حصول منافع الإنسان فيه، حيث قال (لتسكنوا) و (لتبتغوا) بلام التعليل

(١) العمدة : ١٥/٢

(٢) القصص : ٧٣

فجمعت هذه الكلمات : المقابلة، والتعليل والإشارة، والإرداف والائتلاف، وحسن البيان، لمجيء الكلام فيها متلاحما، آخذة أعناق بعضه بأعناق بعض،ثم أخبر بالخبر الصادق أن جميع ما عدده من النعم بلفظه الخاص، وما تضمنته العبارة من النعم التي هي من لفظي الإشارة والإرداف بعض رحمته، حيث قال بحرف التبعيض: (ومن رحمته) وكل هذا في بعض آية عدّتها إحدى عشرة لفظة[1].

ونحن وإن عبنا على ابن أبي الأصبع في صدر هذا البحث أن كان واحدا ممن ساهموا في إصابة البديع بالتشتت والتمزق، وأنه بالغ في هذا إلى أن أوصل عدد المحسنات إلى مائة واثنين وعشرين محسنا، وأنه يباهي بأنه استطاع أن يجمع في بيت واحد من تأليفه ستة عشر ضربا من البديع، أقول إن ذلك لا ينفي كونه صاحب نظريات شفافه عن مخبوء الأسرار القرآنية، وذلك بما أوتيه من حصافة وذكاء، وإخلاص للعلم وانكباب على الدرس وعدم مشاركة في الحياة العامة، كما أنه - وقد اهتم بالمحسنات، لم يكن ذلك على حساب المعنى، بل كان يرى أن اللفظ الرقيق لا يقصد لذاته بل لأنه يشف عن المعنى ويظهره واضحا كالنهار، وهو يدعو الشعراء إلى ذلك في شعر رقيق له ومنه:

انتَخبْ للْقَريض لفظاً رقيقاً ... كَنَسيم الرِّيَاض في الأسْحار
فإذا اللفظُ رقَّ شَفَّ عن المعـ ... ـنى فأبْداه مثْلَ ضوء النهار
مثْلَمَا شَفَّت الزُّجَاجَةُ جسْمًا ... فاختَفَى لونُهاَ بلون العُقار[2]

ويبقي أن نقول إن أهم ما أضافه ابن أبي الأصبع في كتابه بديع القرآن هو إثبات الإعجاز القرآني عن طريق البديع وتأكيده بذلك على ذاتية البديع لا عرضيته. كما أنه كان يدعو إلى عدم المبالغة والإغراق، وله في ذلك رأي غاية في التوسط والاعتدال، وقد بسط هذا الرأي في تحرير التحبير. يقول (وقد اختلف قوم في المبالغة، فقوم يرون أن أجود الشعر أكذبه، وخير الكلام ما بولغ فيه... وقوم يرون المبالغة من عيوب الكلام، ولكن المذهب المرضي أن المبالغة ضرب من المحاسن إذا أُبعدت عن الاغراق والغلو.. وخير الأمور أوسطها[3].

وهو بهذا يخفف من غلوائه ومبالغته في تلمس وجوه للبديع القرآني قد تصل إلى درجة التكلف أحيانا.

---

(١) بديع القرآن : ٧٣ / ٧٤.

(٢) من مختارات شعره في كتاب : ابن أبي الأصبع المصري بين علماء البلاغة حفني شرف : ٢١.

(٣) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن : ١٤٧.

٩ - البرهان في علوم القرآن للزركشي :

ثم يأتي دور الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي[1] (٧٤٥ - ٧٩٤ هـ) وما قاله عن هذا الموضوع في كتابه الهام (البرهان في علوم القرآن).

والزركشي عَلَم من أعلام الفقه والحديث والتفسير وأصول الدين تفقه بمذهب الشافعي وحفظ كتاب المنهاج للإمام النووي حتى صار يعرف بالمنهاجي نسبة إلى هذا الكتاب.

ونحن نلاحظ في حديثه عن الطباق أنه يمزج - منذ اللحظة الأولى - بينه وبين المقابلة، رغم أنه أفاض في الحديث عن المقابلة، وخصها بجزء من كتابه. فالطباق عنده (أن يُجْمَعَ بين متضادين مع مراعاة التقابل[2]) وفي نصه على مراعاة التقابل دليل على هذا المزج، ثم يضيف (فإذا شرط فيهما شرط وجب أن يشترط في ضديهما ضد ذلك) وهي نفس الإضافة التي زادها السكاكي على تعريف المقابلة، حيث عرفها بأنها (الجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما، ثم إذا شرطت هنا شرطا شرطت هناك ضده[3]).

وقد مثل الزركشي للطباق بأمثلة عديدة ذكر منها آيات سورة الليل التي اشتهر الاستشهاد بها على مقابلة أربعة بأربعة وهي ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ ﴾.

ثم قسم الطباق إلى: لفظي ومعنوي، وأضاف قسما ثالثا هو الطباق الخفي، ونحن لا نرى فيما سماه المعنوي والخفي إلا ما سماه غيره بالطباق (غير المحض) ولأنه يتحدث عن القرآن وعلومه، لذا جاءت كل أمثلته من القرآن الكريم، وجاءت تخريجاته للآيات القرآنية دليل بصر وذوق، وآية إبداع واقتدار، وخصوصا حديثه عن الطباق المعنوي والطباق الخفي، وكلاهما مما يحتاج إلى تأويل.

---

(١) انظر في ترجمته : الأعلام : ٦ / ٦٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٣ / ٤٥٥ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط ١، ١٩٥٧، البابي الحلبي.

(٣) مفتاح العلوم للسكاكي : ٢٠٠.

فمـــن الطباق المعنوي قوله تعالى ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝ ﴾[1] فمعـــناه: ربنا يعلم إنا لصادقون، وقوله ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾[2] فلما كان البناء رفعا للمبنى، قوبل بالفراش الذي هو على خلاف البناء، ومن ثم وقع البناء على ما فيه ارتفاع في تصبيه[3].

ومن الطباق الخفي قوله ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾[4]، لأن الغرق من صفات الماء، فكأنه جمع بين الماء والنار، وينقل الزركشي عن أسامة بن منقذ قوله عن هذه المطابقة: إنها أخفى مطابقة في القرآن.

ثم عرض الزركشي لطائفة من المطابقات الخفية في القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾[5]، فكأنه جمع بين الأخضر والأحمر، وقوله تعالى ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾[6] لأن ظل لا تستعمل إلا نهارا، فإذا لمح مع ذكر السواد، فكأنه طباق بذكر البياض مع السواد.

وهـــو يوافـــق ابن سنان الخفاجي على اعتبار التجنيس إذا دخله نفي طباقا، كقوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[7] لأن الذين لا يعلمون، هم الجاهلون.

أما حديثه عن المقابلة، فقد أتى فيه بالجديد والعجيب، وأطلعنا على أسرار خفية في علاقـــات الألفاظ القرآنية بعضها ببعض، وجلّى لنا نماذج من المقابلات لم يسبق إليها فيما نظن.

تناول الزركشي المقابلة في عدة مباحث: عن حقيقتها وأنواعها وأقسامها:

---

(١) يس: ١٥ — ١٦.
(٢) البقرة: ٢٢.
(٣) البرهان للزركشي: ٣ / ٤٥٦.
(٤) نوح: ٢٥.
(٥) يس: ٨٠.
(٦) النحل: ٥٨.
(٧) الزمر: ٩

المبحث الأول في حقيقتها :

وهو هنا لم يختلف عما أورده السابقون،منذ قدامة حتى السكاكي، إلا في الصياغة فقــط، فقد عرفها بأنها (ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضها)، ولا يختلف هذا عن قول أبي هلال عنها : إنها (إيراد الكلام، ثم مقابلته بمثله في المعنى أو اللفــظ عــلى جهــة الموافقة أو المخالفة[1]) أو قول ابن رشيق أنها (مواجهة اللفظ بما يستحقه[2]).

والــذي يحمد له هنا اعترافه بأنهاقريبة من الطباق إذ عرف الطباق بأنه (الجمع بين متضــادين مع مراعاة التقابل وهو في هذا قريب من ابن الأثير الذي رأى إطلاق اسم المقابلــة على المطابقة[3]، ويضاف هذا إلى ما رأيناه منذ قليل وهو يتحدث عن الطباق مستشهدا له بآية الليل المشهورة في باب المقابلة، وإن هذا ليجعلنا نرجح أن الرجل قد نظــر إلى أســلوب المقابلــة في القرآن نظرة شاملة تتعدى حدود المصطلحات الفنية والألفاظ الضيقة.

وحين أراد أن يفرق بين الطباق والمقابلة، رأيناه يقتفي أثر ابن أبي الأصبع وإن كان لم يصــرح باسمه في التفرقة بينهما من وجهين : أحدهما أن الطباق لا يكون إلا بالجمع بين ضدين غالبا، والمقابلة تكون بالجمع بين أكثر من ضدين.

والثاني : أن الطباق لا يكون إلا بالأضداد، والمقابلة تكون بالأضداد وغيرها[4].

المبحث الثاني : في أنواعها : وهذا المبحث من أهم المباحث التي برع فيها الزركشي وأجــاد وأتــى لنا فيه بالجديد والطريف في أسلوب المقابلة في القرآن الكريم. وأنواع المقابلة عنده – وإن تشابهت في أسمائها مع غيره – إلا أنه قد زاد عليها وأفاض.

وأنواعها عنده ثلاثة : نظيري ، ونقيضي ، وخلافي.

ولم يــورد الزركشــي تعريفا لأي نوع، وأغلب الظن أنه **يعني بالنظيري** من عناه قدامة بــ (التوفيق بين بعض المعاني وبعض، فيأتي في الموافق بما يوافقه) ويعني به أيضا مــراعاة النظير والتناسب، وهو ما عناه حازم القرطاجني بــ (التوفيق بين المعاني التي

---

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري : ٣٤٦.

(٢) العمدة لابن رشيق : ٢ / ١٥.

(٣) المثل السائر : ٢ / ٢٨٠.

(٤) انظر بديع القرآن : ٣١، والبرهان للزركشي (٣ : ٤٥٨).

يطـــابق بعضها بعضا، والجمع بين المعنيين الذين يكون بينهما نسبة تقتضي لأحدهما أن يذكر مع الآخر[1]) ومن قبل استشهد ابن رشيق لهذا النوع بقول أبي الطيب[2]:

رِجلاهُ في الرَّكضِ رِجلٌ وَاليَدانِ يَدٌ ... وَفِعلُهُ ما تُريدُ الكَفُّ وَالقَدَمُ

لأن بـــين الكف والقدم مناسبة وليست مضادة، ولو طُلبت المضادة لكان الرأس أو الناصية أولى، كما قال تعالى ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾[3].

وأمثلة الزركشي لهذا النوع تدل على ذلك – فهو يمثل لمقابلة النظيرين بمقابلة السِّنَة والـــنوم في قولـــه تعالى ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[4] لأنهما جميعا من باب الرقاد المقابل باليقظة، فهما متقابلان في باب النظيرين، ومجموعهما يقابلان النقيض الذي هو اليقظة.

كما أننا نرجح – أيضا – أنه **يعني بـــ (النقيضي)** ما عناه غيره بالمقابلة المحضة وهي التي يكون اللفظ فيها مقابلا للآخر على جهة الحقيقة لا على جهة التأويل، وقد مثل لها الزركشي بقوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾[5] فضد اليقظة الرقود.

ولا يفوتـــنا هنا – ونحن نتحدث عن المقابلة عند الزركشي – أن نؤكد ما أكدناه عند حديثه عن الطباق، من أنه يمزج بين الاثنين حين يستشهد لأي منهما بأمثلة الآخر، فقـــد سبق أن استشهد للطباق بآية الليل المشهورة عند البلغاء كمثال لمقابلة أكثر من ضـــدين، وهـــو هـــنا يستشهد للمقابلة بآية ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ وهي مشـــهورة عـــند البلغاء كمثال للطباق الذي (يجمع بين ضدين فذين[6]) وهما اليقظة والـــرقود. وهذا ما يجعلنا نرجح أن الرجل يمزج بين الاثنين مزجا ينطبق عليه المفهوم الواسع للمقابلة القرآنية الجامعة.

وأمـــا النوع الثالث وهو الخلافي، فربما يعني به ما عناه حازم القرطاجني في المنهاج بأنه (مقارنة الشي بما يقرب من مضاده[7]).

(١) منهاج البلغاء لحازم القرطاجني : ٥٢.
(٢) العمدة لابن رشيق : ٢ / ١٦.
(٣) الرحمن : ٤١.
(٤) البقرة : ٢٥٥.
(٥) الكهف : ١٨.
(٦) بديع القرآن : ٣٢.
(٧) منهاج البلغاء : ٤٩.

وهـــو ما كان اللفظ فيه غير متمحض في الضدية، بل يحتاج إلى تأويل وتجوز، وقد سبق للزركشي أن جعل من الطباق نوعا يحتاج إلى تأويل هو الطباق المعنوي والخفي، وهو لا يبعد كثيرا عن النوع الثالث من المقابلة وهو (الخلافي).

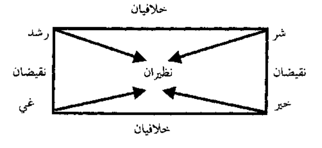
وهذا النوع الأخير عنده (أتمُّها في التشكيك وألْزمها بالتـــأويل[1]) لأنه يحتاج إلى فقه بأسرار اللغة، وفهم لإيحاء الألفاظ ولسياق الجملة.

وقد مثل للخلافي بمقابلة الشر بالرشد في قوله تعالى ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾[2].

وهـــنا نقـــف مبهورين وقد تملكنا العجب مما أورده الزركشي في هذا الباب، وهو جديد كل الجدة، وطريف كل الطرافة إنه يُخَرِّجُ من هذه الآية وغيرهما أشكالا عجيبة مـــن المقابلات البديعة يندمج فيها النظيري بالخلافي بالنقيضي لتشكل مربعا أو مثلثا أو مسدسا. على نحو غاية في الدقة والاعجاز.

ففـــي آيـــة الجن السابقة : قابل سبحانه الشر بالرشد، وهما خلافيان، لأن المضاد الحقـــيقي للرشد هو الغي، والمضاد للشر هو الخير، فبين الشر والخير مقابلة بالنقيضي ومثـــلها بـــين الرشد والغي ثم إن الخير الذي يخرجه لفظ الشر ضمنا نظير الرشد قطعا فيكون بينهما مقابلة بالنظيري، ومثلها ما بين الغي والشر.

فقـــد حصـــل مـــن هذا الشكل أربعة ألفاظ : نطقان وضمنان[3]، فكان بهما هذا الشـــكل الذي يمكن توضيحه بهذا الرسم الذي اجتهدت - قدر الإمكان - في صنعه ليكون مفسرا لما ذكره الزركشي في هذه الآية :



(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٣ / ٤٥٨.
(٢) الجن : ١٠.
(٣) البرهان للزركشي : ٣ / ٤٥٩.

يمكن استخلاص ثلاث مقابلات من هذا الشكل :

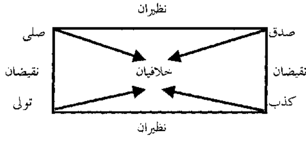
١- مقابلة الخلافين بين الشر والرشد نطقا ومثلها ما بين الخير والغي.

٢- مقابلة النقيضين بين الشر والخير ضمنا ومثلها ما بين الرشد والغي.

٣- مقابلة النظيرين بين الشر والغي نطقا ومثلها ما بين الخير والرشد.

ويرى الزركشي أن هذا الشكل يقع في تفسيره على وجوه، فقد يرد وبعضه مفسر كالآية السابقة، وقد يرد وكله مفسر كقوله تعالى ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ﴾(١).

فهـــذه الآية يمكن أن نستخرج منها – أيضا ثلاث مقابلات تتضح من هذا الشكل المرسوم :



وفي هذا الشكل ثلاث مقابلات كل ألفاظها مذكورة نطقا و لم تحتج لألفاظ ضمنية ففيها :

١- مقابلة بين النظيرين: صدق وصلى وكذلك كذب وتولى.

٢- مقابلة بين النقيضين: صدق وكذب وكذلك صلى (بمعنى أقبل) وتولى

٣- مقابلة بين الخلافين: صدق وتولى وكذلك كذب وصلى.

والأعجب من هذا تفسيره للمقابلة في قوله تعالى ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾(٢).

حيـــث قابل الإفساد بالتسبيح والحمد، وسفك الدماء بالتقديس. فالتسبيح بالحمد إذن ينفي الفســاد، والتقديس ينفي سفك الدماء والتسبيح شريعة للإصلاح، والتقديس شـــريعة حقن الدماء وشريعة التقديس أشرف من شريعة التسبيح، فإن التسبيح بالحمد

---

(١) القيامة : ٣١ – ٣٢.

(٢) البقرة : ٣٠.

للإصلاح لا للفساد، وسفك الدماء للإفساد لا للتقديس، وهذا شكل مربع من أرضي وهـــو الإفســـاد وسفك الدماء، وسمائي وهو التسبيح والتقديس والأرضي ذو فصلين، والسمائي ذو فصلين، ووقع النفس من الطرفين المتوسطين.

فالطرفين : الافساد في الطرف الأول، والتقديس في الطرف الآخر.

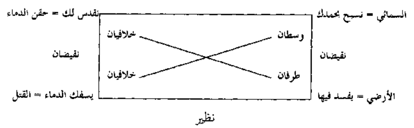
والوسطان : آخر الأرض وأول السماء، فالأول متشرف على الآتي، والآخر ملفت إلى الماضي :

وكم في كتاب الله من كل موجز … يدور على المعنى وعنه يماصع[1]

لقد جمع الاسم المحامد كلها … تقاسيمها مجموعة والمشايع[2]

ولقـــد حاولت أن أرسم هذا المربع الذي تحدث عنه الزركشي لكي تتضح أسرار تلك المقابلات التي أشار إليها وآمل أن يكون في هذا الشكل الغناء وتوضيح المقصود :

نظيران



يتضح من هذا المربع المقابلات الآتية :

١ – مقابلة النقيضين بين الإصلاح المفهوم ضمنا من التسبيح بالحمد وبين الإفساد.

٢ – مقابلة النقيضين بين حقن الدماء المفهوم ضمنا من التقديس وبين سفك الدماء.

٣– مقابلـــة النقيضـــين بـــين الأرضي وهو الإفساد وسفك الدماء والسمائي وهو التسبيح بالحمد والتقديس، وهي مقابلة ضمنية.

٤ – مقابلة النظيرين بين التسبيح والتقديس، وكذلك بين الإفساد وسفك الدماء.

٥ – مقابلة الخلافين بين الطرفين الإفساد والتقديس.

٦– مقابلة الخلافين بين الوسطين : التسبيح وسفك الدماء.

(١) يماصع : يدافع

(٢) البرهان للزركشي : ٣ / ٣٦٠.

ويذكــر الزركشي نقلا عن الشيخ أبي الفضل يوسف بن محمد النحوي القلعي أن القــرآن الكريم كله وارد على أسلوب المقابلة، وأن هذه المقابلة تمتد لتشمل الكائنات والزمانيات والوسائط الروحانيات والأوائل الالهيات، حيث اتحدث من حيث تعددت واتصــنت مــن حيث انفصلت، وأنها قد ترد على شكل المربع تارة، وشكل المسدس أخرى، وعلى شكل المثلث إلى غير ذلك من التشكيلات العجيبة، والترتيبات البديعة[1]

المبحث الثالث : تقسيمات أخرى للمقابلة :

لم يكتف الزركشي بما ذكره في المقابلة عن حقيقتها وأنواعها، بل أفاض في الحديث عنها حتى تكتمل صورة المقابلة من جميع النواحي. وفي هذا المبحث عرض وجهة نظره في أمور ثلاثة تتصل بالمقابلة هي ترتيب أطرافها، وعدد هذه الأطراف ثم مقابلة المعاني والمواقف.

أولا : ترتيب الأطراف

في حديثــنا عن تناول ابن رشيق للمقابلة ذكرنا أنه يرى (أن الأصل في المقابلة هو ترتيــب الكــلام على ما يجب، فيعطي أول الكلام ما يليق به أولا، وآخره ما يليق به آخــرا[2]) ورأينا أنه ينتقد قدامة حين يستشهد للمقابلة بأبيات للطرماح بن حكيم لم يراع فيها الترتيب وهي :

أَسَرناهُم وَأَنعَمنا عَلَيهِم ... وَأَسقَينا دماءَهُمُ التُرابا
فَما صَبَروا لِبَأسٍ عِندَ حَربٍ ... وَلا أَدَّوا لِحُسنٍ يَدٍ ثَوابا

فإنــه قدم ذكر الإنعام على المأسورين، وآخر ذكر القتل في البيت الأول، وأتى في البيت الثاني بعكس الترتيب، حين قدم ذكر الصبر عند بأس الحرب، وآخر ذكر الثواب على حسن اليد.

وهــنا نجــد الزركشــي يتحدث عن ترتيب أطراف المقابلة: الأول بالأول والثاني بالثاني. فيقسمها من هذا الجانب إلى أربعة أقسام: وهو في ذلك لا يبالي بأن يدخل في هــذه التقســيمات ألونا أخرى من البديع كاللف والنشر، ورد العجز على الصدر مما يؤكد مرة أخرى تسامحه في هذا الباب، والاقسام الأربعة هي :

---

(١) البرهان للزركشي : ٣ / ٤٥٨.

(٢) العمدة لابن رشيق : ٢ / ١٥.

أ - أن يأتي بكل واحد من المقدمات مع قرينه من الثواني، كقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝ ﴾[1].

ب - أن يأتي بجميع الثواني مرتبة من أولها، كقوله تعالى ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[2]

ج - أن يأتي بجميع المقدمات ثم بجميع الثواني مرتبة من آخرها ويسمى " رد العجز على الصدر " كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ ﴾[3].

د - أن يأتي بجميع المقدمات، ثم بجميع الثواني مختلطة غير مرتبة ويسمى اللف كقوله تعالى ﴿ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[4] فنسبة قوله (متى نصر الله) إلى قوله (والذين آمنوا) كنسبة قوله (يقول الرسول) إلى قوله (ألا إن نصر الله قريب)، لأن القولين المتباينين يصدران عن متباينين[5].

ولو سار الكلام بدون اللف لكان " يقول الذين آمنوا متى نصر الله. فيقول لهم الرسول ألا إن نصر الله قريب ".

ثانيا : عدد الأطراف

والزركشي في هذا الجانب يورد أولا ما تواضع عليه السابقون من مقابلة اثنين باثنين وثلاثة بثلاثة وأربعة بأربعة، ولقد وقف السابقون في بحثهم في المقابلة القرآنية عند مقابلة أربعة بأربعة مستشهدين لهذا النوع بقوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝ ﴾[6]

---

(١) النبأ : ١٠-١١

(٢) القصص : ٧٣.

(٣) آل عمران : ١٠٦ - ١٠٧.

(٤) البقرة : ٢١٤.

(٥) البرهان للزركشي : ٣ / ٤٦١.

(٦) الليل : ٥ - ١٠.

وعندما أرادوا الاستشهاد لمقابلة خمسة ألفاظ بخمسة ذهبوا إلى الشعر يلتمسون منه بغيتهم فوجدوها في بيت أبي الطيب المشهور :

أَزورُهُم وَسَوادُ اللَيلِ يَشفَعُ لي وَأَنثَني وَبَياضُ الصُبحِ يُغري بي

لكن الزركشي – وقد جعل القرآن الكريم ميدان بحثه ومصدر إلهامه – يضع أيدينا على الجديد والطريف دائما.

لقد وجد الرجل بحصافة عقله وعمق فهمه ونفاذ بصيرته أن القرآن الكريم يلبي حاجة البلاغة والبلغاء.

فوضع أيدينا على مقابلة خمسة بخمسة وستة بستة في القرآن الكريم، ولعمري إن هذا لفتح مبين فتح الله به على صاحب البرهان.

فمثال مقابلة خمسة ألفاظ بمثلها من القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]

ففي هاتين الآيتين مقابلات بين :

١- الحقير والكبير في (بعوضه – فما فوقها).

٢- فأما الذين آمنوا – وأما الذين كفروا.

٣- يضل به كثيرا – ويهدي به كثيرا.

٤- ينقضون عهد الله ، من بعد ميثاقه.

٥- يقطعون – يوصل.

والمقابلة في هذه الآية واضحة وظاهرة، لأن التضاد بين ألفاظها حقيقي في أربعة منها ومعنوي فقط في (بعوضة فما فوقها).

أما المثال الذي استشهد به لمقابلة ستة ألفاظ بستة أخرى فهو قوله تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ

---

(١) البقرة : ٢٦ – ٢٧

حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[1]

ولم يبين لنا أي الألفاظ يقابل الآخر في هذا المثال، بل أجمل الحديث إجمالا بقوله (قابل الجنات والأنهار والخلد والأزواج والتطهير والرضوان بازاء النساء في الدنيا، وختم بالحرث وهما طرفان متشابهان وفيهما الشهوة والمعاش الدنياوي، وأخر ذكر الازواج كما يجب في الترتيب الأخروي، وختم بالرضوان[2]).

ومع ذلك فإننا يمكن أن نعتبر ذلك داخلا في المقابلة المعنوية أو ما سماها الزركشي بالخلافي، وحسبنا هنا أن نعد ستة ألفاظ في مقابلة ستة أخرى هي :

١) الجنات ٢) الأنهار ٣) والخلد ٤) والازوج

٥) والتطهير ٦) والرضوان

في مقابل :

١) النساء ٢) البنين ٣) والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة

٤) والخيل المسومة ٥) والأنعام ٦) والحرث.

كما يمكن اعتبارها مقابلة بين عدد معين من نعيم الدنيا ومثله من نعيم الآخرة ليظهر للمؤمن الفرق الكبير بين النعيمين، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الفرق بقوله (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم).

وإذا كان الزركشي قد أتى بالجديد والطريف في هذا الباب، فسوف نرى إن شاء الله في صلب هذا البحث أن القرآن الكريم حافل بأنواع من المقابلات الطريفة التي لم يشر أحد إليها من قبل في اعتقادنا. وعلى سبيل المثال لا الحصر تلك المقابلة بين صفات المؤمنين والكافرين وجزاء كل فريق منهما، وهي صفات تتصل بقواعد السلوك والآداب الاجتماعية، والجديد فيها هو مقابلة أربعة أشياء بثمانية. يقول الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ

(١) آل عمران : ١٤ - ١٥

(٢) البرهان للزركشي : ٣ / ٤٦٥.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝ ﴾[1].

فها هنا مقابلة أربعة أمور تتصل بالكافرين بثمانية أمور تتصل بالمؤمنين.

وأمور الكافرين الأربعة هي :

١) نقض العهد — ٢) قطع ما أمر الله به أن يوصل

٣) الإفساد في الأرض — ٤) اللعنة وسوء الدار.

في مقابل أمور ثمانية تتصل بالمؤمنين وهي :

١) الوفاء بعهد الله — ٢) صلة ما أمر الله به أن يوصل

٣) خشية الله — ٤) الصبر ابتغاء وجهه

٥) إقامة الصلاة — ٦) الإنفاق سرا وجهرا

٧) درء السيئة بالحسنة — ٨) عقبى الدار

ولعل السر في هذا هو أن (الإفساد في الأرض) قد شمل في مضمونه نقيض كل الصفات الجميلة الموجودة في (الخشية والصبر والصلاة والانفاق ودرء السيئة بالحسنة).

ثالثا : مقابلة المعاني والمواقف

رأينا عند الحديث عن الزمخشري أنه يناصر قضية المقابلة المعنوية وينبه إلى أن المطابيع وحدهم يراعون طباقات المعاني، وهنا نجد الزركشي يفتح الباب واسعا أمام مقابلة المعاني، بل يكاد يقترب من مقابلة المواقف الممتدة في بضع آيات من السورة.

إنه يُنَبّه إلى أنه (في تقابل المعاني باب عظيم يحتاج إلى فضل تأمل[2]) ولكنه يقصر ذلك على الفواصل القرآنية، من مثل قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

---

(١) الرعد : ٢٠ - ٢٥.

(٢) البرهان : ٣ / ٤٦٣.

(٣) البقرة : ١١ - ١٣.

فيشـــير الزركشي هنا إلى أن بين الفاصلتين (يشعرون) و (يعلمون) مقابلة، لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين يجتمعون وهو مطيعون، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتســب الناظر المعرفة والعلم، وإنما النفاق وما فيه من الفتنة والفساد أمر دنيوي مبني على العادات معلوم عند الناس، فلذلك قال فيه : يعلمون.

وأيضـــا، فإنـــه لما ذكر السفه في (كما آمن السفهاء) وهو جهل، كان ذكر العلم طباقا، وعلى هذا تجئ فواصل القرآن[1].

والزركشي لم يوضح لنا بطريقة كافية وجه التقابل بين (يشعرون) و (يعلمون) بل هو يدخل بنا في تعليلات منطقية، مع أن التقابل بينهما يسير الإدراك، إذا نظرنا إلى ما بيـــنهما مـــن تقابل بـــ (النظيري) كما سماه الزركشي منذ قليل، فإن الشعور والعلم متناظران على اعتبار أن الشعور أحد مراتب الإدراك الموصل إلى العلم.

وقد كان يمكن للزركشي – ما دام يتحدث عن مقابلة المعاني – أن يلفت نظرنا إلى المقابلـــة في مواقـــف المـــنافقين، وأن يُنَبِّه إلى التناقض البين في سلوكهم حين يدعون الإصلاح – وهم أس الفساد، وحين يرمون المؤمنين بالسفه والجهل، بينما هم أحق بهذا السفه وذلك الجهل، ولكن الزركشي لم يفعل، ولو فعل لارتقى ببحثه درجات في سلم البلاغة القرآنية.

ومن المقابلات المعنوية التي أشار إليها الزركشي واعتبرها من خفي المقابلة ولطيفها: مـــا جاء فيه نظم الكلام على غير صورة المقابلة في الظاهر، فإذا تؤمل كان من أكمل المقابلة.

وقد استشهد لذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾[2].

فقابل الجوع بالعرى، والظمأ بالضَّحى[3].

وهـــو يعتـــبرها خفية: لأن الواقف مع ظاهر النص، ربما يخيل إليه أن الجوع يقابل بالظمـــأ، والعرى بالضحى، ولكن المدقق يرى هذا الكلام في أعلى مراتب الفصاحة؛ لأن الجـــوع ألم الـــباطن، والضحى موجب لحرارة الظاهر، فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهرا وباطنا، وقابل الخلو بالخلو، والاحتراق بالاحتراق.[4]

---

(١) البرهان : ٣ / ٤٦٣.

(٢) طه : ١١٨ – ١١٩

(٣) في لسان العرب عن الليث: ضَحَى الرجل يَضْحَى: إذا أصابه حر الشمس

(٤) البرهان في علوم القرآن : ٣ / ٤٦٦

وقــد زاد ابــن قيم الجوزية هذه المقابلة توضيحا حين قال: (فالجوع خلو الباطن، والعُــرْي خلو الظاهر، والظمأ احتراق الباطن، والضحى احتراق الظاهر، فقابل الخلو بالخلو والاحتراق بالاحتراق[1]).

ونحــن لا نــرى بأسا من الوقوف مع ظاهر النص، فإنه يقدم لنا مقابلة تجمع بين الشــيء وما يوافقه، أو ما سماه الزركشي نفسه: مقابلة بين النظيرين، ذلك أن الجوع يوافق الظمأ ويناظره، والعري يناسب الضحى ويناظره أيضا.

ولكــن الزركشي مغرم بالخفي واللطيف من المقابلات، ولذلك رأيناه يسوق مثالا آخــر مشابها لخفاء المقابلة في الآية الكريمة، ليدلل به على أن وراء ظاهر النص دلالات أعمق ومعان ألطف مما يبدو من ظاهره.

وذلك المثال هو تلك الحكاية المشهورة بين المتنبي وسيف الدولة، حين أنشده المتنبي:

وَقَفْتَ وما في الموت شَكٌّ لِوَاقف ... كأنكَ في جَفْنِ الرَّدَى وهْوَ نائم
تَمُرُّ بكَ الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً ... ووجهُكَ وضَّاحٌ وَثَغْرُكَ باسمُ

فأنكــر عليه سيف الدولة تطبيق عجزي البيتين على صدريهما، وقال له: ينبغي أن تطــبق عجز الأول على الثاني، وعجز الثاني على الأول، ثم قال له: وأنت في هذا مثل امريء القيس في قوله:

كأني لَمْ أركَبْ جوادًا للَذَّةٍ ... ولَمْ أتَبَطَّنْ كاعبًا ذات خلْخَال
ولَمْ أسْبَأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ ولَمْ أقُلْ ... لخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بعدَ إجْفَالَ

ويريد سيف الدولة أن يصحح كلام المتنبي ليصبح البيتان هكذا:

وَقَفْتَ وما في الموت شَكٌّ لِوَاقف ... ووجهُكَ وضَّاحٌ وَثَغْرُكَ باسمُ
تَمُرُّ بكَ الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً ... كأنكَ في جَفْنِ الرَّدَى وهْوَ نائم

كما يريد أن يصحح كلام امرىء القيس ليصبح بيتاه هكذا:

كأني لَمْ أركَبْ جوادًا ولم أقل ... لخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بعد إجْفَالَ
ولَمْ أسْبَأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ للذة ... ولَمْ أتَبَطَّنْ كاعبًا ذات خلْخَال

ليســتقيم الكلام، فيكون ركوب الخيل مع الأمر للخيل بالكر، وسبء الخمر مع تبطن الكاعب.

---

(1) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان : ١٤٨، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـــ، مكتبة المتنبي، القاهرة.

فقال له أبو الطيب، مبنيا ما وراء الظاهر من دلالات:

أدام الله عــز مولانــا. إن صح أن الذي استدرك هذا على امرىء القيس أعلم منه بالشعر، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولانا يعرف أن البزاز لا يعرف الثوب معرفة الحائك، لأن البزاز يعرف جملته وتفصيله، لأنه أخرجه من الغزلية إلى الثوبية.

وإنمــا قــرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء.

وأنــا لمــا ذكرت الموت في أول البيت اتبعته بذكر الردى ليجانسه، ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا وعينه من أن تكون باكية، قلت: (وجهك وضاح) لأجمع بين الاضداد في المعنى، فأعجب سيف الدولة ووصلة بخمسمائة دينار[1].

ولا يســعنا في ختام حديثنا عن الزركشي وكتابه (البرهان في علوم القرآن) الا أن نحيي هذا العالم، لما قدم لنا من غزير العلم ووافر المعرفة.

ولقــد قــدم الرجل بهذا في (البرهان) برهانا آخر على صفاء ذهنه، وتوقد قريحته، وعمق تحليلاته، وشمول ثقافته.

فلنجعل مسك الختام عنه، هذا النص الفريد الذي يشير فيه إلى أن القرآن الكريم قد جمــع في أسلوبه بين النقيضين، وكأنه بهذا يريد القول بأن المقابلة تنتظم القرآن جميعه، يقول: (جمع القرآن بين صفتي الجزالة والعذوبة، وهما كالمتضادين، ولا يجتمعان غالبا في كــلام البشــر، لأن الجزالة من الألفاظ التي لا توجد إلا بما بشوبها من القوة وبعض الوعــورة، والعذوبــة منها ما يضادها[2] من السلاسة والسهولة، فمن نحا نحو الصورة الأولى، فإنمــا يقصد الفخامة والروعة في الأسماع مثل الفصحاء من الاعراب، وفحول الشــعراء منهم، ومن نحا نحو الثانية قصد كون الكلام في الأسماع أعذب وأشهى وألذ،

---

(١) البرهان : ٣ / ٤٦٦، ويرى إسماعيل بن الأثير (عماد الدين - (٦٩١ ه) صاحب (الكنز) أن دفاع أبي الطيب ليس بجيد، وذلك لأن الردى هو الموت، فما في ذلك مقابلة، وإنما الصواب أن يقال: لما ذكرت الوقوف في صدر البيت الأول قابلته بالمنام، ولما ذكرت وجه الجريح المنهزم وهو عبوس حزين، قابلته بوجهك الوضاح وثغرك الباسم لتتم المقابلة.

انظر (جوهر الكنز: تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة : ٨٧، تأليف : نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي (٧٣٧)هــ، تحقيق الدكتور : محمد زغلول سلام ط منشأة المعارف، الاسكندرية.

(٢) الضمير هنا يعود على (الجزالة).

مـــثل اشعار المخضرمين ومن داناهم من المولدين المتأخرين، ونرى ألفاظ القرآن الكريم قد جمعت في نظمه كلتا الصفتين، وذلك من أعظم وجوه البلاغة والإعجاز[1]).

ومعـــنى ذلــك أن الزركشـــي يعد من وجوه الإعجاز القرآني – اجتماع صفتين متقابلـــتين في أسلوبه وهما الجزالة وما يتبعها من القوة والوعورة، والعذوبة بما فيها من السلاسة والسهولة.

وهـــو بذلك ينظر إلى القرآن نظرة كلية تؤدي المقابلة فيه دورا بارزا ويؤكد ما قاله الشيخ أبو الفضل القلعي منذ قليل من أن القرآن الكريم كله وارد على أسلوب المقابلة وتلك لعمري نظره عميقة ورؤية شاملة تدل على بصر وفهم لا يؤتاهما إلا القليل.

١١- سيد قطب والتصوير الفني:

يتحدث المرحوم سيد قطب عن المقابلة القرآنية في سياق حديثه عن التناسق الفني في القرآن الكريم، وهذا التناسق عنده ألوان ودرجات،

فمنه التنسيق في تأليف العبارات.

ومنه التنسيق في الايقاع الموسيقى.

ومنه التنسيق في التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات.

ومنه التناسق النفسي.

ومنه المقابلات القرآنية.

ولا يحـــدد المرحوم سيد قطب مفهوما اصطلاحيا للمقابلة، ولكنه يعمد مباشرة إلى استعراض بعض النماذج التطبيقية للمقابلة في القرآن الكريم، موضحا كيف أدت دورها الحيوي في إبراز التناسق الفني بين حالتين أو موقفين.

وهو يعتبر أن (التقابل طريقة من طرق التصوير[2]) الذي هو القاعدة الأساسية في تعـــبير القرآن ومن ثم يعمد – في نماذجه – إلى التركيز على عنصر التصوير في المقابلة التي يكثر التعبير القرآني منها ويستخدمها في تنسيق صوره التي يرسمها بالألفاظ على نحو دقيق.

وهذا هو الجديد والطريف فيما أتى به سيد قطب في باب المقابلة، إذ لم يسر سيرة الأقدمين في تقسيم المقابلة إلى محضة وغير محضة أو إلى مقابلة اثنين باثنين أو ثلاثة بثلاثة

(١) البرهان : ٢ / ١٠٧.

(٢) التصوير الفني في القرآن : سيد قطب، ٧٥ ط بيرزت

... الخ، بل تخطى ذلك كله إلى مقابلة الصور والمواقف منبها إلى أثر المقابلة في التناسق الفني للصورة المرسومة، أو المشهد المعروض وما يترتب على ذلك من تأثير في نفوس السامعين.

وقد استطاع الرجل بما أوتيه من روح شفافه، ومعايشة للقرآن الكريم أن يقدم لنا نماذج من المقابلة التصويرية في القرآن نعرضها على هذا النحو:-

١) التقابل بين صورة وصورة:

وقد مثل لذلك بالتقابل بين صورتي البث والجمع في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۢ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [١] فصورة بث الدواب، وصورة جمعها يلتقيان في سطر واحد، بينما الخيال نفسه يكاد يستغرق مدى أطول في تصورها واحدة بعد الأخرى.

٢) التقابل بين صورتين وصورتين:

كالتقابل بين الصورتين اللتين يعرضهما القرآن لإماتة الأحياء وإحياء الموتى في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [٢] ففي ومضة عين نقلهم من القرى المهلكة الداثرة بعد الحياة والعمران إلى الأرض الحية الممرعة بعد الموت والاجداب، فالتقابل هنا بين حالتين وحالتين في الواقع لا بين حالة وحالة. وينبه سيد قطب إلى أن المقابلة المصورة أكثر ما تكون في صور النعيم والعذاب في الآخرة، وقد ذكر من ذلك نوعين هما: المقابلة النفسية بين المؤمنين والكافرين والمقابلة بين العذاب الحسي والنعيم المادي، ولا بأس من ادراجهما ضمن المقابلات القرآنية عنده.

٣) التقابل النفسي:

يلجأ المرحوم الأستاذ سيد قطب هنا إلى أثر بيان المقابلة في تصوير الجو النفسي المحيط بكل من المؤمنين والكافرين في الآخرة، وكيف جاءت الألفاظ رخية ندية مطمئنة في جانب المؤمنين، شديدة الوقع قوية الأسر في جانب الكافرين.

---

(١) الشورى : ٢٩

(٢) السجدة : ٢٦ - ٢٧

ففي وسط الهول الذي ترسم صورته هذه الفقرات: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾[1].

في وسط هذا الروع الذي يبثه العرض العسكري - الذي تشترك فيه جهنم بموسيقاها العسكرية المنتظمة الدقات، المنبعثة من البناء اللفظي الشديد الأسر وبين العذاب الفذ والوثاق النموذجي .. يقال لمن آمن:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾[2].

٤) تقابل العذاب الحسي والنعيم المادي:

ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ﴿٣﴾ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ﴿٤﴾ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ[3] ﴿٥﴾ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ﴿٦﴾ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾[4].

هذا هو العذاب الحسي يقابله جو النعيم في كل جزئية من الجزئيات ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ﴿٨﴾ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿١٠﴾ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ﴿١١﴾ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ﴿١٣﴾ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾[5].

٥) التقابل بين صورتين إحداهما حاضرة والأخرى ماضية في الزمان:

والتقابل هنا لا بين صورتين حاضرتين، بل بين صورتين: إحداهما حاضرة الآن والأخرى ماضية في الزمان، حيث يعمل الخيال في استحضار هذه الصورة الأخيرة ليقابلها بالصورة المنظورة. ومن ذلك:

---

(١) الفجر: ٢١ - ٢٦

(٢) الفجر: ٢٧ - ٣٠

(٣) آنية: بلغت أناها (غايتهما في الحرارة). (كلمات القرآن ٤١٩)

(٤) الغاشية: ١ - ٦

(٥) الغاشية: ٧ - ١٥

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[1]، فالصورة الحاضرة هنا هي صورة الإنسان (الخصيم المبين) والصورة الماضية هي صورة النطفة الحقيرة، وبين الصورتين مسافة بعيدة يراد إبرازها لبيان هذه المفارقة في تصرف الإنسان. ولهذا جعل الصورتين متقابلتين وأغفل المراحل بينهما، لتؤدي المفارقة الواضحة هذا الغرض الخاص، بالتقابل التخييلي بين حال وحال[2].

ومثلها أيضا: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾[3]

فالسموم والحميم، والظل الذي ليس له من الظل الا اسمه، لأنه من (يحموم) (لا بارد ولا كريم) صورة هذا الشظف تقابل صورة الترف: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾.

ويدلنا المرحوم سيد قطب على موضع الروعة ومثار التأمل في هذه المقابلة وما يماثلها فهؤلاء المتحدث عنهم يعيشون في الدنيا الحاضرة، وصورة الترف هي الصورة القريبة أما ما ينتظرهم من السموم والشظف فهو الصورة البعيدة. ولكن التصوير هنا لفرط حيويته يخيل للقارئ أن الدنيا قد طويت وأنهم الآن هناك، وأن صورة الترف قد طويت كذلك، وصورة الشظف قد عرضت، وأنهم الآن يُذَكَّرُون في وسط السموم والحميم، بأنهم (كانوا قبل ذلك مترفين) وذلك من عجائب التخييل.

ويستتبع سيد قطب فيشير إلى أن هذا التصوير التخييلي وهذه المقابلة المصورة هي النسق المتبع غالبا في القرآن، وهو الذي يلبى طَلَبَةَ الفن والدين في آن: يلبى طَلَبَةَ الفن في قوة الإحياء، حتى لينسى المشاهد أن هذا مثل يضرب، ويحس أنه حاضر يشهد، ويلبي طَلَبَةَ الدين، لأن الاحساس بالمغيب مما يلمس الوجدان، ويهيج لدعوة الإيمان[4].

ويمكن أن نقول – بعد ما سبق – إن المرحوم الأستاذ سيد قطب قد أضاف إلى ما قاله السابقون عن المقابلة هذا النوع الجديد في المقابلة.. وهو المقابلة التصويرية والمقابلة النفسية، وهو إن لم يهتم كثيرا بالاصطلاحات، الا أنه أكثر من التطبيق العملي لهذه المقابلات في تفسيره المعروف (في ظلال القرآن) وفي كتابه (مشاهد القيامة في القرآن الكريم).

---

(١) النحل : ٤

(٢) التصوير الفني : ٧٧

(٣) الواقعة : ٤١ – ٤٥

(٤) التصوير الفني في القرآن : سيد قطب، ٧٨

نتائج الباب الأول

استعرضنا في هذا الباب معنى المقابلة وأطوارها عند علماء البلاغة والنقد، وكذلك عند المهتمين ببلاغة القرآن، عبر قرون ثمانية، وهي فترة كافية – فيما نظن – لاطلاعنا على مفهوم المقابلة، وما يدور في فلكها من الألوان البديعية الأخرى.

ومن خلال ذلك يمكننا استخلاص النتائج التالية:

أولا : إن القاسم المشترك بين هؤلاء العلماء في نظرتهم إلى المقابلة – هو التضاد بين طرفين أو أكثر.

ثانيا: وإن معنى ذلك دخول ما سمي بالطباق بأنواعه، وكذلك العكس والتبديل في المقابلة، اعتبارا للتضاد الموجود فيها.

ثالثا: إن المماثلة، ومراعاة النظير أو التناسب – وإن لم يتوفر فيها عنصر التضاد، الا أن غالبية العلماء وخاصة قدامة، وابن رشيق وحازم القرطاجني يعتبرونها من صميم المقابلة.

رابعا: إن جميع علماء البلاغة الذين تعرضنا لهم، جعلوا القرآن مصدرا أساسيا في الاستشهاد للمقابلة بالآيات القرآنية، وهم في هذا يلتقون مع المهتمين بالدراسات القرآنية، في الاعتماد على القرآن – بالدرجة الأولى – فيما يتناولونه من قضايا بلاغية، وهذا يؤكد أن القرآن كان، وسيظل أبد الدهر المعين الذي لا ينضب، والكنز الذي لا يفنى لعلوم العربية ولكل من رام الجمال والجلال، وطلب الحكمة وفصل الخطاب.

خامسا: إن التداخل بين المصطلحات سمة بارزة بين هؤلاء العلماء والدارسين لبلاغة القرآن، فبالرغم من حرصهم على التحديد العلمي والتنظير لمصطلح المقابلة أو الطباق، الا أننا عند التطبيق والاستشهاد، وجدنا عندهم خلطا وتداخلا، ووجدناهم يستشهدون بآيات الطباق للمقابلة وبالعكس.

سادسا: كما أن من هؤلاء العلماء من توسع في مفهوم المقابلة فأدخل فيها إطباق الجواب على السؤال والمشاكلة واللف والنشر، كما فعل الزمخشري، كما تنبه البعض إلى أهمية التقابل بين المعاني واعتبر أن في تقابل المعاني بابا عظيما يحتاج إلى فضل تأمل، وأن المطبوعين وحدهم يراعون ذلك.

سابعا : ان بعض المهتمين ببلاغة القرآن – كالباقلاني – اعتبروا ان البديع في القرآن الكــريم لا يؤخــذ دليلا على إعجازه بحجة انه مقدور عليه والبعض الآخر كابن ابي الأصبع قد تصدى لهذا الرأي واثبت عكس ذلك.

ثامنا : اهتمت الدراسات الحديثة بعنصر التصوير في المقابلة باعتباره القاعدة التي بني عليها القرآن الكريم، كما رأينا عند المرحوم سيد قطب، وقد فتح بذلك بابا واسعا امام تقــابل المعاني والمواقف المصورة واعتبر ان ذلك يؤدي – في القرآن طلبة الفن والدين كليهما.

لكنــنا نلاحــظ ان هؤلاء العلماء عندما عرضوا للمقابلة لم يوضحوا بطريقة كافية الــدور الحــيوي الــذي تؤديه في خدمة المعنى، والنواحي الجمالية التي أضفاها التعبير باسلوب المقابلة على المشهد، وذلك راجع فيما نظن إلى نظرتهم إلى البديع عموما على أنــه ذيل وتابع للمعاني والبيان، أو هو على حد تعبير القزويني (يأتي لتحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة[1]. وكما اكد دوره التابع لنبلاغة عــندما خــتم الحديث عن بلاغة الكلام بقوله : (وتتبعها وجوه أخرى تورث الكلام حــسنــا[2]) وهو يعني بهذه الوجوه علم البديع.

وقــد ترتــب على هذه النظرة أن تكون البلاغة عندهم محصورة فيما دعوه بعلمي المعاني والبيان، وانسحبت هذه النظرة على الشروح التي تناولت علوم البلاغة.

فقــد رأيــنا العصام الإسفراييني[3] (٨٧٣ – ٩٤٥) هـ في كتابه (الأطول في شرح تلخيص المفتاح) يؤكد تبعية البديع وعرضيته حين شرح عبارة القزويني (وتتبعها وجوه أخرى)، وذلك لأنه ينبه هنا إلى أربع تنبيهات : –

١– أن الوجوه البديعية لا تحسن لذاتها بدون البلاغة.

٢– أن علم البديع لا بد أن يتأخر عن علم البلاغة.

٣– أن التحسين البديعي عرضي لا يدخل في حد البلاغة.

٤– وأن الوجــوه التي تورث الكلام حسنا، إنما تكون من البديع إذا لم يقتضها الحال، إذ لو اقتضاها الحال لم تكن تابعة للبلاغة[4].

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة : ١

(٢) تلخيص المفتاح للقزويني : ٥ ط صبيح، القاهرة

(٣) عصام الدين إبراهيم بن محمد بن عربشاه الاسفراييني (الأعلام : ٦٦/١)

(٤) الأطوال في شرح تلخيص المفتاح : عصام الدين الاسفراييني : ٣٦، المطبعة العامرة القاهرة – ١٢٤٨ هـ

ونحـــن نـــرى من جانبنا أن في ذلك تمزيقا للبلاغة، وتشويها لجمالها إذ إن في ذلك فصـــلا بين عناصر الأسلوب ينزع عنه تأثيره، ويسلبه قوته وجماله، وتفرقة بين اللفظ والمعنى في حين انهما وجهان لعملة واحدة فالأسلوب لا يؤثر في المتلقي إلا إذا تعانق فيه الوجدان مع الفكر في اطار من الصورة واللفظ في تآلف وانسجام.

(ولا شك ان الناقد الحديث ينظر إلى الألفاظ، لا على انها الفاظ مفردة، ولكن على انهـــا جزئيات صغيرة في بناء قائم، فيتأكد هل هي في موضعها في النص ام هي غريبة عليه ؟ وهل هي متحدة مع المعنى والسياق أم نافرة منها ؟[1]).

وليس النقد الحديث وحده هو الذي يرى هذه الرؤية فقد فطن إلى ذلك كبار النقاد والبلغاء :

هـــذا عبد القاهر الجرجاني يرجع بلاغة القرآن - بالدرجة الاولى - لبلاغة نظمه، اسمعه يقول - بعد ان عرض لبلاغة النظم في قوله تعالى :

﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[2] :

(... فقد اتضح اذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هـــي الفـــاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة وان الألفاظ تثبت لها الفضيلة في ملاءمـــة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد لذلك انك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك في موضع آخر)[3].

وهـــا هو ابن رشيق يدعو إلى التكامل بين اللفظ والمعنى، ويبين مدى ارتباط الاثنين في وحدة عضوية قوية - كارتباط الروح بالجسد - فلا غنى لاحدهما عن الآخر (اللفظ جســـم وروحـــه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته)[4].

---

(١) مقالات في النقد الأدبي : الدكتور محمد مصطفى هدارة ص ٢١ ، ط ١ — دار القلم مصر : ١٩٦٥ م

(٢) هود : ٤٤

(٣) دلائل الإعجاز في علم المعاني : عبد القاهر : ٤٨ تصحيح الشيخ محمد عبده، والاستاذ : محمد محمود التركزي الشنقيطي، وعلق عليه ونشره : السيد محمد رشيد رضا، ط ٦، صبيح، القاهرة : ١٩٦٠ م

(٤) العمدة : ابن رشيق : ٩٩/١

إن البلاغة كل متكامل، يتآزر فيه اللفظ والمعنى، فتخرج العبارة في صورة أنيقة معبرة عن نفس قائلها أصدق تعبير، موحيه بما يختلج في صدره من عواطف وانفعالات، والمتلقي في النهاية لا يـنفعل بعنصر معين من عاصر التجربة، ولا يشارك الاديب وجدانيا حين يجيد الفكرة ويبرع فيها ويخفق في اللفظ أو الصورة، إنه يستجيب له، ويعيش تجربته إذا استطاع ان ينقل له فكره وعاطفته في عبارة مصورة وألفاظ موحية.

وقد عبر الاستاذ علي الجارم عن ذلك بقوله : (البلاغة تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة لها في النفس أثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للغرض الذي يقال فيه ... وعناصر البلاغة لفظ ومعنى — وتأليف للألفاظ ومنحها قوة وتأثيرا وحسنا، مع مراعاة حال السامعين والنزعة النفسية التي تتملكهم وتسيطر على نفوسهم)[1].

وفي اللغة العربية بعض الألفاظ التي تبدو – وحدها – صعبة المنطق، ثقيلة على السمع – غريبة على الذهن، ولكنها في موقعها في الجملة، وفي تآلفها مع معناها تكون هي – لا غيرها – التي تؤدى المعنى المراد، لا تغني غناءها لفظة أخرى.

ويستشهد الأديب مصطفى صادق الرافعي على ذلك بقوله :

(وفي القرآن الكريم لفظة غريبة هي أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة (ضيزىٰ) في قوله تعالى ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾[2] . ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه، ولو أدرْتَ اللغة كلها عليها ما صلح لهذا الموضوع غيرها.

ثم يبين الرافعي وجوه البلاغة والحسن في اختيار هذه اللفظة فيعدد من ذلك توافق فاصلتها مع فواصل سررة النجم، ثم توافق غرابتها مع غرابة القسمة التي ينكرها رب العزة من الكفار حين جعلوا الملائكة بنات الله، وكذلك ائتلاف نظم كلمة (ضيزى) على ما قبلها إذ هي مقطعان احدهما مد ثقيل والآخر مد خفيف، وقد جاءت عقب غنتين في (إذن) و (قسمة) واحداهما خفيفة حادة، والأخرى ثقيلة متفشية، فكأنها بذلك ليست إلا محاذبة صوتية لتقطيع موسيقى)[3].

---

(١) البلاغة الواضحة : الأستاذ علي الجارم وآخر : ١٢ ط ٤ ١٩٣٩ م

(٢) النجم : ٢١ – ٢٢

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي : ٢٦١ – ٢٦٢، ط ٦ . مطبعة دار الاستقامة – القاهرة – ١٩٥٦

إن المحسنات البديعية – كصورة بلاغية – انما تهدف – فيما تهدف – إلى اظهار تأثير ائتلاف اللفظ مع المعنى في النفوس، وصدق التعبير عن الحالة المراد نقلها إلى السامع.

ولكي ندرك هذا بوضوح أكبر، فلنتأمل مع المرحوم الأستاذ سيد قطب جمال قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

ففيها :

١- مقابلة بين المجهول في (مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو): حيث آماد وآفاق وأغوار في المجهول المطلق في الزمان والمكان، وفي الماضي والحاضر والمستقبل، وفي أحداث الحياة وتصورات الوجدان .. وبين المنظور في (ويعلم ما في البر والبحر) حيث آماد وآفاق وأغوار في المنظور على استواء وسعة وشمول تناسب في عالم الشهود تلك الآفاق والآماد والأغوار في عالم الغيب المحجوب.

٢- وفيها مقابلة بين حركة الموت والفناء، وحركة السقوط والانحدار من أعلى إلى اسفل ومن حياة إلى اندثار في (وما تسقط من ورقة إلا يعملها).

وبين حركة البزوغ والنماء المنبثقة من الغور إلى السطح، ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق في (ولا حبة في ظلمات الأرض).

٣- ثم مقابلة شاملة بين الموت والحياة، والازدهار والذبول في كل حي على الاطلاق في (ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين).

وقد أجاد المرحوم الاستاذ سيد قطب تصوير هذه المقابلات وبين أثرها في تناسق وجمال التعبير عن قدرة الله وعظمته، وقد أعانه على ذلك ما في الأسلوب القرآني من تآلف عجيب بين الألفاظ والمعاني.

فهل يجوز بعد هذا الذي وضحناه ان نسير في ركاب القائلين بفصل علم البديع عن البلاغة، وندعي بأنه لا يحسن لذاته أو أنه عرضي لا جوهري ؟

هل نغمض أعيننا، فلا نرى فيه إلا البهرج والزينة، ونتغافل عن دوره الاكيد في خدمة المعنى وتوضيحه خدمة لا تتأتى بدونه ولا تتجلى إلا به.

---

(١) الأنعام : ٥٩

هـــذا وسوف نرى في الجانب التطبيقي من هذا البحث أن المقابلة في القرآن الكريم تـــؤدي دورا حـــيويا وهامـــا في عرض الفكرة عرضا مؤثرا وجميلا، وأنها في موقعها الصحيح الذي لا غناء له بدونها.

الباب الثاني

أسلوب المقابلة في القرآن الكريم

ويشتمل على تمهيد وأربعـــة فصـــول :

الفصل الأول : أسلوب المقابلة في القرآن المكي.
الفصل الثـــاني : أسلوب المقابلة في القرآن المدني.
الفصل الثـــالث : المقابلة في القصص القرآني والأمثال القرآنية.
الفصل الرابـــع : مقابلات متميزة في القرآن الكريم.

تمهيد :

ظل القرآن الكريم يتنزل على محمد صلى الله عليه وسلم في مكة طيلة ثلاث عشرة سنة، هي مدة إقامته في مكة منذ بعثته إلى هجرته، فسمي هذا القسم من القرآن بالقرآن المكي، كما سمي ما نزل عليه في المدينة بالقرآن المدني.

وطوال هذه المدة، كان الوحي الكريم يركز على قضية واحدة هي بناء العقيدة الصحيحة، وما تقوم عليه من دعائم الإيمان بوحدانية الله والاعتراف له بالربوبية المطلقة، وما يستتبع ذلك من الإيمان بالملائكة والكتب والرسل، وباليوم الآخر، وما فيه من بعث ونشور، وحشر، وحساب، وجزاء، بالجنة أو النار بما فيهما من صور النعيم وصور العذاب. ذلك، لأن العقيدة التي يؤمن بها الإنسان هي التي يسير عليها نظام حياته بعد ذلك، فإذا كان بناؤها على أساس صحيح لا عوج فيه ولا انحراف، صار الإنسان – ومن ثم المجتمع – قوة فعالة ومؤثرة في اتجاه الخير والسلام، وكم رأينا من عقائد قامت على أساس الشر أو العصبية، أنتجت الدمار والخراب لأصحابها وللإنسانية من حولهم.

ولم يكن العرب ينكرون تماما وجود إله لهذا الكون، لأن الإنسان منذ نشأ على الأرض، أدرك أن هذا الكون بحركته المنتظمة، وأسراره العجيبة لابد أن تكون وراءه قوة خفية تدبر أمره وتصرف شئونه: {ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم}(1).

ولكن أفكارهم حول الإله الواحد، انحرفت إلى الشرك والوساطة، فاتخذوا الأصنام آلهة من دون الله، زعما منهم بأنها تقربهم إليه: {..مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى..}(2)، وألحقوا بالله الواحد الأحد صفات بشرية تعالى الله أن يتصف بها، كاتخاذ البنات والصاحبة والولد: {وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين}(3).

---

(1) سورة الزخرف 9

(2) الزمر : 3

(3) الزخرف : 15 – 16

وأغلـــب الظن أن زعماء الشرك وجدوا في الأصنام سبيلا إلى الثروة التي تأتيهم من وفود الحجاج إلى هذه الأصنام في مكة، فقاوموا – بشدة – دعوة التوحيد، لأنهم رأوا فيها خطرا على أموالهم ومكانتهم.

وليســت الجاهلــية التي اطلقت عليهم صفة تدل على التخلف أو القصور العقلي والعــلمي بــل هي صفة للسفه والطيش والتعصب الأعمى للقبيلة والتراث. إنها صفة تتصــل بعدم الحلم ويدل على ذلك أن الكلمة قد استخدمت مناقضة للحلم في أبيات كثيرة من الشعر الجاهلي يقول الشاعر الجاهلي عمرو بن أحمر الباهلي :

وَدُهْم تُصَاديها الولائدُ جِلَّةٌ ... إذا جَهِلتْ أجوافها لم تَحَلَّم

يصف الطعام في آنيته بأنه إذا غلى لم يهدأ، تعبيرا عن كرمه وغناه.

ويقول قيس بن زهير العبسي

أَظُنُّ الحِلْمَ دَلَّ عَلَيَّ قومي ... وقد يَستجهِلُ الرجلُ العظيمُ

أى قد يضطر إلى الجهل

ويقول المرَّار بن سعيد

إذا شئتَ يوما أن تسودَ عشيرةً ... فبالحلم سُدْ لا بالتسرع والشتم

وَلَلْحِلْمُ خير فاعلمنَّ مغبةً ... من الجهلِ إلا أن تُشَمَّسَ مِنْ ظُلم

ينصَحه بالصبر وحسن معاملة الناس(١).

وهكـــذا يتضح معنى المقابلة بين الجهل والحلم في كثير من النصوص الجاهلية. وفي القـــرآن من جهة أخرى مقابلة بين الطغيان والحلم، أى بين الجهل والحلم في مثل قوله تعالى:

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝﴾ [الطور: ٣٢]

ومـــن هـــنا كان على القرآن المكي أن يتجه وجهتين رئيسيتين؛ فهو يواجه الشرك وانحـــراف العقيدة من جهة، ويواجه الجاهلية المتمثلة في السفة والتعصب للموروث من جهة أخرى. وتصحيح العقيدة وبناؤها على أسس سليمة كفيل بأن يمحو من نفوسهم هـــذا الطيش والسفة، فلا عجب إذن أن تدور موضوعات السور المكية حول عقيدة التوحـــيد بكـــل عناصرها، وهي في علاجها لتلك العقيدة، تأخذ بيد الإنسان في ذلك

---

(١) انظر : في فلسفة الحضارة للدكتور عفت الشرقاوي : ٩١، ط ٣. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١.

الزمان، وفي كل زمان بعده، وتقوده في رفق وتؤدة، لتنقله من دروب الشرك وسراديب الوثنية وجهالة الرأى إلى ساحة التوحيد ونور الألوهية الحقة، وتفسر له حقيقة وجوده في هذا الكون، وتضع حدا لتساؤله الأزلى حول خالق هذا الكون وحول الهدف النهائى من مجيئ الإنسان إلى هذا العالم، ومصيره بعد ذلك.

وقد سلك القرآن في سبيل الوصول إلى تصحيح العقيدة سبلا شتى وأساليب متنوعة، فهو يلفت نظر الإنسان إلى التفكير في نفسه هو﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾[1] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾[2]﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[3] ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[4] ثم يوجه نظره إلى السموات وما فيها من نجوم وكواكب وما يترتب عليهما من ليل ونهار وسحب ورياح وأمطار، وإلى الأرض وما عليها من الناس والشجر والدواب والأنعام والبحار والأنهار والطيور، ويعرفه بمصيره بعد ذلك في الحياة الآخرة وما فيها من البعث والنشور والحساب.

وهو إذ يصحح عقيدته، فإنه يعده الإعداد السليم لتحمل الأمانة وتكاليفها، والخلافة لله في الأرض وما يترتب عليها.

إن التوحيد الخالص هو المحور الذي تدور عليه آداب الإسلام ونظمه وشرائعه، فعندما يتحرر الإنسان من رجس الشرك وظلام الإلحاد، ويؤمن بإله واحد قادر مدبر لهذا الكون، فإنما يتحرر — في نفس الوقت من سلطان الخوف والعجز والجهالة، وينطلق لعمارة هذا الكون، وارساء دعائم الاصلاح والسلام فيه وهو يعتقد أنه مؤيد ومنصور من قبل الله الذي أنابه عنه وكلفه بهذه المهمة.

ولا عجب أيضا — أن يستمر بناء العقيدة الصحيحة طيلة هذه الفترة حتى إذا استقرت العقيدة في القلوب، واستقر معها المسلمون في مجتمعهم الجديد بالمدينة، واستقرت — تبعا لذلك — النفوس القلقة وهدأت القلوب الحائرة، جاء القرآن المدني

---

(١) الطارق : ٥
(٢) الإنفطار : ٦ — ٨
(٣) التين : ٤
(٤) الذاريات : ٢١

يعرض تشريعات الإسلام وقوانينه ونظمه لنفوس استسلمت ابتداء لهذا الدين وأصبحت علـى استعداد تام لتلقى هذه الشرائع وتنفيذها دون معارضة، ومن هنا - كما يقول المرحوم سيد قطب (أبطلت الخمر وأبطل الربا وأبطل الميسر وأبطلت العادات الجاهلية كـلها بآيـات من القرآن أو كلمات من رسول الله، بينما تجهد القوانين والتشريعات الوضعية نفسها بجندها وسلطانها ودعايتها وإعلامها، فلا تبلغ إلا أن تضبط الظاهر فقط من هذه المخالفات، بينما المجتمع يعج بالمنكرات)[1].

واتجه القرآن المدني إلى التطبيق العملي للعقيدة الجديدة، ولما ينشأ عنها من تصورات لكيفـية العلاقة بين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان وبني جنسه، فجاءت العبادات بما تشـتمل عليه من صلاة وصيام وزكاة وحج لتغطي الجانب الأول، وجاءت المعاملات كالبـيع والشراء، والزواج والطلاق، والعلاقات بين الأفراد والأمم والشعوب لتغطي الجانب الثاني.

وتبعا لذلك اختلف أسلوب القرآن المكي عن أسلوب القرآن المدني، فجاءت آيات المكـي قصـارا متلاحقة كالطرقات المتتابعة التي تنبه النائم وتوقظ الغافل، ليس فيها تشريعات ولا قوانين بل كانت على شكل أمور كلية ومقاصد إجمالية.

بينما جاءت آيات المدني طوالا تشرح وتفصل، بالنغمة الهادئة والمؤثرة في آن واحد، فسورة كالأنفال مثلا وهي سورة مدنية تضاهي في الحجم سورة الشعراء المكية، ولكن عـدد آيات الأولى خمس وسبعون آية، بينما عدد آيات الثانية مائتان وسبع وعشرون آية.

والقـرآن في كلـتا الحالـتين يناسب الظروف النفسية والفكرية التي كان عليها المخاطـبون..(فالقوم في مكة كانوا غير مستقرين، بل كانوا مطاردين، قلقة نفوسهم، غـير مسـتعدة لتشريع أو تفصيل، والمشركين كانوا أيضا منصرفين عن سماع القرآن، مـتأثرة نفوسـهم بأدهم المسجوع ، قريبا عهدهم بخطبهم المثيرة للوجدان. والتشريع يحـتاج إلى هدوء ورزانة في العقل، وتَرَوٍّ في المنطق، وتقبل للإرشاد وكل هذه الحالات النفسية غير متوفرة في الحياة المكية[2].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٠١٠/٢، ط ٧، دار الشروق - ١٩٧٨.

(٢) القرآن وعلم النفس، عبد الوهاب حمودة : ٢٩، سلسلة المكتبة الثقافية عدد ٧. مصر سنة ١٩٦٢.

والـــذي يدقق في التركيب اللغوي والنحوي للجملة القرآنية يجد أن هناك فرقا بين المكية منها والمدنـــيَّة

(فعـــلى حـــين تشكل الفاصلة المكية عنصرا أساسيا من النسيج النحوي للجملة المكية، نجد الفاصلة المدنية تبدو تذييلا تقريريا خالصا مستقلا ببنائه النحوي[1]).

فالشعور بالقلق والترقب في مكة من جانب المؤمنين وبالإعراض والنفور والتعالي من جانـــب المشـــركين يناسبه الجمل القصيرة والفواصل المتلاحقة، بينما الشعور بالأمن والاطمئنان في المدنية يناسبه بسط الحديث وتذييله والتطويل فيه.

(ولعل من أسرار الإعجاز القرآني في الجملة المكية أنها تعتمد على مراعاة التوازن، وهذا التوازن يتخذ أوصافا كثيرة، فطورا تقوم الجمل فيه على القصر والتلاحق، وطورا يكـــتفى فـــيه بمعنى الازدواج الفكري، ولكن يحتفظ فيه بالتوازن الصوتي والازدواج الفكري الذي يقوم على المقابلة بين الأفكار، وقد يضم إلى ذلك المقابلة بين الأصوات، وإذا كان كل جانب من جوانب اللغة يجب أن يتلون بلون بحاله، فقد اقتضى الإعجاز العظيم أن يكون الإعجاز في الجملة المكية قرين بساطة الرسالة في طورها الأول، وقرين الإعـــتماد عـــلى حاجة النفس للنص مما كان مطلوبا في هذا الطور من تاريخ الدعوة، كذلـــك يحـــتاج إلى الاخـــتصار في معرض الإشارة السريعة إلى مجملات فصلت مع الزمن في الجملة المدنيـــة ذات المتعلقات والاضافات[2]).

وأسلوب المقابلة في القرآن المكي يختلف تبعا لما ذكرنا عن أسلوبها في القرآن المدني، لأن المقابلـــة القرآنية لا تنفصل عن الموقف الذي قيلت فيه؛ ولا عن السياق الأسلوبي المعـــبر عن هذا الموقف، إنها لبنة في البناء التعبيري للقرآن الكريم، لذلك جاءت عنيفة مدمدمـــة، قصـــيرة و مؤثرة في القرآن المكي. هادئة رخية، عقلية ومنطقية في القرآن المدني.

ولقـــد كـــثر ورود المقابلة في القرآن المكي في المواقف التي اقتضتها نشأة العقيدة، واستلزمها بناؤها على أسس التوحيد الخالص وما يستتبعه من الإيمان بالله وملائكتـــه وكتـــبه ورسله واليوم الآخر، ومن ثم كثرت الآيات التي تدعو إلى التوحيد وتدور في

---

(١) انظر : الفكر الديني في مواجهة العصر، للدكتور : عفت الشرقاوي : فصل (النزعة الانطباعية في التفسير) دار الحقوق للطبع والنشر والتوزيع القاهرة ١٩٨٤

(٢) المرجع السابق. .

فلكه، متخذة من مشاهد الكون ومجالي النفس ومشاهد يوم القيامة ركائز تنطلق منها كالسهام لتصيب الأفئدة مباشرة فتوقظها من سباتها وغفلتها.

بينما وردت المقابلة في القرآن المدني في مواقف التشريع وبيان المعاملات، و مواقف الجهاد، وتوجهت بالخطاب إلى النبي وإلى المؤمنين وإلى المنافقين واليهود، تعلم وتؤدب وتربي، وتفضح مكايد المنافقين وغدر اليهود.

أمـــا المقابلـــة في القصص القرآني، فقد جاءت مناسبة لأغراض القصة في القرآن الكـــريم، تبرز عنصر الصراع بين الخير والشر والحق والباطل والإيمان والكفر، وتلبي في النهاية طَلَبَةَ الفن من حيث البناء الفن، وطَلَبَةَ الدين من حيث التأثير والتغيير.

وسوف نرى تفصيل ذلك كله في الفصول التالية إن شاء الله.

الفصل الأول

أسلوب المقابلة في القرآن المكي

ويشتمل على المواقف الآتية :

١- المقابلة في الدعوة إلى التوحيد..من خلال التركيز على المقابلة في :

أ- صفات الله تعالى

ب- مشاهد الكون والنفس

مقارنة بين المكي والمدني في مشاهد الكون والنفس

٢- المقابلة في خطاب الكفار والمعاندين.

٣- المقابلة في مشاهد القيامة.

٤- المقابلة في مشاهد القيامة بين المكي والمدني.

المقابلة في الدعوة إلى التوحيد :

لا يقـــدم القرآن الكريم الدعوة إلى التوحيد في صورة نظرية عقلية مجردة، أو على شكل طلاسم معماة تستعصى على الأفهام، بل يمزجها بالواقع الحي الملموس، ويضع يد الإنسـان عــلى الدليل المادي لوجود الله الواحد القادر، ويدله على عظمته في كل ما يحـيط به، ويستـثيـر فيه وجدان الإنسان، ويدفعه دفعا إلى البحث المؤدي في النهاية إلى التصديق.

لذلك يتنوع الخطاب إلى المشركين والمعاندين. صعودا بهم إلى السموات وما فيها ثم هبوطا بهم إلى الأرض وما عليها، أو دخولا بهم إلى أعماق النفس البشرية، وما تنطوي عليه من غرائب وسرائر.

وفي كـل ذلك تؤدي المقابلة القرآنية دورا هاما وحيويـاً في التعبير والتأثير. دورا يوقـظ النفس الغافلة فتنفعل بما ترى وتسمع، ويحرك الارادة فيندفع الشخص لتغيير ما هو عليه من زيغ الشرك وضلال الهوى إلى الوحدانية الحقة ونورها الفياض.

والمقابلة في مواقف الدعوة إلى التوحيد تـأخـذ طريقها إلى القلوب من التركيز عـلى صفات الله سبحانه وتعالى، وعلى المشاهد الحية لقدرته جل وعلا في الكون وفي النفس.

أولا- المقابلات في صفات الله تعالى :

١ – الله خالق السموات والأرض:

لا تكـاد سـورة مكية تـخـلو من ذكر السموات والأرض، والتنبيه على أنهما آيتان من آيات الله، تتجلى فيهما قدرته وعظمته.

والسـموات والأرض معروضـتان أمام ناظري البشر يراهما في كل حين ويلمس أثرهـا فـي حياته اليومية، فيتساءل عـن كنههما، ويبحث عن من رفع السماء بلا عـمـد وبسط الأرض ومهدها لمعيشته.

ويـتولى القرآن الكريم الإجابة عن تساؤلات البشر في هذا المجال فلا يترك شيئا مما يتعلق بالسموات والأرض إلا ويُـجَـلّيه ويظهره.

ورغـم أن المقابلة بين السماء والأرض أو بين السموات والأرض – تتكرر في كل السور المكية تقريبا، إلا أنها تختلف في إيحائها وفيما ترمي إليه من آية لأخرى، فتبدو لنا في كـل مـرة جديـدة كل الـجدة، ذلك أن السياق القرآني يكسبها طعما خاصا، والموقف الذي وردت فيه يلونها بلونه، وينفث فيها من إيحائه.

فترى المقابلة بين السموات والأرض في قوله تعالى: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] تختلف عن المقابلة بينهما في الآية التالية مباشرة وهي ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ[1] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الشورى :١٢]، إنها في الأولى توحي بأن السموات والأرض من خلق الله وحده على غير مثال سابق وفي هذا إيحاء بالتفرد والإبداع، وقد جاءت مصحوبة بالمن على عباده بخلق الأنفس والأنعام أزواجا للإكثار والزيادة وتعمير الأرض، فليس لله مثيل في ذلك.

وفي الثانية جاءت المقابلة بين السموات والأرض في ظل إيحاء بأن مقاليد أمورها ومفاتيح الرزق فيهما لله وحده، يوسعه ويبسطه لمن يشاء، ويقدره ويضيقه على من يشاء، فهو العليم بما يصلح في الحالين، وحينئذ لا يكون هناك داع للتمرد على سلطان الله وقدره وميزانه.

وهي في هاتين الآيتين مختلفة عنها في قوله تعالى:﴿ رَبِّ[2] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الدخان :٧] : لأنها هنا ترد الملكية بأجمعها لله وحده، يتصرف في ملكه كيف يشاء.

والمقابلة بين السموات والأرض، مقابلة صريحة، لا تحتاج إلى تأويل لأن الأرض تقابل السماء.

وقد تأتي المقابلة بينهما في مجال تذكير الكافرين بكيفية نشأة السموات والأرض وبيان قدرة الله وفضله على البشر إذ أرسى في الأرض الجبال الثوابت حتى لا تضطرب بهم ومهد فيها الطرق الواسعة يسلكونها في أسفارهم، وجعل السماء من فوقهم سقفا مصونا من الوقوع أو التغير ومع ذلك فهم لا يؤمنون، وعن آيات الله معرضون ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا[3] وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ :
﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا

---

(١) مقاليد : جمع مقْلَد على وزن (مفْعَل) بكسر الميم وهو المفتاح (المعجم الوسيط : مادة قلد).
(٢) رب كل شيء مالكه (مختار الصحاح).
(٣) كانتا ملتصقتين بلا فصل ففصلنا بينهما بالهواء (كلمات القرآن) مخلوف : ١٩٨.

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝﴾ [الأنبياء:٢٦-٣٢]

وأحيانا تجئ المقابلة بين السموات والأرض مقرونة بالقسم، مثل قوله تعالى:

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾ [غافر: ٥٧].

وذلك حين يكون الموقف موقف إنكار وعناد من جانب المشركين واعتزاز بما لديهم..، وقد ذكر السيوطي في أسباب النزول، نقلا عن ابن أبي حاتم عن أبي العالية، أن هذه الآية وما قبلها نزلت حين جاءت اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا الدجال فقالوا: يكون منا في آخر الزمان، فعظموا أمره، وقالوا يصنع كذا، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾ [غافر: ٥٦ - ٥٧].

ونحن نرى أن الأمر أعم من هذا السبب الخاص، ونشك في رواية السيوطي بعد ذلك عن كعب الأحبار من أنها نزلت فيما ينتظره اليهود من أمر الدجال، فالسورة مكية ولم يحدث مثل هذا الجدل الديني بين اليهود والرسول في مكة، بل كان ذلك في المدينة، والعبرة دائما في القرآن الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب: فحين يقاس خلق الناس بخلق السموات والأرض يبدو الفرق هائلا، وعندئذ يخفف المجادل من غلوائه ويطامن المتكبر من كبريائه، ويبدأ في التفكير الهادئ في خلق السموات والأرض فيدفعه ذلك إلى تغيير عقيدة الشرك والإلحاد إلى عقيدة التوحيد الخالص، والمقابلة هنا بما ينشأ عنها من تقليب النظر والفكر بين السموات والأرض، وبين خلق الناس وخلقهما - تؤدي دور التأثير في النفس البشرية وتدفعها إلى الحركة في الاتجاه الصحيح.

وتقترب المقابلة في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝﴾ (١) من المقابلة السابقة من حيث اقترانها بالقسم، وان اختلف

(١) الذريات: ٢٣.

المقسم عليه في المقابلتين، ففي الأولى هو كبر وعظم خلق السموات والأرض عن خلق الناس وفي الثانية يعود الضمير في {إنه لحق} على يوم الدين السابق في قوله تعالى في نفس السورة﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾[1]؛ ولذا يختلف مذاق المقابلة بين السموات والأرض و يختلف اتجاهها حسبما يقتضيه الموقف والسياق وان تكررت هذه المقابلة في كل السورة.

وتارة تكون المقابلة بين السموات والأرض في مجال الاستنكار والتقريع والتوبيخ، لبعض هؤلاء المجادلين في وحدانية الله وقدرته وعظيم كرمه دونما علم يستندون إليه ولا هدى ولا كتاب منير، فالله سبحانه قد سخرلهم ما في السموات والأرض، بكل ما تحمله كلمتي (ما في) من شمول وإحاطة للأشياء المسخرة للإنسان في السموات والأرض وهي كثيرة لا تحصى ذكر منها ابن كثير في تفسيره (ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما خلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد، وجعله اياها لهم سقفا محفوظا، وسخرلهم ما في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة)[2].

وحينئذ تقع المقابلة بين السموات والأرض على هؤلاء المتمسكين بكبريائهم وعنادهم موقع البرهان الساطع والدليل القاطع على أحقية الله بالوحدانية وانفراده بالألوهية ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان: ٢٠]

وفي الآية بجانب المقابلة بين السموات والأرض مقابلة أخرى بين النعم الظاهرة والنعم الباطنة التي أسبغها الله على الإنسان، تأتي بالتفصيل بعد الإجمال وتتعانق مع ما يوحي به تسخير ما في السموات وما في والأرض من كرم الله تعالى وعظيم فيضه.

وقد ترد المقابلة بين السموات والأرض لتؤكد جدية أمر الوجود والغاية العظيمة من خلق الكون والإنسان فيه، فليس عبثا أو لهوا خلقت السموات والأرض وما بينهما، إن الأمر أخطر من ذلك وأجل، إنه الصراع بين الحق والباطل، ولقد وعد الله بغلبة الحق

(١) الذريات : ١٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٣/٤٥٠ ط مكتبة الدعوة الإسلامية، شباب الأزهر – مصر.

ودمـغ الـباطل وزهوقـه، وإذا بدا ذلك بعيدا للعيان في بعض الأوقات، فإنـما هو الابتلاء والتمحيص ثم لا يلبث أن يعود الحق إلـى نصابه، ويعتدل الميزان الذي أراده الله قـسطاسـا مبينا.

(إن القـرآن الكريم يقدم مفهوما أساسيا للإنسان تتحقق به غائية الوجود البشري، بعد أن ظلت عقول الجاهليين زمنا طويـلا تضـطـرب في التساؤل عن غاية الحياة، ومعـنى المصير إلى الفناء، بل قد تقول بعبثية الوجود في أحيان كثيرة، فلا ترى له غاية ولا هدفا)[1].

يـأتي القرآن ليؤكد هذه الغاية، وتلك الجدية في مقابلات رائعة في قولـه تـعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ۝ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ[2] ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء:١٦-٢٠]

واللعب واللهو فـي هذه الآيات مقابل للعب الكفار ولهـوهـم في أول السورة في قوله تعالى :﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء :٢ - ٣]

فاجتمع لنا في هذه الآيات طائفة من المقابلات بين السماء والأرض و بيـن اللهو واللعـب (مقابلـة بالنظير) عرفها حازم القرطاجني بإنهـا (الجمع بين المعينين اللذين يكـون بينهما نسبة تقتضي لأحدهما أن يذكر مع الآخر)[3] وفيها أيضا مقابلة صريحة بين الحق والباطل وبين الليل والنهار.

وهذه المقابلات من أسرار إعجاز النظم في القرآن، فلم نعد نقرأ ألفاظا جامدة، بل أصبحنا نرى شخوصا تتحرك وحقا ينقض كالشهاب الصاعق على البـاطـل فيدمغه {يمحقه ويدحضه}[4] .

---

(١) في فلسفة الحضارة الإسلامية، الدكتور عفت الشرقاوي : ٢٦٨.

(٢) لا يستحسرون : لا يَكـلُونَ ولا يَعْـيَـوْنَ (كلمات القرآن)، مخلوف : ١٩٨

(٣) مـنـهاج البـلغـاء ، لـحازم القرطاجني : ٥٢.

(٤)كلمات القرآن. مخلوف : ١٩٨

فيضمحل ويذهب زاهقا، وملائكة وخلقا منقطعين لعبادة الله غير غافلين في مقابل هؤلاء اللاهية قلوبهم.

وقــد أدت هذه المقابلات دورا مباشرا في التعبير فزادته جمالا على جماله، وكان لها دورهـــا الأكبر في التأثير وفي الضرب على أوتار القلوب اللاهية لتوقظها من غفلتها، وتستنقذها من وهدتها فتستمسك بالجادة ولا تحيد عن الصواب.

ويطــول بــنا الحديث لو استعرضنا كل آيات المقابلة بين السموات والأرض فهي موجودة في كل سورة تقريبا.

لكـــنها - كما تأتي في معرض الدعوة إلى التوحيد، قد تأتي في معرض الدعوة إلى التصديق بأن وحي الله لمحمد هو الحق، وهنا لا يكتفي القرآن بالمقابلة بينهما فقط، بل تمتد المقابلة وتتسع لتشمل قدرة الله في بعض المظاهر الكونية المتصلـــة بكـــل ما فـــي الســـموات والأرض، نـــلمح ذلك واضحا في أول سورة الرعد، ومع أنها وردت في المصحف الأميري على أنها مدنـــية، الا إنني أميل إلى ما ذكره المرحوم سيد قطب من أنها مكية، ومكيتها تظهر بوضوح في طبيعة موضوعها أو طريقة أدائها أو جوها العام، وقد ذكر الزمخشري أنها مختلف عليها، وذكر ابن كثير أنها مكية، تقول الآيات موضع حديثنا قال تعالى :

﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [الرعد: ١-٤]

فـــنحن أمـــام لوحـــة فنية من المقابلات القرآنية تنفرج خطوطها وتتسع ثم تتلاقى وتتعانق في صورة مجسدة ومتحركة في آن واحد (فالارتفاع فـــي الـــفـــضاء المنظور في قولـــه تعـــالى: {رفـــع السموات بغير عمد} يقابله ارتفاع في الغيب المجهول وهو (الاســـتواء والاســـتعلاء عـــلى العرش) هذا المغيب الهائل الذي تتقاصر دونه المدارك

والأبصـــار، ثم هذا الاستعلاء المطلق يقابله التسخير، ثم إن الشمس والقمر يتقابلان في الجنس: نجم وكوكب، ويتقابلان في الأوان بالليل والنهار، وفي مشهد الأرض تتقابل الرواســي الثـــابــتة والأنهار الجارية ويتقابل الزوج والزوج في كل الثمرات، ويتقابل اللـــيل والنهار، والنخيل صنوان[1] وغير صنوان، ثم يتقابل مشهد الأرض كله ومشهد الســـماء، وهمــا مــتكاملان في المشهد الكوني الكبير الذي يضمهما ويتألف منهما جميعا[2].

فأسلوب المقابلة في هذا المقطع يعطي نموذجا متميزا للمقابلة القرآنية الممتدة في أكثر من آيــة واحدة، ويمزج بين الفن حيث هذا التناسق العجيب بين تلك المقابلات، وبين الـتأثير الديني حيث كان التعقيب على كل آية بالدعوة إلـــى اليقين والتفكير والتعقل (توقنون، يتفكرون، يعقلون).

٢- خالق الحياة والموت :

الحياة والموت ظاهرتان يلمسهما كل إنسان في أي وقت شاء، وفي أي مكان أراد، وفي جميع المخلوقات على السواء.

وعـــلى عادة القرآن في اتخاذ الكون وما فيه مادة للإقناع، ووسيلة قريبة لتصحيح عقـــيدة الشـــرك وزيغ الضلال، نجد القرآن الكريم يلفت نظر الإنسان لظاهرة الحياة والموت لأن فيهما دلالة واضحة على قدرة الله، وبرهانا أكيدا على تفرده وحده بذلك.

ولأن مـــن طـــبع الإنسان النسيان، وعدم الاهتمام بالشيء المألوف المتكرر، فـــإن القـــرآن يكـــثر من آيات الموت والحياة، ليـــستـــدل بـــذلك على أن الله وحده هو واهـــب الحـــياة والموت، وهو يعرض ذلك في صور تستثير الوجدان وتهز القلب من الأعماق، ليستعد الإنسان لمرحلة ما بعد الموت ويسير في حياته على هدى الإيمان.

والمقابلة القرآنية بين الحياة والموت تأتي أحيانا مرتبطة بالسبب الذي من أجله خلق الله المـــوت والحياة، وهو الابتلاء والاختبار، والوقوف على أي الخلق أحسن عملا من غـــيره، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك :٢] فيكون الغرض البلاغي هـــنا هو الحث على العمل الصالح، واستنهاض العزائم للسير في طريق الخير.

---

(١) نخيل صنوان : نخلات يجمعها أصل واحد. (كلمات القرآن : ١٤٢).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب : ٢٠٤٦/٤ – ط ٧ ، دار الشـــروق.

وهـي في قولـه تـعالى :﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [غافـر :٦٨]. تأتي بلفظ الفعل المضارع للدلالة على اسـتمرار هـذه العملية الدائبة، ففي اللحظة الواحدة يموت ملايين من الأحياء : من الإنسان والحيوان والنبات والأسماك والطيور والحشرات والخلايا والذرات وتبدأ رحلة الحياة مـلايـيـن أخرى في ملك الله الواسع اللانهائي.

وكل هذه الخيوات بيد الله يعطيها الحياة لأجل محدد ويميتها في لحظة معينة لحكمة يعـلمها وتصريف عجيب يضمن لهذا الكون الاستمرار والحياة، والمقابلة هنا تستجيش في الإنسـان قلبه وفكره وتخرجه من ركود الفكر وعادة الإلف فينتـفـض ليبحث ويفكر ويهتدي بأمر الله خالق الموت والحياة.

ومثل هذا المغزى البلاغي وزيادة نلمحه في المقابلة بلفظ المضارع أيضا في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [المؤمنون:٧٦-٨٠]

ففـيها إلى جانب الدلالة على الاستمرار، اختلاف الليل والنهار فبين الليل والنهار مقابلـة، وبينهما وبين الحياة والموت مقابلة بالتناظر والمماثلة لأن الليل يشبه الموت في سكونه وهدوئه، والنهار يشبه الحياة في حركتها وضجيجها، وقد عبر القرآن عن ذلك في قوله الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝﴾ [النباء :١٠ - ١١].

وقد جاءت الـمقابلتان في سورة (المؤمنون) بأسلوب خبري تقريري في البداية ثم عقـب عليهما بأسلوب الاستفهام الإنكاري، والتوبيخ للكفار لعدم استخدام العقول والـتفكير فـيما قدمـته الآية الكريمة من القدرة الباهرة على الإحـياء والإمـاتـة وعلى اختلاف الليل والنهار باعتباره سنة كونية مطردة أطراد الحياة والموت.

وغـالـبا ما تـرد المقابلة بين الحياة والموت في القرآن الكريم في نطاق الإقناع بقضية البعث بعد الموت، وما يترتب عليها من حساب وجزاء، تلك القضـية التي أنكرها المشركون بشدة، وجاهدوا في الصد عنها وتنفير الناس منها، والتشكـيك فيها، فتراهم يقولون :

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝ ﴾ [المؤمنون: ٣٥ - ٣٧]

والغرض البلاغي من المقابلة هنا إظهار مدى إنكارهم للبعث، ومدى انغماسهم في الملذات وعدم التفكير فيما وراء ذلك.

ثم إنهم لشدة إنكارهم للبعث تراهم يستعجلون محمدا ما وعدهم، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ ﴾ [يونس: ٤٨] ويستنبئونه عنه ويستحلفونه على صدقه، فيقسم لهم أنه حق وواقع لا محالة، ولكن هيهات.

﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [يونس: ٥٣-٥٥]

وهنا وبعد التأكيد على صدق البعث والحساب تأتي المقابلة بين الحياة والموت في صورة تقريرية كحكم القضاء لا رد فيه، في صورة تتناسب وما سبق فيبدو الأسلوب سهلا سلسا محكما كما كانت قضية البعث سلسة محكمة. فما دام الأمر كله بيد الله فلا غرابة في ذلك، تأتي المقابلة في الآية التالية مباشرة للقضية السابقة في بضع كلمات حاسمة :

قال تعالى : ﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ ﴾ [يونس: ٥٦].

ثم يلجأ القرآن إلى المقابلة المعنوية بين الحياة والموت ولكن بطريقة التمثيل التصويري، والهدف من ذلك هو الإقناع عن طريق المشاهدة العملية لظاهرة الحياة والموت في بضع آيات تلمس هذه الظاهرة.

هذه مقابلة بين مظاهر الهلاك والعفاء، ومظاهر الحياة والنماء في قوله الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۝ ﴾[1]، فإن

---

(١) السجدة : ٢٦ – ٢٧.

مـــن يـتأمل في مقابلة الأرض الحية المرعة الممتلئة بالزرع والنبات تأكل منه الأنعام والأنفس – بالأرض قبل ذلك وقد كانت جرزا (يابسة جرداء قطع نباها)[1] يهتدي – بـــلا شك – إلى أن الله الذي وهب الحياة لهذه الأرض بعد موها قادر على بعث هذه القـــرون الغابـــرة التي يـمشون في مســـاكنها ولذلك كان التعقيب في الآيتين بالاســـتفهام التحضيـــضي {أفلا يسمعون، أفلا يبصرون} على أن بين السمع والبصر مقابلة خفية غاية في اللطافـــة لأن السمع حاسة الليل الذي يتناسب سكونه مع سكون هـــذه القرون الغاربة الهالكة والبصر حاسة النهار الذي يناسب الحياة والنماء ونرى به الـــزروع تخرج من الأرض بعد أن يرويها الماء، والأنعام والأنفس وقـــد أقبلت تأكل منه.

والقرآن الكريم يكثر من المقابلة بين الحياة والـــموت في هذه الصور التقريبية لتكون أدعى إلى التصديق، وأدل على القدرة، والناس حيثما يسيرون، وأينما يحلون يرون حالة الأرض الموات ثم يروها وقد حفلت بالزروع والثمار والحياة، ولذلك يكثر القرآن من استخدام هذه الظاهرة الحية ليؤكد قدرة الله وتفرده ووحدانيته يقول تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[2] ويقـــول موضحا هذه الصورة : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[3]

والمقابلـــة ظاهرة وواضحة في آية الروم بين إحياء الأرض بعد موها والقدرة إلى إحياء الموتى. وهي في آية فصلت أشد وضوحا، لما فيها من زيادة في التصوير والتمثيل فالأرض الخاشعة الهامدة حين ينزل عليها الماء تهتز وتموج بالحركة والحياة بسبب تشقق الأرض بالنـــبات وتـــربو وتزيد ويزيد معها الخير، وفي هذا المشهد مقابلة بين خشوع الأرض وهمودها في حالة الإقفار والجرد وبين اهتزازها وطربها وزيادها في حالة الإنبات يـــماثـــله ويقابله مشهد آخر في الغيب المجهول يوم القيامة وهو قدرة من هز الأرض وأحياها بعد همودها على إحياء الموتى.

---

(١) كلمات القرآن : تفسير وبيان، للشيخ حسنين محمد مخلوف : ٢٥٣ – ط، دار المعارف.

(٢) الروم : ٥٠

(٣) فصلت :٣٩

والقرآن الكريم يتخذ من المقابلة الأولى دليلا على صدق المقابلة الثانيةفي تناسق بديع وتآزر عجيب.

وقـــد يستخدم القرآن الكريم المقابلة بين الموت والحياة، على سبيل المجاز بمعنى قدرة الله على هدى الإنسان بعد ضلاله وذلك لأن السياق وسبب الترول يقتضيان ذلك مثل قوـــله الله تعـــالى:﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾(١)

أي ضـــالا فهديـــناه فالموت والحياة ها هنا مجاز(٢) وقد ذكر السيوطي في أسباب الترول أنها نزلت في عمروأبي جهل(٣)، ولـــكـــن النيسابوري(٤) المتوفى سنة ٤٤٠هـــ يـــروى عن ابن عباس أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبـــي جهل، حين رمى أبو جهل رسول الله (ﷺ) بفرث وحمزة لم يؤمن بعد. فأخبر رسول الله حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيمينه قوس. فأقبل غضبان. حتى علا أبا جهل بالقوس، وهو يتضرع إليه ويقول : يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به، سفه عقولنا، وسب آلهتنا وخالف آباءنا. قال حمزة : ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله – أشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، فأنزل الله تعالى هذه الآية(٥).

وعـــلى هـــذا تكون المقابلة بين (ميتا) و (أحييناه) من جهة وبين من أعطى النور فعـــرف طـــريقه واهتدى، ومن بقي يتخـــبط في الظلمات ليس بخارج منها. تكون المقابلـــة حافزا على اتباع الحق والهدى والإقرار لله بالربوبـــيـــة والوحدانية. وأحيانا تجيء المقابلة بين الحياة والموت، لتؤدي دورا فنيا يخدم موضوعا آخر، أو كتمهيد طبيعي ينـــتقل منه القرآن بسهولة ورفق إلى غرض آخر. كما نرى في التقديم لقصة أصحاب الكهـــف، تلك القصة التي أنكرها بعض الناس واستبعدوا عـــمـلـــية إحيـــاء الفتيـــة وكـــلـــبـــهم بـــعد طـــول الموت وكثـــرة الـــرقاد فتـــأتي الـــمقابلة بـــين الحياة

(١) الأنعام : ١٢٢.
(٢) بديع القرآن : لابن أبي الأصبع : ٣٢.
(٣) أنظر : لباب النقول في أسباب الترول للسيوطي : ٨٣/٢.
(٤) أنظر الأعـــــــلام : ١٠١/٣
(٥) انظر : أسباب الترول لـــلإمـــام أبي الحسن على بن أحمد الواحدي النيسابوري : ١٦٨.

والمـــوت عـــلى سبيل التمثيل في قوله تعالى:﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝ ﴾ [1] إنها المقابلة بين حال الأرض زينها الله باليانـــع من النبات وبالزيـــنة من الأشجار والأزهار والثمار وبكل ما على الأرض من وجوه الجمال، و بين حال هذه الأرض نفسها قبيل قـــيام الساعة وقد أصبحت صعيدا جرزا (بيضاء لا نبات فيها بعد أن كانت خـــضراء معشـــبة[2]) جفت أنهارها وحال لونها وذوت أزهارها وغاضت نضرتها (وكلمة جرز تصور معنى الجدب بجرسها اللفظي وكلمة صعيد ترسم مشهد الاستواء والصلادة[3]) تـــأتي هذه المقابلة المصورة التي تبين قدرة الله على الإحياء والإماتـــة، لتمهد للحديث عن قصة أصحاب الكهف، وهي بدورها شاهد حـــي ودليل عـــملي عـــلى قـــدرة الله عـــلى الإحـــياء والإماتـــة (فتقلب حال الدنيا من الزينة إلى الجرز، ليس أعظم من قصـــة أصـــحاب الكهـــف وابقاء حياتهم مدة طويلة[4]) :﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝ ﴾ [5]

أي أن قصة أصحاب الكهف ليست أعجب من آيات الله في الكون وخاصة قدرته عـــلى الإحياء بعد الموت الفعلي، لأن أصحاب الكهف لم يكونوا في حالة موت فعلي بل ضرب الله على آذانهم بالنوم العميق سنين عددا، ثم أيقظهم بعد هذه المدة.

٣ – العليـــم بكـــل شـــيء[6] :

عـــلم الله صفة قديمة بها ينكشـــف لله كل شيء في الوجود، ماديا كان أم معنويا، كـــل ذرة في الكـــون، وأي خلية في باطن الأرض أو أعماق البحار والمحيطات، كل

---

(١) الكهف ٧ – ٨.

(٢) الكشاف للزمخشري : ٤٧٣/٢ مطبعة الاستقامة – مصر.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب : ٢٢٦٠/٤، ط، دار الشروق.

(٤) الكشاف: ٤٧٣/٢.

(٥) الكهف: ٩.

(٦) علم الله كما يعرفه علماء العقيدة والتوحيد : صفة أزلية قديمة بذاته تعالى، تنكشف بها المعلومات انكشافا لم يسبقه خفاء والدليل العقلي على ذلك : الله فاعل، وفعله متقن ومحكم بالقصد والإختيار، وكل من كان كذلك فهو عالم فالله تعالى عالم.وم دليل نقلي قوله تعالى: (والله بكل شيء عليم) انظر مذكرة التوحيد ص ٣٠ حسن السيد متولي – مكتبة الكليات الأزهرية: القاهرة ١٩٨٣

حركة نجم أو كوكب في أجواز الفضاء اللامتناهي. كل همسة أو هاجس أو خاطر في طوايا النفس وأعماق الضمير. كل ذلك صفحة مكشوفة أمام علم الله الشامل المحيط ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[2] وهـذا العلم الشامل المحيط لله عـز وجـل انكشف لنا في قرآنه الكريم من أسرار الكون ومشاهده الظاهرة هذا التناسـق والتماسـك في محيط الكون الكبير فلا تكاد ترى فيه خللا أو نقصا، وبنفس القدر من التماسك والتناسق جاءت المقابلة في الأسلوب القرآني يشد بعضها أزر بعض في تآلـف عجيب يشبه ما يكشفه علم الله من تـآلف في هذا الكون.

والمقـابلات في الآيات الدالة على علم الله وإحـاطته طريق من طرق الوضوح في الأسـلوب القـرآني الوضوح Clearness بقصد الإفهام، وطريق من طرق القوة Force بقصد التأثير، ومعلم من معالم الجمال Beauty بقصد الإمتاع والسرور[3].

كما أنها تدل في سياقها على أن هذا الكون الكبير الذي يكشفه لنا علم الله إنما يدار بواسطه الواحد العليم الخبير الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

هـذه مقـابلة بين ما يلج في الأرض من بذور أو حشرات أو زواحف أو مياه أو غازات وما يخرج منها من نبات أو مياه أو معادن أو براكين وبين ما ينزل من السماء من أمطار أو نجوم أو رحمات من الله على عباده. وما يعرج إليها من طير أو أرواح أو أنفاس تدل على أن الله الواحد الأحد مطلع على كل ذلك أو يزيد فعلمه شامل ومحيط ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾[4].

---

(١) المجادلة :٧.

(٢) غافر : ١٩.

(٣) أنظر : الأسلوب دراسة بـلاغـيـة تحليلية لأصول الأساليب العربية للأستاذ أحمد الشايب : ١٨٩، ط ٦

(٤) سبأ : ٢

ولـــو حاول البشر - بكل ما أوتوا من وسائل الإحصاء أن يـــحصـــوا ما يدخل باطن الأرض أو ما يخرج منها. أو ما ينزل من السماء أو ما يعرج إليها لعــجزوا عن ذلـــك - وهذا وحده خــليـــق بأن يدفع الإنسان إلى التسليم بتفرد الله ووحدانيته، وهذا ما أفادته المقابلات في تلك الآية القصيرة.

وهــــذه مقـــابلـــة أخرى تلمس جوانب من حياة البشر، تتصل بذواتهم البشرية، وطبيعـــتهم الجســـدية، ومـــع ذلـــك فإن هذه الجوانب خافية عن علمهم، بعيدة عن مداركهـــم لكن علم الله الشامل لا تخفى عليه خافية :﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝ ﴾[٣].

والـــتقابل واضح هنا بين. ما تغيض الأرحام وما تزداد وبين الغيب والشهادة. وبين إســــرار القول أو الجهر به وبين من يستخفى تحت جنح الليل ومن يضرب في النهار في الطـــرقات وهذه المقابلات -- بجانب أنها مـــن مظاهـــر التناسق الفني في الأسلوب القـــرآني - هي مثير وجداني يدفع الإنسان إلى التفكير في قدرة الله واستشراف عظمته وشمـــول عـــلمه، فـــلا يلبـــث أن يـــقـــف صاغرا مـــستسلما لجلال الله معترفا بوحدانيته.

ولـــلمرحوم ســـيد قطب ملمح دقيق أشار إليه حين عرض للمقابلة بين (من هو مســتخف بالليـــل وسارب بالنهار) وهذا الملمح يتصل ببيان روعة القرآن الكريم في استخدام لفظ (سارب) في مقابلة (مستخف) يقول : (والتقابل واضـــح في العبارة، إنما تســـتوقفنا كـــلمة (سارب) وهي تكاد بظلها تعطى عكس معناها فظلها ظل خفاء أو قريب من الخفاء، والسارب الذاهب فالحركة فيها هي المقصودة في مقابل الاستخفاء،

---

* سارب : ظاهر، يقال سارب، سالك في سربه أي في طريقة ومذهبه ويقال سرب يسرب (من باب دخل)

(٢) وقوله تعالى (في البحر سربا) أي فاتخذ الحوت سبيله في البحرسربا، أي مسلكا ومذهبا يسرب فيه. أنظر ص ٩١ (من تهذيب السجستاني في غريب القرآن) اعداد محمد مرسى، ط ٢- دار الكتاب العربي -- مصر.

(٣) الرعد : ٨ - ١٠.

وهـــذه نعومـــة في جـــرس اللفظ وظله مقصودة هنا، كي لا تخدش جو العلم الخفي اللطـــيف الذاهب وراء الحمل المكنون والسر الخافي، والمستخفي بالليل - فاختار اللفظ الذي يؤدي معنى التقابل مع المستخفي، ولكن في لين ولطف وشبه خفاء)[1].

وهذا الملمح من المرحوم سيد قطب يتمشى مع الروح التي سار عليها في تفسيره (في ظلال القرآن) فهو معنى بالظلال والإيحاءات التي تشع من وراء الدلالة اللفظية الظاهرة.

رأينا في النموذجين السابقين أن علم الله يكشف ما في الكون. في أغوار الأرض أو في أجـــواز الفضـــاء، ويكشـــف أيضا ما يتصل بحياة الناس من أمور مادية ومع ذلك يجهلون عنها الكثير.

ونعـــرض الآن لـــنموذج من المقابلة المتصلة بعلم الله، ولكنه هنا علم كاشف لما في الصدور، للهمس والإسرار الذي يحاول الكفار إخفاءه والمقابلة هنا تحمل معنى التهديد لهـــؤلاء الكافـــرين ولكل من يحيك المؤامرات في الظـــلام ضد الإسلام، وهو يظن أنه بـــمنـــجى عن الله الذي يعلم السر وأخفى.

لقـــد كان المشركـــون ينالون من محمد في جلساتهم، فأخبره جبريل بما قالوا فيه ونالوا منه، فكان بعضهم يقول لبعض: أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمد[2] فنزل قوله الله تعالى: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝ ﴾[3].

والمقابلـــة هنا صريحة بين {أسروا واجهروا} والغرض البلاغي منها كما قلت هو تهديد الكافرين بعدم الإفلات والخروج من محيط علمه تعالى، فـــهو قد خلق الصدور الـــتي تحـــوى بداخلها الأسرار، فكيف يجهل ما خلق وهو اللطيف الخبير؟ وإذا أيقن الشخـــص أن الله مطلع على دخيلة نفسه وهواجس قلبه صار شديد الحذر من الوقوع فـــي المعصية، وعند ذلك لا يفعل إلا ما يرضاه الله، ويتحول الشعور بعلم الله لما في قلبه إلى رقيب على تصرفاته وأفعاله أقوى من أي رقيب آخر.

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٠٤٩/٤

(٢) أنظر أسباب النزول للنيسابوري: ٣٢٧.

(٣) الملك: ١٣: ١٤.

وأمـــا قوله تعالى:﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾(1)

ففـــيه من المقابلات الدالة على علم الله وإحاطـــتـــه ثلاث مقابلات تتصل كلها بحياة الناس ومع ذلك لا يشعرون بها لطـــول الألفة.

في هذه الآية مقابلة بين علم الله لكل ما في البر وعلمه لكل ما في البحر من أسرار وعجائب تخفى على الناظرين، ويعلمها خالق الخلق أجمعين.

ومـــقابلـــة بـــين الحـــياة والموت متمثلة فـــي أوراق الشـــجر قـــد جـــفت وانصـــرمـــت عـــن أصـــلها وفي حبـــة في ظلمات الأرض تحرك في باطنها الجنيـــن فاستـــعد للانـــطلاق واســـتوفـــد للـــحـــاة.

ومقابلـــة أخرى شاملة لكل رطب في الحياة. رَطْبـــهُ ماءُ الحياة ونضارتها. ويابس فيها ذهبت عنه النضارة والخيوية فاستسلم للجفاف والموت.

وإن نظرة سريعة إلى ما حوته هذه الآية من معان. لتطلعنا على سعة علم الله، فكم في البر من إنس وطير وحيوان وحشرات وشجر ونبات وسهول ووديان أحصاها العليم الخبير وسجلها في سجل لا يضل ولا ينسى ، وكم مثلها في البحر من أسماك وأصداف ولآلـــئ وشعب مرجانية وخلايا ومعادن. كم من ورقة ساقطة من أشجار الدنيا منذ وجـــدت إلى أن يأذن الله بيوم الدين. وكم من حبة كامنة في ظلمات الأرض شرقها وغربها لم تنبت. قد رصدها العليم الخبير، وكم من عود رطب وآخر جاف على وجه الأرض قـــد أحصاه الله وعده عدا فهل يستطيع أحد من البشر القيام بعملية إحصائية لشيء واحد من هذه الأشياء التي يعلمها الله ؟

وفي مـــجـــال الإخـــبار عن علم الله تعالى المكنون بـــما في الكون، وما في أطواء النفس، تأتي المقابلة في قوله تعالى : ﴿ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ(2) فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (3).

---

(1) الأنعام : 59.

(2) الخبء : ما خبأت في نفسك أي ما أسررت: (أنظر مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى ص 94 وقد توفي سنة 210هـــ. تعليق د. محمد فؤاد سزكين الخانجي، مصر والزمخشري يذكر أنه المخبوء وقد سمي بالمصدر، وهو النبات والمطر مما خبأه عز وعلا من غيوبه : الكشاف 145/3.

(3) النمل : 25 – 26.

إنها مقابلة بين المخبوء في السموات من أمطار وسحب ورياح ونجوم، والمخبوء في الأرض من نبات ومعادن.

ثم مقابلة أخرى بين ما يخفى البشر من أسرار ونوايا وما يعلنون. والأروع منهما تلك المقابلة الكلية بين المخبوء في السموات والأرض والمخبوء في النفس البشرية، ومعنى ذلك أن علم الله وسع كل شيء كما دلت عليه الآية الكريمة.

وهذه المقابلات ترد في معرض تعجب هدهد سيدنا سليمان من ملكة سبأ وقومها الذين يسجدون للشمس من دون الله كيف لا يسجدون لعلام الغيوب، ولذلك يقر بوحدانية الله حين يقول المولى على لسانه : {الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم} الذي لا يضاهيه عرش بلقيس ملكة سبأ.

ونحن لا نملك إلا أن نشارك الهدهد عجبه ممن يتخذون لأنفسهم آلهة أخرى غير الإله الواحد رب العرش العظيم.

الدعوة إلى التوحيد من خلال : المقابلة في مشاهد الكون والنفس :

لا تكاد سورة مكية تخلو من ذكر مشاهد الكون، ومظاهر الطبيعة والربط بين هذه المشاهد والمظاهر وبين الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد.

ولا تنفصل مشاهد الكون عن مشاهد النفس البشرية وأحوالها فالإنسان مخلوق من نفس المواد التي خلق منها الكون، كما أنه يعايش الظواهر الكونية وينفعل بها ويلمس أثرها الملحوظ في مسيرة حياته.

وميزة القرآن الكريم – على تعدد ميزاته– أنه يتناول الظواهر الكونية – مهما دقت أو عظمت– فيحولها إلى برهان ودليل على وحدانية الله وقدرته، وبذلك تبقى عقيدة التوحيد حية نابضة في القلوب والمشاعر، طالما بقيت هذه الظواهر وهي باقية إلى يوم الدين.

والقرآن الكريم– في ربطه بين تلك الظواهر وبين عقيدة التوحيد– لا يبعد الإنسان عن واقعه، ولا يدخله في متاهات الفلسفة وطلاسم الفكر التجريدي الذي ابتدعه علماء التوحيد، متأثرين في ذلك بالفلسفة اليونانية القديمة.

إنه يربط بين هذه الظواهر وحياة الإنسان نفسه – ويتخذ من ذلك منطلقا لمخاطبة فطرته ووجدانه، والتأثير على مشاعره عن طريق استخدامه اللغة العادية المألوفة بعد أن

يمسـها بعصاه السحرية، فتـنفـعل بها النفوس، وتستجيب لنداء التوحيد الكامن في روحها.

من منا لا ينتفع بظاهرة الليل يسكن فيه ويهدأ بعد طول التعب والكدح نهارا ؟ .

من منا لا يـستمـتـع بدفء الشمس أو تستريح نفسه لضوء القمر؟

من منا يستغني عن الماء والنبات والهواء؟

وكـم من الظواهر والمشاهد التي سنعرض للقليل منها في هذا الفصل مع أن القرآن حافل بالكثير منها.

والقـرآن- وهو يعرض لتلك المشاهد- يستخدم اللغة المألوفة في دنيا الناس، ولكنه بـنظمه الفـني الخـاص ينفض عنها ركام العادة، ويجلوها من غبار الإلف والتكرار، فيقرؤها الناس، فتشدهم وتروعهم كأنما لم يروها من قبل، ويعيدون قراءتـها فتزداد في نفوسهم ألقا وبهاء، وتبدو في كل مرة جديدة كل الجدة.

والقـرآن الكريم – في هذا – سابق لثورة النقد الحديث بمئات السنين. ذلك النقد الـذي بـدأ على يد (وردز ورث) William Words Worth واليوت T.S. Elliot وسـامويل تـايلور كولردج S.T. Coleridge وامتد أثره إلى العالم العربي ممثلا في أصحاب مدرسة الديوان شكري والعقاد والمازني.

يقـول ولـيم وردز ورث في مقدمة ديوانه : قصائد قصصية غنائية Preface to Lyrical Ballads

إن الفكرة الأسـاسـية التي تعرضها وتقوم عليها هذه القصائد تعتمد على اختيار بعـض الأحـداث أو المواقـف مـن الحياة العاديـة، ثم يتم وضعها أو ربطها جميعا بمختـارات مـن اللغة التي يستخدمها الناس بحق في حياتهم العادية، وفي نفس الوقت يضفي الفنان عليها لونا خياليا، بحيث تبدو الأشياء المألوفة العاديـة في صورة ومظهر غير عادي، والأهم من ذلك كله أن يحول هذه الأحداث والمواقف إلى شيء مثير ممتع. عن طريق رسم فكرة واقعـيـة – وليست وهمية – عن قوانين الطبيعة الاولى[1].

فهو يدعو الشعراء – من خلال عرضه لشعره هو- أن تكون لغة الشعر مستمدة من الحـياة العاديـة التي يستخدمها الناس، بعد أن يضفوا عليها من إحساسهم وفنهم ما يجعلها تبدو جديدة متألـقـة ومعبرة عن مظاهر وقوانين الطبيعة البدائية الفطرية.

---

(1)

Essays، ed: The Anglo Egyptian Book Shop Cairo، 1974، P. 275.

ولا فرق عند هؤلاء النقاد بين لغة الشعر ولغة النثر كما يؤكد وردز ورث(1).

ومـــن جانبنا نستطيع القول بأن القرآن الكريم حين يغرس العـــقيدة الصحيحة في القـــلـــوب، ويرســـي فـــي النفوس القيم الجمالية إنما ينسج أسلوبه من دنيا الناس ولغـــتهم وســـير معيشتهم اليومية، فالظواهر الطبيعية ومشاهد الكون ممتزجة بالإنسان لحمته وســـداه(٢)، ومن هنا يتخذها القرآن مادة لأســـلوبه فتسرى في الكيان الإنساني مسري الروح في الجسد. ومن ثم يعيش حياته كلها وفقا لمنهج التوحيد، وطبقا لمبادئ القـــرآن وشريعته وفي ذلك يقول المرحوم الأستاذ سيد قطب (من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر يتخذ القرآن مادة لبنـــاء أضخم عقيدة دينية، وأوسع تصور كوني: هذه المشـــاهدات الـــتي تدخـــل في تجـــارب كـــل إنسان، كالنسل والزرع والماء والنار والمـــوت...أي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في حياته، أي ســـاكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية، ونشأة نبتـــة، ومـــسقط ماء، وموقد نار، ولحظة وفاة، فمن هذه المشاهدات التي رآها كل إنسان ينشـــئ القرآن العقيدة، لأنه يخاطـــب كـــل إنســـان في كل بيئة، وهذه المشاهدات البسيطة الساذجـــة هي بذاتها أضـــخـــم الحقائق الكونية، وأعظم الأسرار الربانية، إنها ببساطتها تخاطب فطرة كل إنسان بينما هي في حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان).3

أما مظاهر قدرة الله وعظمته في نفس الإنسان، فهي أكثر من أن تحصـــى وقد عبر القـــرآن الكـــريم عن ذلك بقوله تعالى :﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(٤) وقولـــه تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(٥)

والمقـــابلات القرآنيـــة في آيات مـــشاهد الكون والنفس تؤدي دورا هاما في بيان قدرة الله وأثر نعمته على الإنسان وانتفاعه بهذه المظاهر والمشاهد.

---

(1) William Words Worth in English Critical Essays.

(٢) السدى (بفتح السين) من الثوب ما يمد طولا في النسيج واللـــحمة (بضم اللام) من الثوب خيوط النسيج العرضية يـــلتـــحم بها السدى (المعجم الوسيط) والتعبير هنا مستعار للدلالة على قوة امتزاج الظواهر الطبيعية بحياة الإنسان.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب : ٣٤٦٦/٦.

(٤) إبراهيم : ٣٤.

(٥) الذريات : ٢١.

ومن هذه المقابلات :

١ - ورد في أول سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ* ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝﴾[1].

ثلاث آيات في مطلع تلك السورة التي تعالج في مجموعها قضية الألوهية بما تعرضه مـــن آيات الكون والحياة، والنفس والضمير، وعالم الغيب والشهادة، وفي هذه الآيات الثلاث نجد أنفسنا أمام مقابلات ست تسهم كل واحدة منها في تـبكوين صورة حية لمشـــاهد رائعة من قدرة الله في الكون، وهذه المقابلات رغم تعددها إلا أنها من سمات الأســلوب القرآني الذي تنسجم فيه المعاني مع الألفاظ مع المجالات والمواقف النفسية : الأولى بين (السموات) و (الأرض) الثــانية بين (الظلمات) و (النور)

وقد كان الأجدر بالإنسان وقد رأي السموات بعرضها وسعتها وما حوته من نجوم وكواكـــب، ورأي الأرض ومــا عليها وما في باطنها، ورأي تعاقب الظلمات والنور فـــيهما كـــان الأجدر به أن يتوجه بالحمد والثناء والشكر لله، وأن يعترف له بالتفرد والوحدانـــية، لكن هذه الآيات قوبلت من الكافرين بالنفور والعدول عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام، ومن ثم تتوجه الآية الثانية للمعاندين والكفار بمقابلات تمس خلقهم هم بعد أن لمست الأرض والسماء من حولهم، فتأتي المقابلة الثالثة (بين (الطين) بما فيه من سكون وجمود وكدرة و(الخلق) بما فيه من حياة وحركة وبهجة وصفاء)[2].

والمقابلة بين الطين والخلق على هذا المعنى منسجمة ومتناسقة في الصورة مع المقابلة السابقة بين الظلمات والنور.

أمـــا المقابلة الرابعة فإنها بين الأجلين، قضى أجلا وأجل مسمى عنده وقد اختلف المفسرين في المقصود بهذين الأجلين، فالزمخشري في الكشاف يرى أن المقصود بالأجل الأول المقضـــى : ما بين أن يخلق الإنسان إلى أن يموت، وبالثـــانـــي : ما بين الموت

* (جعل) هنا بمعنى (خلق) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/١٨٥.

(١) الأنعام : ١ - ٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب : ٣/١٠٣٠.

والبعث[1]، بينما يرى ابن كثير أن الأول هو موعد موت الإنسان، والثاني موعد بعثه في الآخرة[2].

على أن ظاهر النص يؤيد ما ذهب إليه ابن كثير، ومما يقوي هذا المذهب أن المقابلة بين الأجلين على هذا الرأي تكون بين (الموت والبعث) متسقة تماما مع المقابلة بين الطين والخلق.

والمقابلة الخامسة نلمحها عندما نقرأ الآية الأولى والآية الثانية، فنجد أن بينهما تقابلا ملحوظا، إذ تحدثت الأولى عن عظمة الله في خلق الكون : سماواته وأرضه وظلماته ونوره، بينما تحدثت الثانية عن عظمة الله في خلق النفس البشرية من طين ثم حياتها وموتها وبعثها.

وتأتي المقابلة السادسة في الآية الثالثة، فتجمع في بلاغة نادرة وإيجاز بليغ بين المقابلات السابقة جميعها "وهو الله في السموات والأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون" فلقد قابلت بين خلق الكون وخلق النفس البشرية وما تكسب وفيم تفكر.

وهكذا جمعت ثلاث آيات قرآنية من المقابلات ما وسع الكون والنفس البشرية ولقد كان أجدر بالمشركين. وقد رأوا الإعجاز البلاغي في القرآن إلى جانب الإعجاز الإلهي في الخلق- أن يستيقنوا في الإله الواحد، ولكنهم كما تشير هذه الآيات : بربهم يعدلون وفي قضاء الله يمترون، ولذا جاء التعقيب على موقفهم هذا في الآية الرابعة بما يفيد أن هؤلاء القوم قد عطلوا عقولهم، وانقادوا لدواعي العناد والإعراض ابتداء ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[3].

٢- وما دمنا في نطاق سورة الأنعام، وهي سورة تمثل منهج القرآن المكي في معالجة قضية الألوهية والوحدانية، من حيث ربط هذه القضية بمشاهد الكون والنفس، و بنعم الله على الإنسان فلا غنى لنا عن الإشارة إلى بعض المقابلات التي وردت فيها، والتي تسير في هذا الاتجاه :

---

(١) الكشاف : ٢/٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ١١٣/٢.
(٣) الأنعام : ٤.

يقول الله تعالى معلما نبيه محمدا كيف يواجه الكافرين والمشركين بالدليل على وحدانية الله، ومشيرا عليه باستخدام مشاهد الكون دليلا على ذلك ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَهُ مَا سَكَنَ(١) فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾

قال تعالى: ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ۝ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾(٢) (الأنعام ١١ – ١٧).

ففي هذه الآيات خمس مقابلات.

١ – مقابلة ضمنية بين الدنيا والآخرة، وقد عبرت السموات والأرض عن الدنيا وعبرت "ليجمعنكم إلى يوم القيامة" عن الآخرة، وأفادت هذه المقابلة أن الجميع في الدنيا والآخرة بإمرته وتحت سيطرته.

٢،٣ – مقابلة بين الليل والنهار تفيد هيمنة الله سبحانه على كل ساكن ومستقر أو حال في الليل أو النهار، والرائع في هذه المقابلة أنها هي نفسها تقابل المقابلة السابقة، لأن معنى "له ما سكن في الليل والنهار" سيطرة القدرة الإلهية على الزمان.. في مقابلة سيطرته جل وعلا على المكان المفهوم من قوله سبحانه "قل لمن ما في السموات والأرض قل لله".

وبذلك لا تقتصر المقابلة القرآنية على مجرد التقابل بين الألفاظ، بل تتسع وتمتد لتشمل المقابلات الضمنية بين آية وآية، و لتكون الآية الواحدة طرفا متداخلا في مقابلتين.

(١) ما سكن: ما استقر وحل وفاطر السموات والأرض: خالقهما (انظر مجاز القرآن ١/١٨٧
(٢) الأنعام : ١٢– ١٧.

٤ - وفي الآيـــة أيضـــا مقابلـــة بين "وهو يطعم ولا يطعم" بالإضافة إلى ما بين الكلمتين من جناس[1] غير تام "محرف"[2] وطباق بالسلب[3]، وفيها إيحاء وتوجيه لمحمد ولجميع البشر أن الولاية لله وحده، لأنه مصدر الرزق والإطعام للجميع.

٥ - ثم تختـــتم الآيات هذه المقابلات الرائعة بمقابلة مناســـبة تشد من أزر الرسول وكل داعية إلى الإصلاح في أي زمان ومكان.

إن محمـــدا صـــلى الله علـــيه وسلم وهو يحاول إصلاح العقيدة، ويتصدى للشرك والوثنـــية ســـيواجه لاشك الكثير من العنت والأذى، وهنا تأتي هذه الآية بما فيها من مقابلـــة بين "الضر والخير" لترشده إلى أن الله وحده هو كاشف الضر إن مسه به على سبيل الابتـــلاء والاخـــتبار، وهو وحـــده صاحب القدرة على جلب الخير، ومن ثم فلا داعي للتردد في مواجهة المشركين بكلمة التوحيد، ولا خوف على نفسه مما سيلقاه من عنت وضر.

والمقابلـــة بين الضر والخير مقابلة مجازية، لأن الضر يقابلة في الحقيقة "النفع" وقد عدل القرآن عن ذلك باستخدام "الخير" لافادة العموم والشمول.

٣- وهذا مشهد آخر من مشاهد قدرة الله ووحدانيته في لوحة فنية تمثل المقابلات فـــيها الخطوط البارزة والألوان الواضحة والقسمات المميزة، والمشهد من سورة الأنعام أيضا.

يقول الله تعالى متحدثا عن قدرته وعظمته

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

---

(١) الجناس التام : ما اتفق فيه اللفظان المـــتجانسان في أربعة أمور : نوع الحروف، وعددها، وهيئتها، ترتيبها.

الجناس غير التام : ما اختلف فيه اللفظان في واحد أو أكثر من الأمور الأربعة السابقة.

(٢) والجناس المحرف : نوع من أنواع الجناس غير التام. وهو ما تماثل فيه اللفظان في الحروف وتغـــايـــرا في الحركات : الإيضاح للقزويني : ٢١٦.

(٣) طباق السلب : ما كان فيه أحد طرفي المقابلة مثبتا والآخر منفيا كوله تعالى "ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا "وقوله ولا تخشوا الناس واخشون"

وأما طباق الإيجاب : فهو ما كان المتقابلان فيه : متفقين في الإيجاب مثل :- "وإنه هو أضحـــك وأبكى" أو النفي مثل قولـــه تعالى :" ثـــم لا يموت فيها ولا يحيى". الإيضاح ص ١٩٢.

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾[1].

هذه الآيات تقدم لنا أكثر من دليل حي على عظمة الله، وتواجه فطرة الإنسان بواقع الحياة من حوله، حتى ليبدو المشرك بالله في صورة مزرية وهو يغمض عينيه عن حقائق الكون من حوله، ويعطل تفكيره في هذه الدلائل الباهرة التي يواجهه بها هذا النص وغيره بين الحين والحين.

وتؤدي المقابلة هنا دورا هائلا في الضرب على أوتار القلوب وفي إرجاع البصر كرات وكرات للتدبر والتفكر في خلق الرحمن، وفي إرجاعه كرات أخر للتدبر في هذا النسق الفريد للتعبير القرآني.

١ - فالحب والنوى حين ينفلق بقدرة الله وينشق عن نبات نام أو شجر صاعد أو نخل باسقات لها طلع نضيد. رزقا للعباد، هذه العملية إنما تتقابل[2] تماما مع عملية انفلاق الصبح حين تنشق ظلمة الإصباح عن بياض النهار كما أن انفلاق الحب والنوى لا يستغني البتة عن انفلاق الإصباح، نظرا للعلاقة الوثيقة بين حركة النبات والحياة، وحركة الشمس والقمر بهذا التقدير من لدن العزيز العليم.

٢ - وهنا أيضا- مقابلات بين إخراج النبات والشجر من الحب والنوى، وإخراج الحي من الميت وقد ذكر أكثر من عالم من علماء البلاغة أن بين "يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي" ما يسمى بالعكس أو التبديل وهو "أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول[3] " لكن التقابل بين الجملتين لا يخفى على أحد، فهذه العملية تتم يوميا. بل وفي كل لحظة وأي مكان على سطح

---

(١) الأنعام : ٩٥ – ٩٨.

(٢) نشير هنا إلى أن المقابلة قد تكون بالتناظر أو التناسب بين المعاني، وأن ليس التضاد بين المعاني هو السمة الوحيدة للمقابلة كما وضحنا في نتائج الباب الأول من هذا البحث ص (١٣٥) .

(٣) أنظر الصناعتين لأبي هلال : ٣٨٥، ونهاية الأرب للنويري : ١٠٤/٧، والإيضاح للقزويني : ٢٠٠.

الأرض، وفي أجواز الفضاء، وفي أعماق البحار..وفي كل لحظة يتحرك برعم ساكن من جوف حبة أو نواه فيفلقها، ويخرج إلى وجه الحياة، وفي كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفي أجلها فتتحول إلى هشيم أو حطام، ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والإنبات. وفي كل لحظة تدب الحياة في جنين إنسان أو حيوان أو طائر، والجثة التي ترمى في الأرض، وتختلط بالتربة، وتشحنها بالغازات هي مادة جديدة للحياة، وغداء جديد للنبات والحيوان والإنسان..إنها دورة عجيبة لمن يتأملها بالحس الواعي، والقلب البصير، ويراها على هدى القرآن ونوره المستمد من نور الله"[1].

٣- وهذا بالإضافة إلى المقابلة الواضحة بين "فالق الإصباح "و" جعل الليل سكنا" وهي مقابلة مجازية تعبر عن التقابل بين النور والظلمة أو بين الحركة والسكون.

٤- وكذلك المقابلة بين النجوم والظلمات، وبين البر والبحر، وبين مستقر ومستودع[2] فسبحان الله الذي فصل الآيات الدالة على وحدته وعظمته، فصلها في واقع الحياة فخلقها وسواها وزينها وفصلها في كتابه الكريم في أسلوب بلغ القمة في الروعة والأداء.

إن في ذلك لآيات لقوم يفقهون.

---

(١) في ظلال القرآن :٥/٢٧٦٣.

(٢) مستقر: صلب الأب، ومستودع : رحم الأم : انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢٠١/١، وتهذيب السجستاني ف غريب القرآن : ٥٨.

المقابلة في مشاهد الكون والنفس في الأسلوب الخبري:

إن آيات الله ونعمه الدالة عليه يلمسها الإنسان، ويحسها في نفسه وفي الكون من حوله، وهي أكثر من أن تحصى، وهذه الآيات والمشاهد تأتي أحيانا في صورة الأسلوب الخبري، وأحيانا في صورة الأسلوب الإنشائي، لكن المقابلة في الحالين هي التي تبرز قدرة الله وعظمته، وهي تأتي في الأسلوب الخبري غالبا في صورة المن من الله الكبير ذي الفضل الواسع على عباده المحتاجين إليه، ومع ذلك فهم مغالون في عنادهم وكفرهم.

١) ومن ذلك ما ورد في السورة الروم من قوله تعالى: وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ « وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا(١) لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ »

« وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾. (الروم ٢٠-٢٦)

فهذه الآيات تمثل قصة الإنسان على ظهر الأرض منذ نشأ فيها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، منذ خلق الإنسان من تراب إلى أن يدعوه الله بدعوة الحق للخروج من الأرض للبعث والحساب. والآيات تبين ما بين هذين الآنين من الزواج وتكوين الأسرة، وما يحدث في الحياة من سعي على الرزق، وما يحدث للكون من ظواهر طبيعية كالبرق والمطر والزرع ومن خلال هذه الآيات تبرز المقابلات التي تصور هذه النشأة وتلك الحياة.

أ- هذه مقابلة بين التراب وبين الإنسان {خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر} الأول هامد ساكن حقير والثاني حي متحرك مكرم، والأول أصل للثاني وقد

---

(١) لتسكنوا إليها: لتميلوا إليها وتألفوها. (كلمات القرآن).

ساعـدت المقابلة هنا بين الإنسان وأصله في إظهار الفرق الشاسع بين الحالين والتأمل في ذلـك جدير أن ينبه الإنسان إلى قدرة الله ووحدانيته، فيترك عناد المشركين وينضوي تحت راية الموحـدين.

ب- ثـم هذه المقابلة المفهومة ضمنا بين الرجل والمرأة من قوله {خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها} وهي تصور الأسرة الناشئة تغشاها السكينة ويـرفرف عليها جو المودة والرحمة.

ج- ثم مـقابلـة بـين السموات والأرض، ومباينة في صفات البشر : ألوانهـم ولغاتهم وقد عبر الزمخشري عن هذه المباينة وعن الحكمة فيها بقـوله : (خـالف عز وعـلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد ولا جهاره ولا حـدة ولا رخـاوة ولا فصاحة ولا لكنة، ولا نظم ولا أسلوب ولا غير ذلك من صفات الـنطق وأحواله وكذلك الصور وتخطيطها. والألوان وتنويعها، ولاخـتلاف ذلـك وقـع التعارف. وإلا فلو اتفقت وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والإلتـباس، ولتعطلت مصالح كثيرة وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية[1]، فيعروك الخطـأ في التمييز بينهما وتعرف حكمة الله في الـمخالفـة بين الحلى. وفي ذلك آية بينه، حيث ولدا من أب واحد وفرعوا من أصل فذ، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون ومتفاوتون)[2].

وفي الآيـات أيضا مقابلة بين الليل جعله الله سكنا وراحة ومناما، وبين النهار هيأه الله لابتغاء الفضل والبحث عن الرزق، ولا غـنى للإنسان عن ليل يخلد فيه للراحة بعد التعب والكلال، وعن نهار يستأنف فيه رحلة البحث عن الأرزاق والأقوات.

ه- ثم هـذه المقابلـة التي تشف عن جانب من جوانب النفس البشرية، وحالة من حالات الإنسان حين يري الخطر. وفي نفس الوقت يطمع في خير يأتيه من ورائه. يبرق الـبرق بقدرة الله، فيراه البشر فيعتريهم الخوف مما قد يصحبـه من الصواعق المهلكة المحـرقـة وفي نـفس الوقت يخالجهم الطمع فيما يعقبه من مطر مدرار يحيي به الله الأرض بعـد موتها، فالمقابلة هنا بين الخوف والطمع وبين السماء والأرض وبين يحيي وموتها.

---

(١) حـليـة الرجل : صفته وجمعه حلى "بكسر وفتح منون" انظر مختار الصحاح مادة حلا.
(٢) الكشاف للزمخشري : ٢١٨/٣.

و- ثم يكون الختام هذه المقابلة التي تلخص الموقف كله، فتجمع بين الدنيا والآخرة بطريقة مصورة في {ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون} "فهي مقابلة بين البدء والمعاد، بين الدنيا وهي قائمة بأمر الله وحده وبين الآخرة وقد بعث الناس فيها من قبورهم بدعوة واحدة من الله(ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين")[1].

ويستمر القرآن المكي في حشد صور الكون ومشاهده، ومشاعر النفس ومكنوناتها بهدف التأثير على وجدان السامعين، وإخراجهم من حالة العناد وعدم المبالاة بالوحي، إلى مرحلة التفكير في آلاء الله التي ستقودهم حتما – وقد قادتهم بالفعل – إلى الاعتراف بوحدانية الله وقدرته.

٢) وهذه آيات من سورة الرعد تنتظمها المقابلات الغزيرة كما تنتظم السورة بأكملها والآيات التي نستشهد بها الآن تمتزج فيها مظاهر الطبيعة مع مشاعر النفس حين ترى هول البرق يخطف الأبصار، والسحب الداكنة القاتمة مثقلة بالمطر، وتسمع قصف الرعد وهدير الصواعق وكلها تسبيح وإعلان عن خالق هذا الكون ودعوة إلى الحق ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ[2] ۝ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ۝ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ۝ ﴾

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ۝ ﴾ (الرعد : ١٢- ١٦)

---

(١) الأعراف: ٥٤.

(٢) شديد المحال : المكايدة أو القوة أو العقوبة (كلمات القرآن : ١٤٣).

وقد أجمل المرحوم الأستاذ سيد قطب في تفسيره : المقابلات الواردة في هذه الآيات بقوله "التقابل ملحوظ هنا بين "خوفا وطمعا" وبين البرق الخاطف والسحاب الثقال - وكلمة الثقال هنا بعد إشارتها إلى الماء تشارك في صفة التقابل مع البرق الخفيف الخاطف. وبين تسبيح الرعد بحمده وتسبيح الملائكة من خيفته. وبين دعوة الحق ودعوة الجهد الضائع. وبين السموات والأرض، وسجود من فيهن طوعا وكرها. وبين الشخوص والظلال : وبين الغدو والآصال : وبين الأعمى والبصير : وبين الظلمات والنور. وبين الخالق القاهر والشركاء الذين لا يخلقون شيئا ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا"[1].

وهذا الأسلوب القرآني المتميز الذي يقرع الأفئدة والمشاعر فيحدث فيها من الهزة والانفعال ما لا ينكره من كان على حظ - ولو قليل- من فهم العربية ، هو سر الإعجاز القرآني الذي بهر قريشا أول ما تلقته. (فقد تحير المشركون من قريش فيما بينهم بم يصفون هذا القرآن. قالوا هو شعر، وقالوا هو سحر، وقالوا هو كهانة، وقد عرفوا الشعر كله رجزه وقصيده ومقبوضه ومبسوطه، وعرفوا السحر ونفثه وعقده، وعرفوا الكهانة وسجعها وزمزمتها، وما جهلوا أن القرآن ليس شيئا من ذلك كله، فإذا كانوا قد وصفوه هكذا، فلقد أقروا بأن له من السلطان على عقولهم وأفئدتهم ما لم يعهدوا له شبيها إلا في أخـذة السحر ونفوذ الشعراء والكهان..حدث ذلك حين اجتمعوا في دار الندوة عندما دنا أول موسم بعد المبعث وآن وفود القبائل للحج، وإذ تواطأ طواغيت قريش على أن يأخذوا سبل الناس إلى مكة ويصدوهم عن سماع القرآن، كان عليهم أن يتفقوا فيما بينهم على قول واحد في هذا القرآن يلقون به العرب، حتى لا يختلفوا فيه ويرد بعضهم قول بعض وشهدت دار الندوة حيرتهم في وصفهم إياه بالسحر أو الشعر أو الكهانة وإنهم ليعلمون- كما قال قائلهم — أن العرب لا يفوتها أن تميز القرآن من قول الشعراء والسحرة والكهان، حتى انتهوا آخر الأمر إلى رأي أبي جهل بن هشام : أن يقولوا إن محمدا جاء بكلام هو السحر يفرق بين المرء وأخيه وأبيه، وبين المرء وزوجه وولده وعشرته الأدنين[2].

(١) في ظلال القرآن :٤/٢٠٥٣.

(٢) أنظر الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د.عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: ص ٤ (نقلا عن سيرة ابن هشام : ١/ ٢٦٩.

ولقد حرص القرآن الكريم في أكثر من موضع على أن يبين للناس أن ما يوحي إلى محمد ليس شعرا. يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ ﴾ (سورة يس ٩٧-٧٠) . ويقول على لسان المشركين ويرد عليهم :

قـال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ، (الصـافـات : ٣٦-٣٧).

۝ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ﴾

قـال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝. (الـحاقـة ٣٨-٤٣).

ورد الجـاحظ على من زعم أن في القرآن شعرا استنادا إلى أن لبعض الآيات وزن الشـعر مـثل قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ لأنه في تقدير مستفعلن مفـاعلن رد على ذلك بأنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها كثيرا من أوزان الشعر، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا وأورد عبارة قالهـا غـلام لصديقه- وقد سقى بطنه[1] هي "اذهبوا إلى الطبـيب وقولوا قد اكتوى "وهي على وزن فاعلاتن مفاعلن/فاعلاتن مفاعلن. مع أن هذا الغلام لم يخطر على باله قط أن يقول بيت شعر أبدا)[2].

(عـلى أنك تستطيع إدراك الفرق بين القرآن والشعر حين تقرأ ما قاله حسان بن ثابـت مقلدا قول الله سبحانه قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ (الـرعد :١٦).

فقال:

وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا * عمى وهداة يهتدون بمهتدى؟

فأنـت تـراه يـوازن بين ضلال وهداة. وليس الفرق بينهما من الوضوح والقوة كالفـرق بين الأعمى والبصير، والظلمات والنور. إذ الفرق في الآية واضح ملموس، ويشـعر به الناس جميعا، حتى إذا اطمأنت النفس إلى هذا الفرق وآمنت بأن هناك بونا

(١) سقي بطنه : اجتمع فيه ماء أصفر (مختار الصحاح مادة سقى)

(٢) انظر البيان والتبيين ، ط٤، الخانجي ١٩٧٥ .

واسعا بينهما. انتقلت من ذلك إلى تبين مدى ما بين الضال والمهتدى من فرق بعيد)[1].

ولقد مضى الشعراء بشعرهم واختفى الكهان بكهانتهم، وذهب المعاندون بعنادهم، وتوارى الكافرون والمشركون بكفرهم وشركهم، وبقى هذا القرآن ببلاغته الفائقة وأسلوبه المتميز معجزة للإسلام والعربية في كل العصور، فسبحان القائل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝﴾[2].

---

(١) انظر كتاب : من بلاغة القرآن لأحمد بدوي : ٣٩٤.

(٢) الحجر: ٩ .

المقابلة في مشاهد الكون والنفس في الأسلوب الإنشائي :

وكما وردت المقابلة في مشاهد الكون ومشاعر النفس في الأسلوب الخبري تظهر به قدرة الله وتمن على عباده بفيض النعم ؛ كذلك وردت في الأسلوب الإنشائي وخاصة في الاستفهام التقريري والإنكاري أو للنفي وكذلك في الأمر التحضيضي لكي ينتبه المشركون إلى آيات الله، ويروا فيها مظاهر قدرته ورحمته :

١- مثال ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء :

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ (١)

والمقابلة هنا بين الليل والنهار تأتي في سياق الاستفهام الإنكاري.

فليس يحفظكم ويرعاكم في الليل والنهار إلا الرحمن، ومع ذلك فهم معرضون عن ذكر ربهم، والمقابلة تفيد أيضا شمول العناية الإلهية بالإنسان طول الوقت.

٢- أو مثل قوله تعالى :أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾.(النحل : ١٧-٢١).

وتأتي هذه الآيات تعقيبا على آيات سبقتها تتحدث عن قدرة الله في خلق السموات والأرض والمطر والزرع والثمار وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبحار والأنهار ومن ثم تبدأ بهذا الاستفهام بعد أن استعدت النفوس للإجابة عليه : أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ وبالطبع ستكون الإجابة بالنفي إذ هما لا يستويان في أي ميزان.

وهنا هنا عدة مقابلات تسهم بدورها في الإقرار بعدم التسوية بين الله الخالق المنعم الغفور الرحيم العليم بخلقه، وبين الآلهة المدعاة من دونه التي لا تخلق بل إنما جمادات ميتة لا تدري عن موتها وبعثها شيئا... وهذه المقابلات نلمحها بين من يخلق ومن لا يخلق، وبين تعدوا ولا تحصوا، وبين تسرون وتعلنون، وبين لا يخلقون شيئا وهم يخلقون، وبين أموات وأحياء.

---

(١) الأنبياء:٤٢

٣- ومما وردت فيه المقابلات في سياق الاستفهام التقريري قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ (١).

وقد تكررت المقابلة بين دخول الليل في النهار ودخول النهار في الليل في أكثر من سورة(٢)، وذلك لأنها مشهد يتكرر كل يوم؛ ولا يفقد جدته لمن يتدبر فيه ويفكر، لكن مشاغل الناس، ومشكلات حياتهم اليومية تنسيهم التفكير في الظواهر المكرورة والمألوفة. مع أن تكرارها بهذه الدقة وهذا الانتظام، وعدم تخلفها يوما واحدا عن ذلك جدير أن يجعلهم دائمي التفكير والبحث في الأسرار الإلهية وراء هذا النظام البديع.

ومن ثم تنبهنا الآيات إلى أن هذا النظام يؤكد أن الله هو الحق، وأن دواعي الشرك والوثنية هي الباطل، وأن الله هو العلي الكبير، كل ذلك في مقابلات رائعة تستتبع إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل كالشمس والقمر والحق والباطل.

ومن شأن هذه المقابلات وغيرها كما يقول الأستاذ أحمد الشايب "أن تساعد في وضوح الفكرة لأن المقابلة نوع من التحدي بين المعاني والمنافسة في الظهور، وقوة للمعاني"(٣).

ولكي ندرك الفرق الشاسع بين أسلوب القرآن الكريم وبين غيره في التعبير عن عملية إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل فإن علينا أن نتأمل هذا المعنى في التعبير القرآني ونتأمله عندما حوره النابغة الجعدي قليلا فقال :

الحمد لله لا شريك له ... من لم يقلها فنفسه ظلما
المولج الليل في النهار ... وفي الليل نهارا يفرج الظلما

---

(١) لقمان : ٢٩ - ٣٠

(٢) يرى الباقلاني وغيره أن في الآية ما يسمى ب(العكس والتبديل) وهو أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول. لكن المقابلة هنا واضحة أيضا بين الظاهرتين: ظاهرة دخول الليل في النهار فيقصر الليل ويطول النهار صيفا ويتم العكس شتاء وهو الظاهرة الثانية.

(٣) الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية: ١٩٧ ط٦، النهضة المصرية ١٩٦٦م

فقــد اضطر النابغة لحذف "يوج" ولتقديم "في الليل" ولتنكير "مُمارا" وللمجيء بجملة "يفرج الظلما" فأضعف ذلك أسلوبه وباعد بينه وبين الأسلوب القوي للقرآن(١).

٤- وأحــيانا تــأتي المقابلــة في سياق التعجب الناشئ من اهتمام الناس بدنياهم وانشغالهم بشئون حياتهم فقط دون التفكير والتعبد لله الذي هداهم لذلك : فقد ألفت قــريش الرحلتين التجاريتين : رحلة الشتاء ورحلة الصيف وتركت عبادة رب البيت الحرام الذي مهد لهم الطريق ورزقهم الطعام بعد الجوع والأمن بعد الخوف {لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمــنهم من خوف} فلا تخفى المقابلة هنا بين الشتاء والصيف. وبين الإطعام والجوع وبين الأمن والخوف، وهي واردة هنا لتأكيد التعجب من إيلاف قريش.

٥- وقريب من ذلك قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ (٢).

حيــث وردت المقابلــة بين حالتهم يعيشون في أمان في كنف الحرم الآمن وحالة غيرهم من البدو يعيشون في رعب وترقب للاختطاف في أي وقت ومع ذلك يصرون على الشرك والكفر بنعمة الله، والإيمان بالباطل من الآلهة.

إن قدرة الله ووحدانيته تتجلى في هذه المشاهد، ولذلك لا يفتأ القرآن الكريم يوجه القلوب والعقول إليها، ليربطها بهذه المشاهد فيرق القلــب وتسمو العاطفة، ويستجيب الإنسان لنداء التوحيد المنبعث من أرجاء الكون وأقطار النفس.

٦- والقــرآن يستخدم في ذلك مادة الحياة المحيطة بالإنسان وسيلة للإقناع والتأثير، فهــذا الظل الممدود أول النهار وآخره في اتجاهين متقابلين بقدرة الله وفي بطء شديد تــدل علــيه الشمس في شروقها وغروبها، إنما هو بتقدير من الله الذي خلق كل شيء فقــدره تقديرا، لو شاء جعله ساكنا وحينئذ يختل نظام الكون، ولكن الله يقبضه قبضا يسيرا لطيفا.

وهــذا الليل الساجي، والنهار الحي، والرياح والمطر والأنعام والأنــاسي كل هذه الأشياء وغيرها هي مادة القرآن في تثبيت العقيدة. والمقابلة البديعة هي العنصر البارز في التعبير القرآني عن هذه المشاهد وتلك الآلاء {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ

(١) أنظر : من بلاغة القرآن لأحمد بدوى : ٣٩٦.
(٢) العنكبوت : ٦٧.

لِجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا. ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا[1] } وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا }[2].

في هذه الآيات طائفة من مقابلات كلها نابعة من منبع واحد هو الشمس وما ينتج عنها من ظلال وليل ونهار ورياح وأمطار تحيي الموات من البلاد وتروي العطاش من الحيوان والإنسان. ففي الآيات مقابلات بين مد الظل وقبضه أو بين حركته وسكونه، وبين ظلمة الليل وسكونه وضوء النهار وحركته فمن رحمة الله أن "جعل الليل لباسا" يلبس الكائنات جميعها ثوبا من الستر والظلمة تسكن حركة هذه الكائنات وتخلدها للسبات والهدوء "وجعل النهار نشورا" بما فيه من حركة اليقظة والانتعاش التي تدب في الكائنات بعد سباتها وسكونها، ثم مقابلة بين الحياة والموت، وبين الأنعام والأناسي وبين الماء العذب والماء الملح الأجاج[3]، وهذه الأخيرة وحدها تقف في كل حين شاهدا على إرادة الله وقدرته ورحمته بالإنسان فجميع أنهار الدنيا تصب في البحار والمحيطات ولا يقع العكس حتى لا تفسد ملوحة البحار ماء الحياة، ومهما اشتد زبد البحر وطغت أمواجه فإنها لا تطغي على مياه الأنهار الأقل منها موجا وطغيانا، ذلك أن الله القدير جعل مجاري الأنهار غالبا أعلى من حواف البحار، وفي هذا عبرة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا.

٧- وقد تردد هذا المعنى أكثر من مرة في السور المكية ومن ذلك قوله تعالى في سورة فاطر ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[4].

---

(١) الفرقان : ٤٥ – ٤٩.

(٢) الفرقان: ٥٣.

(٣) الأجاج : ملح شديد الملوحة (تهذيب السجستاني في غريب القرآن) : ١٣١.

(٤) فاطر: ١٢.

فالمقابلة بين الماء العذب السائغ شرابه والملح الأجاج، تعطي انطباعا بعدم استوائهما بالإضافة إلى نص القرآن صراحة على ذلك في قوله "وما يستوي البحران" لكن الجانب المالح المر من الماء له فائدة لا تقل عن فائدة الماء العذب السائغ شرابه في حياة البشر، فإن هذه المسطحات الضخمة من مياه المحيطات والبحار المالحة هي التي تمد الحياة بالغذاء والمطر والمناخ المعتدل والنباتات.

وقد وردت هذه المقابلات كلها حقيقية وليست مجازية وبصريح الألفاظ دون تأويل.

مقارنة بين المكي و المدني في هذا المجال :

رأينا فيما سبق أن القرآن المكي حافل بالمقابلات التي ترتكز على بيان صفات الله و قدرته وعظمته، وعلى مشاهد الكون ومجالي النفس والقدرة الكامنة وراءهما، وذلك لأنه يتخذ من هذه المشاهد المبثوثة في تضاعيف الكون مادته الحية لغرس عقيدة التوحيد في الصدور، عن طريق الأشياء المألوفة والمعهودة للناس حتى يسهل إقناعهم بها، فماذا عن هذا الجانب في القرآن المدني ؟

١- إن ما ورد من هذه المشاهد وما يترتب عليها من الدعوة إلى التوحيد قليل جدا في القرآن المدني، بالقياس إلى ما ورد منها في القرآن المكي، وذلك راجع - كما أسلفت - إلى أن القرآن المدني إنما يخاطب قوما قد آمنوا بالفعل، وامتلأت قلوبهم بنور التوحيد.

ومن ثم، لم يعودوا في حاجة إلى التركيز على هذا الجانب، قدر حاجتهم إلى النواحي التنظيمية الأخرى.

٢- فإذا وردت في القرآن المدني آية أو بضع آيات تدعو إلى التوحيد، مستخدمة قدرة الله في مشاهد الكون ورحمته بالإنسان فإن ذلك إنما يأتي لسبب خاص، لا يشكل قاعدة أو ظاهرة. مثل قوله تعالى في سورة البقرة - وهي مدنية : ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾ (١).

في هذه الآية المدنية مقابلات مستمدة من مشاهد الكون.

ففيها مقابلة بين السموات والأرض، وبين الليل والنهار وبين الحياة والموت وبين الفلك الجارية في البحر والدواب المبثوثة في الأرض.

---

* بث : فرق وبسط كما قال تعالى (وزرابي مبثوثة) : أي متفرقة مبسوطة (مجاز القرآن ١/٦٢).

(١) البقرة ١٦٣ – ١٦٤.

والسبب الخاص الذي أقصده هنا هو أن هذه الآية تريد أن تؤكد للمسلمين أن قضية التوحيد قد أصبحت حقيقة واقعة وأن دليلها واضح أمام أعينهم في مشاهد الكون ففيها آيات لقوم يعقلون، ومن ثم فإنكم لستم في حاجة إلى استفتاء اليهود في أي أمر من أمور دينكم، فإنهم - لحقدهم على الإسلام ورسوله - يكتمون ما ورد في التوراة من حقائق حول الإسلام وقضاياه[1].

ويؤكد هذا القول أن آية التوحيد وآية المشاهد الكونية بعدها قد وردتا في أعقاب الحديث عن اليهود وما يكتمونه وجزاؤهم الذي ينتظرهم : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[2] كما ورد بعد ذلك بقليل قوله تعالى عنهم : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾[3].

٣- وأحيانا تأتي مشاهد الطبيعة بما فيها من مقابلات - في القرآن المدني - لغرض آخر غير الإقناع بقضية التوحيد، فقد تأتي لغرض اجتماعي هو الحث على التكافل والإنفاق في سبيل الله من مال الله الذي استخلف المسلمين فيه، تستثير الوجدان بمشاهد الكون وعظمة الله فيه، لكي تمهد الطريق إلى إقناع المسلمين بالبذل والإنفاق فهي هنا بمثابة تمهيد الجو وتهيئة النفس لتقبل الأحكام الشرعية أو التكالف الدينية.

ونموذج لذلك : آيات في أول سورة الحديد - وهي مدنية -

قال تعالى : بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ

---

(١) أنظر أسباب النزول للسيوطي ٢١/١، ٢٠.

(٢) البقرة : ١٥٩.

(٣) البقرة : ١٧٤.

أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝ ﴾ [الحديد: ١-٥]

قال تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ ﴾ (١).

نلاحظ على هذه الآيات امتزاج الصفات الإلهية بمشاهد الكون. لأن هذه المشاهد أثر من آثار هذه الصفات، وقد عرضتها الآيات بطريقة مصورة مؤثرة تنفذ إلى الوجدان، وتوقظ القلب على صوت الوجود كله وهو يسبح لله مالك السموات والأرض والمحيي والمميت والقادر، والأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء فهو إذن موجود في مطلق الزمان، الظاهر في كل شيء، والباطن في كل شيء، فهو إذن موجود في مطلق المكان، العليم بكل شيء، المهيمن على العرش، الكائن معنا أينما كنا والبصير بكل ما نعمل، المدبر لحركة الليل والنهار، والعليم بأسرار الصدور.

وبعد هذه الدفقة من التجليات، يكون القلب قد تفتح واستعد لتلقى الأمر: آمنوا - وهم مؤمنون فعلا - فيكون المطلوب إذن تحقيق هذا الإيمان مقترنا بالعمل، ولذلك أتبعه بالأمر المقصود من وراء كل هذه المقدمات وهو (أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)، لأن من يستكمل إيمانه ويتوجه بالإنفاق المطلق في سبيل الله فله أجر كبير.

لقد اعتمد الجانب التأثيري هذه المقدمة على إبراز صفات الله وقدرته في مشاهد الكون عن طريق التقابل الحسي والمعنوي؛ حتى يستشعر القلب المؤمن عظمة الله وجلاله وشمولية صفاته. وهذا التقابل واضح وظاهر بين تسبيح ما في السموات وما في الأرض، وبين ملكية الله لما في السموات وما في الأرض، وبين يحيي ويميت، وبين الأول والآخر، وبين الظاهر والباطن، وبين خلق السموات والأرض، وبين علم الله بما يلج في الأرض وما يخرج منها، وبين العلم بما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وبين إيلاجه الليل في النهار وإيلاجه النهار في الليل.

٤ - لكن الفارق الهام بين مقابلات المكي والمدني في هذا المجال، أنها في المدني تعرض في أسلوب نوراني رقيق ومطول نسبيا، فيسرى في الروح كالماء في الغدير.

---

(١) الحديد: ١ - ٧.

فلا تكاد ترى فيه هذا الوهج الساطع، ولا تسمع فيه مطارق الآيات المكية التي تدك الأرض دكا أو تكور الليل على النهار وتكور النهار على الليل.

٥- وقد تأتي المقابلة في مشاهد الكون، وقوانين الطبيعة في القرآن المدني لتؤكد للمسلمين أن نصر الله لهم على عدوهم الباغي سنة لا تتخلف كما أن الظواهر الكونية سنة لا تتخلف أيضا: القانون الإلهي واحد في الحالتين. مثال ذلك تلك المقابلات التي وردت في سياق قوله تعالى

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ﴾

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (٦١) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) ﴾

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ (٦٦) ﴾ (١).

فقد نزلت الآية الأولى (في سرية بعثها النبي صلى الله عليه وسلم، فلقوا المشركين لليلتين بقيتا من المحرم، فقال المشركون بعضهم لبعض: قاتلوا أصحاب محمد، فإنهم يحرمون القتال في الشهر الحرام، فناشدهم الصحابة وذكروهم بألا يتعرضوا لقتالهم، فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام، فأبى المشركون ذلك، وقاتلوا وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون ونصروا عليهم(٢)

فكأن نصر الله للمظلوم المعتدى عليه قانون إلهي كتلك القوانين والظواهر الكونية التي لا تتخلف والتي وردت في أسلوب متقابل في الآية السابقة...

---

(١) الحج ٦٠-٦٦ .

(٢) أسباب النزول للسيوطي ١٢٣/٣.

٦- وأخيرا. قد تأتي المقابلات في هذا المجال - في القرآن المدني - في صورة ابتهالات دينية تنبعث كالترانيم[١] من قلوب الخاشعين

كهذا الدعاء الذي يعلمه الله لنبيه وللمؤمنين، حين سأله أن يجعل ملك الروم وفارس في أمته[٢]، وهو دعاء حافل بالمقابلات الدالة على عظمة الله ووحدانيته ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣]

وقد استدل الدكتور أحمد إبراهيم موسى في كتابه (الصبغ البديعي في اللغة العربية) بهذه الآية الكريمة على أن البديع لا يأتي في القرآن عرضا لمجرد الحلية أو الزخرف اللفظي، بل يأتي لذاته حين لا يغني غيره غناءه فيقول: (قوبل في هذه الآية بين تؤتي وتنزع وتعز وتذل، وإذا كان الغرض هو تصوير القدرة في أوسع معانيها، وبيان السلطان في أشمل مظاهره وأكملها، فإن ذلك لا يتم إلا بالجمع بين الضدين، والحكم بأنه يقدر على الأمرين : الإيتاء أو ما في معناه، والترع أو ما في معناه، وكذلك الإعزاز والإذلال، ثم يستطرد لإثبات هذه الذاتية بقوله : لما كان مقياس الذاتية والعرضية عند المتأخرين من علماء البلاغة هو عدم استقامة الأغراض بفقدان الأول، واستقامتها بفقدان الثاني، كان جديرا بنا أن نعرض الطباق على هذا المقياس ونجعله حكما فيه، فإنك إذا طبقت هذا على مثل تلك الآية الكريمة من أساليب، اقتنعت بأن ذكر المقابل لا محيص عنه في صياغة مثل هذا الغرض إذ قد يقدر شخص على الإيتاء، ولكنه لا يقدر على الترع، ويستطيع إنسان أن يعز، ولكنه قد يعجز عن الإذلال، ومع هذا لا تضن عليه بوصفه بالقدرة، ولكن المضنون به عليه هو الحكم له بالقدرة التامة)[٤].

ونحن نوافق الدكتور "أحمد إبراهيم موسى على ما ذهب إليه، ونضيف أن بلاغة القول كل متكامل لا ينفصل فيه اللفظ عن المعنى ولا العرض عن الجوهر كما أن البديع

---

(١) ترنم : إذا رجع صوته للتطريب والترنيم مثله، (مختار الصحاح) : رنم.
(٢) انظر أسباب الترول للسيوطي : ٢٧/١ وكذلك النيسابوري ص ٧٠.
(٣) آل عمران: ٢٦ - ٢٧.
(٤) الصبغ البديعي في اللغة العربية، للدكتور أحمد إبراهيم موسى: ٤٧١.

القـــرآني عمومــــا والمقابلة على وجه الخصوص تأتي لتلبي غرضا دينيا وأدبيا هو التأثير الوجداني والنسق الجمالي للأسلوب.

ونســتطيع في نهاية هذا الحديث أن نلخص الإجابة على السؤال الذي طرحناه في مقدمـــة الحديث عن المقارنـــة بـــين المكى والمدنى في مجال المقابلة في مشاهد الكون والنفس -- في النقاط التالية :

١- أن المقابلات في مشاهد الكون لم ترد في القرآن المدني إلا نادرا.

٢- وإنها لا تركز على الدعوة إلى التوحيد.

٣- وإنها تأتي غالبا في سياق خاص.

٤ – وإنها قد تأتي كتمهيد للأمر بتكليف شرعي أو هدف اجتماعي.

٥- وإنها قد تأتي لتأكيد نصر الله للمسلمين في صراعهم مع العدو الباغي.

٦- أو تأتي لتعليم الرسول والمؤمنين بعض الأدعية والابتهالات.

٧- وأن أسلوبها يميل إلى التطويل والرقة والعذوبة.

٨ – وأن كل ذلك ينسجم وطبيعة القرآن المدني عموما.

ثانيا : المقابلة في خطاب الكفار والمعاندين :

لا نـــريد بالخطاب هنا ما ورد عند النحويين من مخاطبة الحاضر وما يشترط عندئذ مـــن استخدام الضمائر المعروفة للمخاطبين متصلة أو منفصلة، ظاهرة أو مستترة وإنما نـــريد بـــه هنا الخطاب العام الذي يشمل الجنس البشري الحاضر منه والغائب في كل زمان ومكان، إنه الحديث إليهم والحديث عنهم على السواء، ذلك، لأن الأمر بالنسبة إلى الله تعالى وقرآنه الكريم، يختلف عنه بالنسبة إلى البشر ولغتهم، فهم محاصرون بحدود الـــزمان والمكان حين يخاطب بعضهم بعضا، أما حين يتحدث المولى سبحانه إلى الناس في القرآن الكريم، فإن ذلك يعتبر خطابا لهم متى وجدوا وحيثما حلوا.

فـــإذا رأينا آية فيها حديث إلى الكفار أو عنهم و لم تستعمل فيها الضمائر المعهودة للخطاب، واستعملت فيها ضمائر الغائب، فإنها خطاب للكافرين أيضا، فقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [1] خطـــــاب إلى المشركين فيه التحدى لهم أن يأتوا بشركائهم من الأصنام التي يعبدونها لتنطق بصدقهم إن كانوا صادقين. و لم يستخدم في هذا الخطاب ضمائر المخاطبين بل استعملت ضمائر الغائـــبين (هـــم – فليأتوا – بشركائهم – كانوا) وهذا الالتفات له مغزي بلاغي هو الاحتقار والاستهزاء.

بـــل إن الآيـــات التي وردت بضمير المتكلم – حين يتحدث الله سبحانه عن نفسه تعتـــــبر خطابـــا إلى الكافـــرين أيضـــا، مثل قوله تعالى : أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [2] أو قولـه تعالى :﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [3].

والمقابلـــة في الخطاب الكافرين تأتي في القرآن المكي في مواقف متنوعة (ولأغراض متعددة) كل منها يناسب طورا من أطوار النفس البشرية، وحالة من حالاتها ومن ذلك مجيئها :

---

(١) القلم : ٤١.

(٢) القلم : ٣٥.

(٣) الذريات : ٥٦ – ٥٨.

١) للترغيب :

تـأتي المقابلـة للترغيب في اتباع الذكر الحكيم والانتفاع بهدية الكريم، لكن ذلك غالباً يقترن بالتلويح بالعذاب الأليم لمن يعرض عن ذلك :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ﴾ [1].

والمقابلة هنا تعرض مهمة القرآن وأثره في صورة واضحة، وتقرن الشيء بضده حتى يختار الإنسان أيهما أنفع له وأجدى :

إنه يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالأجر الكبير، وفي مقابل ذلك ينذر من لا يؤمـن بالعذاب الأليم (فهذه هي قاعدة الإسلام الأصيلة في العمل والجزاء، و على الإيمـان والعمل الصالح يقوم البناء الإسلامي فلا إيمان بلا عمل ولا عمل بلا إيمان)[2] ولقد كان السياق يقتضي أن يقول (وينذر الكافرين الذين يعملون السيئات) في مقابل (يبشـر المؤمـنين الذين يعملون الصالحات) ولكنه عدل عن ذلك، لأن معنى الإنذار مفهـوم من قوله تعالى : (وأعتدنا) و لم يقل (الذين يعملون السيئات) في مقابل (الذين يعملـون الصـالحات لأن وصـف الكافرين بأنهم (لا يـؤمنون بالآخرة) يدل عليها وزيـادة، فالذي ينكر اليوم الآخر ولا يؤمن به، يحلو له أن يفعل ما شاء من السيئات لظنه أن لا حساب على ما يعمل.

٢) للعتاب :

وقد يقترن الخطاب للترغيب بالعتاب المرير للكفار والمشركين، ينجيهم الله من كل ظـلمة وكل كرب ومع ذلك يشركون ومن ثم يأتي العتاب كدعوة إلى التفكير الهادئ الـذي يؤدي غالبا إلى الاقتناع، وتكون المقابلة بمثابة تحريك للذهن، وتقليب للقضية عـلى وجوهها ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا

---

1 الإسراء : 9–10

2 محاضرات في تفسير سورة الإسراء، للشيخ عبد العظيم معاني. ألقاها على طلاب الفرقة الثالثة بدار العلوم سنة 1965

وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ [1].

فالمقابلة هنا بين ظلمات البر وظلمات البحر وبين دعائهم تضرعا معلنين الضراعة والتذلل لله، ودعائهم خفية مسرين بالدعاء[2]، وليس من الضروري أن يكون هناك ليل حتى تكون ظلمات، فكل كربة هي ظلمة، والمجهول ظلمة، وحينما يقع الناس في ظلمة من ظلمات البر والبحر فلن يجدوا في أنفسهم إلا الله ملجأ وملاذا.

٣) للدعوة إلى الإصلاح :

وربما أتى الخطاب للترغيب في صورة دعوة إلى ترك الإفساد في الأرض وأمر بالإصلاح والتقرب إلى الله :﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ [3] والمقابلة بين الإفساد والإصلاح في سياق الآية الكريمة جديرة بأن تنفر النفس السوية من الإفساد وتجذبها للإصلاح .

فإذا اقترن هذا بمقابلة أخرى بين الدعاء لله خوفا من عذابه ومن مغبة الإفساد في الأرض وطمعا في جنته وفي إصلاح النفس التي عزمت على إصلاح ما في الأرض، شفت النفس ورقت، وأصبحت مستعدة للإصلاح وترك الإفساد، ومما يقوي هذا المعنى أن الآية وردت ضمن آيات أخرى تؤدي المقابلة فيها – أيضا – دور التأثير والترغيب، فقد سبقت بقوله تعالى ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ [4]. وأعقبت بقوله تعالى وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ [5].

٤) للإقناع بالحسنى :

وأحيانا يجيء الخطاب في صورة قضية ذهنية، واضحة المقدمات والنتائج فيها محاولة للإقناع بالحسنى، وتكون المقابلة هنا هي الصيغة الملائمة لحرية الاختيار بين الشيئين

---

(١) الأنعام : ٦٣ – ٦٤.
(٢) كلمات القرآن (مخلوف :٧٧).
(٣) الأعراف : ٥٦
(٤) الأعراف :٥٥.
(٥) الأعراف : ٥٨.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[1].

إن المقابلة هنا بين شرطين وجزاءين، بين من أبصر نعم الله ورأى فيها الآيات والبراهين الدالة على قدرته فاهتدى وآمن فكسب نفسه. ومن أغمض عينيه وأوصد قلبه فلم ير في الآيات شيئا فخسر نفسه، وعلى الإنسان أن يختار بين البصر والعمى والهداية والضلال، والتعقيب بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ يشعر بحرية الإختيار وتحمل تبعة العمى بعد أن وضح الفرق بين الطريقين.

٥) لابطال حجتهم:

وقد تأتي المقابلة في خطاب المشركين لتزيل ما قد يعلق بأفكارهم من الشك والتوجس، وتبطل بذلك حجة يتمسكون بها لعدم اتباعهم الرسول ودين الإسلام ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾[2].

فقد جاء أناس من قريش للرسول يعتذرون له عن عدم إسلامهم قائلين: إن نتبعك تخطفنا الناس[3]، وهي حجة نابعة من الخوف على أرزاقهم أو سلطانهم الذي اكتسبوه نتيجة كونهم في مركز القيادة للقبائل في الجزيرة العربية بحكم وجود الحرم (الكعبة) في مكة، وهنا يبطل القرآن هذه الحجة، فالخوف والتخطف من جانبهم يقابله ويدفعه هذا الأمان الذي يظللهم نتيجة هذا الحرم الآمن الذي وهبه الله لهم، وجعله مصدرا للرزق والثمرات تجبى إليهم، "أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم

---

(١) الأنعام: ١٠٤.

(٢) القصص: ٥٧ – ٦١.

(٣) أسباب النزول للسيوطي: ١٣٣/٣.

أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون"[1] "إن القضية معكوسة عليهم فالأمان هنا والتخطف والخوف هناك.

ومع ذلك يجاريهم القرآن ليبين لهم أن ما يؤتونه في الدنيا - التي يحرصون عليها كل هذا الحرص - إن هو إلا متاع زائل وزينة عرضية في مقابلة ما أعده الله لمن آمن به من الأمان والخير الباقي لو كانوا يعقلون.

ثم يسوق الدليل على فساد حجتهم وسوء تفكيرهم بهذا المثل التوضيحي الذي زادته المقابلة وضوحا : إن من وعده الله وعدا حسنا فهو لاقيه نعيما ومنكا خالدا يوم القيامة، لا يمكن أن يستوى مع من متعه الله بمتاع الدنيا فقط، ثم هو يوم القيامة من المحضرين رغم أنوفهم إلى ساحة الحساب والعذاب وإنهما لصفحتان متقابلتان صحفة من وعده الله وعدا حسنا حين يصبر على محنة الدنيا ويجتاز اختبار العقيدة بنجاح فيجد أن ما وعده الله به في الآخرة حقا وصدقا، وصفحة من نال من متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد وكان يحسبها حياة لا حساب بعدها، فإذا به يسحب رغم أنفه للحساب، وللإنسان أن يختار ما يريد.

٦- للسخرية :

وكما رأينا المقابلة في النموذج السابق تبطل حجة المشركين وتدمغها نجدها في المثال التالي تدفع بالمنطق والعقل تهمة قبيحة، وادعاء باطلا يتهم به المشركون رب العزة، لقد اتهموه - تنزه عما يقولون بالصاحبة واتخاذ الملائكة إناثا، وكبرت كلمة تخرج من أفواههم، وهنا يخاطبهم القرآن باستفهام إنكاري لاذع تؤدي المقابلة فيه دور التصوير والتوضيح والسخرية من هذا الزعم الذي لا يستند إلى أي دليل فضلا عن بطلان تصوره :

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ [2].

فالمقابلة بين البنين يصطفيهم الله بهم، والإناث يتخذهم له بناتا هي جوهر السخرية من خطل تفكيرهم وفساد رأيهم وقد تكرر ذلك في سورة الزخرف في معرض الاستنكار والتعجب : وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

(١) العنكبوت : ٦٧.

(٢) الإسراء : ٤٠.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ۝ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ۝ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ۝ ﴾ [1]. وفي سورة النحل: ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ۝ ﴾ [2]. والمقابلة هنا بين (البنات) ينسبوها إلى الله و (البنين) يختاروهم لأنفسهم، ولكن القرآن عبر عن البنين بقوله (ولهم ما يشتهون) للدلالة على مدى حبهم للأولاد وكراهتهم للبنات، فبئس المثل مثلهم. إذ كيف يختار الله لنفسه ما يكرهونه هم.

ومن أجل ذلك يعقب الله على هذا التفكير بمقابلة تنسجم وما سبقها، فيقول سبحانه: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ ﴾ [3]. والمقابلة هنا بين مثل السوء منسوبا إلى الكافرين والجاحدين، والمثل الأعلى منسوبا إلى الله جل وعلا، إن لهم مثل السوء[4] في كل شيء، في الشرك والاعتقاد والتعامل والتفكير، ولله المثل الأعلى الذي لا يقارن ولا يضارع طهارة وسموا ورفعة.

٧) للتهديد والوعيد:

وتأتي المقابلة في خطاب الكافرين للتهديد والوعيد، وذلك لأن الإنسان الذي يغمض عينيه بمحض إرادته عن رؤية الشمس، ويصم أذنيه عن سماع الحق، ويوصد منافذ الفكر والبصيرة من نفسه، لا تجدي معه المواعظ، ولا ينفعه الإقناع والجدال بالحسنى، إنما يصلح معه أسلوب التهديد بالعقاب (إن الواقع المشهود يدلنا على أن

---

(١) الزخرف: ١٥-١٩.

(٢) النحل: ٥٧.

(٣) النحل: ٦٠.

(٤) فسر صاحب الأشباه والنظائر كلمة (السوء) حينما وردت في القرآن الكريم بأحد عشر وجها: نذكر منها هنا: الشدة مثل قوله تعالى {يسومونكم سوء العذاب} والزنا مثل (ما علمنا عليه من سوء) والعذاب مثل (إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين والشرك مثل (ما كنا نعمل من سوء).

(٥) انظر/ الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، لمقاتل بن سليمان البلخي ت ١٥٠هـ دراسة وتحقيق. د- عبد الله شحاته ص ١٠٦ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥م.

هـــناك فريقا من الناس لا تصلح معـــه المواعظ التي تهز الوجدان، بل يزدادون انحرافا كـــلما زيـــد لهم في الوعظ والإرشاد، وليس من الحكمة أن نتجاهل وجود هؤلاء أو نتصـــنع الـــرقة الـــزائدة معهم، فهم مرضى ومنحرفون وليس علينا أن نجاريـــهم في انحـــرافهم، ونلـــتمس لهـــم الأعذار، فإن ذلك نفسه يبعث على الانحراف ويزيد عدد المنحرفين)[1].

والقـــرآن الكـــريم حـــافل بالمقابلات المثيرة للرعب والفزع، الحافلة بشتى صنوف التعذيـــب والألم الجسمي والنفسي، ويتركز معظمها في مشاهد القيامة التي سنفرد لها عنوانا خاصا بعد قليل، ولكننا هنا نكتفي ببعض صور التهديد الدنيوي في مجال خطاب المشركين والمعاندين يقول تعالى :

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾[2] هنا تهديد سافر ومرعب بعذاب يحل عليهم. ساعدت المقابلة في تصويره وتمثله، إن عذاب الله يأتي مباغتا مفاجئا دون توقع وهم غارقون في النوم أو في الـــلهو أو ينصب عليهم جهرة عيانا نهارا وهم متأهبون له منتظرون. وفي كلتا الحالتين لن يهلك فيه إلا من ظلم نفسه بالشرك، وهم قد ظلموا أنفسهم ومن ثم كان التهديد موجها إليهم لا لغيرهم.

والقـــرآن الكريم إذ يلجأ لهذا التهديد السافر، فإنه في نفس الوقت يخفف من حدته بمقـــابلات أخرى تأتي في نفس السياق لبيان مهمة الرسل :﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾[3] فالمقـــابلات هـــنا بـــين التبشـــير والإنذار وبين الإيمان والتكذيب، وبين الأمان والفرح يقابله مس العذاب، هذه المقابلات تعطي المشركين الفرصة لكي يتدبروا موقعهم، ويتبعوا الرسول قبل أن يأتيهم العذاب بغتة أو جهرة.

---

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ١/١٩٠ ط ٧ دار الشروق ١٩٨٣.
(٢) الأنعام : ٢٤٧.
(٣) الأنعام : ٤٨ – ٤٩.

وقـــد تشـــــتد نغمـــة التهديد لهؤلاء الكفار والمعاندين، فتأتي المقابلة في خطابهم مصرحة بعذاب غامر يفزع بمجرد تصوره القلب ويرهب الفؤاد:

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾[1].

(فالعذاب الغامر من فوق أو النابع من تحت أشد وقعا في النفس من تصوره آتيا عن يمـين وشمال، فالوهم قد يخيل للإنسان أنه قد يقدر على دفع العذاب من يمين أوشمال، أمـا العـذاب الذي يصب عليه من فوق، أو يأخذه من تحت، فهو عذاب غامر قاهر مزلزل، لا مقاومة له ولا ثبات)[2].

والمقابلـة هـنا بين العذاب من فوق والعذاب من تحت الأرجل توحي بالإحاطة والسـرعة والحسـم، ولهـذا العذاب شواهد للناظرين والمتدبرين في أحداث التاريخ ومصارع الغابرين، فالعذاب من فوق له نظير قد حدث عندما أمطر الله على قوم لوط وأصـحاب الفيل الحجارة وأرسل الطوفان على قوم نوح، والعذاب من تحت الأرجل حدث من قبل حين غشي قوم فرعون من اليم ما غشيهم،﴿ حين خسف الله بـقارون وبداره الأرض.

ومـن عجيب هذه المقابلة بين العذاب من أعلى والعذاب من أسفل، والتي توحي كمـا قلنا بالسرعـة والحسم، أنها تقابل نوعا آخر من العذاب ذكرته الآية، لا يتسم بهـذه السرعة، بل يتسم بالبطء، ولا يظهر أثره إلا بعد مدة طويلة، هو العذاب الذي يلحق الأمم نتيجة اختلاف كلمتها، وتشعب أهلها إلى فرق وأشيـاع يكيد كل فريق للآخر، وتذيق كل شيعة البأس والنكال لغيرها. (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعـض) وهـذا أقسى ما يصيب أمة من الأمم، وله شواهد شتى من التاريخ قديمـه وحديثـه منذ الفتنة الكبرى بين سيدنا عثمان والإمام علي ومرورا بالفرق الإسلامية

(١) الأنعام: ٦٥ – ٦٧.
(٢) في ظلال القرآن: ١١٢٤/٢.

من معتزلة وسنة ومرجئة وقدرية، إلى ما يحدث في لبنان أو بين العراق وإيران في الوقت الحاضر.(١)

.... ونلمح كذلك مقابلة أخرى في هذه الآية، ولكنها خفية بعض الشيء وذلك أن العذاب من فوق ومن تحت الأرجل إنما هو من فعل الله وقدرته وبيده سبحانه، وهذا يقابل العذاب الناشئ من (يلبسكم شيعا) فإنه عذاب بأيديهم ومن صنع أنفسهم.

وهكذا...وفي آية واحدة مكونة من كلمات قليلة تأتي لدينا ثلاث مقابلات أثرت المعنى وزادته خصوبه، وأسهمت في إبراز التماسك والترابط في الأسلوب القرآني، بالإضافة إلى تصويرها لأنواع العذاب التي سبقت الآية من أجل التهديد بها والوعيد لهؤلاء الكفار والمعاندين.

٨) لإظهار الفرق بينهم وبين المؤمنين في العمل والجزاء :

وبالإضافة إلى ما سبق فإن المقابلة في خطاب الكافرين قد تأتي لبيان وجهة نظرهم في الوحي والرسالة مقابلة بوجهة نظر المؤمنين، وما يترتب على هذين الموقفين المتقابلين من نتائج.

ويتضح ذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ جَنَّٰتُ

(١) كتب هذا البحث إبان تلك الأحداث (١٩٨٤ م)

﴿عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾[1].

(يروى الزمخشري في الكشاف عن سبب نزول هذه الآيات : أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام المواسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا جاءه الوافد كفه المقتسمون[2]، وأمروه بالإنصراف، وقالوا : إن لم تلقه كان خيرا، فيقول : أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه، فيلقي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيخبرونه بصدقه، وأنه مبعوث، فهم الذين قالوا خيرا وكان المقتسمون يقول بعضهم لبعض : لا تغتروا بالخارج منا، فإنه ساحر، ويقول الآخر كذاب والآخر شاعر)[3]. فالآيات حين تحكى كلا الموقفين تستخدم أسلوب المقابلة لبيان التقابل فيهما:

فالكفار والمشركون حين يسألون عن كنه الوحي وجوهر الرسالة يجيبون بغير الحق، إذ يدعون أن ما أتى به محمد ليس وحيا من الله بل أساطير الأولين[4].

ويقابل هذا قول المؤمنين المتقين : إن ما جاء به محمد هو الخير كل الخير، فلمن آمن به محسنا في إيمانه حسنة في الدنيا، أما في الآخرة فإن له دار المتقين بما فيها من جنات عدن بأنهارها وما يشاءون فيها جزاء تقواهم.

---

(١) النحل : ٢٤ – ٣٢.

(٢) المقتسمون : ورد ذكرهم في آية ٩. من سورة الحجر (كما أنزلنا على المقتسمين) هم إثنا عشر رجلا من قريش،

اقتسموا مداخل مكة أيام المواسم، فقعدوا في كل مدخل متفرقين ليصدوا الناس عن الإيمان بالرسول. انظر الكشاف : ٣٩٨/٢.

(٣) انظر الكشاف : ٤٠٧/٢. وتهذيب السجستاني في غريب القرآن : ٩٦.

(٤) الأساطير : جميع أسطورة، ولها معنى أدبي هو(الحكايات الوهمية الحافلة بالخرافة على نحو ما عرف من أساطير اليونان والفراعنة والفرس والهنود. المعاني الثانية ٢٣٩) ولها معنى لغوي، مأخوذ من سطر الشيء إذا كتبه "المعجم الوسيط مادة سطر"، وقد زعم الدكتور : محمد أحمد خلف الله في كتابه (الفن القصصي في القرآن) أن في القرآن أساطير بالمعنى الأدبي للأسطورة، وهو زعم باطل، تولى تفنيده والرد عليه كل من الدكتور فتحي عامر في كتابه (المعاني الثانية في الأسلوب القرآني : ص ٢٣٥ وما بعدها. والأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه (القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : ٣٠٢ – ط دار الفكر العربي مصر ١٩٧٤.

هـــذا ما يقوله كلا الفريقين، يظهر فيه التقابل التام، فبينما يصد المشركون من جاء يســـألهم وينفرونه من محمد ورسالته، يحاول المتقون من المؤمنين عرض الجوانب المضيئة - وكلها كذلك - للسائلين حتى ينجذبـــوا إليها ويحبوها. فماذا عن مصير كل فريق وما جزاء كل منهما؟

إن الـــتقابل أيضـــا بين المصيرين والجزاءين يتطابق مع ما قدمه كل منهما : فجزاء الكافـــرين القائلين بالأساطير، المضلين الناس بغير علم أنهم يحملون أوزارهم وأوزار من يضلونهم، وربما لحق بهم في الدنيا من العذاب مثل ما لحق بمن مكروا قـــبلهم كالنمرود أو بختنصـــر أو كل ماكر عنيد[1]، حيث أتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف مـــن فوقهم وحل عليهم عذاب الدنيا من حيث لا يشعرون، ويضاف إلى هذا العذاب الدنـــيوي مـــا يـــلحقهم من خزي وسوء يوم القيامة حين لا يستطيعون ولا يملكون الإجابة عن هذا السؤال : أين الشركاء الذين كنتم تشاقون فيهم وتخاصمون وتعادون فـــيهم الأنبـــياء[2]. وهـــؤلاء تـــتوفاهم الملائكة وقد ظلموا أنفسهم بهذا الكبر المزيف والاستعلاء الكاذب. لم يظلمهم أحد، ولا ينفعهم حينئذ ما يلقون من السلم والانقياد والخضوع، بل يؤمرون بدخول أبواب جهنم والخلود في مثوى المتكبرين.

وفي مقابل ذلك، يكون الرفق واللين ساعة الاحتضار، وتنزع الملائكة أرواح المتقين، طيبة نفوسهم بلقاء الله، مطمئنة قلوبهم بما ينتشر حولهم من السلام والأمن والترحاب، تفتح لهم أبواب الجنان، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون.

ولكـــنا نلاحظ على المقابلة بين الموقفين هنا شيئا هاما يستحق التسجيل، ذلك أن القـــرآن هـــنا يطيل في أوصاف الكافرين و يطنب في تفصيل ما يلقون في الآخرة من عذاب وخزي وهوان، بينما يختصر ما أعد للمتقين في أنهم : {تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون}.

ونـــرجـــح أن السبب في ذلك يرجع إلى طبيعة المقابلة في القرآن المكي، حيث إن الكفار هم المقصودون بالخطاب، ومن ثم يؤكد القرآن بهذا التفصيل أن مواقف الكفار الظالمـــة وإعراضهم وصدهم لابد أن يلقى جزاء مبينا هو كذا وكذا بالتفصيل، لعل في هـــذا البـــيان رادعا يردعهم، ويكفهم عماهم فيه من كبر وضلال، أما المؤمنون فهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٥٦٦/٢.

(٢) تهذيب السجستاني : ١٠٠.

مطمئـــنون إلـــى موقفهم متأكدون من سلامة اختيارهم ويكفيهم هذا السلام والأمن وقت الاحتضار ودخول الجنة جزاء هذا العمل الطيب، على أن هذه الملاحظة لا تتضح إلا حـــين نقـــارن بين خطاب الكافرين في (مكة) وخطابهم في(المدينة) فإن المؤمنين في المديـــنة هم الأكثرية، وهم المقصودون بالخطاب بالدرجة الأولى، فلهم العناية والرعاية أما الكافرون، فقد عرف مصيرهم، طوال ثلاث عشرة سنة من القرآن المكي ومن هنا يأتي الحديث عنهم مختصرا :﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [1] إن وصف ما أعد للكافرين هنا لا يتجاوز كلمات أربع هي (مأواهم جهنم وبئس المهاد)، ولكن وصف ما أعد للمؤمنين المتقين يستغرق - إذا أضيف إليه مـــا ورد في السياق[2] قبله - مدى أكبر ويتناول تفصيلات كثيرة : جنات تجري من تحتها الأنهار، فليست جنة واحدة بل جنات، وهذه الأنهار تضفي عليها الجمال والندى والنعـــيم، فهي نزلهم التي أعدها الله. لكن (ما عند الله) بما تحمله هذه الجملة من معان كبيرة (خير للابرار) إنها تـــفضل متاع الدنيا والآخرة جميعا.

ويتضـــح مـــا قلته بصورة أكبر حين نعرض للمقابلة بين الكفار المعاندين والمؤمنين المتقين في هذه الآيات، وفيها مقابلة صفات الكافرين وجزائهم بصفات وجزاءات أقل عددا في جانب المؤمنين، وذلك راجع كما قلت إلى أن الخطاب موجه بالدرجة الأولى إلى الكافـــرين بـــغـــــبية حملهم على العدول عن موافقهم ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ

---

(١) آل عمران :١٩٦:١٩٨.

(٢) في الآية : ١٩٥ من نفس السورة.

ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ (هـود : ١٩- ٢٤)

فصفات الكفار هنا هي أنهم :

١- يصدون عن سبيل الله، ويمنعون الناس من الإيمان به.

٢- يبغونها عوجا، ويريدون الدين على هواهم ومنحرفا لأغراضهم.

٣- بالآخرة كافرون. لا يؤمنون بالبعث وما وراءه.

٤- ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون. أي لم يحسنوا استخدام حواسهم التي وهبها الله لهم.

وجزاؤهم :

١- لم يكن أمرهم معجزا لله في الدنيا بل أجل عذابهم للآخرة رجاء إصلاحهم.

٢- ليس لهم من دون الله أولياء ينصرونهم.

٣- يضاعف لهم العذاب، لأنهم عطلوا حواسهم عن التفكير وتمادوا في الصد عن سبيل الله، وابتغاء الأمر معوجا فاسدا.

٤- خسروا أنفسهم في الدنيا حين لم يرتفعوا من وهدة الكفر إلى جلال الإيمان.

٥- ضل عنهم ما كانوا يفترون، ضاع وتبدد كذبهم وافتراؤهم على الله.

٦- ولا جرم أنهم الأخسرون في الآخرة كما خسروا في الدنيا.

وهذا التفصيل والإطناب في صفات الكافرين وجزائهم يقابله صفات محددة للمؤمنين، وجزاء واحد، ولكن الكلمات تحمل من المعاني الكثير والكثير مما يبشر به الله عباده المؤمنين فهم :

١- آمنوا　　　　٢- عملوا الصالحات

٣- وأخبتوا إلى ربهم (أي اطمأنوا إليه وانقطعوا لعبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة)[1] وهذه الصفة أي الإخبات إلى الله والاطمئنان لجانبه تقابل في رأيي كل الصفات التي ورد ذكرها في الكافرين، إنما تقابل الصدود والعوج والكفر بالآخرة وتعطيل حواس السمع والبصر.

---

(١) تفسير النسفي : ١٨٤/٢ الحلبي وشركاه. مصر، والنسفي هو الإمام الجليل العلامة أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي وقد سمي هذا التفسير (مدراك التنزيل وحقائق التأويل).

أمــا جــزاء المؤمــنين فقد اختصره الله سبحانه في قوله {أصحاب الجنة هم فيها خالدون} وهو جزاء يقابل ما عدد من جزاء للكافرين.

وقــد أفادت هذه المقابلة الإنذار للكافرين حتى لا يكون هناك مجال للاعتذار بعد ذلك والخــتام الــرائــع هنا هو أن القرآن الكريم يلخص هذه الموقفين بهذا المثل الذي تبدو فيه المقابلة عاملا هاما في الحسم بين الفريقين وعدم استوائهما في أي عرف {مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون} فالمقابلة هنا تجسيم حي وتصوير بديع يضع القضية في صورة بديهية لمن يتذكر، ففريق الكافرين أعمــى لا يرى نور الحق. أصم لا يسمع نداء الإيمان وفريق المؤمنين يقابله : أنه بصير يرى وسميع يسمع فيهديه سمعه وبصره إلى الحق، إنه ليس محروما كنظيره من استخدام حواســه في الفــكر والتدبر.. وفي ذلك حفز لكل ذي سمع وبصر أن يستخدمهما في الخير والهدى.

والذي نلاحظه على الأمثلة السابقة للمقابلة أنها مقابلة في المواقف والنتائج، لا تقف عــند حدود اللفظة الواحدة، والجزئية الصغيرة، بل تشمل الموقف الكلي العام (وهكذا ينبغي أن ينظر إلى الأسلوب القرآني نظرة كلية فيقف الباحث عند الآية أو الآيات التي يظهر من خلالها موقف متكامل الخصائص والسمات، له كل ما يتعلق به من العناصر والأجــزاء والصفات والإيحاءات وله كل ما يميزه عن غيره، وهنا تظهر روعة الموقف وجلاله وعظمته – وتأثيره النفسي مصورا بارزا من خلال التراكيب والأسلوب)(١).

وهــذه المقــابلات الــتي عرضنا لها في خطاب الكافرين قد وردت بالفعل تصور مواقفهم من الدعوة الإسلامية، وتفضح مكايدهم، وتفصح عن رأيهم المكنون والظاهر في الوحي واليوم الآخر، وصفات الله. ومن ثم يقابل القرآن بين مواقفهم تلك ومواقف المؤمنين، ليكون ذلك مثلا واضحا لكل ذي لب وبصر.

---

(١) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، للدكتور فتحي عامر : ٢٨٥.

ثالثا : المقابلة في مشاهد القيامة :-

تمهيد :-

يــوم القيامة هو اليوم الذي يبعث الله فيه الموتى من قبورهم ويحشرهم أحياء كما كانوا، لحسابهم على ما قدموا من أعمال في الحياة الدنيا.

ولهذا اليوم في القرآن الكريم أسماء كثيرة، فيسمى الآخرة أو اليوم الآخر (وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾)(١)، وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ (٢).

ويسمى بيوم القيامة لأن فيه يقوم الناس مضطربين من قبورهم ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾(٣) ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ ﴾(٤)

كمــا يسمى بالغاشية، لأنها تغشى الناس بأهوالها، وبالساعة حين يقصد به المباغتة والمفاجــأة : (لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً)(٥) (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا)(٦).

ويسمى أيضا بالحاقة، فهو حق لا ريب فيه، وبالقارعة التي تقرع القلوب بأهوالها وبيوم الزلــزلة، تزلزل فيه الأرض والجبال والنفوس، وبيوم الدين، وبالواقعة والآزفة والصاخة، وبيوم البعث، والنشور، والحساب.

في هــذا اليوم يحدث انقلاب عام في نظام الكون كله : في الأرض وفي السموات، وفي الأفــلاك والــنجوم والكواكب، يختل نظامها، وتنفك عراها، وتكون نهاية العالم الدنيوي، وبدء العالم الأخروي.

وقــد عبرت آيات كثيرة في القرآن الكريم عما سيحدث في هذا اليوم من اختلال الموازين، وخرق النواميس، نورد منها قوله تعالى :﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ (١)

---

(١) البقرة : ٤

(٢) البقرة : ٨

(٣) المطففين : ٦

(٤) القيامة : ١

(٥) الأعراف : ١٨٧

(٦) الأنعام : ٣١

، ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ ﴾ ، إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝

﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝ ﴾ ، ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ ﴾ .

إلى آخر الآيات التي تصور هذا الانقلاب الكوني يوم القيامة، وهي كثيرة في القرآن الكريم وكلها توحي بأن النهاية ستكون مروعة كما صورتها الآيات،فالأرض تزلزل وتدك. والجبال تنسف وتبس وتبخر، والكواكب تتطاير وتتناثر وتتصادم، ويجمع بين الشمس والقمر، ولم يكن ينبغي لها أن تدرك القمر في الدنيا، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. وتتشق السموات، وتتفجرالبحار وتسجر..ويصعق من في السموات ومن في الأرض، ثم إذا بالجميع قيام من قبورهم ينظرون، ويهدأ كل شيء ثم تشرق الأرض بنور ربها، ويصبح كل شيء، جاهزا للحساب والجزاء.

وقد حرص الإسلام على أن يجعل الإيمان بيوم القيامة قرين الإيمان بالله، فالمؤمن لا يكمل إيمانه إلا إذا آمن باليوم الآخر ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ .... ﴾ [6]

وفي الحديث الشريف أن جبريل عليه السلام سأل الرسول – لكي يعلم المسلمين ما الإيمان؟ فقال الرسول : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر......الخ الحديث[7].

وترجع عناية الإسلام بغرس الإيمان باليوم الآخر في النفوس، إلى أن الإيمان به يجعل المرء دائما على الطريق المستقيم، والإنسان إذا لم يعتقد باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، فلن يكون هناك وازع يزعه عن الشر والفساد، والميل مع نزعات

(١) التكوير ١-٥
(٢) الانفطار ١-٤
(٣) الواقعة ٤-٦
(٤) القارعة ٤-٥
(٥) الزلزلة ١-٥
(٦) البقرة ١٥٧
(٧) صحيح البخاري : ١/٢٠ كتاب الشعب ط دار الشعب مصر.

وأهوائها، ولهذا كان المشركون شديدي الحرص على إنكار هذا اليوم،وعدم التصديق به ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝﴾[1].

إن الإنسان إذا اعتقد أنه مجزي على ما قدم يوما ما، فإن ذلك الاعتقاد سيدفعه إلى فعل الصالحات، وترك المنكرات، وإصلاح النفس والمجتمع من حوله، وبذلك يكون الإيمان باليوم الآخر قوة إيجابية دافعة نحو الخير والسلام، ومن ثم تتحقق الغاية من رسالة الإسلام، ألا وهي الخلافة الصالحة في الأرض.

ولقد أفاض القرآن الكريم في وصف مشاهد القيامة، ونقل إلينا صورا حية مما سيحدث في هذا اليوم.

واعتمد هذا الوصف بدرجة كبيرة على أسلوب المقابلة، ذلك لأن يوم القيامة هو بحق - يوم المقابلة، يقابل الإنسان عمله، ويواجه مصيره، ويتقابل ما أسره في نفسه مع ما أعلنه ويتقابل التابعون المستضعفون مع الأقوياء والمستكبرين ويتقابل أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، ويتقابل المؤمنون مع الكافرين، ويتقابل المؤمنين متكئين على سرر موضونه ويتقابل الأبرار مع الفجار، والقاتل والمقتول، والظالم والمظلوم. وأسلوب المقابلة هو الأسلوب الأمثل لعرض هذه الصور وتلك المشاهد، لكي يعتبر بها في الدنيا من يعتبر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝﴾[2].

وسوف نعرض لبعض صور المقابلة في مشاهد القيامة، وفي مواقف مختلفة مع الأخذ في الاعتبار أن تلك المشاهد أكبر من أن تحدها هذه الجزئية الصغيرة في هذا البحث :

١- في مشهد إيتاء الكتب :

يحصى الله القدير أعمال عباده في الدنيا ويسجلها عليه الملكان المتلقيان رقيب وعتيد ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ

---

(١) المؤمنون : ٣٥ - ٣٧

(٢) ق : ٣٧

حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ [1].

وفي يوم القيامة تنشر هذه الصحف على الملأ، ويعطي كل إنسان كتابًا دون فيه كل صغيرة وكبيرة في حياته ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [2]، ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [3].

فمن كان عمله صالحا أعطى كتابه بيمينه؛ ومن كان عمله سيئا يقذف إليه كتابه وقد غلت يمينه إلى عنقه وتسلمه بشماله من وراء ظهره وقد صور القرآن الكريم هذا المشهد في أكثر من موضع، وكانت المقابلة هي جوهر الصورة، ولب المشهد، وبغيرها لم يكن المشهد مصورا أو موثرا .. وهاك نموذجين من هذا المشهد:

أ- قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ [4]

في هــذه الآيــات مقابلــة بين صورتين : صورة المؤمن الكادح المجتهد في عمله، المستيقين بلقاء ربه في الآخرة، ولقاء هذا الكدح مدونا في كتابه [5] - فهو يقضي حياته في كــدح ونصب ومراقبة لله في كل قول أو فعل ومن ثم يؤتي كتابه بيمينه، ويحاسب حســابا سهلا هينا، فيجازي على حسناته،ويتجاوز عن سيئاته، ثم يلقى أهله وصحبه

---

(١) ق: ١٦ - ١٨

(٢) الزلزلة ٧-٨

(٣) الإسراء : ١٣ - ١٤

(٤) الانشقاق : ٦-١٥ و معنى (يحور) : يرجع ، قال لبيد : (يحور رمادا بعد إذ هو ساطع) و عن ابن عباس : ما كنت أدرى ما معنى يحور، حتى سمعت أعربية تقول لبنية لها : حورى أى ارجعي (انظر الكشاف ٢٣٥/٤).

(٥) مدارك التتزيل وحقائق التأويل للنسفي، ٣٤٣/٤.

وهو مسرور مبتهج بالنجاح الذي حققه، والرضا الذي ناله، لقد تعب وشقى في الدنيا وجاهد نفسه وكفها عن كثير من الملذات والشهوات، وها هو الآن سعيد جذلان.

ويقـــابل ذلك صورة هذا الذي قضى حياته الدنيوية في اللهو والسرور، ظانا أنه لن يرجع إلى ربه فإذا به يـــحـــور، ويعطى كتابه بشماله من وراء ظهره وقد غلت يمينه إلى عـــنقه [1]، وهـــو يصرخ : يا ثبوراه فقد تحقق أنه لا محاله هالك، ومَصْلِيٌّ في سعير جهنم.

لقد استغرق اللهو والغفلة والسرور كل حياته، وها هو الآن على هذه الصورة من الخزي والذل والهوان.

وبالإضافـــة إلى المقابلة في الصورة الكلية، والمشهد العام لكلا الفريقين، فإن هناك مقابلات جزئية في داخل الإطار العام للمشهد، تمثل النسيج الحي للصورة الكلية، هذا النســـيج الذي يعطيها التماسك والترابط، ويضفى عليها لمسات من الجمال الفني المعبر والمؤثـــر، وهـــذه المقابلة الجزئية نلمحها بين إعطاء الكتاب باليمين وإعطائه من وراء الظهـــر، وبـــين الحساب اليسير والسرور في مقابل الـــثبور والاصطلاء بالسعير، وبين سرور الكافر في الدنيا وشقائه في الآخرة، وشقاء المؤمن وكدحه في الدنيا وسروره في الآخرة.

ولم يكـــن لهذا المشهد أن يعطي التأثير المطلوب بغير أسلوب المقابلة، فهي وحدها التي وضحت الفرق بين الفريقين، ونهاية كل فريق منهما.

ب- نمـــوذج آخـــر للمقابلة في مشهد تسلم الكتب، ولكن المقابلة فيه تختلف عن سابقتها إذ تمتاز هنا بالبسط والتفصيل في عرض المشهد بكل دقائقه وجزئياته، ليتضح لكل ذي لب أن الطرفين لا يستويان :

قال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥)﴾ : ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠)

---

(١) الكشاف ٤/٢٣٥

(الحاقة : ١٨-٣٠) ويبدأ هذا المشهد بعرض الخلائق جميعهم على الله سبحانه، وقد كشف منهم ما كان خافيا (فالكل مكشوف الجسد والنفس والضمائر والعمل والمصير، ويتجرد الإنسان من حيطته ومكره، ومن تدبيره وشعوره، ويفتضح منه ما كان حريصا على أن يستره حتى عن نفسه، وإنه لامر عصيب. أعصب من دك الأرض والجبال، وأشد من تشقق السماء، أن يقف الإنسان عريان الجسد والنفس والمشاعر والتاريخ أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله من الإنس والجن والملائكة وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع)[١].

وبعد هذا العرض المكشوف أمام الجميع، يعطي كل واحد كتابه، وهنا ينقسم هذا المعرض إلى قسمين، وتبدأ المقابلة عملها، فتصورهما متقابلين في المشهد والشعور والقول والمصير :

فريق المؤمنين وقد أعطى كتابه باليمين، يقابله فريق الكافرين المكذبين أوتى كتابه بشماله.

ويطير الفريق الأول فرحا وبشرا، لا يسعه المكان من السرور فيجري ليرى أصحابه كتابه، ويدفعه إليهم ليقرءوه، ولا ينتظر حتى يقرءوه بأنفسهم، بل يبادر قائلا : لقد حسبت حساب هذا اليوم فاستعددت له بالعمل الصالح فنجاني الله من هوله.

ويقابل هذا المشهد وتلك المشاعر فريق الكافرين، وقد جلله الخزي والعار، فيتمنى — نادما — لو لم تأت هذه اللحظة التي افتضح فيها أمره ويود لو لم يدر ما حسابه، ويتفجع أسوان نادما : ليتها كانت القاضية القاطعة لأمري فلم أبعث لهذا الحساب.

وبعد هذا التقابل في المشهد والمشاعر والقول بين كلا الفريقين، يأتي أمر السماء إليهما بالانصراف من ساحة الحشد إلى حيث المصير الذي أعد لكل فريق، والتقابل الذي سنشهده في المصير يعطى صورة واضحة عما يستحقه كل منهما من جزاء ويقدم الأسباب التي من أجلها نال كل منهما ما ناله :

ففريق المؤمنين أصحاب كتاب اليمين، يلقى من التكريم النفسي والنعيم المادي والحسي ما يعوضه عما بذله في الأيام الخالية من جهد الطاعة ومشقه الالتزام، فهو في عيشة راضية، ذات رضا يرضى عنها صاحبها، وفي أعلى منزلة في الجنان ومع ذلك

---

(١) في ظلال القرآن : ٣٦٨٠/٦

فهـــي دانـــية القطوف (ينال منها القائم والقاعد والمتكىء[1]) والتقابل بين الجنة العالية والقطـــوف الدانية يوحى بالمتعة والنعيم والعيشة الراضية التي يحياها أصحاب اليمين في الجنة.

وفي مقـــابل ذلك، يصدر الأمر العلوى لزبانية جهنم أن يأخذوا الكافرين أصحاب كـــتاب الشمال عنوة، ويغلوهم ويوثقون قيدهم، ثم يسلكوهم في سلسلة طويلة يبلغ طولهـــا سبعون ذراعا، ويسحبون إلى نار جهنم وبئس المصير (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثـــم فـــي سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) في مقابل العيش الرضى والجنة العالية والقطوف الدانية.

ولكـــن المشهد لا يتركنا إلا وقد عرض علينا سبب هذا المصير، والتقابل في السبب أيضا جزء من نسيج هذه المقابلة الكبرى بين الفريقين.

لقد كان جزاء المؤمنين ما كان بسبب ما قدموا في الأيام الخالية واستحق أصحاب الشـــمال هـــذا الجـــزاء، لأنهم كانوا لا يؤمنون بالله العظيم، ولا يحضون على طعام المسكين.

وإذا كانـــت القطـــوف الدانية هي طعام المؤمنين في الجنة، فإن الغسلين[2] هو طعام الخاطئين من أهل النار.

وإذا كان التكريم والنعيم هو ما قوبل به المؤمنون، فإن التقريع والتوبيخ، والفضيحة على رؤس الأشهاد، والاتهام بالجحود والبخل — كل هذا هو ما يقابل به الكافرين.

وهكذا لعبت المقابلة دورا بارزا في تصوير المشهد: حين أعطت كل جانب حقه من الوصف مقابلا بالجانب الآخر.

لكـــن الملاحـــــظ هـــنا أن المشهد في جانب الكافرين ممتد ومتسع، وذلك لأن الجمـــال الفني، والتأثير الوجداني، والغرض الديني، كل ذلك يتطلب هذا التطويل حتى يتضـــح هذا الجمال، ويعمل التأثير عمله في الوجدان ويتحقق الغرض الديني من سوق المشهد (وهنا يشترك جرس الكلمات، وإيقاع العبارات مع السلسلة التي ذرعها سبعون

---

(١) تفسير النسفى : ٢٨٧/٤

(٢) الغسلين ما يخرج من الثوب ونحوه بالغسل، ويقصد به هنا : ما يسيل من جلود أهل النار كالقيح وغيره — المعجم الوسيط. مادة (غسل) ط٢ دار المعارف مصر ١٩٧٣.

ذراعــا – وذراع واحــدة تكفي – يشترك هذا كله في إطالة الموقف أمام النظارة وفي حسهم أيضا؛ ليتم التناسق بين المشهد المعروض والتأثير المطلوب[1].

ولعــل هذا التطويل في وصف مشاهد العذاب مقصود قصدا للتخويف والترهيب، حــتى يــرعوي الكفــار عن كفرهم حين يرون صورهم في الآخرة ماثلة أمامهم بهذا التفصيل.

٢- فــي مشــهد الــميــزان :

ورد ذكــر الميزان، والموازين، والقسطاس في القرآن الكريم، للدلالة على عدل الله المطلــق في حســاب العــباد على ما قدموا، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، قال تعالى ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾[2].

وقــد خاض العلماء في حقيقة الميزان، هل هو مادي أو معنوي؟ وكيف يزن؟ وما المــوزون؟ ولكــن المــتحفظين مــنهم قالوا (يجب الإيمان به ونــمســك عن تعيين حقيقته)[3].

ونحن نرجح أن يكون رمزا لعدل الله في محاسبة عباده.

وكما رأينا الناس في مشهد تسلم الكتب قد انقسموا إلى أهل اليمين وأهل الشمال، نجــد ميزان العدالة هنا يقسمهم إلى فريقين متقابلين، لا يستويان أبدا في المترلة والمآل، لأن عمليهما لم يتساويا في الميزان.

والفــريقان همــا : من ثقلت موازينه ورجحت لأنها مملوءة بصالح الأعمال ، ومن خفت موازينه وخلت من الطيبات. وهذه بعض النماذج لمشهد الميزان :

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[4] ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن : سيد قطب : ١٨٥ دار الشروق.

(٢) الأنبياء : ٤٧

(٣) انظر شرح البيجوري على الجوهرة ، المسمى تحفة المريد على جوهرة التوحيد ، للإمــام إبراهيــم البيجوري ص١٦٥ ط صبيح ، القاهرة ١٩٥٤

(٤) المؤمنون : ١٠٤

﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝ ﴾[١].

والمقابلة في الآيات، توضح أن المؤمنين قد ثقلت موازينهم بالأعمال الصالحة ففازوا في الآخرة بالفلاح، (وفي المعاجم اللغوية : أفلح الرجل : ظفر بما يريد، وأفلح المؤمن : فاز بنعيم الآخرة) ولعمري ما يريد المؤمن أكثر من الفوز برضا الله ونعيم الآخرة.

ونلاحظ أنه في آيات الميزان : يكتفي القرآن بإثبات الفلاح أو العيش الرضى لمن ثقلت موازينه، ولكنه في الجانب المقابل يزيد ويفصل في وصف العذاب الذي يلحق بمن خفت موازينه، ففي آيات (المؤمنون) نجدهم قد خسروا أنفسهم وذلك هو الخسران المبين، ثم ألقوا في نار جهنم تلفحهم بلهيبها، فتعبس وجوههم وتتلقص شفاههم عن أسنانهم[٢]، ويتلقون من التقريع والسخرية والزجر ما يزيد في آلامهم وشقائهم :

﴿ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ۝ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَـٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ۝ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّـٰحِمِينَ ۝ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ۝ ﴾[٣].

ب- وفي سورة القارعة نرى مشهدا آخر، مصورا ومجسما يفيض بالسخرية والاستهزاء وتتميز صورته عن سابقه بالجدة والطرافة والتشخيص الحي قال تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝ ﴾[٤].

إنه يكفي لمن ثقلت موازينه هذه العيشة الراضية، ترضيه وتحقق له كل رغباته. لكن الجانب المقابل لا يكفيه مجرد العذاب ومن ثم فإن روح السخرية والتجاهل تشيع في جوانب الحكم عليه، إن أمه ومأواه هاوية، تهوى به في الحضيض، ويؤكد المرحوم الأستاذ سيد قطب هذه السخرية حين يلحظ التقابل بين خفة الموازين وارتفاع كفتها

---

(١) الأعراف : ٨ – ٩

(٢) كلمات القرآن : ٢١٥ في تفسير معنى (كالحون).

(٣) المؤمنون : ١٠٤ – ١١٠

(٤) القارعة : ٦ – ١١

وبين هوي المأوى إلى الحضيض، وكذلك ينم أسلوب الاستفهام في قوله وما أدراك ما هـيه ؟ عن الإمعان في التجاهل والتجهيل، لأنه لما كان التعبير ب فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ غامضـا لم يسبق وروده، وهذا الغموض مقصود للتهويل بالمصير المجهول، فقد أعقبه سؤال التجهيل وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ ؟ ثم التفسير :نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ [1].

ج- ومـيزان الله سبحانه ميزان دقيق وحساس { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ } [2]، والـتقابل بـين المثقالين هنا، وكذلك بين ذرتي الخير والشر، يؤكد تلك الدقة وهذه الحساسية، فهو يزن الذرة التي لا وزن لها في عالم الماديات فما بالك بذرة الخير والشر وكلتاهـما مـعنوى .

د- وأعمـال الكافرين لخفتها وعدم ثقلها تتطاير كالهباء تذروه الرياح وفي مقابل ذلـك فـإن أعمـال المؤمنين لثقلها واطمئنانها واستقرارها كانت سببا في استقرارهم وحسـن مقيلهم وهـم ناعموا البال في ظلال الجنة الوارفة، بينما يصيب الكافرين من الهلـع والفـزع ما يجعلهم يصرخون بصيحتهم المعهودة حين تنزل بهم نازلة : حجرا محجورا[3] : يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ [4].

إن المقابلـة في مشـهد الميزان أضفت على عملية الحساب طابعا تصويريا مجسما، ونقلت إلينا المشهد في الدنيا، فكأننا نراه ونعيشه في الآخرة، وهذا من بلاغة المقابلة في هذا الباب.

٣- في مشهد الوجوه :

نتـناول هنا المقابلة في مشهد وجوه الخلق يوم القيامة، أو بمعنى آخر التأثير المتقابل ليوم القيامة على وجوه الناس.

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن : ٦٥

(٢) الزلزلة : ٧ - ٨

(٣) تفسير الفخر الرازي - المشتهر ب (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب) للإمام محمد الرازي ٧١/٢٤٣ ط ١ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨١، أنظر ترجمة الرازي في الأعلام ٣١٣/٦ وفي وفيات الأعيان ٢٤٨/٤ - ٢٥٢.

(٤) الفرقان : ٢٢ - ٢٤

إن وجــه الإنسان هو المرآة التي تنطبع عليها أحاسيسه الداخلية وما يدور في نفسه من هواجس (ومهما يحاول المرء إخفاء المظاهر الخارجية لانفعاله ليتصنع الهدوء والثبات أو ليتجنــب الانكشـــاف والاعتراف كالمتهم بالقتل، [فالصب تفضحه عيونه]. كما يقول الشاعر وقد أثبتت الدراسات النفسية أنه لا يمكن لأي شخص أن يخفى انفعالاته – واخترعت اجهزة لكشف محاولة الكذب والخداع)[1].

ومـــن هـــنا كانت وجوه العباد يوم القيامة دليلا على هويتهم، ومعلما من معالم عقيدتهم وأفعالهم، وفي الامثال (تخبر عن مجهوله مرآته)[2].

ولا شـــك أن الفزع والهول سوف يصيب العباد جميعا لحظة البعث وساعة القيامة، ولكـــن عندما يمن الله على خلقه ويعطيهم صحيفة أعمالهم، فلسوف يطمئن المؤمنون ويزيد فزع الكافرين، وهنا تظهر على الوجه أمارات كل فريق، ويصبح مجرد النظر إلى الوجوه كافيا للتعرف على مصير أصحابها.

ولقـــد بـــين لنا القرآن الكريم أن وجوه المؤمنين المتـــقيـــن المحسنين سوف تكون بيضاء مسفرة، يعلوها الاســـتبشار وتنطق بالضحك، إنها ناعمة ناضرة لا يرهقها قتر ولا ذلة ولا يمسها ســـوء.

وفي مقابل ذلك سوف تكون وجوه الكافرين المكذبين مسودة كأنما أغشيت قطعا مـــن الليل مظلما، باسرة كالحة ذليلة، خاشعة، يعلوها الغبر ويكسوها القتر والنصب. وهذه بعض النماذج لهذا الجانب :

أ- في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝ ﴾[3].

تبين لنا المقابلة الفرق الشاسع بين وجوه تكتسي بالنضارة والإشراق، لأنها تنظر إلى جـــلال الله وكماله، والنظر إلى جلال الله هو تلك الزيادة التي عبر عنها القرآن في آية

---

(١) انظر علم النفس ودراسة التوافق: د.كمال دسوقي : ٢٠٨ ط ٢ من سلسلة تكنولوجيا العلوم الاجتماعية، مصـــر ١٩٧٦.

(٢) المنتخب من أدب العرب : ١٩٨/٤ جمعه وشرحه : أحمد الإسكندري وأحمد أمين وعلي الجارم وآخران ط دار الكتاب العربي في مصر ١٩٥٣

(٣) القيامة : ٢٠ – ٢٥

أخرى بقوله ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾[1]. وكيف يلحقها القتر أو الذل وقد رضي الله عنها فتجلى لها ؟

ووجوه باسرة شديدة الكلوح والعبوس والتقطيب، مهمومة بما يعتمل في داخلها من التوجس والتوقع لكارثة تقصم فقارها. والمقابلة بين الفريقين والوجهيـن تظهر إلى أي مـدى مـن السعادة والرضا وصل المؤمنون، وإلى أي درك من الكدرة والتنغيص وسوء المنقلب وصل الكافرون، وما نظن أن أسلوبا آخر غير أسلوب المقابلة بقادر على تصوير هذا المشهد من مشاهد القيامة.

ب- وهذه مقابلة أخرى بين الوجوه، تمتاز عن سابقتها بالإطناب في وصف الملامح وذكر الأسباب التي من أجلها وجد التقـابل والتفاوت بينهما ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝ ﴾[2].

إن التـقابل هنا ظاهر وواضح بين الوجوه الخاشعة الذليلة المرهقة والوجوه الرقيقة الناعمة الراضية عن سعيها.

وبـين الـنار الحامية تصلى هذه الوجوه بلظاها، وتقلق أصحابها بصخبها وزفيرها والجنة العالية بهوائها الرطيب، وهدوئها الذي ينسجم مع هدوء أصحابها ورضاهم.

وبـين شراب الكافرين، حيث يسقون من عين بلغت أناها وغايتها في الحرارة. لا بارد ماؤها ولا كريم، ويطعمون الضريع المر المنتن الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

وشـراب المؤمـنين الطيب الرطيب المستخرج من عين عذبة، ماؤها جار يتجدد ومقدم في أقداح من فضة يجدونها أنى شاءوا معدة للشراب الطهور.

وبين مقام الكافرين في داخل جهنم يصطلون بنارها.

---

(1) يونس : ٢٦

(2) الغاشية : ١ - ١٦، والغاشية هي الداهية تغشى الناس بشدائدها، وتلبسهم أهوالها يعني القيامة. من قوله تعالى {يوم يغشاهم العذاب} وقيل : النار، من قوله تعالى : {وتغشى وجوههم النار} :انظر الكشاف : ٢٤٦/٤.

ومقـــام المؤمنــــين عـــلى الأسرة المرفوعة تكريما، والنمارق المصفوفة، والبسط المفروشة.

من هذه المقابلات يتضح أنه قد اجتمعت للمؤمنين كل العوامل النفسية والمادية التي تجعـــل وجوههـــم منبسطة الأسارير ناعمة راضيـــة، واجتمعت للكافرين كل عوامل النصب والشقاء والقلق التي تجعل وجوههم خاشعة ذليلة مهمومة.

وهذه المقابلة الكاملة في الجزئيات هي المادة الأساسية التي تكون الصورة الكلية لهذا المشهد المتقابل في تناسق عجيب يتميز به الأسلوب القرآني.

ح- ومثل هذا التقابل في مشهد الوجوه نلحظة بسهولة في مثل قوله تعالى : وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ (1)

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (2) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [عبس:٣٦-٤٠] ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ (3).

٤- التقابل في المصير :-

رأيـــنا فيما سبق تقابلا في مشهد تسلم الكتب، وعند الميزان، وكذلك التقابل بين الوجـــوه، وســـنعرض فيما يلي لمشاهد متقابلة في مصير المؤمنين والكافرين، من لحظة استقبالهم على الأبواب إلى حيث يستقر كل فريق في مكانه في الجنة أو النار ثم نعرض لمشهد من التقابل النفسي.

---

(1) الزمر : ٦٠ - ٦١

(2) يونس : ٢٦ - ٢٧

(3) عبس : ٣٨ - ٤٢

أ- في مشهد الاستقبال :

تعـــرض سورة الزمر هذا المشهد بعد أن ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض

من الأحياء، ثم ينفخ في الصور مرة أخرى فيخرج الجميع من قبورهم قياما ينظرون، ويتجلى نور الله على البسيطة وتوفى كل نفس ما عملت .. وعند ذلك تستقبل النار أصحابها بكل مظاهر الازدراء والاحتقار والسخرية، وتستقبل الجنة أصحابها بكل مظاهر التكريم والاحترام : قال تعالى ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٧٤ ﴾ [1].

نـــلمح هـــنا أن الكافرين يستقبلون بالسخرية والتهكم، فهم يساقون إلى جهنم ، (يدفعون إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسرى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل[2]) ولا يتركهم خزنة جهنم إلاّ وقد سقلوهم بأسئلة التبكيت والتقريع التي لا يملكون لها إجابة إلا الاعـــتراف بذنبهم، ثم يؤمرون بالدخول في أبواب جهنم للخلود فيها، فأقبح به من مثوى للمتكبرين.

وفي مقابل هذا العنف والاستهزاء (تساق مراكب أهل الجنة، لأنه لا يذهب بهم إلا راكـــبين إلى دار الكـــرامة والرضوان. كما يفعل بمن يكرم ويشرف من الوافدين على بعـــض الملـــوك)[3]. وهذا هو الفرق بين السوقين، والمقابلة بينهما أيضا مع ما بين الفعلين من جناس تام.

---

(١) الزمر : ٧١ - ٧٤

(٢) الكشاف : ٤١١/٣

(٣) تفسير النسفي : ٦٧/٤

ويسـير أهل الجنة في هذا الموكب الفخم، فيجدون الجنة وقد فتحت أبوابها أمامهم استعدادا لدخولهم، وهنا يجدون كل مظاهر الترحيب والاحترام، ولا تلقى عليهم أسئلة مـن أي نـوع، بل يخفهم خزنتها بالسلام والأمان وطيب القول، ويدعون للدخول والخلـود في أطيب مقام، وعندئذ يتوجهون بالحمد والثناء والإكبار لله الذي صدقهم وعـده : وترجع معهم الملائكة هذا الحمد والتسبيح من حول العرش فيتجاوب المكان كلـه بهـذا القول (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) ويعبق الجو بهذا الأريج الطيب.. كل ذلك في مقابل زفير جهنم واصطراخ أهلها وتخاصمهم.

وهناك ملمح لطيف أشار إليه الزمخشري في الكشاف في الفرق الدقيق بين استخدام الواو مع (فتحت) في جانب أبواب الجنة وعدم استخدامها في جانب أبواب جهنم وهو أن أبـواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها ، وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها بدلـيل قوله : جنات عدن مفتحة لهم الأبواب، فلذلك جئ بالواو كأنه قيل : حتى إذا جاؤها وقد فتحت أبوابها[1].

ونضيف إلى ذلك أنه ربما أغلقت أبواب النار فلا تفتح إلا وقت الدخول فيها حتى لا يخرج منها وزفيرها وزخمـها[2] وضررها فيصيب غيرهم، بينما تفتح أبواب الجنة قبل الدخول، لأن ريحها طيب يتمناه كل إنسان وحتى يراهامن بعيد أهل النار فيزداد ألمهم وندمهم.

ب- في مشهد من الداخل :

رأيـنا في النموذج السابق تقابلا بين مظاهر الاحتقار ومظاهر التكريم عند استقبال الفريقين، ونعرض هنا لنموذج لتقابل في هذه المظاهر بينهما ولكن في داخل الجنة وفي داخل النار :

جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا

---

(١) الكشاف : ٤١١/٣.

(٢) في معجم الوسيط : زخم اللحم ونحوه زخما وزخمة : خبثت رائحتة وأنتن.

نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

إن صورة الأمن والراحة ممثلة في جنات عدن وفي دار المقامة وذهاب الحزن والشقاء تقابلها صورة القلق والاضطراب وتمني الموت للراحة دون جدوى.

ونعمة الشكر والدعاء والحمد تقابلها ضجة الاصطراخ وأصوات الاستغاثة.

ومظهر العناية والتكريم المادي والنفسي يقابله مظهر الإهمال والتأنيب.

(والجـرس اللين والإيقاع الموسيقى الهادئ الناعم الرتـيب، حتى أن لفظ (الحَزَنَ) لايتكأ عليه بالسكون الجازم، بل يقال (الحَزَنَ) بالفتح للتسهيل والتخفيف المنسجم مع جو الراحة والهدوء.

يقابلـه الجرس الغليظ، والإيقاع العنيف المختلط الأصوات من شتى الأرجاء وهم يصـطرخون فيها، فجرس اللفظ نفسه يلقى في الحس صورة من أصوات المنبوذين في جهنم بحشرجتها وغلظها متناوحة من شتى الأرجاء)[٢].

وبهذا التقابل يتم التناسق في الجزئيات والكليات على السواء ويظهر المشهد منسجما متكاملا.

عـلى أن هذه الصور المتقابلة التي عرضتها الآيات هنا إنما تأتي لتؤكد ما عرض في سـياق السورة من الحديث عن عدل الله المطلق، وعدم استواء الكفر والإيمان، كما لا تسـتوى المتناقضات الكثيرة في الحياة.. مثل قوله تعالى [٣]، وقوله وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾

وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ [٤].

وقبل أن نغادر هذا المشهد إلى غيره، نحب أن نناقش ما أثير حول ما ذكره الأستاذ سـيد قطـب من اشتراك الجرس الغليظ للفظ يصطرخـون في استحضار صورة من أصـوات المنـبوذين في جهنم بحشرجتها وغلظها متناوحة من شتى الأرجاء. ذلك أن

---

(١) فاطر : ٣٣ - ٣٧

(٢) أنظر : مشاهد القيامة في القرآن : ١٠٠

(٣) فاطر : ١٢

(٤) فاطر : ١٩ - ٢٢

المـــرحوم ســـيد قطب يرى أن القرآن الكريم يستخدم ألفاظا مصورة وأن التصوير هو القـــاعدة الأساســـية في تعبير القرآن، سواء أكان ذلك على مستوى العبارة الكاملة أو اللفـــظ الواحد وهو في تفسيره (في ظلال القرآن) وفي كتابه (التصوير الفني في القرآن) يستشهد على صحة رأيه هذا بالكثير من الأمثلة كما رأينا في لفظ (يصطرخون) وكما نلمح في كلمة (اثاقلتم) من قوله تعالى {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨} حيث ترتسم على الفور صورة الجســـم المتـــثاقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط من أيديهم في ثقل، وكما في جرس كـــلمة (ليبطئن) من قوله تعالى {وإن منكم لمن ليبطئن} من إحساس بالتبطئة مصورة حتى إن اللسان ليكاد يتعثر وهو يتخبط فيها حتى يصل ببطء إلى نهايتها[1].

فأستاذنا الدكتور عفت الشرقاوي في كتابه (الفكر الديني في مواجهة العصر) ينتقد هـــذا الاتجاه في التفسير تحت عنوان [النزعة الانطباعية في التفسير] لأنه يعطي للتذوق الذاتي للنص أولوية كبرى على حساب التحليل الموضوعي له، ونحن معه في أن التوازن بين حقيقة النص وموقعه على النفس مطلوب، حتى لا يحلق المتأولون بوجدانهم الخاص مـــترفعين عـــن كل قيد لغوي يرتبط بقواعد الكلام العربي من جهة، أو تاريخي يتعلق بمناســـبات الـــنزول من جهة أخرى[2]. ونحن معه أيضا في عدم مجاراة المرحوم الأستاذ ســـيد قطـــب عـــلى طول الخط – في دلالة جرس اللفظ على الصورة الخارجية، لأن الألفاظ قد تتصف بالإثارة الوجدانية دون ما تصوير حسي.

أمـــا ما استشهد به في هذا المجال من كلام للدكتور شكري عياد حول الرابطة بين جرس اللفظ ومدلوله، فإن لنا بعض التحفظ عليه، ذلك أن الدكتور شكري عياد يرى (أن الألفاظ – وإن لم تخل من محاكاة للواقع الخارجي الملموس – ليست صورة مطابقة لذلك الواقع، بل هي في مجموعها ردود أفعال له – فإذا ذهبنا نلتمس رابطة مطردة بين جرس اللفظ ومدلوله، ضللنا في مطاوي النفس البشرية، ولم نهتد إلى أصل يعتمد عليه

---

(١) انظر المزيد من التفصيل حول هذا الموضوع في كتاب التصوير الفني في القرآن ص ٦٨ وما بعدها.

(٢) انظر هذه القضية في كتاب : الفكر الديني في مواجهة العصر للدكتور عفت الشرقاوي تحت عنوان (النزعة الإنطباعية في التفسير).

في تقرير هذه الرابطة، وإن الألفاظ تفهم بما يرتبط في ذهن قائلها أو سامعها من تجارب نفسية أكثر مماتفهم بصورها الحسية)[1].

ونحن نرى أن هذا القول – إذا انطبق على الآداب والألفاظ البشرية – فلا يصح أن ينطبق على لغة القرآن الكريم وهي كلام الله الذي لا يستطيع مسلم أن يزعم أنه ردود أفعال للواقع، أو أن ألفاظه مرتبطة بتجارب نفسية لله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وقد نسبه الأستاذ الإمام محمد عبده في رسالة التوحيد إلى أن القرآن (صادر عن محض قدرته تعالى ظاهرا .. وباطنا، بحيث لا مدخل لوجود آخر بوجه من الوجوه، سوى أن من جاء على لسانه مظهر لصدوره، والقول بخلاف ذلك مصادرة للبداهة وتجرؤ على مقام القدم بنسبة التغيير والتبديل إليه؛ وليس في القول بأن الله أوجد القرآن بدون دخل لكسب البشر في وجوده ما يمس شرف نسبته، بل ذلك غاية ما دعا الدين إلى اعتقاده، فهو السنة، وهو ما كان عليه النبي وأصحابه، وكل ما خالفه فهو بدعة وضلاله)[2].

ومعنى ذلك أن القرآن بألفاظه وتراكيبه ومجموع نظمه له طبيعة خاصة تخالف ما عهدناه من لغة البشر، وهي طبيعة لا تدرك إلا بالمراس الطويل، ولا تتأتى إلا لمن يعايش القرآن ويستروح معانيه، تلك المعاني التي لا تقف عند حد معين، بل تفيض وتزيد كلما زاد البحث عنها وفاض وهي في كل مرة جديدة وبليغه، وليس في هذا حجرا على أرباب البلاغة بل هي دعوة إلى المزيد من التعمق والبحث للوصول إلى فهم القرآن وإدراك مراميه.

ج– في مشهد نفسي :

ورد في سورة الفجر تقابل بين الحالة النفسية التي سيكون عليها أهل النار والحالة التي سيكون عليها أهل الجنة في قوله تعالى : ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا

---

(١) انظر "من وصف القرآن ليوم الدين والحساب" : ٩٧ مخطوط للدكتور شكري عياد بمكتبة جامعة القاهرة.

(٢) انظر رسالة التوحيد للأستاذ الإمام محمد عبده : ٣٤ ط صبيح وأولاده سنة ١٩٦٥

يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝﴾. الفجر : ٢١ - ٣٠

والتقابل هنا يبين الجو النفسي الرهيب الذي يغشى الكافرين بسبب الفزع الذي يصيبهم والذي تدك فيه الأرض دكا دكا، وترسمه صورة الملائكة في صفوف منتظمة أمام رب العزة، فيتذكر الإنسان ويندم حيث لا تنفع الذكرى ولا يجدي الندم. في هذا اليوم الذي يجاء فيه بجهنم وزبانيتها؛ لا يعذب أحد كعذاب الله ولا يوثق أحد كوثاقة ونلاحظ أن بناء الألفاظ و موسيقاها الرنانة تساعد في إيقاع الرعب والفزع في نفوس أهل النار وفي الجانب المقابل نرى الطمأنة تنبعث من كل جانب، فينادي المؤمنون نداء رقيقا أن يرجعوا راضين مرضيين إلى رضوان ربهم أحرار طلقاء في مقابل الوثاق المحكم لأهل النار، ويدخلون في عباد الرحمن ممتزجين بهم في صفاء ومحبة إلى جنة الرضوان. ففي مقابل جهنم بصخبها وضجيجها تبدو الجنة التي يزيد في قدرها إضافتها إلى الرحمن (جنتي)

وكما لا حظنا أن بناء الألفاظ وإيقاعها يبعث الرعب والخوف في نفوس أهل النار، نلاحظ في المقابل أن الألفاظ والموسيقى في جانب أهل الجنة تمتاز بالهدوء والاسترخاء الذي يناسب الطمأنينة والرضا الذي يعيشه أهل الجنة.

٥- التقابل في المشاهد الحسية :(صور من النعيم والعذاب)

في حديث القرآن الكريم عن القيامة ومشاهدها يرد ذكر بعض المظاهر التي يغلب عليها الطابع الحسي كألوان النعيم التي يتلذذ بها أهل الجنة من مأكل ومشرب وملبس ومقام. وفي مقابل ذلك يذكر ما أعد للكافرين من صنوف العذاب التي يشقى بها أهل النار، وهي صنوف وألوان يغلب عليها الطابع الحسي أيضا كالطعام والشراب وغيرها.

وهذا النوع من المقابلة يتكرر كثيرا في السور المكية، ولكنه في كل مرة يأتي ليضيف جديدا، أو يؤكد معنى أو قيمة تحتاج إلى توكيد، ذلك أن التكرار في القرآن الكريم — أيا ما كان نوع المكرر — له من المعاني الثانية التي تكمن وراءه مايجعل لكل موقف شكلا متميزا، ويبدو فيه مغايرا للموقف الأول، كما أن له دلالته الفنية التي لا يسبر غورها إلا الفكر المتأمل، والذوق الشفاف، لأن للنظم القرآني طبيعة خاصة لا تدرك إلا بالمراس الطويل[1]

(١) انظر المزيد من الحديث عن بلاغة التكرار في القرآن الكريم — في كتاب المعاني الثانية في الأسلوب القرآني : ٤٢٩ - ٤٤٧

وقبل أن نسوق بعض النماذج لهذا النوع من التقابل، نعرض لما أثاره المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد بدوي في كتابه (من بلاغة القرآن) عن السبب في ذكر القرآن لبعض اللذائذ الحسية التي تنبعث منها إثارات جسدية لا يعني الأدب بإثارتها، نظرا لارتباط ما أثاره بحديثنا عن المشاهد الحسية لنعيم الجنة وما يقابلها من عذاب.

وقد أثار الدكتور بدوي هذا الموضوع حين تكلم عن المنهج الأدبي في القرآن، وهو يعني بالمنهج الأدبي (هذا المنهج الذي يتجه إلى إثارة وجدان القارئ إثارة روحية رفيعة تحدث السرور في النفس فتقبل – أو تحدث فيها الألم فتأبي وترفض، ثم يقرر أن القرآن الكريم غني بذلك، لأنه لا يعتمد على التفكير وحده ليقنع، ولكنه يتكئ عليه وعلى الوجدان ليستميل، فهو في وعده ووعيده وأوامره ونواهيه، وقصصه ووصفه، وابتهاله وتسبيحه، بل في أحكامه وبراهينه، لا يغفل هذه الناحية من نواحي النفس الإنسانية، لأن العمل غالبا يرتبط بها ويقترن، فالقرآن يهاجم ببلاغته جميع القوى البشرية ليصل إلى هدفه من تهذيب النفس وحب العمل الصالح والإيمان بالله واليوم الآخر[1].

ونحن ندرك صحة هذا الرأي وسداده حين نقرأ معه تلك النماذج الرفيعة التي يوردها من الأدب القرآني، ليدلل بها على صدق دعواه، ونحس – بالفعل – أنها لا تخاطب العقل وحده، بل تستثير فينا قوة الإدراك والفهم، وقوة الانفعال التي تستجيش العواطف، وقوة الإرادة التي تدفع الإنسان للتغيير.

ولكن الأستاذ أحمد بدوي وجد نفسه مضرا للوقوف عند بعض النصوص القرآنية التي يبدو فيها أنها تبعث إثارات جسمية ولذات جسدية من طعام وشراب ونساء لا يعني الأدب بإثارها.

فدافع عنها بأن القرآن معني باستمالة الناس جميعا إليه، وفيهم المثالي ذو اللذة الروحية السامية، والواقعي الذي لا يسمو بروحه عن واقع الحياة، فنزل القرآن وفيه هذان الاتجاهان، حتى يجد فيه كلا الفريقين بغيته.

ومع تقديرنا لرأي الكاتب، وإخلاصه للقرآن وقضاياه، إلا أننا نميل إلى ما رآه أستاذنا الدكتور فتحي عامر – من أن مفهوم المثالية والواقعية في حياتنا الدنيا أمر نسبي متغير وليس قيمة مطلقة.

---

(١) من بلاغة القرآن، الدكتور أحمد بدوي : ٣٧ وما بعدها.

فالواقعية معنى يخضع للاعتبار، فرضا الفقير بالفقر أمر واقعي، وتطلعه إلى الغنى أمر واقعي أيضا، واستسلام المظلوم للظلم أمر واقعي وتمرده عليه أمر واقعي أيضا.

والمثالية كذلك معنى يخضع للاعتبار، فالذي يطيع رئيسه طاعة عمياء مثالي في نظر رئيسه، جبان متخاذل في نظر قرنائه وعارفيه .. وهكذا – أما معاني الآخرة فإنها أبعد من هذه وتلك، إنما حياة لا يستطيع العقل البشرى أن يتصور كنهها إلا بهذه الأمثلة التقريبية المحسوسة، حيث ينتقل الذهن من عالم الخيال المطلق إلى أنماط من المجسمات والمرئيات، وما دام الإنسان مركبا من الطين مستقرا فيه، ممتزجا به، فهو لا يستطيع أن يحلق فوق الزمان والمكان إلا بعين من الخيال الفذ، وهنا يظل هائما في الفضاء لا يستقر على حال.

والخيال لا يشبع الجوانب الشهوية التي ركبت فيها مع الطين فالأمثلة الأرضية المحسوسة تطفئ وقدة التطلع، وتجعل الإنسان قادرا على تصور غير الموجود بإدراكه المحدود ، فإذا تخلص الإنسان من طينه فلا مشكلة إذن، لأنه يرى ما لم يكن قد رأى، وتسبح روحه حرة طليقة مع الآمال والأحلام. وينتهي الدكتور فتحي عامر من وجهة نظره تلك بأن الشيء الذي يسلم به بالبداهة، أن هناك جنة ونارا، وثوابا وعقابا، أنهارا ليست كالأنهار التي نعرفها، فواكه ليست كالتي نأكلها في الدنيا، وإلا فما معنى (فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت لا خطر على قلب بشر[1]) ؟.

ونعود إلى سياق حديثنا عن المقابلة في المشاهد الحسية للنعيم والعذاب يوم القيامة، فنورد هنا بعض النماذج لذلك، مكتفين بالإشارة إلى مواضع الكثير منها في الهوامش[2]

أ- ورد في سورة الدخان قول الله تعالى :

قال تعالى : إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن

---

(١) انظر : بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ للدكتور فتحي عامر : ٢٩٢

(٢) وورد هذا النوع من المقابلات في كثير من السور المكية ومنها :
مريم (٦١ – ٧٢)، يس (٥٣ – ٦٨)، الصافات (٤٠ – ٦٨)، النبأ (٢١ – ٣٦)، النازعات (٣٧ – ٤١)، الانفطار (١٣ – ١٩)، المطففين (٧ – ٣٦)، الطور (١٣ – ٣٨).

سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ [1].

في هـذه الآيـات تقابل بين ما أعد للكافرين من صنوف العذاب الحسية كالطعام والشراب والتنكيل، وما أعد للمؤمنين في مقابل ذلك.

إن طعـام أهل النار الذي أعد لهم هو الطعام الأثيم (الفاجر الكثير الآثام)[2]. وهذا الطعام مأخوذ من نبات شجرة الزقوم، تلك الشجرة التي ورد ذكرها في القرآن كثيرا، قال تعالى ﴿لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾[3] وقال في وصفها ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾[4].

وهـي شجرة مرة كريهة الرائحة، وطعامها قاتل كما تذكر المعاجم اللغوية[5] "وهي طعـام أهـل النار، يقبلون عليها بنهم فيملئون منها البطون، لأنه لا طعام غيرها وغير الغسـلين مـن القيـح والدم ويرى المرحوم الأستاذ سيد قطب أن لفظ الزقوم يصور بجرسه ملمسا خشنا شائكا مدببا يشوك الأكف بله الحلوق"[6].

وممـا يزيد في قزازة الزقوم وفظاعته أنه في الآخرة كالمهل (الزيت المغلي أو المعدن المـذاب[7]) تصـهر به أحشاؤهم من الداخل وتكوى به جلودهم من الظاهر ويغلي في بطونهـم كغلي الحميم (وهو الماء الذي بلغ غاية الحرارة)[8]، ولا يكتفي القرآن بتصوير هـذا الطعـام بتلك الصورة الفظيعة الشنيعة، بل إنه ينبه إلى أن هذا الطعام مصحوب بعـذاب بدني آخر، فهؤلاء زبانـية جهنم يأخذونه ويعتلونه فيجرونه بعنف وقهر إلى وسط الجحيم، ويصبون الحميم المغلي على رأسه، فيضاف إلى آلام الباطن آلام الظاهر.

---

(١) الدخان : ٤٣ - ٥٧

(٢) تفسير النسفي : ٤ / ١٣١

(٣) الواقعة : ٥٢ - ٥٣

(٤) الصافات : ٦٢ - ٦٥

(٥) المعجم الوسيط : مادة (زقم) .

(٦) في ظلال القرآن : ٣٤٦٥/٦

(٧) كلمات القرآن، مخلوف : ٣١٣

(٨) نفسه : ٣١٣

ولنا أن نتخيل هذه الصورة المفزعة والحالة الشنيعة لواحد من أهل النار وهو يزدرد بـنـتـهم طعام الزقوم، وفي نفس الوقت يصب فوق رأسه الحميم، وفي اللحظة نفسها يـسحر بعنف ويلقى في سواء الجحيم. كل هذا وكلمات التقريع والسخرية تلقى عليه من كل جانب (ذق) أيها الكريم في دنياك المتعالي على الرسول ورسالته، فهذا العذاب هو ما كنت تماري فيه وتجادل.

ويذكر السيوطي أن قوله تعالى {ذق إنك أنت العزيز الكريم} نزلت في أبي جهل، فحين لقيه الرسول صلى الله عليه وسلم، قال له : إن الله أمرني أن أقول لك ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ [1]، فـنزع أبـو جهل ثوبه من يده قائلا ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، لقد علمت أني أمنع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم، فقتله الله يوم بدر، وأذله وعيره بكلمته[2].

ولكـنـنا نرى في الآية تهديدا مباشرا لكل من ظن نفسه عزيزا كريما على الله وعلى المرسلين، فالعزة لله وحده، والكرامة يهبها سبحانه للأتقياء من عباده.

فإذا تركنا أهل النار واتجهنا إلى الجانب المقابل للصورة التي عليها الكفار فإننا نرى المـتقين في مقام أمين وكريم، إنهم يسرحون ويمرحون في جنات ندية تعطرت أجواؤها بنسـائم رقـيقة من العيون المنبثة فيها. وهذا في مقابلة الجحيم الذي يمثل الكافرون في سوائه.

ثم هـم يلبسـون من الملابس الفاخرة الحرير بنوعيه : السندس الرقيق والاستبرق السميك ويجلسون مكرمين على الأسرة متقابلين يسمرون بأحلى حديث وأعذبه وقد زوجوا بالحور العين. في مقابل النكد والهم الذي يغشى الكافرين.

أما طعامهم، فإن لهم ما يطلبون، لأنهم أصحاب الدار المكرمون، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين، في مقابل الزقوم والمهل والحميم.

وهـم في الجنة مقيمون في نعيمها إلى الأبد، فلا موت فيها، فقد ذاقوا الموتة الأولى، ونجاهم الله من عذاب الجحيم بفضله وكرمه وذلك هو الفوز العظيم.

وهكذا أسهمت المقابلة في إعطاء صورة كاملة لمشهد من المشاهد الحسية يوم القيامة يتمـثله الناس شاخصا أمام أبصارهم، فيطرب المؤمنون وينتشون لما أعد لهم من نعيم،

---

(١) القيامة : ٣٤ – ٣٥

(٢) أسباب النزول للسيوطي : ١٥٢/٤

ويــرتعد الكافـــرون من هول المصير، فيفكرون مرات ومرات وربما هداهم التفكير، وأقنعهم المشهد بالعدول عماهم فيه من غي وضلال.

ب- وهـــذا نمـــوذج آخر من النماذج الحسية لمشهد النعيم والعذاب، يختلف عن المشهد السابق

في أمرين :-

١- الإطالة المقصودة قصدا في وصف ألوان النعيـــم التي يتمتع بها المؤمنون، وذلك لأن هــــذا النعيم أعد لفريقين من المؤمنين وليس لفريق واحد، وهما السابقون السابقون بإيمـــانهم وأعمالهم وأصحاب اليمين، والفريق الأول مكون من جماعتين ثلة من الأولين وقلـــيل من الآخرين، والفريق الثاني مكون أيضا من جماعتين ثلة من الأولين وثلة من الآخـــرين، ولا شك أن هذه المجموعات تحتاج إلى مزيد من النعيم ومزيد من الرفاهية ومن ثم قلنا إن المشهد قد قصد فيه التطويل قصدا ليلائم حاجات هؤلاء جميعا.

٢- أن صور العذاب في جانب الكفار مصحوبة هذه المرة بالأسباب التي من أجلها اســـتحقوا هـــذا العذاب، واستحضرت فيها الأفعال والأقوال التي ارتكبوها في الدنيا لـــتكون دليل اتهامهم وشاهد كفرهم والنموذج الذي قدمنا له هذا التقديم من سورة الواقعة[1] قال تعالى :

وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ

﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ

---

(١) الواقعة : ٧ - ٥٦

مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ
وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾
وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ
يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا
ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾
هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

ولا شك أننا إذا أعدنا قراءة الآيات، سيتضح لنا التقابل الحاد بين صور النعيم وصور العذاب، وكل منها صور حسية لألوان من الطعام والشراب والمقام والنساء وسيتضح لنا ما قلت في التقديم لهذا النموذج من الإطالة المتعمدة في وصف النعيم وذكر الأسباب التي من أجلها استحق أهل الشمال ما أعد لهم.

لكن الذي يلفت الانتباه في هذا النموذج أن المقابلة هنا تأخذ شكلا متميزا، بل أكاد أقول إنه شكل فريد، فنحن هنا أمام ثلاثة أطراف للمقابلة لا طرفين، والأطراف الثلاثة هي :

١ - أصحاب الميمنة.

٢ - أصحاب المشأمة.

٣ - السابقون السابقون.

وإذا أمعنا النظر في هذه الأطراف الثلاثة وجدنا أن فيها مقابلتين :

الأولى : بين أصحاب الميمنة وبين السابقين السابقين، والمقابلة هنا ينطبق عليها ما سبق أن بيناه في التمهيد من معنى التناسب والتماثل ومراعاة النظير، وقد ذهب غير واحد من علماء البلاغة إلى أن المقابلة (تكون بالجمع بين المعنيين اللذين يكون بينهما نسبة تقتضي لأحدهما أن يذكر مع الآخر. من جهة ما بينهما من تباين أو تقارب على صفة في الوضع تلائم بها عبارة أحد المعنيين عبارة الآخر، كما لاءم كلا المعنيين في ذلك صاحبه[1]) فبين أصحاب الميمنة والسابقين مقابلة بالتماثل ويؤكد ذلك أن

---

(١) انظر المقابلة عند حازم القرطاجني في منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٥٢ - ٥٥ وكذلك عند الزركشي في "البرهان في علوم القرآن" ٤٥٨/٣

أصـــحاب الميمـــنة يـــتكونون من ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، وأصحاب السبق المقربين يتكونون أيضا من ثلة من الأولين وقليل من الآخرين.

والثانية : بين أصحاب المشأمة (الطرف الثاني في الثلاثي السابق) وبين المؤمنين جميعا ممـــثلين في (أصحاب الميمنة والسابقين السابقين) وهي هنا مقابلة بالتضاد على اعتبار أنهما نقضيان في العمل وفي الجزاء على حدسواء.

وقد خصت السورة جزاء كل طرف من هذه الأطراف الثلاثة ووضحت التقابل بينها في قوله تعالى : ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾[1].

٥- المقابلة في مشاهد القيامة بين المكي والمدني :

تـــرد المقابلـــة في مشـــاهد القيامة في القرآن المكي بكثرة كاثرة كما رأينا في هذا الفصل.

ولكـــنها ترد في القرآن المدني قليلا جدا بالقياس إلى المكي، ولا شك أن السبب في ذلك راجع - كما قلنا سابقا - إلى أن القرآن في مكة كان معنيا - بالدرجة الأولى - بـــناء العقـــيدة الصحيحة، والإيمان باليوم الآخر وما فيه يعتبر جزءا أساسيا من عقيدة الإسلام، وبدونه لا يصح الإيمان.

ومن هنا كثر الحديث عن اليوم الآخر، وعن مشاهد القيامة في القرآن المكي، بينما قل الحديث عن ذلك في القرآن المدني، لأن العقيدة كانت قد وضحت بما فيه الكفاية، فانصـــرف جلـــه إلى معالجـــه قضايا أخرى تتصل بتكوين المجتمع الإسلامي والتشريع لقوانينه ونظمه في الداخل والخارج.

ومع أن المقابلة في مشاهد القيامة قليلة جدا في المدني[2]، إلا أن لها طابعا مميزا، وسمة بارزة تدل عليها وتعرف بها من خلال الملاحظة الهادئة، والتأمل الواعي للمقابلات في

---

(١) الواقعة : ٨٨ - ٩٦

(٢) انظر المقابلة في مشاهد القيامة في السور المدنية الآتية :-
البقرة (٢٤ - ٢٥)، النساء (٥٦ - ٥٧)، الحج (١٩ - ٢٣)،(٥٦ - ٥٧)،الرحمن (٤١ - ٧٨)، التغابن (٩ - ١٠).

الجانبين، وبالمقارنة الموضوعية بينهما، نستطيع أن نسجل الاختلاف بينهما في نقطتين أساسيتين :-

الأولى :-

أن المواقف الذي تعرضها المقابلة في المكي تختلف عن نظائرها في المدني، فبينما ترتبط مقابلة المشاهد في المكي بتدعيم العقيدة والرد على منكري البعث والمكذبين بيوم الدين، فإنها في المدني ترتبط بمواقف تشريعية أو أخلاقية أو حربية اقتضتها ظروف النشأة والتكوين للمجتمع الإسلامي الجديد.

ومن المهم هنا ذكر بعض المواقف التي تعرض فيها مقابلة المشاهد في القرآن المدني، فمن هذه المواقف:-

أ- ارتباطها بالقتال والجهاد في سبيل الله، فمن الطبيعي أن بين القرآن — وقد حث المسلمين على الجهاد — منازل الشهداء في الآخرة، وما أعد لهم في الجنة من النعيم مقابلا بما ينتظر أعداءهم في النار من ألوان العذاب، وقد ورد ذلك في سورتي الحج ومحمد :

١ - ففي سورة الحج يرد قوله تعالى :

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

فقد نزلت هذه الآيات — كما ذكر السيوطي — في غزوة بدر تتحدث عن الفريقين اللذين نزلا إلى الساحة للمبارزة في بداية المعركة، وهما حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث من المؤمنين.

وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن ربيعة من الكفار. وفي رواية أخرى أنها نزلت في أهل الكتاب، قالوا للمؤمنين : نحن أولى بالله منكم وأقدم كتابا ونبينا قبل

نبيكم، فقال المؤمنون : نحن أحق بالله، آمنا بمحمد عليه السلام وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، فأنتم تعرفون نبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً[1].

والروايتان تؤكدان هنا شيئا واحدا هو ارتباط المقابلة بين الفريقين بموقف من مواقف التزال بين المسلمين وأعدائهم، سواء أكان تزالا بالسيف في ميدان القتال، أو بالكلمة في وقت السلم، ومن ثم تأتي هذه المقابلة المدنية لتبين جزاء كل فريق، وهو جزاء متقابل :

فالكفار قُدَّتْ لهم ثياب من نار تصهر به جلودهم.

والمؤمنون لباسهم في الجنة من الحرير الناعم الملمس يرفلون فيه نديا رخيا.

والكفار يصب الحميم على رؤوسهم فيكويهم ظاهرا وباطنا. والمؤمنون ترف عليهم النسائم الندية لما ينبعث من الأنهار التي تجري تحت الجنات من الرطوبة والنضارة.

والكفار لهم مقامع من حديد وسياط يضربون بها.

والمؤمنون لهم أساور من ذهب يتحلون بها.

والكفار في غم متجدد.

والمؤمنون في نعيم متجدد ودائم أيضا.

١- وهي في سورة محمد مرتبطة أشد الارتباط بالتعبئة المعنوية للقتال والجهاد، فالسورة تسمى أيضا سورة القتال، ومن ثم تأتى فيها بعض مشاهد القيامة بمثابة حفز للمسلمين على التضحية والجهاد، لأنهم إذا رأوا ما أعد لهم في الآخرة من النعيم، وما يقابله مما أعدلأعدائهم من صنوف العذاب.هانت التضحية ورخص الغالى والنفيس، وعرفوا أنهم على الحق فاستماتوا في الدفاع عنه، لأن ما عند الله خير وأبقى. يقول تعالى :﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾[2].

إنهما مثلان متقابلان في العمل وفي الجزاء، وفي هذا التقابل ما فيه من قوة دافعة للمؤمنين للقتال والجهاد في سبيل الله.

---

(١) انظر : أسباب النزول للسيوطي : ١١٩/٣، وللنيسابوري ٢٣١.

(٢) محمد : ١٥

ب- ارتباطها بموقف يتصل بالمثل الأعلى في تقوى الله، ورعاية مقامه الجليل، ومن ذلـك هذه المقابلة في المشاهد التي وردت في سورة الرحمن مرتبطة بما أبداه سيدنا أبو بكـر الصديق رضي الله عنه من خوف وخشية حين ذكرت أمامه القيامة والموازين، والجـنة والنار، فقال : وَدِدْتُ أني كنت خضراء من هذه الخضر تأتي عَلَيَّ بهيمة تأكلني وأني لم أُخْلَقْ، فنزل قول الله تعالى : {ولمن خاف مقام ربه جنتان}(١).

ومن ثم جاءت الآيات قبلها وبعدها تصف مشهدا متقابلا من مشاهد العذاب والنعيم في القرآن الكريم، من أجل إعلاء شأن هذا المثل الرفيع من التقوى، ولتحفز المسلمين إلى مراقبة الله حتى يغنموا نعيم هذا المشهد، وينجو من عذابه، والتقابل في الآيات واضح لا لبس فيه. قال تعالى : * ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ

---

(١) أسباب النزول للسيوطي : ١٦١/٤

*معاني بعض الكلمات من كتاب (كلمات القرآن : مخلوف : ٣٤٧ - ٣٤٨.

(حميم آن) : ماء حار تناهى حره، (ذواتا أفنان) : أغصان أو أنواع من الثمار.

(جنى الجنتين دان) : ما يجنى من ثمارهما قريب من يد المتناول.

(قاصرات الطرف) : قصرن أبصارهن على أزواجهن، (مدهامتان) : شديدتا الخضرة

(نضاختان) : فوارتان بالماء لا تنقطعان، (حور) : نساء بيض حسان

(عبقري) : بسط ذات خمل رقيق، (رفرف) : وسائد أو فرش مرتفعة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝﴾ [الرحمن: ٤١-٧٨].

ونلاحظ على هذه المقابلات إطالة في وصف النعيم، يساعد على إطالته تكرار هذه الآية {فبأي آلاء ربكما تكذبان}، كما أن الفاصلة الممتدة: بالألف والنون في الآيات وما فيها من استرخاء تطيل أيضا من عرض هذا المشهد الجميل للنعيم حتى يتلذذ به المسلمون في الدنيا قبل أن يتلذذوا به في الآخرة.

ج- وقد ترتبط مقابلة المشاهد في القرآن المدني بموقف من مواقف الحرب النفسية التي كان أوارها أشد لهيبا، وأعظم وقعا من الحرب الفعلية وكان اليهود هم زعماء هذه الحرب وقادتها.

ويمثل هذا الموقف قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝﴾ (١).

ففي مقابل جهنم يصطلي بنارها الكفار، وتشوى بها جلودهم حتى إذا نضجت بدلت بغيرها حتى يتكرر الألم ويشتد العذاب، في مقابل هذا اللهب القاتل نجد المؤمنين في جنات ندية رطبة وفي ظل ظليل مع أزواجهم المطهرة. وبذلك يتم التقابل في العمل بين من كفروا بآياتنا، وبين من آمنوا وعملوا الصالحات والتقابل في الجزاء بين السعير المتأجج والروح الندية الظليلة. و المقابلة هنا تبدو قوية ومؤثرة لأن الموقف كان خطيرا، فلا بد أن يواجه بمثله وأشد، فاليهود الذين يشترون الضلالة بالهدى ويحرفون الكلم عن مواضعه. ويزكون أنفسهم، ويفترون على الله الكذب، ويؤمنون بالجبت والطاغوت (وكل معبود أو مطاع من دون الله(٢)) وقد كان أولى بهم معرفة الحق لأنهم أهل الكتاب. هؤلاء اليهود قد امتلأت نفوسهم بالحقد والغيظ على محمد ورسالته وعجزوا عن مقاومته بالسلاح، لم يتورعوا عن اللجوء للحرب النفسية التي عرفوا بها والمؤامرات والدسائس التي عاشوا عليها وهدفهم الأكبر هو صرف الناس عن محمد وصدهم عن

---

(١) النساء: ٥٦ – ٥٧

(٢) كلمات القرآن: ٥٤

الإسلام وإقـــرارهم على ضلالهم، ومن ثم يتملقون الكافرين ويرضون غرورهم، حين يحتكمون إليهم في خصومتهم مع محمد.

هـــذا كعب بن الأشرف من أحبار اليهود تسأله قريش : ألا ترى هذا المنصبر المنبتر مـــن قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة، وأهل السقاية ؟ فيقول لهم : أنتم أهدى منه وممن اتبعه(1).

لا عجـــب إذن أن تواجـــه هـــذه الأقاويل بالحسم، وأن يتولى القرآن دمغ اليهود بالكذب والتحريف واشتراء الضلالة بالهدى، وأن توضح الآيات هذا الباطل والافتراء، ثم تبين للكافرين بعد ذلك الحقيقة واضحة جلية دون مجاملة أو تملق، حتى لا يبقوا على كفـــرهم، ويستمروا في ضلالهم بعد أن أخذوا الفتوى من اليهود — علماء عصرهم — وتبين لهم أنه لا يستوى مصير من يكفر بآيات الله ويبقى على ضلاله، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا.

وهكـــذا ارتبطـــت هذه المقابلة بموقف مدني من المواقف التي كانت تجد بين الحين والحـــين في مجتمع المدينة، ويتولى القرآن بيان الحقيقة وجلاءها. حرب بحرب، وسلاح بسلاح أشد منه وأنكى.

الثانية :—

أما النقطة الثانية التي نسجلها في المقارنة بين مشاهد القيامة في القرآن المكي والمدني، فهـــي أن المقابلـــة في السور المكية غالبا ما تطيل في وصف العذاب وتختصر في وصف النعيم اختصار ظاهرا.

بيـــنما المقابلة في السور المدنية تكون على العكس من ذلك، فهي تطيل في وصف النعيم، وتختصر في وصف العذاب.

وســـوف نقـــدم فيما يلي الدليل على هذه الملاحظة، ونحاول معرفة السر في ذلك الاختلاف بينهما :

---

(1) أنظر أسباب النزول للسيوطي : ٢/٥٤

ودليلنا على أن المقابلة المكية في مشاهد القيامة تطيل في وصف العذاب بينما تختصر في وصــف النعيم[1] أننا إذا رجعنا إلى ما ذكرناه منها في هذا البحث نتبين صدق هذا الزعم.

ثم نؤكد ذلك بالدعوة إلى قراءة هذه المشاهد في سور (يس) و(الملك) و(المرسلات) وهي مكيات.

ففي سورة (يس) يرد مشهد متقابل لصور النعيم والعذاب في ثلاث عشرة آية من قوله تعالى : إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٥٥) إلى قوله تعالى : وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ آية (٦٨).

تحتل مشاهد النعيم هنا الآيات الأربعة الأولى (٥٥ – ٥٨).

بيــــنما تحتل مشاهد العذاب تسع آيات (٥٩ – ٦٨)، فتكون النسبة هنا ٤ : ٩ أربع آيات إلى تسع.

وفي ســـورة الملك تأتي المقابلة في ست آيات من قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ آية (٦) إلى قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ آيـــة (١٢) تحتل مشاهد العذاب الآيات الخمسة الأولى (٦ – ١١) بينما تشير آية واحدة إلى النعيم وهو﴿ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ فتكون النسبة هنا ١ : ٥ – آية واحدة إلى خمس آيات.

ج- وفي ســـورة المرســلات – يـــرد المشهد في ست عشرة آية من قوله تعالى : انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ آيـــة (٢٩) إلى قوـــله تعالى : إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ آية (٤٤).

تحتل مشاهد العذاب هنا اثنتي عشرة آية (٢٩ – ٤٠)

بينما تحتل مشاهد النعيم أربع آيات فقط (٤١ – ٤٤)

فتكون النسبة ٤ : ١٢ أربع آيات إلى اثنتي عشرة آية.

---

(١) هذه هي السمة الغالبة على القرآن المكي، ونادرا ما تطيل السور المكية مشاهد النعيم فإذا ما وجدنا سورة مكية تطيل في وصف النعيم لا حظنا أنه نعيم حسي بالدرجة الأولى – يبهر الكافرين ويثير تطلعهم ويصلح جزاء لهم يرضي أعمق رغباتهم .. والدليل على ذلك ما ورد في سورة (الإنسان) من صور النعيم في الآيات (٥ – ٦)، (١١ – ٢٢).

ولست هنا بصدد دراسة إحصائية وإنما هي ملاحظات لعلها تكون صادقة ومن ثم قلت إن المشاهد المكية غالبا ما تطيل في وصف العذاب وتختصر في وصف النعيم.

والدليل على أن المقابلة المدنية في هذا المجال تكون على العكس من ذلك أي تطيل في وصف النعيم وتختصر في وصف العذاب هو مراجعة هذه المشاهد في سورتي البقرة والرحمن.

أ- ففـــي سورة البقرة آيتان لمشهد متقابل من مشاهد العذاب والنعيم، ولكن الآية الأولى قصــيرة والثانية طويلة، والأولى تختصر العذاب في عدة كلمات ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1] فــلم يذكر من صور العذاب سوى (وقودها الناس والحجارة) بينما الآية الثانية وهي تصـــف النعـــيم الذي أعد للمؤمنين لا تكتفي بالبشارة بالجنات، بل تزيد في وصفها بالأنهــار الجاريــة، وبالـــثمر المتجدد والمتشابه، وبالأزواج المطهرة وبالخلود ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾[2]

ب- أمـــا في سورة الرحمن : فالظاهرة أوضح وأجلى فقد وردت المقابلة في مشهد مكـــون من ثمان وثلاثين آية من قوله تعالى : ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ آيـــة (٤١) إلى آخر السورة وهي قوله تعالى تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ آية (٧٨).

ويمكن الرجوع إلى هذا المشهد، فقد ذكرناه منذ قليل عند حديثنا عن ارتباط المقابلة المدنيـــة بموقف يتصل بالمثل الأعلى في تقوى الله، وبالتأمل فيه نرى أن مشهد العذاب يحتل خمس آيات فقط بينما يحتل مشهد النعيم الممتد وصور الراحة وألوان الرفاهية في الجنة الآيات الباقية كلها وهي ثلاث وثلاثون آية.

والآن نحاول الإجابة عن هذا السؤال : لماذا طالت مشاهد العذاب وتضخمت في الســـور المكية وقصرت مشاهد النعيم ؟ بينما طالت مشاهد النعيم وتعددت في السور المدنيـــة، وقصرت مشاهد العذاب ؟

---

(١) البقرة : ٢٤

(٢) البقرة :٢٥

أغلب الظن أن طبيعة الدعوة في مكة اقتضت ذلك، وأن الكلمة القرآنية كانت هي السلاح الوحيد الذي يملكه الرسول والمستضعفون معه من المسلمين.

وهذا احتمال له ما يؤيده من شواهد الأحداث في مكة، فلقد كان الرسول فردا في مواجهة قريش بجبروتها وسلطانها وعنادها وكان القرآن سلاحه الوحيد، والعرب ذوو فصاحة وفطانة، ومعرفة بأسرار الكلمة وإيحاءاتها، وكثير منهم عرفوا أن ما جاء به محمد لا يمكن أن يكون من عنده، ولم يمنعهم من اتباعه إلا العناد والكبر. ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

وقصة عتبة بن ربيعة وغيره دليل على مدى ما كانت تحدثه في نفوسهم آيات الترهيب والتخويف بعذاب دنيوي أخروي.

ويذكر البغوي[2] (ت ٥١٠) في تفسيره أن عتبة بن ربيعة وضع يده على فم الرسول وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ يقول: (فقد أمسك عتبة على فيه، وناشده الرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم.. ثم لما حدثوه في هذا قال: "فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخشيت أن يترل بكم العذاب).

وإذن، فلم يكن بد من الإكثار من مشاهد التخويف والترهيب والتهديد حتى تلين قلوب كالحجارة أو أشد قسوة، ومن ثم طالت مشاهد العذاب وصور النكال في القرآن المكي.

أما المسلمون في مكة. فقد كان إيمانهم بالله أقوى من كل عوامل الإغراء الدنيوية والأخروية، لقد آمنوا بالدعوة ابتداء لأنهم عرفوا أنها الحق، ولأنهم لم يجدوا في عبادة الأصنام إلا السفه والخبال، فلم تكثر صور النعيم التي يمكن أن تغريهم بالإيمان، ولم يكونوا بحاجة إليها لتزيد في إيمانهم.

وفي المدينة لم يكن هناك كفار فلا حاجة للقرآن المدني في تهديدهم والإكثار من مشاهد الرعب والعذاب لهم، بل كان في المدينة المسلمون وبعض اليهود، وكانت العقيدة قد اتضحت وبدأ المسلمون في تكوين مجتمع مستقر من الداخل لكن الخطر ما

---

(١) النمل: ١٤

(٢) هو أبو محمد مسعود الفراء البغوي المتوفى ٥١٦هـ (الأعلام ٢/٢٥٩).

زال مائلا خارجه، ومن ثم فلا بد من الجهاد والقتال، وهنا يأتي القرآن المدني فيطيل في وصف النعيم وألوان المتعة التي أعدت للمؤمنين حتى يحفزهم ذلك على الجهاد والقتال.

وتطــول مشاهد النعيم في المدينة بعد أن طالت رحلة الكفاح والصبر على الأذى فيكون في هذا التطويل ذاته نوع من المكافأة والجزاء يتلذذ به المسلمون في دنياهم قبل أن يعيشوه في أخراهم.

الفصل الثاني

أسلوب المقابلة في القرآن المدني..

يشتمل هذا الفصل على المواقف الآتية :

١- المقابلة في مخاطبة النبي والمؤمنين ومقارنة ذلك بالمكي
٢- المقابلة في مخاطبة اليهود والمنافقين
٣- المقابلة في آيات التشريع
٤- المقابلة في مواقف الجهاد
٥- المقابلة في الآداب الاجتماعية وقواعد السلوك

تقديم

رأينا أن موضوعات المكي كانت معالجة العقيدة الإسلامية وتوضيح عناصرها من توحيد لله وإيمان باليوم الآخر وإثبات لصدق الرسل السابقين ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم، والتحذير من عاقبة الكفر والتكذيب بعذاب دنيوي أو أخروي، وتعزية الرسول وطمأنته، وتثبيت المؤمنين، والتبشير والإنذار وكان اهتمام القرآن المكي بذلك، لأن قضية الإيمان والعقيدة هي الأساس الذي ستبنى عليه بعد ذلك التشريعات والتكاليف.

أما القرآن المدني، فإنه يعالج – في الغالب – تطبيق تلك العقيدة وإرساء القيم والمعايير الإسلامية في الحياة الواقعية، ويخاطب النفوس التي آمنت بالعقيدة أن تقوى على الاضطلاع بأمانة العقيدة والشريعة في معترك الحياة.

ومن أجل ذلك اختلفت موضوعاته عن سابقه، فهي هنا تشرع وتقنن للفرد وللأسرة وتضع الأسس السليمة للعلاقات الزوجية، وكيفية التعامل بين الإنسان وربه، وبين الإنسان وأخيه، وبين المجتمع الإسلامي وغيره من المجتمعات، وهي أيضا تفضح نوايا المنافقين، وتواجه كيد اليهود وأعداء الدين فكلها أمور حدثت في المدينة، ولم تكن قبل ذلك في مكة.

لا عجب إذن أن تكون المقابلة وهي من بنية القرآن ونسيجه تابعة هذه الموضوعات، وأن يغلب عليها الطابع التقريري العقلي بينما تتصف في المكي بالوجدانية والإثارة ، وقد سبق أن بينا شيئا من خصائص التركيب اللغوي للجملة المكية والمدنية ومراعاة ذلك للظروف النفسية وأحوال السامعين[1].

بعد هذا التقديم أحب أن أشير إلى أننا سنتناول المقابلة في القرآن المدني في المواقف الآتية :-

١ – خطاب النبي والمؤمنين في المدينة ومقارنة ذلك بنظيره في مكة.

٢ – خطاب اليهود والمنافقين.

٣ – المقابلة في آيات التشريع.

٤ – المقابلة في مواقف الجهاد.

٥ – المقابلة في الآداب الاجتماعية وقواعد السلوك.

---

(١) انظر ص (١٤٨) من هذا البحث.

أولا.. في خطاب النبي والمؤمنين

من الصعب على الباحث في القرآن المدني أن يفصل هذا العنوان عن العناوين الأخرى اللاحقة، لأن موضوعاتها ترد غالبا مصدرة بخطاب للنبي أو للمؤمنين يأمرهم أو ينهاهم أو يبين لهم شريعة من الشرائع.

كما أنه من الصعب أيضا فصل خطاب النبي عن خطاب المؤمنين، فالصواب أن كل خطاب للنبي هو خطاب لأمته، حتى عندما يخاطب القرآن بعض المؤمنين، فإننا نجد المفسرين يرددون هذه العبارة : (والخطاب لجميع المؤمنين) ولكننا – لغرض التنظيم فقط – سنورد بعض النماذج الخاصة بالرسول ثم نتبعها بنماذج عامة لكل المؤمنين.

ويغلب على الخطاب في السور المدنية أن يكون بصيغة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بينما يرد الخطاب بصيغة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ في القرآن المكي، والحكمة في ذلك كما يقول الزركشي في البرهان (أنه يأتي بعد ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ الأمر بأصل الإيمان، ويأتي بعد ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ الأمر بتفاصيل الشريعة[1]) وهذا القول يتفق مع طبيعة المراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية (وليس في السور المكية ولو مرة واحدة خطاب ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

(أما في السور المدينة، فقد ورد ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ إحدى عشرة مرة حين قصد بالخطاب المشركون أو جميع المكلفين)[2].

وقد اخترنا من نماذج المقابلة في خطاب النبي والمؤمنين، ما ليس فيه تشريعات أو تنظيمات محددة كالجهاد أو أركان الإسلام أو قواعد السلوك، فقد اخترنا هنا ما يتصل بالأسس العامة، والقيم المطلقة التي لا تحدها التشريعات المفروضة بل تتصل بتربية النفس وتهذيبها، والحث على التعاون والمحبة، أو تلك التي ارتبطت بمواقف خاصة ورأينا فيها قيمة يقصد القرآن إلى تعميمها وإشاعتها بين المسلمين.

نماذج للمقابلة في خطاب النبي والغرض البلاغي منها :

أ- ترد المقابلة في خطاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم لتوضيح مهمته وطبيعة ورسالته.

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٢٢٩/٢.

(٢) القرآن وعلم النفس، عبد الوهاب حمودة : ٣٠

فهــو البشــير الــنذير قال تعالى :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[1]. والمقابلــة بين كون الرسول مبشرا وكونه منذرا في آن واحد تلخص طبيعة الرسالة في كلمتين، فهي بشارة بالصلاح في الدنياوالفلاح في الآخرة لمن اتبعها، وإنذار بالعذاب دنيا وأخرى لمن أعرض عنها.

وأحيانا ترد هذه المقابلة بطرف واحد، بكونه نذيرا فقــط، دون التصريح بكونه بشيرا، كما في قوله تعالى ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝ ﴾[2]

وقد فطن الزمخشري بحصافة فكره إلى المغزى البلاغي من وراء حذف الطرف الثاني وهــو (بشير) بقوله : (وكان السياق يقتضي "إنما أنا لكم بشير ونذير" لذكر الفريقين بعــده، ولكن الحديث هنا مسوق إلى المشركين و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداء لهم، فهم الذين يستعجلون العذاب في الآية السابقة، وإنما أقحم المؤمنين وثوابهم ليغاظوا)[3].

ويــتأكد معــنى البشارة والإنذار من المقابلة التي وردت في الآيات بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين الذين سعوا في آياتنا معاجزين وبين الجزاءين : المغفرة والرزق الكريم للمؤمنين، والجحيم للفريق الآخر.

ب- وقــد تــأتي مرتبطة بحادثة معينة، فتوضح لنا كيفية التصرف، لعلاج هذا الموقف أو تلك الحادثة، كقوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝﴾[4]

ويروى السيوطي والنيسابوري من طرق متعددة أن هذه الآية نزلت في رجل جاء يســتفتي النبي صلى الله عليه وسلم في ما اقترفه من إثم قائلا له : أتتني امرأة تبتاع تمرا. فقلــت لها : إن في البيت أطيب منه، فدخلت معي البيت، فأهويت إليها فقبلتها، فقال له الرسول غاضبا : خنت رجلا غازيا في سبيل الله في أهله بهذا، وأطرق عنه حتى ظن

---

(١) الأحزاب : ٤٥

(٢) الحج : ٤٩ – ٥١.

(٣) الكشاف للزمخشري : ٣/١٨.

(٤) هود : ١١٤.. مع ملاحظة أن السورة كلها مكية إلا الآيات ١٢، ١٧، ١١٤ فمدنيات.

الرجل أنه من أهل النار، وأن الله لا يغفر له أبدا حتى أوحى الله إليه (وأقم الصلاة...) فلما سمعها الرجل قال: أَلِيَ هذه؟ قال النبي لجميع أمـتي كلهم[1]).

وقد وردت المقابلة هنا بين (الصلاة طرفي النهار والصلاة زلفا من الليل) لتدل على أن عـلاج مثل هذه الذنوب يكون بالاتصال الدائم صباحا ومساء بالله غفار الذنوب، ثم جاءت المقابلة بين (الحسنات والسيئات) لتؤكد أثر المقابلة الأولى في غفران الذنوب فالصـلاة مـن أكـبر الحسنات التي يتقرب بها العبد لربه، ولذلك تذهب بالسيئات وتمحوها.

نماذج للمقابلة في خطاب المؤمنين :

جاءت المقابلة في خطاب المؤمنين في السور المدنية في مواضع كثيرة نختار منها :-

أ- في الحث على البذل الإنفاق :

فالمجـتمع الإسلامي قائم على مبدأ التعاون والتكافل، والمال كله لله، ولكن البشر مسـتخلفون فيه ووكلاء عليه، ولذلك تكثر الدعوة إلى الإنفاق والتصدق في سبيل الله حـتى يكـتمل إيمان المؤمنين، ولكن القرآن يمهد للدعوة إلى الإنفاق بمقابلات تستثير الوجدان وتأسر القلوب. قال تعالى[2] :

قال تعالى : بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟

---

(١) انظر أسباب النزول للسيوطي : ١٠٣/٣، وللنيسابوري : ٢٠٠

(٢) سبق الاستشهاد بهذه الآيات في مشاهد الطبيعة في القرآن المدني والفرق بينها وبين المكي ص(١٨٦) من هذا البحث ولكن موطن الشاهد في الموضعين مختلف.

بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾(١)

لقد بدأت الآيات بالحديث عن صفات الله سبحانه وتعالى بصورة مؤثرة تفتح الوجدان وتوقظ القلب على صوت الوجود كله وهو يسبح لله مالك السموات والأرض الذي يحيي ويميت، وهو صاحب

القدرة المهيمنه على كل شيء، الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء، المستغرق لحدود الزمن كله، الظاهر في كل شيء والباطن في كل شيء، فهو إذن يشغل كل حيز الزمان وحيز المكان، وهو بكل شيء عليم. ثم هو خالق السموات والأرض، المهيمن على العرش، العليم بكل ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معنا أينما كنا، بصير بكل ما نعمل، وكل الأمور راجعة إليه، وهو المدبر لحركة الليل والنهار، العليم بأسرار الصدور.

وبعد هذه الدفقة من التجليات يكون القلب مستعدا لتلقى الامر : {آمنوا} وهم مؤمنون. لاشك إذن أن يكون المطلوب هو تحقيق الإيمان القلبي بالسلوك العملي وهنا يصدر الأمر المقصود من كل هذه المقدمات : {وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه} ثم تسترسل الآيات في حث المؤمنين على الإنفاق وبيان الدوافع لذلك وهي أن الدين إخراج من ظلمات الشح والنفوس إلى نور البذل ولألاء الكرم، وتحث على المزيد من التصدق حين تبين عدم استواء من أنفق من قبل الفتح وقاتل، حين كان المال قليلا والبذل خالصا لوجه الله والعدو متربص من كل جانب، ومن أنفق بعد الفتح والمال وفير والأمان أكبر.. وكلاهما له الحسنى على تفاوت في الدرجة..

---

(١) الحديد : ١ – ١١

وقد اعتمد عرض الآيات -- هذا العرض المؤثر — علي العديد من المقابلات الحسية والمعـــنوية التي تشعر القلب المؤمن بعظمة الله وجلاله فيقبل راضيا مختارا على الإنفاق والتصدق ويمكن لنا أن نلمح هذه المقابلات بين :

تسبيح ما في السموات وما في الأرض

وملكية الله لما في السموات والأرض

وبين يحيي ويميت

والأول والآخر

والظاهر والباطن

وخالق السموات والأرض

والعليم بما يلج في الأرض وما يخرج منها

وبما يترل من السماء وما يعرج فيها

وبين تأكيد ملكيته للسموات والأرض

وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل

وبين الظلمات والنور

وميراث السموات وميراث الأرض

ومن أنفق من قبل الفتح ومن بعد

ومقابلة يضاعفه له وله أجر كريم بإقراض الله قرضا حسـنا

ولا شـــك أن هذه المقابلات المكثفة التي تظهر شمول قدرة الله وعظمة صفاته لاغنى عنها في مثل هذه المواقف التي تتطلب استجاشة وجدانية تكفكف من صوله المادة وتحد مـــن تغلغل حب المال في النفوس، وقد أثرت بالفعل في المسلمين الأوائل، وهي قادرة بعـــون الله — على إيجاد التأثير نفسه إذا وجدت من يقدمها للناس بروحها الأصيل في كل زمان.

ونلاحـــظ أن أســـلوب المقابلة في هذا النص هادئ يشع بالنورانيه ليس فيه عنف المطـــارق التي لمسناها في المقابلات المكية، فالموقف هنا يستلزم شفافية ورقة تتسلل إلى القلوب، وتنفذ إلى المشاعر، فتستلب من المؤمنين ما تبقى من أنانية أو أثره وتدفعهم إلى البذل عن رضا واقتناع.

والقرآن المدني حافل بالأيات التي تؤدي فيها المقابلة دورا هاما في الحث على التصدق والإنفاق، وهي ظاهرة بجلاء في مثل قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾[1] والمقابلة بين الليل والنهار، والسر والعلانية أفادت الحث على التصدق في جميع الأوقات وجميع الحالات حتى يفوزوا بالأمان والفرح.

ومثل قوله تعالى : ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾[2]

فهنا مقابلة بين ما يعد به الشيطان من الفقر والشح وما يأمر به من فاحشة البخل والخوف من الفقر بسبب الإنفاق وبين مايعد به الله من واسع المغفرة وعميم الفضل. وتفيد هذه المقابلة التحذير من اتباع هواجس الشيطان بالبخل والحرص كما تفيد الترغيب في التصدق طمعا في المغفرة والفضل. فقد كان بعض الأنصار يتيممون الخبيث من التمر فيتصدقون به ويحتفظون لأنفسهم بالجيد خوف الفقر[3]، فنزلت هذه الآية وما قبلها تنهاهم عن ذلك وتحذرهم من شيطان البخل والحرص.

ب- في تربية النفوس وتهذيبها

يخاطب القرآن المسلمين في هذا النموذج ليبين لهم الفرق بين متاع الدنيا ونعيم الآخرة. فقد ركبت في الفطرة البشرية شهوة النساء والبنين والنهم إلى جمع المال من الذهب والفضة والرغبة في اقتناء الخيل والأرض المخصبة والانعام، والإسلام لا يحارب الفطر ولا يسعى لكبت الرغائب بل يرسي في النفس المؤمنة الضوابط التي تحد من اندفاع الإنسان إلى الانغماس في هذه اللذائذ الدنيويه فينسى المثل العليا والقيم الرفيعة التي يتسامى بها عن وهدة الطين ومستنقع الشهوات ولذلك يعرض هنا ما أعده الله للمتقين الذين هذبوا نوازعهم وربوا أنفسهم على الاعتدال والقسطاس المستقيم في مقابل هذا المتاع الدنيوي قال تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ

---

(١) البقرة : ٢٧٤

(٢) البقرة : ٢٦٨

(٣) أسباب النزول للسيوطي : ٣٥/١

﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (١٥)﴾ (١)

ففي مقابل الأرض الخصبة والحرث والزرع في الدنيا :

لهم في الآخرة جنات ناضرة دائمة النضرة بفعل الأنهار تجري من تحتها. وفي مقابل النساء والبنين في الدنيا :

لهم في الآخرة أزواج مطهرة من دنس الرغائب والشهوات.

وفي مقابل متعة الخيل المسومة والأنعام والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة : هناك رضوان من الله، وهو متعة لاتعدلها متع الدنيا، بل والآخرة أيضا. وبهذه المقابلات يتبين للمسلمين إلى أي مستوى من الطهارة والرفعة يعلو بهم الإسلام فيندفعون - مقتنعين - إلى السمو بأنفسهم وتهذيبها بغية الفوز بالخير الذي عبر عنه القرآن ب {قل أؤنبئكم بخير من ذلكم...}.

ج - في الحث على التمسك بولاية الله :

وأحيانا تأتي المقابلة في خطاب المؤمنين لتبيين لهم صواب الطريق الذي اختاروه وضلال الطريق المقابل، حتى لا يكون ثمة ندم أو تراجع، فهم قد اختاروا ولاية الله ورعايته، فأخرجهم من ظلمات الكفر وعماية الجهل إلى نور الإيمان ووضاءة الهدى والرشاد أما الذين اختاروا ولاية الطاغوت، فقد خرجوا من النور إلى الظلمات وكان مآلهم الخلود في النار. قال تعالى :

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ (٢) يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٥٧)﴾ (٣)

ولسنا مع السيوطي في تخصيصة المؤمنين هنا بالذين آمنوا بعيسى فلما جاءهم محمد آمنوا به، والكافرين ببعض من آمن بعيسى وكفر بمحمد (٤)، لأن الإيمان إخراج من

---

(١) آل عمران : ١٤ - ١٥

(٢) الطاغوت : ما يطغى من صنم وشيطان ونحوهما (كلمات القرآن : ٣٠)

(٣) البقرة : ٢٥٧

(٤) أسباب النزول للسيوطي : ٣٤/١

الظـــلمات إلى الـــنور لجميع المؤمنين في كل زمان ومكان، وليس ذلك لفئة معينة من المؤمـــنين. والكفر ظلام وضلاله، وتعطيل للمدارك التي أودعها الله في الإنسان ليفكر ويختار.

والمقابلـــة بـــين الفريقين والطريقين هنا تهدف إلى توضيح الفرق بينهما (إن الكفر كالظـــلمة الـــتي يتســـكع فـــيها الخابط، ويضل القاصد، والإيمان كالنور الذي يؤمه الجائرويهـــتدى بـــه الحائر، لأن عاقبة الإيمان مضـــيئة بالنعيم والثواب، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب[1]) ولعل السر في إفراد لفظ (نور) في مقابل (الظلمات) بالجمع هـــو أن طريق الحق واحد لأن الله واحد، أما الكفر فأنواع وأنماط متعددة وهي تدخل الإنسان في ظلمة بعد ظلمة.

وقـــد أدخـــل الـــباقلاني في الإعجـــاز هذه الآية فيما يسمى في البديع ب (صحة التقسيم[2]).

وأغلب الظن أنه اعتبرها كذلك نظرا إلى قسميها الكبيرين: الإيمان وطريقه وعاقبته ثم الكفـــر وطـــريقه وعاقبـــته. فليس هناك في أقسام الجواب أكثر من هذا كما يقول البديعـــيون وقد سبق في التمهيد أن بينا أن ابن وهب الكاتب في (نقد النثر)يمزج بين المقابلة وصحة التقسيم.

وعـــلاوة على أن التقابل في الصورة الكلية واضح بين الفريقين، فإن التقابل الجزئي واضـــح أيضـــا بـــين الإيمـــان والكفر، وبين ولاية الله وولاية الطاغوت، وبين النور والظلمات. وبين الإخراج من الظلمات إلى النور والإخراج من النور إلى الظلمات.

وهـــذه المقـــابلات فيها حث للمسلمين على التمسك بولاية الله، وطمأنة لهم على صحة اختيارهم لهذا الطريق.

د- في التحذير من الردة :

وقد ترتبط المقابلة في خطاب المؤمنين بتحذيرهم من الارتداد عن دين الله بأي صورة من صور الارتداد، سواء أكان بالولاء والمناصرة لأهل الكتاب أم بغير ذلك، فالله سبحانه يحذر المؤمنين بأن ذلك لو حدث منهم، فسوف يستبدل بهم آخرين. قال

---

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن، لشريف الرضى : ١٤ط مطبعة المعارف ١٣٧٥هـــ / ١٩٥٥م بغداد.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني : ٩٤

تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾[1] والقوم الذين سيستبدلهم بالمؤمنين يمتازون عنهم بحبهم الخالص لله وحب الله لهم، ويتصفون بالرقة والليونه على إخوانهم المؤمنين، وبالإباء والشمم والعزةعلى أعدائهم الكافرين، وقد ورد هذا المعنى في أكثر من سورة حتى يحرص المؤمنون على حب الله وعدم موالاتهم لأعدائه قال تعالى ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾[2] : وقال ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ١٧﴾[3] وقال معززا هذا المعنى {محمد رسول والذين معه أشداء على الكفار رحماء ...}[4}؟.

والمقابلة بين يحبهم ويحبونه، وبين أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين، وبين المؤمنين الحاليين والخلق الجديد، وبين الشدة على الكفار والرحمة بالمؤمنين كل هذه الصور من المقابلة تحمل معنى التحذير والتهديد للمؤمنين حتى يحافظوا على دينهم، ويترفعوا بأنفسهم عن موالاة أعداء الدين أيا كانت نحلتهم، ويؤكد هذا التحذير أن الآية التي معنا وردت في سياق النهي الصريح عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء. قال تعالى : ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾[5]

ه- بين المؤمنين وأهل الكتاب :

رأينا في النموذج السابق تحذيرا للمسلمين من الولاء لأهل الكتاب، ورأينا كيف اعتبر القرآن ذلك نوعا من الارتداد عن دين الله، وفي هذا النموذج يحرص القرآن الكريم على إظهار الفرق بين المؤمنين وأهل الكتاب، ولا يتردد في وصف أهل الكتاب

---

(١) المائدة : ٥٤
(٢) محمد : ٣٨
(٣) فاطر : ١٦ - ١٧
(٤) الفتح :٢٩
(٥) المائدة : ٥١ وما بعدها يؤكد النهي عن اتخاذهم أولياء.

بالكفر لأنهم انحرفوا عن النهج السوى للإيمان. وقد عرض ذلك بأسلوب المقابلة التي تظهر الفرق بين الاتجاهين. اتجاه الإيمان واتجاه الكفر وأسلوب كل منهما. قال تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾(١)

وشواهد الحال تدل على أن أهل الكتاب يستحقون هذا الوصف الذين أكده الله بقوله {أؤلئك...هم الكافرون حقا}، فاليهود مثلا يؤمنون بأنبيائهم وينكرون رسالة عيسى ومحمد.

والنصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى فضلا عن تأليهه، وينكرون رسالة محمد.

ولكن المؤمنين بدين محمد لا يفرقون بين أحد من رسله وأنبيائه وهذه المقابلة تجمع بين أهل الكتاب من اليهود والنصارى في كفة وبين المؤمنين في الكفة الآخرى.

وتوازن بين الأولين ومعتقداتهم وجزائهم،

وبين المؤمنين ومعتقداتهم وجزائهم،

فأهل الكتاب يكفرون بالله ورسله

يقابلها المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسله

وأهل الكتاب يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، يؤ منون ببعضهم ويكفرون بالبعض الآخر والمؤمنون لم يفرقوا بين أحد منهم، فالكل عندهم رسل يجب الإيمان بهم.

وجزاء أهل الكتاب العذاب المهين

وجزاء المؤمنين الأجر الحسن والغفران والرحمة

وبهذا التقابل التام في العقيدة والمنهج والجزاء وضح الفرق وجلا بين الفريقين وفي ذلك حفز للمسلمين على الاعتزار بدينهم والتمسك به لأنهم على الحق وغيرهم على الباطل. وهذا نموذج آخر للمقابلة بين المؤمنين واليهود، يحمل في ثناياه معنى التحذير

---

(١) النساء: ١٥٠ - ١٥٢

للمسلمين من كيد اليهود ونفاقهم. قال تعالى مخاطبا المؤمنين ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝﴾ (1)

د- بين المؤمنين والمنافقين :

وتأتي المقابلة هنا – أيضا- لتوضح الفرق بينهم وبين المنافقين، كما جاءت مقابلات أخرى من قبل لبيان الفرق بينهم وبين الكافرين وبينهم وبين أهل الكتاب والهدف البين من وراء مثل هذه المقابلات تمييز الشخصية المسلمة عن غيرها من الناس ووسمها بالسمات والملامح التي تعرف بها في كل زمان ومكان.

وفي هذا النموذج نرى تقابلا واضحا بينهم وبين المنافقين في الطبع والسلوك والمصير ، قال تعالى : ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ(2) وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝﴾ (3)

١- فإن الأمر بالمنكر عند المنافقين يقابله عند المؤمنين الأمر بالمعروف.

٢- والنهي عن المعروف عندهم يقابله عند المؤمنين الأمر بالمعروف.

٣- وقبض الأيدي يقابله إيتاء الزكاة.

---

(١) آل عمران : ١١٩ - ١٢٠

(٢) يقال عدن بالمكان عدنا وعدونا : أقام به، وجنة عدن : جنة إقامة : لمكان الخلد فيها (المعجم الوسيط)

(٣) التوبة : آيات (٦٧ ، ٦٨)، (٧١ ، ٧٢)

٤- ونسيانهم لله يقابله إقامة الصلاة وطاعة الله ورسوله.

٥- ولعـــنة الله للمـــنافقين والكفـــار ونسيانه لهم تقابلها رحمة الله العزيز الحكيم بالمؤمنين.

٦- والوعيد بجهنم والخلود فيها وفي عذابها المقيم للمنافقيـــن والكافرين يقابله وعد بالنعيم والمتعة في جنات ندية تجري من تحتها الأنهار.

٧- بالإضـــافة إلى أن المساكن الطيبة. والرضوان الأكبر من الله يعتبر تكريما من الله للمؤمنين في مقابل الازدراء واللعن والطرد من رحمة الله في جانب المنافقين.

وللطاهربن عاشور ملمح دقيق في بيان السر في التعبير في جانب المؤمنين والمؤمنات بـــأنهم أولياء بعض في مقابل التعبير في جانب المنافقين والمنافقات بأنهم من بعض، وهو أن المؤمنين أولياء بعض (للإشارة إلى أن اللحمة الجامعة بينهم هي ولاية الإسلام، فهم فـــيها على السواء، ليس واحد منهم مقلدا للآخر ولا تابعا له على غير بصيرة، لما في الولاية من الإشعار بالإخلاص والتناصر بخلاف المنافقين، فكأن بعضهم ناشئ من بعض في مذامهم)[١].

ونضـــيف إلى ذلك أن الأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج إلى هذه الولاية وهـــذا الـــتكاتف والتماسك، لأن الدعوات الإصلاحية — عموما في حاجة إلى جهد الـــرجال وإخـــلاص الولاء. إذ هي دعوة إلى الخير والمعروف ومجاهدة النفس الأمارة بالســـوء بطبيعتها ومن هنا جاء التعبير (أولياء بعض)، ولكن الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف لا يحتاج أي منهما إلى جماعة منظمة متكاتفة من أجل إشاعة الفساد بل يكفي عدد قليل من المفسدين لتدنيس مدينة بأكملها.

ز- في حديث الإفك

روعـــت المديـــنة المنورة شهرا كاملا بحديث الإفك. الذي كان يسرى بين الناس فيزلزل النفوس، وملخص هذا الإفك كما ورد في كتب التفسير[٢] أن عائشة رضى الله عنها - كانت مع الرسول في غزوة بني المصطلق، فتأخرت عن الجيش، ولقيها صفوان

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور/ ج ١٠/٢٦٣ ط الدار التونسيه للنشر.

(٢) انظر في ذلك الكشاف للزمخشري ٣/٥٢ وابن كثير ٣/٢٦٨-٢٧١ وانظر أيضا أسباب النزول للسيوطي ٣/١٢٦،١٢٢ وكذلك النيسابوري ٢٣٨

بـن المعطـل السلمي، فحملها على راحلته وهو يقودها ولا يكلمها، فلما مر صفوان بهودجهـا على عبد الله بن أبيٍّ بن سلول رأس النفاق، قال : من هذه ؟ فقالوا عائشة فقـال : والله مـا نجـت منه ولا نجا منها، وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها، وسرت الفتنة في المدينة شهرا كاملا كان من أشق الأيام على الرسـول وأهـل بيته، وعلى المؤمنين حتى نزلت الآيات ببراءة عائشة (١١ - ٢٢ من سورة النور) نختار منها ما ورد بأسلوب المقابلة، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝

إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝ ﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾

وفي هـذه الآيـات مـن المقابلات ما كان له أثره في تسكين الفتنه وتهدئة القلق والاضطراب في نفوس المسلمين.

١- فهـناك المقابلة بين الشر والخير في قوله تعالى {لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم}

وهذه المقابلة تطمئن المسلمين إلى أن هذا الحديث وما صحبه من رجة وإرجاف بين المسلمين لم يكن شرا، بل إنه الخير كل الخير، لأنه كشف للمسلمين عن الوجه القمئ للمـنافقين والـيهود الذين يكيدون للإسلام ولرسوله، إنه خير كما يقول الزمخشري (لمـن سـاءه ذلك من المؤمنين وخاصة رسول الله صلى عليه وسلم وأبا بكر وعائشة وصـفوان بن المعطل، ومعنى كونه خيرا لهم أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم، لأنه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة[١]).

وأضيف إلى ذلك أنه خير لما صحب ذلك من نزول آيات في حدود القذف تحمي المسلمين من هواة الفتنه ونهش الأعراض.

٢- والمقابلة الثانية في قوله تعالى : {وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم}.

---

(١) الكشاف للزمخشري : ٥٣/٣.

بـين {هين} بمعنى يسير وبسيط و {عظيم} بمعنى : جليل وخطير وهي هنا تلفت نظـر المسلمين في حينه وفي كل حين إلى أن الخوض في أعراض الناس، وتـناقل الفتنة وتنقـف الشـائعات دون وعي أو إدراك شئ عظيم عند الله تتزلزل من هوله الجبال الراسيات وإن ظنه الناس مجرد لهو هين أو سمر برئ.

٣- وتـأتي المقابلـة الثالـثة تحذيرا – لمن يحبون إشاعة الفاحشة ولقالة السوء بين المؤمـنين – بعـذاب أليم في الدنيا والآخرة، وإرشادا إلى أن الله عليم بخفايا الصدور وطوايـا النفوس، ونحن لا نعلم من ذلك شيئا {إن الذين... لا تعلمون } فالمقابلة بين الدنـيا والآخـرة توحي بشدة هذا العذاب ودوامه. بينما المقابلة بين علم الله وجهلنا تكفكف من غلوائنا واعتدادنا بما نعلم وتوحي بعظم علم الله وشموله.

٤- وفي التعقيب على حديث الإفك يأتي قوله تعالى : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾[1]

في مقابلة ظاهرة وصريحة بين الخبيث والطيب من الرجال والنساء والأقوال والأفعال، لتؤكد طهارة أهل بيت الرسول مما رموا به من خبيث القول، أو لتوحي بأن الطيبات من النساء وعائشة في القمة منهن للطيبين من الرجال ومحمد عليه السلام في القمة منهم، فمن كان هذا شأنه لابد أن يحفظه الله من الشك والريب.

(١) النور : ٢٦.

بين المكي والمدني في خطاب النبي

سبق أن قلنا إن القرآن المكي خلا تماما من الخطاب المباشر للمؤمنين لأننا لم نجد فيه ولو مرة واحدة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾

وذلـــك راجـــع بالقطع إلى طبيعة الدعوة في تلك المرحلة، فقد كان جل اهتمامها موجها إلى المشركين.

أما الخطاب إلى الرسول (فإنه في المكي أكثر منه في المدني، لأن الرسول في مكة هو وحده المكلف ببناء العقيدة ونشر الدعوة، ومن هنا كثر الخطاب إليه، بينما قل ذلك في المدينة، لأن مسئولية بناء المجتمع أصبحت مشتركة بينه وبين من معه من المؤمنين.

وهـــذا فإن مجال المقارنة هنا سوف ينحصر في الفرق بين المقابلة في خطاب النبي في مكة وخطابه في المدينة.

١- ولعلنا لا نتجاوز الصواب إذا قلنا إن الفرق بينهما هو الفرق بين طبيعة الدعوة في كـــلا الـــبلدين، وبين مهمة الرسول في كلتا المرحلتين ولذلك تميزت المقابلة في خطاب النبي في مكة بالحسم والمواجهة الجادة كما تميزت بالشدة في حملتها على الشرك والضـــلال فلـــيس الخطـــاب فيها موجها بالدرجة الأولى إلى محمد بل إلى المشركين. والأمثلة على ذلك كثيرة منها :-

تلـــك المقـــابلات التي تؤكد للرسول عدم مسئوليته المطلقة عن تحقيق نتيجة إيجابية للدعـــوة، إنه مبلغ فقط ومسئوليته تقف عند هذا الحد، أما الإضلال والهدى فليس من شأنه هو، ومثال ذلك

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ [1]

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ [2]

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ [3]

---

(١) الزمر : ٣٦ – ٣٧.

(٢) الفرقان : ٥٦.

(٣) مريم : ١٧ و(قوما لدا) أي شديدي الخصومة بالباطل.

فالمقـــابلات بـــين الإضلال والهدى، وبين التبشير والإنذار إنما تؤكد عدم مسئوليته بصـــورة قاطعـــة عن عدم اهتداء هؤلاء القوم، وفي ذلك تخفيف من أساه وهمه وحزنه على ما يبدو أنه فشل مؤقت في الدعوة.

ونلمح مثل هذا القطع والحسم والشدة - أيضا - في قوله تعالى :-

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (١)

ففيها مقابلة بين من يستجيب لأن أجهزة الاستقبال عنده متفتحة وفطرته لم تفسد فهـــو يســـمع ويتأثر ويستجيب، ومن ران على قلبه ما كسب، وأمات فطرته وعقله، فذلك حسابه عندما يرجع إلى ربه.

وأشد منها قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝ ﴾ (٣)

فهذه المقابلات بين علمه وعلمهم، وعبادته وعبادتهم، ودينه ودينهم، توحي بأنه ليس مسئولا عن بقائهم على الكفر والضلال، وتؤكد المسئولية الفردية وعدم تحمل أي شخص لأخطاء الآخرين.

٢- وكمـــا تمـــيزت المقابلـــة في خطاب النبي في مكة بالشدة والحسم في مواجهة المشـــركين والكافرين امتازت - كذلك - بالشدة في عتاب النبي صلى الله عليه وسلم عندما يبدرمنه - ولو أقل القليل - مما لا يليق بأصحاب الرسالات السامية، كالغضب العـــارض أو عبوس الوجه لأي سبب لأن أصحاب الرسالات السامية يمتازون برحابة الصـــدر قـــال تعالى : وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ (٤) وهذه الشدة كما قلت نابعة من طبيعة الدعوة في تلك المرحلة التي تتطلب الصراحة والوضوح

---

(١) الأنعام : ٣٦

(٢) يونس : ٤١

(٣) الكافرون : ١ - ٦

(٤) آل عمران : ١٥٩

في كل شيء وعدم المجاملة أو المحاباة، حتى وإن ظُنَّ أن وراء ذلك استرضاء واستقطابا لبعض قيادات الكافرين وضمهم إلى حظيرة الإسلام.

والنموذج التالي يعلم الرسول أن الإسلام لا يهتم بالمظهر قدر اهتمامه بالجوهر قال تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝﴾[1]

ذلك أن عبد الله بن أم مكتوم. وهو صحابي جليل كفيف البصر – أتى ليسأل الرسول عن شيء، وألح في سؤاله، بينما الرسول مشغول بمخاطبة عتبة بن ربيعة، وأبي جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وبعض عظماء قريش ممن كان الرسول حريصا على أن يؤمنوا، ولكن عبد الله جعل يستقرئ النبي صلى الله عليه وسلم آية من القرآن، ويقول يا رسول الله، علمني مما علمك الله، فأعرض عنه رسول الله وعبس في وجهه وتولى، وكره كلامه. وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم نجواه، وأخذ ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره، وخفق برأسه، ثم أنزل الله تعالى. الآيات ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ .... الخ﴾ ويتابع بن جرير الطبري ت (٣١٠) روايته فيقول : فلما نزل فيه ما نزل، أكرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه، وقال له ما حاجتك ؟ هل تريد من شيء ؟ وإذا ذهب من عنده قال : هل لك حاجة في شيء[2] ؟

والمقابلة الملحوظة في هذه الآيات بين حالة الرسول مقبلا على الكبراء محتفيا بهم وهم راضون ببقائهم في دنس الكفر، معرضون عنه وعن رسالته. وحالته عابسا في وجه الأعمى الفقير، كارها لكلامه، وهو له محب وعليه مقبل.

...وهذه المقابلة توحي بالعتاب الشديد للرسول، وتؤكد النبر الحاد للمقابلات في خطاب النبي في مكة، لأنها تذكره كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده – في صورة عتاب بأن ضعف ذلك الأعمى وفقره لا يصح أن يكون حاملا على كراهة كلامه والإعراض عنه، فإنه حي القلب ذكي الفؤاد، إذا سمع الحكمة وعاها فيتطهر بها من

(١) عبس : ١ – ١٠

(٢) انظر : جامع البيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ٣٠/١٢ ط. دار المعرفة، بيروت، لبنان سنة ١٩٨٠

أوضـــار الآثام، وتصفوها نفسه من كدر الوساوس أو يذكر بها ويتعظ فتنفعه العظة في مستقبل أمره، فلا يقع في مأثم. أما أولئك الأغنياء الأقوياء، فأكثرهم الجحدة الأغبياء، فلا ينبغي الانصراف إليهم والتصدي لهم بمجرد الطمع في إقبالهم على الأمر، يَلجُونَ فيه فيتـــبعهم غيرهم، فإن قوة الإنسان في حياة قلبه وذكاء لبه، والإذعان للحق إذا ظهر، والانقـــياد للدلـــيل إذا بهر. أما المال والنشب والعصبة والنسب، والحشم والأعوان، والأكالـــيل والتيجان، فهي عوار تغدو. وترتحل وتقر حينا ثم تنتقل، ...وفي ذلك من تأديـــب الله لأمـــة محمد – صلى الله عليه وسلم- ما لو تأدبوا به لكانوا اليوم أرشد الأمم[1]).

وقد تكررت دعوة القرآن للرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يصبر مع الضعفاء والفقراء؛ لأنهم أشد صلة بالله، ولأن المقياس في هذا كما وضح الإمام محمد عبده هو أن قوة الإنسان في حياة قلبه وذكاء لبه، والإذعان للحق إذا ظهر، والانقياد للدليل إذا بهر، قال تعالى : ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[2]

فالمقابلة بين هؤلاء الذاكرين لله بصفة دائمة، والغافلين عن ذكره والمتبعين أهواءهم، المفرطين في أمورهم، توحي بالفرق الشاسع بينهما، وفي هذا حث للرسول على الصبر مع الذاكرين وعدم طاعة المعرضين الغافلين، حتى ولو كانوا وجهاء القوم، لأن ما عند الله أفضـــل من زينة الحياة الدنيا ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[3]

٣- وثمة ميزة أخيرة للمقابلة في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن المكي، وهـــي أنهـــا تأتي في مجال حثه على الالتجاء إلى الله والاستعانة به حين تَدْلَهِمُّ الأمور، ويسرى هاجس اليأس في قلبه، حينئذ تأتي المقابلة في خطابه لتثبت قدميه، وتربط على فؤاده، وتعزيه وتسليه، وتقدم له الحل الأمثل في هذا الوقت العصيب وقبل أن يؤذن له بالقتال والجهاد، إنه الصلة الدائمة بالله فهو السند والنصير قال تعالى :

---

(١) انظر تفسير جزء عم للأستاذ الإمام محمد عبده : ١٥، ط دار الشعب، مصر.

(٢) الكهف : ٢٨

(٣) النحل : ٩٦

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (1)

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (2)

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (3)

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ (4)

فالمقابلة المتكررة هنا بين التسبيح والصلاة في العشي والإبكار وقبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وآناء الليل وأطراف النهار، والتهجد بالقرآن في الفجر وفي الليل كلها تدعـو الرسول إلى الاستعانة على شدائده ومشاكل الدعوة بالصبر وباستمرار الاتصال بالله في جميع الأوقات، فإن في ذلك زادا أي زاد، وقوة أي قوة.

أمـا نظير ذلك من مقابلات في خطاب الرسول في المدينة، فقد رأيناها تمتاز بهدوء النـبرة. ورقـة النغمة بعد رحلة الكفاح المضنية، وطول الطريق، لقد كانت في المكي مـتدفقة سريعة حادة كالنهار في أوله أما في المدني، فإن موجاتها قد هدأت واعتمدت إلى حد كبير على الحجة والمنطق، وبعدت عن الانفعال والحدة.

ونستطيع أن نلمس ذلك الهدوء في كثرة حروف المد وطولها في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (5)

ونحس الثقة في المنطق والحجة في قوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (6)

---

(1) غافر : ٥٥

(2) طه : ١٣٠

(3) الإسراء : ٧٨ - ٧٩

(4) ق : ٣٩ - ٤٠

(5) الأحزاب : ٤٥

(6) الحج : ٤٩ - ٥١

ولا غـــرو .. فـــإن هـــذا الهدوء، وتلك العقلانية هما اللذان يناسبان ما كان عليه المســـلمون في المديـــنة من استقرار نسبي، ومن خطط وتشريعات لبناء المجتمع الجديد وذلك يتنافى مع الشدة والحدة والانفعال.

ثانيا : في خطاب اليهود والمنافقين

تقديم :

اســـتقر الرســـول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة بعد الهجرة، وبدأ في تنظيم المجـــتمع الإســـلامي الجديد على أسس من الإخاء بين المسلمين، مهاجريهم والأنصار وعـــلى حسن الجوار بين المسلمين وغيرهم من اليهود وأهل الكتاب، ويمكن القول بأن الطوائف التي استقرت في المدينة في عهد الرسول كانت ثلاثا :

١- المهاجرون وهم الذين فروا بدينهم من مكة إلى المدينة.

٢- الأنصـــار وهـــم الذين دخلوا الإسلام من سكان المدينة الأصليين من الأوس والخزرج.

٣- اليهود - وهم بقية من بني إسرائيل مع من تَهَوَّدَ من العرب.

ولقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم منذ أول عهده بالمدينة على أن يقيم فيها مجـــتمعا فاضـــلا تسوده المودة والاحترام، ولذلك عقد معاهدة بين المسلمين واليهود وأقلـــيات أخـــرى صـــغيرة كانت تعيش في المدينة، (وهذه المعاهدة تعتبر من أنفس المعاهدات الدولية وأجدرها بالتقدير)[1].

ويهمـــنا هـــنا إظهار إلى أي مدى كان حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على حســـن معاملـــة اليهود وعدم المساس بحقوقهم، لنرى - بعد ذلك - مقدار غدرهم وكـــيدهم في مقابلة ما وجدوه من طيب المعاملة، ومما يدل على توفر حسن النية من جانب المسلمين ما ذكره ابن هشام في السيرة من نصوص في تلك المعاهدة التي عقدت بين الرسول وبين بقية الطوائف في المدينة، نذكر منها بعض ما يتصل باليهود.

(...وإن من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم) (وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم إلا من ظلم أو أثم).

---

(١) انظر المجتمع الإسلامي للدكتور أحمد شلبي : ٥٢ ط النهضة المصرية. القاهرة ١٩٦٣

(وإن ليهود بني النجار، ويهود بني الحارث، مثل ماليهود بني عوف إلا من ظلم أو أثم)، (وإن عـلى الـيهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة)[1].

ولقد فصل فضيلة الشيخ عطية صقر العلاقة بين المسلمين واليهود في كتابة (دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة) حين كان يتحدث عن اليهود كما وصفهم القرآن ونختار من حديثه ما يلي : (ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمل أن يكون اليهود الموجودون بالمدينة أول المؤمنين به لا أول الكافرين، وذلك لأن دعوته كلها سلام لا تبغي هدما لصحيح من العقائد أو العادات، ولا عداء لأحد يستجيب لدعوة الحق ويتعاون على نشر كلمة العدل بين الناس : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2]

...ولكـن عداءهم لشخص الرسول ولجماعة المسلمين ما لبث أن ظهر في السب والقدح والاستهزاء ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾[3] وفي تهديدهـم بقتال المسلمين عقب انتصارهم في بدر قائلين لهم (لا يغرنكم أنكم قتلتم نفرا من قريش لا يعرفون القتال، ولو قاتلتمونا، لعرفتم أنا نحـن الـناس) ، وفي عدم التعاون مع المسلمين في تنفيذ نصوص المعاهدة، وفي محاولة الـتخلص من النبي باغتياله، أو بإلقاء الحجر عليه أو دس السم له، وفي نقضهم للعهد حـين تحرشوا بإحدى نساء الأنصار في السوق، وفي إيذاء المسلمين اقتصاديا باحتكار السلع وموارد الثروة وفي محاولة تفريق صفوفهم بالوقيعة بين الأوس والخزرج على يد شاس بن قيس وفي تآمرهم مع المشركين ضد المسلمين، فكانت غزوة أحد بتحريضهم، وغـزوة الأحـزاب بسـعيهم ونشاطهم، وكذلك أنشأوا جبهة ثالثة في المجتمع بين المسلمين والكافرين وهي جبهة المنافقين...[4])

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، القسم الأول ويشتمل على الجزء الأول والثاني: ٥٠٣ تحقيق : إبراهيم الإبياري وآخرون ط ٢، الحلبي مصر ١٩٥٥م.

(٢) آل عمران : ٦٤

(٣) آل عمران : ١٨٦

(٤) دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة، عطية صقر (٣٢٨)– مؤسسة الصباح الكويت سنة ١٩٨٠.

أمـا المنافقون. فلم يكن لهم وجود في مكة، كما لم يكن لهم وجود في المدينة قبل مجيئ الرسول صلى الله عليه وسلم إليها.

لم يكـن هـناك نفـاق في مكة، لأن النبي ومن معه لم يكونوا من القوة في حالة تسـتدعي وجـود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم فتتملقهم وتتزلف إليهم في الظاهـر وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء، كما كان شأن المنافقين بوجه عـام، لقد كان أهل مكة وزعماؤها يناوئون النبي جهارا، ويقاومون دعوته دونما تحرز أو تحفظ.

أمـا كيف ولماذا ظهر النفاق في المدينة ؟ فإن ابن كثير يشير إلى ذلك بقوله (..فلما قـدم الرسول المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من الأوس والخزرج، كان فيهم عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول، وكان رأسا في المدينة وهو من الخزرج. وكان سيد الطائفتين في الجاهلـية، وكـانوا قد عزموا على أن يمَلكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله.

فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبي بن سلول : هذا أمر قد تَوَجَّهَ[١]، فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممـن هم على طريقته ونحلته ، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثم وجد النفاق في أهل المديـنة ومـن حولها من الأعراب. وينفي ابن كثير تهمة النفاق عن المهاجرين، لأنه لم يكن فيهم أحد يهاجر مكرها، بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه، رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة)[٢].

ولقد وجد المنافقون في اليهود سندا لهم ونصيرا، لأن اليهود في المدينة كانوا على ما ذكرنا من الحقد والكراهية للرسول ولرسالته، فنشأ بين المنافقين واليهود حلف بغيض، بـات يحـيك المؤامرات ويدس في كل مناسبة، يظهرون عداءهم ويجهرون به إذا ألمت بالمسـلمين ضائقة أو نزلت بهم شدة ، ويخفون كيدهم وتآمرهم إذا كان المسلمون في قوة ورخاء.

---

(١) تَوَجَّهَ : كَبُرَ، انْطَلَقَ (المعجم الوسيط).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٤٧/١

وقد تولى القرآن الكريم فضح اليهود والمنافقين، وكشف كيدهم وضلالهم في آيات كـثيرة، حتى أن هناك سورة باسم (المنافقون) وسنحاول فيما يلي إبراز دور المقابلة في كشف اليهود والمنافقين والأثر البلاغي والديني لذلك :

أولا : في خطاب اليهود :

وردت المقابلة في خطاب اليهود في مواقف كثيرة نعرض لبعضها فيما يلي :

١ – في حثهم على الإسلام : ترد المقابلة في خطاب اليهود لتدعوهم إلى الإسلام وتبين لهم الطريق الواضح. قال تعالى : ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾[١]

وأهـل الكـتاب هنا هم اليهود والنصارى كما يقول الزمخشري[٢] : والقرآن الكريم عـندما يعـبر بأهل الكتاب فإنما يقصد بذلك اليهود والنصارى، وأحيانا يخص اليهود بالحديث عندما يناديهم بني إسرائيل وهو هنا يدعو أهل الكتاب عموما، واليهود بخاصة بـأن يتبعوا ما جاء به الرسول فإن في رسالته الكثير مما أخفوه لحاجة في نفوسهم (فقد أخفى النصارى التوحيد وقالوا بالتثليث وأخفى اليهود كثيرا من أحكام الشريعة كرجم الـزاني وتحريم الربا كافة، كما أخفوا جميعا خبر بعثة النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل)[٣] ويروى السيوطي في أسباب النزول (إن اليهود أتوا للنبي صلى الله عليه وسلم يسألونه عن الرجم: فقال : أيكم أعلم، فأشاروا إلى ابن صوريا فناشـده النبي بالذي أنزل التوراة على موسى، والذي رفع الطور والمواثيق التي أخذت عليهم حتى أخذه أُفْكَلٌ[٤]، فقال : إنه لما كثر فينا جَلَدْنَا مائة، وحلقنا الرؤوس، فحكم عليهم بالرجم[٥]).

---

(١) المائدة : ١٥/١٦

(٢) الكشاف : ٦٠١/١

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب : ٨٦١/٢

(٤) الأفكل، على وزن أحمد. هو الرعدة، يقال : مفكول أي مرتعد : (المعجم الوسيط). ٤

(٥) أسباب النزول للسيوطي : ٧٠/٢

والآيـــات هنا تعرض عليهم رسالة الإسلام باستخدام المقابلات بين : (يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون، ويعفو عن كثير)، وبين (الظلمات والنور).

ونحـــن نلاحظ على هذه المقابلات أنها بين فعلين وبين اسم واسم، كما نلاحظ أن عنصـــر الضياء والكشف والجلاء يشع من رسالة الإسلام في مقابل التخفي والظلمات التي يعيش فيها أهل الكتاب.

٢- في دحض كذبهم على الله وعلى الناس :

فقد كذب اليهود على الله واتهموه بالبخل، وكذبوا على الله حين حرفوا الكلم عن مواضـــعه، وكذبـــوا على الله وعلى الناس حين ادعوا أنهم قتلوا المسيح بن مريم وهذه نمـــاذج من كذبهم وإخفائهم للحقائق، يفضحهم فيها القرآن الكريم وتؤدي المقابلات فيها دورا هاما ومؤثرا في هذا المجال.

أ- قال تعالى : وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ [١]

يقول الزمخشري في تفسيره لهذه الآيات : (روي أن الله تبارك وتعالى كان قد بسط عـــلى الـــيهود حتى كانوا من أكثر الناس مالا. فلما عصوا الله في محمد صلى الله عليه وســـلم وكذبوه كف الله تعالى ما بسط عليهم من السعة، فعند ذلك قال فنحاص ابن عازوراء : يد الله مغلولة، ورضي بقوله الآخرون فأشركوا فيه) [٢].

فاليهود هنا يكذبون على الله وينسبون البخل إليه بينما شواهد الحال تدل على أنهم أبخل خلق الله.

---

(١) المائدة : ٦٤ - ٦٦

(٢) الكشاف : ٦٢٨/١

والمقابلات هنا متعددة :

١ – فقد قابل قولهم يد الله مغلولة بالدعاء عليهم بغل الأيدي، وبإثبات الكرم لله في قوله (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) فتكون هذه من المقابلات الفريدة في القرآن التي يقابل فيها طرفان بطرف واحد؛ وذلك لبشاعة التهمة التي يحاول اليهود– كذبا واختلاقا– أن يطلقوها على الله سبحانه.

وللزمخشري تعليل لطيف في تثنية (يداه) في قوله (بل يداه مبسوطتان) وهي مفردة في (يد الله المغلولة)، وهو أن هذه التثنية (ليكون رد قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له، ونفي البخل عنه، وذلك أن غاية ما يبذله السخي بماله من نفسه أن يعطيه بيديه جميعا فبني المجاز على ذلك)[1].

٢ – وقابل (أطفأها الله) بـ (أوقدوا نارا للحرب) وهي توحي بفشل مقاصدهم في الكيد للإسلام وللمسلمين، وبكشف أكاذيبهم.

٣– وقابل بين حبهم للفساد وعدم حب الله لذلك. لبيان الفرق بينهم وبين المسلمين.

٤ - وقابل بين (أكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) للإيحاء بكثرة الخير الذي يمكن أن يجنوه لو أنهم لم يكذبوا على الله، وأقاموا الكتب السماوية دستورا لهم و لم يحرفوها ويخفوها.

٥– وقابل بين قوله "(منهم أمة مقتصدة، وكثير منهم ساء ما يعملون) وهي مقابلة بين طائفتين من اليهود، (طائفة حالها أَمَمٌ[2] في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم وهي الطائفة المؤمنة كعبد الله بن سلام وأصحابه[3]) والطائفة الأخرى ساء عملها وهي الطائفة الكبيرة من اليهود. وهذه المقابلة فيها حث لليهود على تدبر أمرهم والتفكير في عاقبة أفعالهم السيئة. وناسب الختام بها بعد أن كشف كذبهم وتدبيرهم حتى ينصلح حالهم.

---

(١) نفسه : ٦٢٨/١

(٢) الأَمَمُ : اليسير القريب التناول، الهَيِّن، والوسط.

(٣) تفسير النسفي : ٢٩٢/١

ب- وفي مجال خطاب اليهود لكشف كذبهم أيضا يأتي قوله تعالى : ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾(1)

فالمقابلـة هنا بين تأكيدهم (إنا قتلنا) ونفي الله لذلك في قوله تعالى : {وما قتلوه} وتأكيد ذلك بعدة مؤكدات بعدها، وهي نفي الصلب الذي ادعوه والاستدراك ب {لكـن شبه لهم} وتأكيد النفي في (وما قتلوه يقينا) كل هذه المؤكدات في مقابل ما يزعمون تأكيده بقولهم (إنا قتلنا المسيح).

والمقابلـة بين جو الشك والظن الذي أحاط بنهاية عيسى وجو العلم واليقين الذي يثبته القرآن في هذه القضية.

وهذه المقابلات توحي بكذب اليهود وضلالهم، ومحاولتهم تزييف الحقائق.

٣- في تحذيرهم وتهديدهم :

وتسـأتي المقابلة في خطاب اليهود للتحذير والتهديد إن لم يؤمنوا قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ(2) وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾(3) والمقابلـة هنا بين (الوجوه والأدبار) توحي بالتهديد بطمس مادي أو معنوي: مادي كالمسخ والتشويه ومسح معالم الوجه حتى يصير كالقفا كما حدث لأصـحاب السـبت حين مسخهم الله قردة خاسئين، أو معنوي بطمس معالم الهدى والبصيرة في نفوسهم.

وهو تهديد مخيف ومرعب كان له أثره الفعلي في إسلام كعب الأحبار فحين سمع هـذه الآيـة بادر إلى الماء فاغتسل وأسلم وهو يقول : (وإني لأَمَسُّ وجهي مخافة أن أطمس(4)).

---

(١) النساء : ١٥٧

(٢) نطمس وجوها : أي نسويها حتى تعود كأقفائهم، مجاز القرآن ١/١٢٩

(٣) النساء : ٤٧

(٤) تفسير ابن كثير : ١/٥٠٨

٤ – في بيان جوانب من أخلاقهم :

وهـــذه طائفـــة من المقابلات في عدة آيات متفرقات تكشف عن بعض الجوانب الخلقـــية التي تعاملوا بها مع المسلمين، والقرآن يكثر من ذكر هذه الآيات حتى يَحْذَرَ المسلمون كيد اليهود ويعدوا لهم العدة. والمقابلات هنا واضحة وصريحة ومعظمها يبرز التناقض في شخصية اليهود.

١ – فهم يؤمنون بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ويأخذون من الدين ما يوافق هواهم ويتركون غيره قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ﴾

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [١]

٢ – ويشترون الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [٢]

٣ – ويشترون الدنيا بالآخرة ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [٣]

٤ – ويؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [٤]

٥ – ويؤمـــنون بالإسلام أول النهار ويكفرون آخره {﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [٥]}

---

(١) المائدة : ٦١

(٢) البقرة : ١٧٥

(٣) البقرة : ٨٦

(٤) البقرة : ٨٥

(٥) آل عمران : ٧٢

والهدف الظاهر من وراء دعوتهم تلك هو إيقاع المؤمنين من أتباع محمد في الشك، لأنهم كانوا يعتقدون أن أهل الكتاب أعرف منهم ببواطن الأمور، فإذا رأوهم آمنوا ثم رجعوا عن إيمانهم ظن هؤلاء الأميون أنهم رجعوا لأنهم اكتشفوا خللا أو نقصا في الدين ولذلك عقبت الآية بهذا الهدف (لعلهم يرجعون[1]).

٦- ويتناقض قولهم مع فعلهم ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾[2] ﴾ وتلك آفة يجب أن يتخلص منها كل داعية إلى الخير، حتى لا يصاب الناس بالشك والحيرة فتنطفئ جذوة الإيمان في قلوبهم لما يرونه من تناقض أقوال الدعاة مع أفعالهم.

ثانيا : المقابلة في خطاب المنافقين :

عرفنا أن المنافقين ظهروا في المدينة وكان على رأسهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول والمنافق كما ورد في المعاجم هو من يخفي الكفر ويظهر الإيمان، ومن يضمر العداوة ويظهر الصداقة ومن يظهر خلاف ما يبطن[3].

وقد وردت المقابلة في خطاب الله للمنافقين في أكثر من موضع في السور المدنية وكان لها أثرها في كشف نواياهم تجاه المسلمين وتحذير المسلمين منهم وتهديد المنافقين بسوء العاقبة، ومن هذه المقابلات ما يلي :

أ- فيما يتصل بعقيدتهم :

إذا جاز أن يكون للمنافقين عقيدة، فإن الآيات التالية توضح أنهم أصحاب عقيدة مزدوجة، يستخدمون جزءا منها في العلن والآخر في الخفاء. والآيات التالية توضح هذا الازدواج والتذبذب في عقيدتهم :

قال تعالى في سورة البقرة : يصف أحوال المنافقين كما ذكر ابن كثير

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣٧٣/١

(٢) البقرة : ٤٤

(٣) المعجم الوسيط مادة (نفق).

ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾
ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾
﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ
مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾[1]

١ - فهــذه الآيــات تقابل ما يخفون من عدم الإيمان بما يبدونه من قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر.

٢ - وتقابل خداعهم لنفسهم دون وعي وشعور بخداعهم لله والذين آمنوا.

٣ - وتقابــل ما زاده الله عليهم من مرض الرجس والضلال بما في قلوبهم من مرض النفاق في الدين[2].

٤ - وتقابــل ادعــاءهم الكاذب بأنهم مصلحون بدعوة الدين لهم بترك الفساد في الأرض.

٥ - وتقابل تعاليهم وتكبرهم حين يصفون المسلمين بالسفة بدعوة الدين لهم بالإيمان كما آمن الناس.

٦ - وتقابــل بين ما يلقون به المؤمنين من التظاهر بالإيمان وما يقولونه لرؤسائهم - شـياطين الـيهود والمشركين - من التحزب معهم، والسير وإياهم في طريق الضلال والاستهزاء بالدين.

٧ - وتقابل بين استهزائهم بالمؤمنين واستهزاء الله بهم على طريقة المشاكلة[3].

٨ - وتختــتم الحديث عن عقيدتهم بالمقابلة بين الضلالة والهدى إشعارا بأن المنافقين بهذا السلوك المشين قد اختاروا - بل اشتروا - الضلالة بالهدى ..

وهــذه المقابلات الثمان تعكس حالة التأرجح والذبذبة والتناقض التي تميز المنافقين وهي تكشف بهذا عن المخبوء من سرائرهم حتى يتعرف عليهم المجتمع الإسلامي فيحذر منهم.

---

(١) البقرة : ٨ - ١٦

(٢) تفسير ابن كثير : ٤٨/١

(٣) المشاكلة : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا. (الإيضاح) للقزويني ص١٩٨

ولعـــل في هـــذا الكشف ما يحمل بعضهم على الخجل من نفسه حين يراها عارية بالسوء أمام الجميع فيبادر إلى التوبه والاستقامة.

ب- في بيان حالهم عند نزول سورة من القرآن :

توضـــح المقابلـــة الآتـــية أثر القرآن على نفوس المنافقين بالمقارنة بأثره على نفوس المؤمنين قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ (١٢٥) ﴾

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) ﴾(١)

والمقابلة هنا بين موقفين تجاه الوحي :

١- موقف المنافقين، ويظهر في التساؤل المريب المخذل المشكك : أيكم زادته هذه إيمانا ؟

كما يظهر في نظر بعضهم إلى بعض نظرة يفهم منها أنهم يريدون الانصراف خلسة عن مجلس الرسول خشية أن يكون في السورة ما يفضحهم أو يكلفهم بأمر جديد، ثم ينصرفون تتبعهم لعنة الله.

ولذلك لا يزيدهم هذا التصرف إلا رجسا فوق رجسهم يلازمهم حتى يموتوا وهم كافرون..

٢- موقف المؤمنين : يتلقى المؤمنون السورة الجديدة بالحفاوة والاستبشار فتقع على قلـــوبهم موقع الندى على الغلة الصادية، تزيدهم إيمانا على إيمانهم ويستبشرون بما فيها من أوامر يغريهم بتنفيذها حب الله والدين.

ج- موقفهم من الدعوة إلى الجهاد :

والجهـــاد هو المحك العملي الذي يكشف المنافق من الصادق. فلئن أظهر شخص ما إسلامه فليس لنا عليه من سبيل، ولكن التجربة والاختبار يظهران صدق هذا الإسلام، ومـــن ثم كـــان الجهـــاد هو الذي كشف المستور من نواياهم، وأظهر الوجه القمئ للمنافقين.

---

(١) التوبة : الآيات (١٢٤، ١٢٥، ١٢٧).

وسنعرض هنا نماذج للمقابلات في خطاب المنافقين نتبين منها أن موقفهم من الدعوة إلى الجهاد يتلخص في :

(١) التخلف والنكوص.

(٢) التثبيط من همة المسلمين والحط من روحهم العالية في القتال.

(٣) الترقب والتربص انتظارا للنتائج حتى ينضموا إلى الغالب.

(٤) تكالبهم على طلب الغنائم بغير حق.

وبالطبع ليست هذه كل مواقفهم في الجهاد، فهناك التحالف مع اليهود والمشركين وهناك الإرجاف بالباطل بين الصفوف، ولكنا نختار من المواقف ما عرض فقط بأسلوب المقابلة.

(١) المقابلة في التخلف والنكوص عن الجهاد :

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ[١] مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝[٢] ﴾

فالمقابلة بينهم وبين المؤمنين هنا حين يأمر القرآن بالجهاد، تظهر مدى تقاعسهم عن الجهاد. ورضاهم بأن يكونوا من النساء القواعد المتخلفات عن الجهاد.

بينما الرسول والذي آمنوا معه يسارعون بتلبية داعي الجهاد باذلين المال والنفس في سبيل الله.

ومن ثم كان الجزاء بينهما متقابلا أيضا لأن الجزاء غالبا من جنس العمل فكان جزاء المؤمنين الفلاح والخلود في الجنات تجري الأنهار العذبة من تحتها وذلك هو الفوز العظيم في مقابل دمغهم بعدم الفهم والفقه والطبع على قلوبهم فلا يهتدون.

---

(١) أولو الطول : أصحاب الغنى والسعة من المنافقين : (كلمات القرآن ١١٤).

(٢) التوبة : ٨٦ - ٨٩

(٢) التثبيط من عزائم المسلمين :

مـــثلما حدث في غزوة تبوك التي تسمى غزوة العسرة، وكانت في الصيف القائظ، فلما أمر الرسول الناس أن ينبعثوا معه، تعلل المنافقون بشدة الحر[١] - قال تعالى :

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾[٢] ﴾

والمـــنافقون بهـــذا التعلل إنما يشيعون روح الكسل والتراخي بين صفوف المسلمين النشطين إلى الجهاد.

ولذلك قابل الله تعللهم بعدم النفور في حر الدنيا بأن نار جهنم التي تنتظر المتخاذلين أشد حرا، وقابل الضحك القليل في الدنيا بالبكاء الكثير في الآخرة فأيام الدنيا محدودة معدودة، أما في الآخرة فإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون.

(٣) التربص والترقب انتظارا للنتائج :

رأيـــنا المنافقين وقت الجهاد ينكصون على أعقابهم ويتعللون بأعذار واهية ويشيعون الخـــور والـــضعف بـــين المسلمين، فإذا ما شمر المسلمون - بالفعل - عن ساعد الجد وخاضـــوا حومة الوغى وقف المنافقون متربصين ينتظرون نتيجة المعركة فإذا تم الفتح والنـــصر للمسلمين، تظاهروا للمسلمين بالمودة، ودلوا عليهم دلالا كاذبا بأنهم كانوا معهم، بقلوبهم، أو بما قدموه لهم من مساعدات.

أمـــا إذا كان للكفار الغلبة — كما حدث في غزوة أحد - فإنهم يدلون عليهم أيضا بما قدموه لهم من مساعدة في الباطن من تخذيل وخبال في صفوف المسلمين قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ[٣] عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) انظر أسباب النزول للسيوطي :٢/٩٨

(٢) التوبة : ٨١ - ٨٢

(٣) نستحوذ عليكم : نحافظ عليكم، ونمنع اذى المسلمين عنكم. (المعجم الوسيط).

فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ [(1)]

والمنافقون يحسون بالنشوة والسعادة حين يصاب المسلمون بأذى ويحسون بالنكد والهم والسوء إذا أصاب المسلمين خير. قال تعالى :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [(2)]

والمقابلة هنا بين حاليهم تبرز مدى الحقد والغيظ الذي يعتمل في قلوبهم تجاه المسلمين. وفيها تحذير للمسلمين منهم وكشف لخططهم ومشاعرهم تجاههم وشبيه بهذا الموقف أيضا قول الله تعالى عنهم :

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [(3)]

والمقابلة في الآيتين بين حالتين من حالات المنافقين تثير الاشمئزاز من تصرفهم المخجل والمخزى.

فهم لا يسارعون إلى القتال والجهاد شأن المؤمنين المخلصين بل يتباطئون ويتثاقلون تربصا وانتظارا لنتيجة المعركة : فإن كانت الدائرة على المسلمين أو أصابتهم مصيبة فرحوا إذ نجوا منها واعتبروا - لجهلهم - أن عدم اشتراكهم واستشهادهم في المعركة نعمة من الله عليهم.

وإن كانت الغلبة للمسلمين وأصابوا الغنائم....تمنوا أن لو كانوا معهم فيفوزون فوزهم العظيم مع أنهم هم الذين تباطئوا وتكاسلوا.

وهذان الموقفان المتقابلان يبرزان مدى التناقض بين ظاهر المنافقين وباطنهم ومدى الأرجحة وعدم الثبات على موقف واحد، وفيها أيضا كشف وتعرية لنواياهم حتى يحذرهم المسلمون.

---

(١) النساء : ١٤١

(٢) التوبة : ٥٠

(٣) النساء : ٧٢ - ٧٣

(٤) تكالبهم على طلب الغنائم بغير حق :

كان من المفروض أن يتوارى المنافقون خجلا من المسلمين ومن أنفسهم حين يعود المسلمون منتصرين غانمين، ولكن العجيب أنهم – وقد نكصوا عن القتال وخذلوا المقاتلين..وتربصوا بالمسلمين – يزاحمون المسلمين أرزاقهم، ويرون لهم في الغنائم حقا واجبا، بل يتطاولون أحيانا على الرسول ويلمزونه في عدالة التوزيع فإذا أعطاهم منها رضوا وإذا لم يعطهم منها سخطوا.

قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾[1]

والمقابلة هنا تكشف حالهم بين الرضا إذا نالوا مالا يستحقون والسخط إذا لم ينالوا شيئا.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم حليما معهم إلى أبعد حدود الحلم، وترك للقرآن ولفهم المسلمين له مهمة كشفهم والقضاء عليهم :

يروى البخارى والنسائى عن أبي سعيد الخدرى – رضى الله عنه – بينما النبي صلى الله عليه وسلم يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى فقال : اعدل يا رسول الله، فقال رسول : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ائذن لي فأضرب عنقه، فقال الرسول الله صلى الله عليه وسلم دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم في الرمية قال أبو سعيد فنزلت فيهم "ومنهم من يلمزك في الصدقات...إلخ[2])

(٥) بين المؤمنين و المنافقين :

سبق أن عرضنا لموقف المنافقين وموقف المؤمنين والفرق بين ما يتصف به كل فريق منهما عندما تحدثنا تحت هذا العنوان في سياق الحديث عن المقابلة في خطاب النبي والمؤمنين وعرضنا لذلك الآيات (٦٧ – ٦٨)، (٧١ – ٧٢) من سورة التوبة، فلا داعي لتكرارها هنا مرة أخرى[3].

---

(١) التوبة : ٥٨

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٣٦٣/٢، وأسباب النزول للسيوطي : ٩٥/٢

(٣) انظر ص (٢٥٥) من هذا البحث

ثالثا : المقابلة في آيات التشريع

تقديم :

يـرتبط التشريع في الدين الإسلامي بالعقيدة ارتباطا وثيقا، فإذا كانت العقيدة تعني الاعتقاد الجازم وتصديق القلب بكل ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم مما علم مجيئه به.

وإذا كانـت الـشريعة هي الطريقة الموضوعة للسير عليها، والتكاليف التي تؤدي بالجوارح، فإن الإسلام يشمل العقيدة والشريعة، أي التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح(١).

وقـد سـبق القول بأن القرآن المكي اهتم بغرس العقيدة، بينما اهتم القرآن المدني بالتطبـيق العملي لتلك العقيدة عن طريق رسم النظم والتشريعات التي تكفل السلامة والأمن للفرد والمجتمع.

ونـضيف هنا أن تشريع الله للبشر قائم على أساس علمه تعالى بما يصلحهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾(٢).

وإذا كانـت القوانين الأرضية تحترم برقابة الشرطة وبدافع الخوف من العقاب فإن التشريعات الإلهية تحترم بوازع من الضمير الديني الذي يرى في رقابة الله المطلقة عاصما لـه من الوقوع في الخطأ، ولذلك يندر أن تجد آية من آيات التشريع غير مقترنة بالحث علـى طاعـة الله ورقابته لأنه بدون هذه الطاعة، والشعور بالمراقبة لن تنفذ وصايا أو تـشريعات. وحتى في أمور التعامل المادي البحت كآيات الميراث أو آية الدّين، نجد في ثـناياها أوامر أو نواهي بتقوى الله وطاعته مثل... ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾(٣)

ومن الطبيعي – ونحن نبحث في المقابلة في آيات التشريع – ألا نتعرض لكل آيات التـشريع في القـرآن الكريم، بل نختار منها ما ورد بأسلوب المقابلة فقط، ونأخذ من المقابلات ما أدى دورا مؤثرا في بيان الحكمة من هذا التشريع والربط بينه وبين خشية الله ومراقبته.

---

(١) انظر دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة : عطية صقر

(٢) الملك : ١٤

(٣) البقرة : ٢٨٢

ويمكــن القول بأن المقابلة في آيات التشريع كانت أكثر ظهورا في التشريع للأسرة ومــا يرتبط بها من زواج وطلاق ونفقة وتبنٍّ[1]، وفي بعض المحرمات كالخمر والربا، وفي بعــض الحدود كحد القذف والقتل، وفي جانب من أصول العلاقات بين الدولة المسلمة وغيرها؛ كما ترد على قلة — في العبادات كالصلاة والحج.

وهذه طائفة من النماذج للمقابلة في التشريع :

(١) في الصلاة ..سبق الحديث عنها في (خطاب النبي) ص:٢٤٦

(٢) في الحج

(٣) في بناء الأسرة

(٤) في تحريم الخمر

(٥) في تحريم الربا

(٦) في حد القذف

(٧) في القصاص

(٨) في أصول العلاقات بين المسلمين وغيرهم

(٢) في الحج :

أ- قال تعالى : ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾[2]﴾

ورغم أن سياق الآيات يوحي بأن الأمر هنا إنما هو لسيدنا إبراهيم عليه السلام إلا أننا نميل إلى ما أورده الزمخشري في رواية عن الحسن[3] : أنه خطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أُمِرَ أن يفعل ذلك في حجة الوداع.

والمقابلة في الآيتين بين :

---

(١) التبني : اتخاذ ولد الغير ابنا واعطاؤه كافة الحقوق المترتبة على هذا التبني وقد أبطله الإسلام بقوله سبحانه {وما جعل أدعياءكم أبناءكم}. وسيأتي الحديث عن ذلك ص (٢٨٦) .

(٢) الحج: ٢٧ - ٢٨

(٣) الكشاف للزمخشري : ١١/٣

(١) الذهاب إلى الحج مترجلين والذهاب راكبين وهي توحي بكثرة الجموع الملبية للأذان بالحج، وتدافعهم ما بين راجل وراكب قاصدين إلى مكة من كل فج عميق.

(٢) وبين منافع لهم ويذكروا اسم الله. أي بين المادة والروح وهي تلخص الحكمة من الحج، والأثر الذي يعود على المسلمين من ورائه ففيه غذاء مادي وغذاء روحي: فيه التجارة والمنافع الدنيوية وفيه ذكر الله والالتجاء إليه وتلبية ندائه وهذا أكبر زاد روحي.

وهكذا جمعت الآيتان - بأسلوب المقابلة - بين تشريع الحج والحكمة من ورائه ماديا وروحيا.

ب- ومما يتصل بفريضة الحج، ما ورد من آيات في سورة البقرة تعلم المسلمين بعض الآداب المتعلقة بهذه الفريضة.

قال تعالى : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾[(٢)]

والأدب الذي يريد القرآن أن يثبته في قلوب المسلمين هو أن مناسبة الحج يحسن أن يتغلب فيها الطابع الروحي على الطابع المادي. وعلى المسلمين إذا ما انتهوا من أداء النسك أن يتوجهوا إلى ربهم بالدعاء بخيري الدنيا والآخرة ولا يقتصروا في دعواتهم على مطالب الدنيا.

والآيات تعرض نموذجين متقابلين :

نموذج همه الدنيا وحدها، فهي شغله الشاغل حتى في أقدس الأماكن وهؤلاء قد يعطيهم الله في الدنيا ولكن ليس لهم في الآخرة من نصيب والنموذج الآخر الذي يقابله، لمن لا يحصرون همهم في الدنيا بل يتطلعون إلى الخير في الدنيا والآخرة ومن ثم يدعون الله بحسنة الدنيا وهي النعمة والعافية والتوفيق، وحسنة الآخرة وهي الرحمة والإحسان والنجاة، فيستجيب الله لدعائهم.

---

(١) خلاق : نصيب من الخير أوقدر منه (كلمات القرآن : ٢٤).

(٢) البقرة : ٢٠٠ - ٢٠٢

ولقد كان قوم من الأعراب يجيئون إلى هذا الموقف قائلين : اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاء وحسن، ولا يذكرون من أمر الآخرة شيئا فأنزل الله فيهم هذه الآيات[1].

والمقابلة بين الفريقين تجعل المسلم ذا القلب البصير يختار من الدعاء والأدب في هذا الموقف ما يعود عليه بخيري الدنيا والآخرة.

(٣) في بناء الأسرة :

يحرص الإسلام فيما يحرص على تكوين أسرة سليمة متماسكة، لأنها الخلية الأولى في المجتمع ويتوقف صلاحه على صلاحها وبالعكس

ولـــذلك وضعت الضوابط التي من شأنها أن تكفل سلامة هذا الأساس الذي سيقام عيه بنيان المجتمع. ومن الضوابط التي وردت بأسلوب المقابلة :

أ- اختيار الزوجة :

لا يحفـــل الإسلام بجمال المرأة او حسبها قدر احتفاله بدينها فقد ورد في الحديث الشريف (...فاظفر بذات الدين تربت يداك[2]).

والآية التي نستشهد بها هنا والتي جاءت بأسلوب المقابلة حتى يتبين المسلم الصواب من الخطأ هي قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَـةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾[3]

والمقابلـــة في هـــذه الآية بين طريقين لا يلتقيان أبدا، لأن أحدهما موصل إلى النار والآخـــر موصـــل إلى الجـــنة، إنها بين الشرك والإيمان وهيهات أن تبنى أسرة مترابطة وطرفاها متنافران.

---

(١) أسباب النزول للسيوطي : ٢٧/١

(٢) صحيح البخاري : كتاب الشعب ٩/٧

(٣) البقرة : ٢٢١

والإســـلام حريص على تحريم نكاح المشركات حتى يُؤْمِنَّ، والمشركين حتى يؤمنوا ويفـــضل الأَمَةَ المؤمنة والعبد المؤمن على المشرك ولو كان حرا حتى تتميز الشخصية المسلمة بالتماسك والقوة.

ب- العلاقة الزوجية :

في آيـــات كـــثيرة تـــرى القرآن الكريم يصور العلاقة الزوجية بأنها السكن والمودة والـــرحمة ومن هذه المودة والرحمة ينبت النبت الطيب الصالح وتنشأ الأسرة الإسلامية الـــتي تنتظمها روح المحبة والتعاون .. وحتى عندما يتعرض القرآن للعلاقة الجنسية بين الـــرجل و زوجته، وهي في الحياة أمر شهواني صرف يترل بالإنسان إلى البعد الحيواني نجـــد الإسلام يضفي عليها من الشفافية والرقة ما يذهب بغلظ الحيوانية ويلبس العملية الجنسية ستارا روحيا راقيا. قال تعالى :

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ[1]

والمقابلـــة بـــين كـــون الزوجات لباسا للرجال وكون الرجال لباسا للنساء توحي (بضـــرب بعـــضهم مـــن بعض واشتمال بعضهم على بعض كما تشتمل الملابس على الأجسام[2]) وفيها من التقارب والتلاحم الروحي والنفسي ما يفوق بكثير هذه الدقائق القليلة من الاتصال المادي.

ج- في آداب الطلاق :

فإذا ما دب الخلاف بين الزوجين وخيف على تلك العلاقة من الشقاق،

١- فـــإن الخطـــوة الأولى هي فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾[3] حكَم عدل من أهل الزوج في مقابل حكم عدل من أهلها، في محاولة مخلصة لرأب الصدع بين الزوجين.

٢- فـــإذا اســـتحالت العشرة بين الزوجين، فلا مناص من الطلاق، وحتى يخفف الإســـلام من وطأته وبغضه فإنه شرع محددا بطلقتين، حتى لا يكون الطلاق سلاحا في

---

(١) البقرة : ١٨٧

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضي.

(٣) النساء : ٣٥

يــد الــرجل يستعمله في إضرار الزوجة وبقائها معلقة، كما ذكر السيوطي (حين قال رجل لامرأته : والله لا أطلقك فتبيني مني ولا آويك أبدا، قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلقــك. فكلما هَمَّتْ عدَّتُكَ أن تنقضي راجعتك، فذهبت المرأة فأخبرت النبي صلى الله عليــه وســلم فسكت حتى نزل القرآن[١] ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ﴾[٢]

وبعد الطلقتين يخيره الإسلام بين أمرين كلاهما فيه حفاظ على الأسرة وعلى علاقات المودة بين الناس : إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقد تكرر هذا المطلب في أكثر من موضع لأهميته الكبيرة في الحفاظ على أواصر المحبة قال تعالى ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْ﴾[٣] وقال أيضا : ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٍ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝﴾[٤]

ولا نريد الدخول في تفصيلات فقهية ليس مجالها هذا البحث البلاغي وإنما يهمنا هنا أن نــشير إلى موقـــع المقابلـــة في النص القرآني ووقعها وأثرها في ربط التشريع بالتأثر الوجداني والروحي.

فالمقابلة بين الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان

أو بين الإمساك بمعروف والمفارقة بمعروف

ثم التعقيب على ذلك بالنهي عن الإمساك ضررا واعتداء على حرية المرأة وبإشهاد العـــدول وإقامة الشهادة الخالصة لله، والتذكير بتقوى الله في هذا الموقف .. كل ذلك يـــشير إلى الربط بين المقابلة في التشريع وبين هذا التأثير الروحي الذي يوقظ الضمير، فكما قلنا سابقا[٥] إن أي قانون لابد له من عين ساهرة تحرص عليه وتحرسه أما القانون

---

(١) أسباب النزول للسيوطي : ٣٢/١

(٢) البقرة: ٢٢٩

(٣) البقرة : ٢٣١

(٤) الطلاق : ٢

(٥) انظر التقدم لمقابلة في آيات التشريع ص (٢٧٩) .

الإســلامي فالضمير هو الرقيب الأول، ولذلك ارتبطت التشريعات بما يوقظ منه الحس الديني وينبهه.

٣- وســوف يتــرتب علــى هذا الطلاق بعض الأحكام كرضاعة الطفل أو نفقة الزوجة وهنا يحرص الإسلام على بيان هذه الأحكام في أسلوب المقابلة المؤثرة أيضا في الجانب الوجداني الذي يسهم في تنفيذ هذه الأحكام على الوجه الصحيح.

قال تعالى : ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا[1] عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2]

فَفــي الآية مقابلة بين الواجبات والحقوق التي تكفل للرضيع نشأة سليمة قوية رغم ما حدث من فراق بين الأبوين.

إن عليها أن ترضعه حولين كاملين، وهي الفترة التي اعتبرها الأطباء وعلماء النفس المعاصرون فترة مثالية تلبي جميع الحاجات الصحيَّة والنفسية للطفل.

وفي مقابــل ذلــك، فإن لها حقا واجبا على والد الطفل وهو أن يتكفل برزقها أي إطعامها وكسوتها بالمعروف.

وتأتي هذه المقابلة مصحوبة بمقابلة أخرى هي عدم الإضرار بالوالدة في مقابل عدم الإضرار بالوالد.

والمقابلتان تأتيان في جو من الألفة والتشاور والمعروف ويعقب عليهما بالأمر بتقوى الله ومراقبته فهو البصير بالأعمال وبالنوايا.

وهكذا يتحقق التأثير الوجداني المطلوب في مثل هذه المواقف الحساسة.

٤- وهناك آية أخرى تتصل بالنفقة، وتشتمل على مقابلة رقيقة ولطيفة في مثل هذا الموقــف الذي يحتاج إلى الرقة والتطف لتضميد الجراح وتهدئة الخواطر وهي تأتي بعد

---

(١) إن أراد فصالا : فطاما للولد قبل الحولين. (كلمات القرآن: ٢٨).

(٢) البقرة : ٢٣٣

تفصيل في النفقة تَضَمَّنَ المسكن وأجرة الرضاعة وقد وضعت هذه المقابلة قاعدة عامة لا يختلف عليها، وهي أن النفقة عموما تخضع لحالة الزوج يسارا وإعسارا قال تعالى : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾(١)

فالمقابلة هنا بين الغنى والفقر، وبين العسر واليسر

وقد عبر القرآن عن الغنى بقوله {ذو سعة} إشعارا بالبسطة وسعة الرزق كما عبر عن الفقير بقوله {من قدر عليه رزقه} إشعارا بالشفقة عليه وعدم تكليفه بما فوق طاقته.

د- إبطال الظهار والتبني :

ومن الأمور التي كانت تهدد كيان الأسرة بالتفكك، أو تبني كيانا أسريا على أساس كاذب، عادتا الظهار والتبني.

والظهار (أن يقول الرجل لزوجته أنت عليَّ كظهر أمي. وكان طلاقا في الجاهلية ؛ فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقا كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم(٢)) والتبني : أن يلحق الرجل بنسبه من ليس من صلبه ويدعوه ابنا له، وقد كان موجودا في صدر الإسلام فقد تبنى الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثه الكلبي فكان يدعى زيد بن محمد(٣) فلما بدأ الإسلام يقيم صرح الأسرة على الأسس الطبيعية دون خلط أو تشويه أبطل التبني وعلم المسلمين أن محمدا ليس أبا لاحد من المسلمين ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾(٤)

والآية التي نستشهد بها للمقابلة في إبطال الظهار والتبني هي قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾(٥)

---

(١) الطلاق : ٧

(٢) تفسير ابن كثير : ٣٢٠/٤

(٣) نفسه : ٤٦٥/٣

(٤) الأحزاب : ٤٠

(٥) الأحزاب : ٤

والمقابلة هنا (١) بين الزوجات والأمهات

(٢) وبين الأدعياء والأبناء

(٣) بين الكذب من جانب هؤلاء المتقولين بأفواههم حين يجعلون الزوجة أما والدعي ابنا. والصدق والحق في قول الله الذي يحرم هذا ويهدي إلى الفطرة السليمة والسبيل الحق وقد أفادت هذه المقابلة الحسم في تحريم هاتين العادتين كما أفادت حرص الإسلام على قيام العلاقات الأسرية على أسس طبيعية غير مزيفة.

(٤) المقابلة في تحريم الخمر :

مر تحريم الخمر في الإسلام بمراحل متدرجة، جريا على عادة الإسلام عندما يحرم ما جرى مجرى العرف في طباع الناس، فإنه لا يأخذ الناس أخذا بل يتدرج بهم في رفق وتؤدة حتى يقتنع الناس بأنفسهم بسلامة الخط الإسلامي ومنفعته لهم.

والآيات القرآنية الواردة في الخمر لم تخل من أسلوب المقابلة على ما سترى ولعل السر في ذلك هو مايؤديه التقابل في مثل هذه المواقف من تأمل ونظر في جانبين أحدهما ضار والآخر نافع، فيختار الإنسان ما ينفع ويصلح ويترك غيره.

والمراحل التي مربها تحريم الخمر هي :

١- قال تعالى في سورة النحل وهي مكية لا مدنية :

وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾[1]

في مكة حيث لم تنزل بعد التشريعات والنظم والقوانين، لأنه لم توجد الدولة المسلمة حينذاك، ترد هنا إشارة عابرة إلى الخمر يفهم منها المسلمون شيئا ما، وهو أن الخمر ليست من الرزق الحسن، لأن العطف بين السَّكَر والرزق الحسن يقتضى المغايرة وكانت المقابلة بين السَّكَر وهو الشراب المُسْكِر الذي يتخذونه من البلح والعنب، وبين الرزق الحسن هي التمهيد والبداية لترويض النفوس على تقبل ما سيأتي بعد ذلك في الخمر من أحكام.

٢- أما في المدينة، فقد بدأ المسلمون يسألون عن حكم الخمر ضمن ما كانوا يسألون عن أحكام كثيرة، وهذه الأسئلة تصور اليقظة الفعلية للضمير المسلم و لم يكن

(١) النحل : ٦٧

الإسلام ليلجأ - كما قلنا - إلى تحريمها دفعة واحدة، حتى ولو ملك من القوة المادية ما يستطيع به قهر الناس وإجبارهم، ومن أجل ذلك كانت الإشارة الثانية أوضح وأصرح، ولكنها غير قاطعة، بل تركت لهم حرية الاختيار، بعد أن أرشدهم إلى بداية الطريق ...قال تعالى :

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا... ﴾(١)

فقابل هنا بين الإثم الكبير، ومنافع للناس، ولكنه جريا على مبدأ التدرج - بَيَّنَ للمسلمين أن إثمهما أكبر من نفعهما.

والمقابلة هنا تجعل المسلم يوازن ويقارن بين ما يكسبه من الإثم الكبير وما يجنيه من منفعة دنيوية، وتترك له — وحده — اختيار ما يتواءم ومصلحة دينه ودنياه.

٣- ثم يخطو التشريع خطوة أكبر، بعد أن يكون قد أطمأن إلى أنه قد احتل من مساحة الضمير المسلم رقعة أكبر، وبعد أن يجأر عمر وأمثاله بالدعاء "اللهم بَيِّنْ لنا في الخمر بيانا شافيا"(٢) وبعد أن تفسد الخمر صلاة المسلمين فيخطئون في قراءة القرآن خطأ فاحشا. على نحو ما روى أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم عن علي قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر فَأَخَذَتْ الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت : قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. ونحن نعبد ما تعبدون(٣)).

فيلجأ القرآن الكريم عن طريق المقابلة أيضا. إلى خطوة أخرى تحد بصورة كبيرة من تعاطي الخمر، وتخفف من عادة الإدمان عند الناس :

قال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ(٤)

---

(١) البقرة : ٢١٩

(٢) تفسير ابن كثير : ١/٥٠٠

(٣) أسباب النزول للسيوطي : ٢

(٤) النساء : ٤٣

والمقابلة هنا بين قوله (وأنتم سكارى) وقوله (تعلموا ما تقولون) أي بين أوقات السكر وأوقات الصحو والإفاقة، وبين طمس العقل وتغشيته بعمى السكر وغطاء الخمر، وبين يقظة الفكر والإدراك والتمييز بين غث الكلام وجيده وبين الجهل والعلم.

ولقد كان العرب يدمنون شرب الخمر وبما أن أوقات الصلاة متفرقة تتخلل النهار والليل، فلن يجد المسلم الذي يبتغي المحافظة على دينه وعقله — بعد أن أيقن أن الصلاة عماد الدين — لن يجد المسلم حينئذ وقتا للشراب، ولن يجد وجها للمقارنة بين أداء الصلاة عالما وواعيا بما يقوله فيها، وبين لذة الشراب والغيبة عن الوعي، إنه — لاشك — سيختار الصلاة، لأنها الصلة بربه ودينه الذي يحفظ عليه خلقه وعقله، ولن ينحاز إلى الخمر التي تقطع صلته بالوعي والإدراك.

٤ – وبعد هذا التدرج تكون النفوس قد هيئت بالفعل لتقبُّل الكلمة الأخيرة في شأن الخمر، فيجيء الحكم الحاسم في النهاية ليقضي على دولة الخمر والسكر ولا يبقى في نفس عمر وغيره أدنى شك في تحريمها، فيأتي قوله تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٌ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾[1]

وهنا يجيب عمر على قوله تعالى {فهل أنتم منتهون}؟ قائلا (انتهينا انتهينا[2]).

ويمكن أن نلمس المقابلة هنا بين ما يريده الله للمؤمنين من طهارة وبين ما يريده الشيطان لهم من رجس ودنس.

بين نقاء العقل وصفائه وإقباله على ذكر الله والصلاة وبين غشاوته وصده عن ذكر الله وعن الصلاة.

بين الصداقة وتآلف القلوب مع طهارة الإيمان، والعداوة والبغضاء والشحناء التي يوقعها الشيطان بين الناس، حين تلعب الخمر برءوسهم فيتسابون ويتشاتمون، وربما

---

(١) المائدة : ٩٠ – ٩٢

(٢) ابن كثير : ١/٥

يقتتل بعضهم بعضا دون وعي، حتى إذا أفاق لم يجد أمامه سوى الثارات والعداوات والبغضاء.

وأخيرا هناك مقابلة بين طاعة الله بالتزام تحريم الخمر وبين عصيانه باتباع هوى الشيطان.

٥- المقابلة في تحريم الربا :

الربا : في اللغة : الفضل والزيادة

وفي الشرع : فضل خال عن عوض شرط لأحد المتعاقدين[١]، وفي علم الإقتصاد : المبلغ يؤديه المقترض زيادة على ما اقترض تبعا لشروط خاصة[٢].

وقد كان التعامل بالربا شائعا في الجاهلية، يمارسه التجار وأصحاب النفوذ والسطوة. ويرزح تحت ثقله وعبئه المحتاجون والضعاف ولكي يحل الإسلام نظامه في التعامل محل الربا، لم يكن أمامه بد من الحث على الصدقة وتطهير المال بالزكاة، وبث روح الأخوة والشعور بالتضامن بين المسلمين واعتبارهم كالجسد الواحد.

ولذلك فإننا نجد في القرآن المكي نفسه إشارات تلفت النظر إلى أن نظام الربا ليس هو النظام الذي يرتضيه الإسلام، وكانت هذه الإشارات هي التمهيد لتحريمه في المدينة تحريما قاطعا.

١- هذه آية مكية تحذر الناس من استثمار أموالهم عن طريق الربا بعد أن تحثهم على إعطاء كل ذي حق حقه.

قال تعالى {فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ }[٣]

فالمقابلة هنا بين مال يستثمر في الربا، الهدف منه أكل أموال الناس ومال يعطى كزكاة يقصد بها وجه الله.

---

(١) انظر : كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار : ٢١٧/١، تقي الدين الحسيني الدمشقي ط٢، صبيح، القاهرة.

(٢) انظر المعجم الوسيط : ٣٢٦/١

(٣) الروم : ٢٨-٣٩

فتكون النتيجة المتقابلة أيضا أن المال الأول لا يربو عند الله ولا يزيد (فلا يربو عند الله) وأن المال الثاني يتضاعف ويزيد ويبارك الله فيه وفي أصحابه (فأولئك هم المضعفون)

٢- أما في المدينة فقد نزل القرآن يحرم الربا تحريما قاطعا، ويدحض قول الزاعمين بأنه مثل البيع، ويبين جزاء المرابين وثواب المتصدقين، وذلك في سياق حديثه عن الصدقة: الوجه المضيء المقابل لوجه الربا الكالح، قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٧٤-٢٧٥]

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾ [البقرة:٢٧٦-٢٨٠]

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾(١)

وقد حسمت هذه الآيات القول في قضية الربا وبينت – عن طريق التقابل – الفرق بينه وبين النظام الإسلامي القائم على التصدق والزكاة ولسنا بحاجة إلى بيان الأضرار الفاحشة للنظام الربوي الذي يسود العالم في العصر الحديث، فهي بادية لكل ذي عين، ولعل في ما رأيناه من تلك الأضرار ما يجعلنا ندرك حكمة الله البالغة من وراء التهديد بحرب من الله ورسوله، وبالمحق والمس.

(١) البقرة: ٢٧٤ – ٢٨١

وبالـــرجوع إلى الآيات نرى فيها من المقابلات الكثير. وكلها تهدف من ناحية إلى حـــث المسلمين على الصدقة والزكاة والتطهر، وإلى إظهار الفرق بين الربا والبيع وبين الـــربا والصدقة؛ وتهدف كذلك إلى بيان عاقبة من يتصدق ويتطهر وعاقبة من يتمسك بالربا.

فهـــناك التقابل اللفظي بين الليل والنهار، والسر والعلانية، وبين البيع والربا، وبين أحل وحرم، وبين يمحق الله الربا ويربي الصدقات وبين العسرة والميسرة.

والـــتقابل المعـــنوي بـــين من أكلوا الربا وأتوا الزكاة وبين جزاء المرابين وهو المحق والـــسحق والتخـــبط، وجزاء المتصدقين وهو الأجر الكبير وإزالة الخوف والحزن من نفوسهم.

والـــتقابل الشرطي بين عدم الالتزام بمنهج الله في تحريم الربا والإيذان بحرب من الله ورسوله، وبين التوبة والاكتفاء باسترداد رءوس الأموال وهذه المقابلات جميعها ساهمت في توضيح موقف الإسلام من الربا وفي التنفير منه والحث على المقابل له وهو الصدقة.

٦- المقابلة في حد القذف :

وفي مجال محافظة الإسلام على وقاية المجتمع الإسلامي من التفكك، وصون أعراض الـــناس مـــن القذف والهتك شدد في عقوبة الزنى فجعلها الجلد أو الرجم، ثم شدد في عقوبة القذف حتى لا تترك أعراض الحرائر هكذا نهبا لقالة السوء ومحبي الفتن ومروجي الشائعات، فجاء حد القذف في سورة النور عقب حد الزنى قال تعالى :

١- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ (١)

والمقابلة هنا بين العقاب المادي والعقاب الأدبي

فالعقاب المادي هو الجلد ثمانين جلدة

والعقاب الأدبي وهو أقسى على النفس الحرة من العقاب المادي وهو إسقاط شهادته وردها وعدم قبوله شاهدا في أية قضية بالإضافة إلى وصفه بالفسق والخروج عن طاعة الله. ولعل في هذه المقابلة بين العقابين رادعا له عن القذف.

---

(١) النور : ٤

٢- وحين شق هذا الأمر[١] على المسلمين اعتبرت هذه الآية حكما للقذف العام، أما حين يقذف الرجل زوجته فالآيات التالية تبين حكمه :

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [النور:٦-١٠]

إن من الصعب على من يقذف زوجته أن يأتي بأربعة شهداء ولقد كانت هذه الصعوبة مثار عجب سعد بن عبادة زعيم الأنصار حيث يقول لرسول صلى الله عيه وسلم (....ولكني تعجبت انى لو وجدت لكاع[٢] قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء، فوالله لا آتى بهم حتى يقضي حاجته[٣].

ولهذا التعجب من سعد،ولغيره مما حدث لهلال بن أمية حين قذف زوجته كان حد من يقذف زوجته هو الملاعنة أو اللعان وهو في الشريعة كما فصلته الآيات أن يقسم الزوج أربع مرات على صدقه في قذف زوجته بالزنى والخامسة باستحقاقه لعنة الله إن كان كاذبا وبذا يبرأ من حد القذف ثم تقسم الزوجة أربع مرات على كذبه والخامسة باستحقاقها غضب الله إن كان صادقا فتبرأ من حد الزنى[٤].

والمقابلة في حد القذف في هذه الآيات بين أربع شهادات للرجل أنه صادق وخامسة يستحق اللعنة عليها إن كان كاذبا

وأربع شهادات للمرأة أنه كاذب وخامسة تستحق غضب الله عليها إن كان صادقا وهذا التقابل بين شهادته و شهادتها يبرأ من حد القذف فلا يجلد ثمانين جلدة، وتبرأ هي من حد الزنى فلا ترجم ويتم التفريق بين الزوجين كما فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين هلال بن أمية وزوجته[٥].

---

(١) يعني أمر احضار أربعة شهداء.

(٢) يقال في سب المرأة بالحمق : يالكاع. (المعجم الوسيط).

(٣) انظر أسباب النزول للسيوطي : ١٢٢/٣ وتفسير ابن كثير : ٢٦٥/٣

(٤) المعجم الوسيط : ٨٢٩/٢

(٥) ابن كثير : ٢٦٨/٣

ونحن نلاحظ هنا أن الحدود -- وحد القذف دليل على ما نقول - مرتبطة كغيرها مـــن قـــضايا التشريع بالحث على تقوى الله وطاعته، ومراعاة الله وهيبته فعنصر التأثير الـــوجداني لا ينفصل عن عنصر التشريع بدليل التحذير هنا من لعنة الله ومن غضبه في حالـــه الادعاء الكاذب وبدليل النص على أن هذا من فضل الله ورحمته على الزوجين، حتى تبرأ الأعراض والنوايا مما بها من شك ودخل.

٧- المقابلة في القصاص :

القصاص : أن يوقع على الجاني مثل ما جنى : النفس بالنفس والجرح بالجرح[١].

ويعـــرفه علمـــاء الفقه بأنه المماثله، مأخوذ من اقتصاص الأثر وهو تتبعه لأنه يتبع الجناية فيأخذ مثلها[٢].

وقد شرع الله القصاص حتى يرتدع من يفكر في جناية القتل أو الاعتداء على الغير، لأن الجاني إذا عرف أنه سيقتص منه بمثل جنايته، فإنه لا شك لن يقدم على الجناية وفي هذا حفظ لنفسه ولغيره وسلامة للمجتمع كله.

وقـــد ورد ذكـــر القصاص في سورة البقرة وفي سورة المائدة، وفي كلتا السورتين جاءت المقابلة تؤدي دورا بالغا في الترهيب والتخويف من مغبة الاعتداء.

قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[٣]

إن قـــتل الـــنفس بغـــير حق من اكبر الكبائر بعد الكفر بالله كما ورد في الحديث الشريف (عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اجتنبوا السبع الموبقات قيل وما هن يـــا رسول الله ؟ قال الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وأكـــل مـــال اليتـــيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات[٤].

---

(١) المعجم الوسيط : مادة (قصص).

(٢) انظر : كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار، للإمام تقى الدين أبو بكر بن محمد الحصني الحسيني الدمشقي المتوفى سنة ٨٢٩ هـــ. ج٢- ١٤١ط صبيح القاهرة.

(٣) البقرة : ١٧٨ - ١٧٩

(٤) الكبائر : شمس الدين الذهبي الشهير بـــ (الحافظ الذهبي : ص ١٢ط- دار الكتب الشعبية، بيروت.

والله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾[1] ومن أجل ذلك شرع القصاص حتى يأمن الناس على حياتهم، إلا إذا عفا أهل القتيل عن القاتل (فتجب دية مغلظة حَالَّة في مال القاتل[2]) وقدرها مائة من الإبل كما ذكرت كتب الفقه.

وقد استمد الفقهاء هذه الأحكام مما ورد في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة ويهمنا هنا أن نشير إلى المقابلة البلاغية في هاتين الآيتين..

فهنا مقابلة الحر بالحر، أي قتل الجاني الحر بسبب قتل المجني عليه الحر وهكذا أيضا في العبد بالعبد والأنثى بالأنثى.

وفي هذه المقابلة جناس أيضا بين اللفظين حيث تشابها، بل اتفقا في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها وترتيبها واختلف المراد من كل منها[3]، فالأول الجاني والثاني هو المجني عليه.

وبجانب هذه المقابلات: هناك مقابلة بين (فاتباع بالمعروف) و (أداء إليه بإحسان) والمقابلة هنا في حالة العفو وقبول الدية، فإن على أهل القتيل ألا يلحوا في طلب الدية، وفي مقابل ذلك، فإن على القاتل أن يؤديها بإحسان دونما مضايقات.

أما المقابلة الأظهر والأهم في هاتين الآيتين: فهي في قوله تعالى {ولكم في القصاص حياة}.

المقابلة بين القصاص وهو قتل أو موت وبين الحياة. وهي توحي بالهدف من القصاص وهو الحفاظ على الحياة، وجاء تنكيرها لتشمل حياة القاتل والمقتول وحياة المجتمع بأسره، فالحياة التي في القصاص ناشئة أصلا من امتناع المعتدى عن اعتدائه إذا أيقن أنه سيقتص منه لفعلته.

وللعرب قول شبيه بهذا المعنى أجمع الناس على بلاغته وفصاحته، ولكن الآية الكريمة أبلغ منه. والقول العربي هو (القتل أنفى للقتل).

---

(١) النساء : ٩٣

(٢) (الغاية والتقريب) للقاضي أبي شجاع أحمد بن الحسين بن أحمد الأصفهاني ص ٣٧، ط- مكتبة الجمهورية /مصر.

(٣) انظر : الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ٢١٦

وقــد بــين الدكتور فتحي عامر الوجوه التي ذكرها العلماء لبيان فضل قوله تعالى {ولكم في القصاص حياة} على القول العربي (القتل أنفى للقتل) ولا بأس هنا من ذكر بعض هذه الوجوه[1].

١- أن قولــه تعالى {القصاص حياة} أوجز، فإن حروفه عشرة، وحروف (القتل أنفى لنقتل) أربعة عشر حرفا.

٢- أن قولهم فيه كلفة بتكرير القتل، ولا تكرار في الآية.

٣- أن القــصاص المبنى على المساواة أوزن في المعادلة من مطلق القتل، لذلك يلزم التخصيص. بخلاف الآية.

٤- الطباع أقبل للفظ (الحياة) من كلمة (القتل).

٥- أن نفــي القتل يستلزم الحياة، والآية ناصة على ثبوتها التي هي الغرض المطلوب منه.....

٦- في تــنكير (حياة) نوع تعظيم يدل على أن في القصاص حياة متطاولة، كقوله تعالى﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ....﴾[2] ولا كذلك المثل، فإن اللام فيه للجنس، ولهذا فسروا الحياة فيها بالبقاء.

٧- أن في الآيــة طــباقا، لأن القــصاص مشعر بضد الحياة بخلاف المثل ويضيف الدكتور عامر إلى هذه الوجوه التي ذكرها علماء البلاغة ما رآه هو من أن زيادة (لكم) في الآية تفيد – زيادة على أن هذه الحياة المترتبة على القصاص خاصة بالمسلمين – أن حــياة غيرهم في حكم العدم، حيث هي قائمة على غير أساس، بخلاف حياة المسلمين التي تستحق هذا الوصف لأنها قائمة على أسس سليمة من العقيدة والإيمان.

كمــا يــضيف أيــضا جانبا لفظيا يتمثل في إحكام نسق الآية الكريمة، وهو هذا التسلسل الموسيقى العجيب الذي يربط بين كلمات الآية من حيث الطول والقصر في الأصوات الناشئه عنها على هذا النحو :

ـ .	ـ ـ .	ـ ـ ـ . .
ا ل	ق ص ا	ص ح ى ا ه

(١) ارجع إلى المزيد من ذلك في كتاب : المعاني الثانية في الأسلوب القرآني للدكتور فتحي عامر ص ٣٩٦ وما وراءها. وكتاب : بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ : ٨٦

(٢) البقرة : ٩٦

حركة فسكون حركتان فسكون   ثلاث حركات فسكونان

مع انعدام التنوين، فإذا بقي التنوين زاد القسم الأخير قسما آخر على هذا النحو :

ـ ٠   ـ ـ ٠   ـ ـ ـ ٠

ا ل   ق ص ا   ص ح ى ا

حركة فسكون حركتان فسكون   ثلاث حركات فسكون

ـ ٠

ت ن

حركة فسكون

فتبدأ النغمة قصيرة ثم تطول شيئا فشيئا، حتى تعود إلى حالة القصر الأولى حيث ينشأ هذا التوافق في لحن قصير بخلاف المثل الذي لا تستقيم فيه النغمة الصوتية، نظرا لعدم توالي الحركات في تسلسل واتساق[1].

وما أضافه الدكتور فتحي عامر وخاصة هذا الجانب الموسيقي في النص القرآني يدل على أن القرآن الكريم كان وما زال كنزا ثمينا لكل ألوان العلوم والفنون ومعينا لا ينضب لكل ذي ذوق جميل.

والذي أحب أن أضيفه هنا هو أن الموسيقى القرآنيه ليست كموسيقى الشعر يمكن تقنينها أو وضعها في قوالب خاصة، بل هي في معظمها موسيقى داخلية نابعة من انسجام النسق القرآني للحروف والألفاظ والفواصل ومن انسجام كل ذلك مع الموقف العام الذي تعبر عنه.

٨- المقابلة في أصول العلاقات بين المسلمين وغيرهم :

يمتاز الدين الإسلامي بأنه دين السلام والمسالمه مع غيره من الأديان والطوائف﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾[2]﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[3] وعلاقته بغيره قائمة على مبادئ المودة والمحبة والأخوة الإنسانية الجامعة.

لكنه لا يرضى للمسلمين أن يوادعوا من بادأهم بالعدوان، ويحذر المسلمين من اتخاذ أعدائهم أولياء، وخاصة في أوقات الحرب :

---

(١) انظر المعاني الثانية في الأسلوب القرآني : ٤٠٠

(٢) البقرة : ٢٥٦

(٣) الكافرون : ٦

١ – هذه آية كريمة عرضت هذا التحذير وبينت أسبابه بأسلوب المقابلة :

قال تعالى: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (١)

فقد جاءت المقابلات في الآية الكريمة بين الإيمان والكفر وبين الأعداء والأولياء وبين العداوة والمودة وبين ما أخفيتم وما أعلنتم.

وهـذه المقـابلات تظهر من جهة: التناقض والخطأ الذي يمكن أن يقع فيه بعض المسلمين عن سذاجة أو حسن نية كما حدث لحاطب بن أبي بلتعه حين أرسل كتابا إلى أهـل مكة يعلمهم فيه بعزم الرسول على فتح مكة(٢) ولولا أنه كان من أهل بدر لكان للرسول ولعمر بن الخطاب معه شأن آخر.

ومـن جهـة أخـرى: فـإن المقابلة بين (وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) تؤكد للمسلمين علـم الله الـشامل لكل خفايا الصدور، وظواهر الأمور وفي هذا تحذير للمسلمين يدفعهم إلى الاستجابة للتوصية الكريمة بعدم مجاملة الأعداء في أي شيء.

١ – ولكـن القرآن الكريم لا يمنع المسلمين من البر إلى من خالفهم في الدين إذا لم يظهـروا للمسلمين روح العداوة، ولم يقاتلوهم أو يخرجوهم من ديارهم. إنه ينهاهم فقط عن من قاتلوا المسلمين وأخرجوهم أو ساعدوا في إخراجهم.

قال تعالى:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (٣)

(١) الممتحنة : ١

(٢) وردت قصة حاطب بن أبي بلتعة في الكشاف للزمخشري : ٨٩/٤ وفي تفسير ابن كثير : ٤/ ٣٤٥ وأسباب النزول للسيوطي : ١٦٧/٤

(٣) الممتحنة : ٨ – ٩

والمقابلـــة بين الآيتين والتوجيهين ظاهرة واضحة، إنها بين من لم يقاتل المسلمين و لم يؤذهم بأية صورة من الصور.

ومـــن قاتـــل المسلمين وآذاهم وأخرجهم من ديارهم أو ساعد في إيذائهم والفريق الأول لا بـــأس على المسنمين من مصادقتهم وموادهم كما أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لأسماء بنت أبي بكر أن تصل أمها وتقبل هداياها[1].

والفريق الثاني يقابل الأول، ولذلك نهانا الله عن موالاتهم وحذرنا من عاقبة ذلك.

٣- وفي توجـــيه ثالث يبيح الله للمسلمين تبادل الأطعمة والمنفعة بينهم وبين أهل الكتاب، ولا مانع من الزواج من المحصنات الكتابيات قال تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾[2]

فالمقابلة بين المؤمنين وأهل الكتاب

وبين طعام أهل الكتاب حل لكم - وطعامكم حل لهم

وبين المحصنات المؤمنات - والمحصنات الكتابيات

وبين الإحصان والسفاح واتخاذ الأخدان

وبين الكفر والإيمان

وقد وضحت هذه المقابلات القضية وأكدت سماحة الإسلام وتعايشه مع الطوائف الأخرى التي تعيش في داخل المجتمع الإسلامي أو قريبا منه.

---

(١) أسباب النزول لسيوطي : ١٦٧/٤

(٢) المائدة : ٥

رابعا : المقابلة في مواقف الجهاد

بدأت الدعوة الإسلامية في أول عهدها سرا، إلى أن أمر الله نبية بالجهر بها في قوله تعالى :

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ (١)

وهنا قوبلت الدعوة بكل مظاهر العنف والمعارضة المادية والمعنوية، وتحمل أتباعها الأولون من العنت والإرهاق ما لا يقدر عليه إلا أولو العزائم القوية، وكان شعار الدعوة في ذلك الوقت هو الدعوة بالحسنى ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ (٢)

وتحكي كتب السيرة صورا من العذاب والبطش والمقاطعة قابلها المسلمون الأوائل بصبر منقطع النظير. إلى أن أذن الله للمسلمين بالهجرة إلى المدينة وهناك نزلت الآيات تترى، تأذن للمسلمين تارة بالرد على العدوان وتحرضهم على قتال الأعداء تارة أخرى، أو تبين لهم منازل الشهداء، أو تعاتب المتثاقلين أو تبين مصير المؤمنين ومصير الكافرين.

وقد كثرت الدعاوى والأقاويل في الجهاد في الإسلام وهي أقوال تهدف في النهاية إلى إثبات أن الإسلام انتشر بالسيف لا بالدعوة الحسنى وليس هنا مجال مناقشة هذه الدعاوى والأباطيل، ولكن حسبنا أن نشير فقط إلى ما ذكره الأستاذ عباس العقاد في كتاب (ما يقال عن الإسلام) من أن النظرة العابرة إلى البلاد الإسلامية لتكفي لتقرير وقائع التاريخ في هذه المسألة وخلاصتها أن أكثر البلاد عدد مسلمين هي أقل البلاد غزوات إسلامية(٣). وإلى ما استشهد به من كلام واحد من نوادر المؤلفين الغربيين الذين جمعوا بين حسن النية وحسن الفهم في مسألة الجهاد وهو توماس كارليل فهو ينتهي بزعم الزاعمين أن الإسلام قد انتشر بالسيف إلى الغاية من السخف والغثاثة، ولا يرتضي أن يعتبر هذا الزعم من أكاذيب التاريخ فإنه أضعف من أن يحسب من الأكاذيب التي تحتاج إلى تصحيح، وهو أظهر بطلانا من أن يبطل بالمناقشة، لأن القائل

---

(١) الحجر : ٩٤

(٢) النحل : ١٢٥

(٣) ما يقال عن الإسلام، عباس محمود العقاد : ١٢٩العدد ١٨٩من سلسلة كتاب الهلال، مصر.

بـــه سواء ومن يقول : إن رجلا واحدا حمل سيفه وخرج إلى جميع مخالفيه ليبعث فيهم الخوف من سيفه - وحده - ويسوقهم كرها إلى اعتقاد ما ينكرون، فيعتقدونه ويثبتون عليه، ثم يحملون السيف معه لتخويف الآخرين[1].

لقـــد كان الجهاد ضرورة اقتضاها واقع الحال، وطبيعة الدعوة الإسلامية العالمية و لم يكـــره الإســـلام الناس على اتباعه، وكان معظم الجهاد ضد من يقفون في وجه تبليغ الدعوة إلى الناس، فإذا وصلتهم دعوة الإسلام فإن لهم الخيار في أن يدخلوا في الإسلام أو يبقوا على دينهم.

وقـــد فهـــم المسلمون الأوائل طبيعة الدعوة حق الفهم، وكان لآيات الجهاد التي سنعرض لبعضها هنا أثر طيب في توجيه نفوسهم وقلوبهم إلى الجهاد وما فيه من فضائل في الدنيا والآخرة.

وسنحاول أن نعرض هنا لأثر المقابلة في مواقف الجهاد من الناحية البلاغية والدينية.

١- المقابلة في الحث على الجهاد والترغيب فيه :

تـــرد المقابلة في آيات الحث على الجهاد والترغيب فيه على صور كثيرة في القرآن منها :-

أ- ما يهون من مشقته على النفوس، فهو يجارى الفطرة البشرية في كرهها للقتال، ولكنه يبشر بما يرتجى من وراء ما يكرهه الإنسان أحيانا من خير عميم قال تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ [2]

وقد جمعت هذه الآية كما يقول ابن أبي الأصبع في (بديع القرآن) بين المقابلة، وبين طباق السلب المعنوى :

فالمقابلة هنا بين ألفاظ الكره والحب، والخير والشر والطباق المعنوي بين العلم والجهل[3] ولكنها بالمعنى العام مقابلة بين ظاهرتين يلمسهما كل إنسان من تجاربه الخاصة، فكم من أمور مكروهة تعرض للإنسان وتصيبه في حينها باليأس والضيق ولكنها هي بعينها تكون سببا في خير عظيم لم يكن في حسبانه وكم من أمنيات ودَّ

(١) نفسه : ١٣١

(٢) البقرة : ٢١٦

(٣) انظر : بديع القرآن، لابن أبي الأصبع : ٣٣

الإنسان لو تحققت لـــه، ثم يتبين بعد مدة أن الشر كامن فيما أحب. ولذلك فإن على المسلم الحق أن يقبل على الجهاد مهما كان ثقيلا على النفس فإن وراءه الخير لنفسه ولدينه ولأمته فالله يعلم ونحن لا نعلم.

وفي المقابلة أيضا بجانب الحث على القتال : تربية للنفوس المسلمة على تحمل المشاق والاستسلام لقدر الله، والثقة في ما يختاره الله لنا.

ب- ومـــن صور الترغيب في الجهاد ما تأتي فيه المقابلة لتشجيع المسلمين وحثهم على عدم التراخي عن القتال بحجة ما قد يصيبهم من الألم، فتقوى دافع القتال عندهم بمقابلة ألمهمْ أوما أصابهم من قرح بما أصاب أعداءهم من الألم أو القرح قال تعالى :

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١)

وهنا مقابلة وتجنيس في آن واحد بسبب اتحاد الأطراف في اللفظ والمقابلة هنا بين :

{ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ } و {فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ }

وبين قتال المؤمنين وهم يرجون من الله إحدى الحسنيين،

وقتال الكافرين بلا رجاء في شيء.

وهـــذا هـــو الفرق بين المؤمنين والكافرين، فكلا الفريقين يقاتل ويصيبه من جرَّاء القتال ما يصيبه من الألم والمعاناة، ولكن قتال المؤمنين له هدف ورجاء، وقتال الكافرين لا رجاء فيه ولا نفع.

ج- ويلتقي مع ما سبق ويزيد عليه قوله تعالى :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٢)

فالمقابلة هنا بين ما أصاب المسلمين من جراح وقتل يوم أحد وما أصاب المشركين يـــوم بـــدر، فالأيام متداولة بين الناس، وقد حاول الزمخشري تقريب هذا المعنى حين استشهد بقول الشاعر :

فيوما علينا ويوما لنا .. ويوما نُساءُ ويوما نُسَرُّ (٣)

---

(١) النساء : ١٠٤

(٢) آل عمران : ١٤٠ - ١٤١

(٣) الكشاف للزمخشري (بتصرف) : ٤٦٦/١

ولكــن المقابلــة القــرآنية سامقة لا يدانيها هذا القول الذي كثر فيه تكرار (يوم) وتكرار العطف وتكرار الضمير. ولم يكن دقيقا في تصوير المقابل الذي برز في الآية فإن أقــل جرح يمس المسلمين يقابل بمثله، كما زادت الآية العلة فيما يصيب المسلمين من أذى في بعــض المعارك، أو ما ينتج عنها من استشهاد بعضهم وهي تمييز المؤمن الكامل مــن غيره واتخاذ شهداء منهم يترحم الله في أعلى الدرجات، وفي هذا حث على تجاوز الآلام التي يمكن أن تصيبهم استشرافا لما هو أكبر وأعظم. والله أعلم بمراده.

٢- المقابلة في تبكيت المتثاقلين والقاعدين :

ذلــك أنه حين أُمِرَ المسلمون بغزوة تبوك بعد الفتح كان الوقت صيفا وقد طابت الــثمار واشــتهى الناس الظلال، وشق عليهم الخروج فتباطأ بعضهم، وتقدم البعض للرســول بأعذار للتخلف، فنزلت الآيات التالية بما فيها من مقابلات كثيرة تهدف إلى توبيخهم على تثاقلهم وتباطئهم في النفير،

وتهديدهم بالعذاب واستبدال قوم غيرهم بهم يؤمرون فيطيعون قال تعالى :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝﴾[١]

فهــنا مقــابلات متنوعة بين النفير والتثاقل، وبين الدنيا يرضى بها المتثاقلون مع أن مــتاعها قليل والآخرة رغم ما فيها من نعيم. والغرض من هاتين المقابلتين هو السخرية والتبكيت والتقريع. ثم مقابلة بين المتخاذلين من المؤمنين، وبين قوم آخرين أسرع نفيرا أو أكثر طاعة يستبدلهم الله بهم، ويترك المؤمنين هملا بلا كرامة.

---

(١) التوبة : ٣٨- ٤١

والغــرض من هذه المقابلة التهديد.ثم هذه المقابلة التي تصور الحالة النفسية للرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الغار حين من الله عليهما بالهدوء والسكينة بعد الفزع والحزن.

وهذه المقابلة تأتي في هذا المقام لتفهم المتخاذلين أن نصر محمد ورسالته ليس متوقفا علــيهم هــم وإنمــا سبق أن نصره الله وأيده وطمأنه وهو في الغار لاجند حوله ولا صحاب.

والمقابلة بين كلمة الكفر السفلى وكلمة الله العليا تفيد رفعة الإسلام وشموخه.

وأخيرا وبعد عرض هذه المقابلات فإن القرآن يختمها بالأمر بالنفير خفافا وثقالا، في مقابلة بين النفظين، لكي لا يكون هناك عذر لمتخلف، فعلى أي الحالات كنتم، وجب علــيكم الــنفير : إن موسرين أو معسرين، أو إن خفت عليكم الحركة أو ثقلت، أو ركبانا ومشاة أو شبابا وشيوخا[1].

وقد كان لهذه الآيات التي عرضت بهذا الأسلوب أثرها الوجداني في نفوس المسلمين فقد ذكر الزمخشري رواية عن صفوان بن عمر يقول فيها كنت واليا على حمص فلقيت شيخا كبيرا قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت يا عم : قد أعــذر الله إليك، فرفع حاجبه وقال : يا ابن أخي : استنفرنا الله خفافا وثقالا، ألا إنه من يحبه الله يبتليه[2].

والقــرآن الكريم لا يسوى بين من قعد عن الجهاد بغير عذر شديد وبين من جاهد في سبيل الله، فهما متقابلان،ولا يمكن لميزان العدالة أن يسوى بينهما قال تعالى :

﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾[3]

وما كان هذا المعنى ليتضح لو أنه عرض بغير أسلوب المقابلة التي وضحت الفرق بين صنفين من الناس لا يمكن التسوية بينهما.

---

(١) معاني القرآن واعرابة للزجاج : ٤٩٧/٢ تحقيق عبد الجليل شلبي ط المطابع الأميرية ١٩٨٤.

(٢) الكشاف للزمخشري : ١٩١/٢

(٣) النساء : ٩٥

٣- المقابلة في الحديث عن منازل الشهداء :

سبق أن بينا - عند الحديث عن مشاهد القيامة في القرآن - ما أعده الله للمؤمنين في الجنة من ألوان النعيم الحسي والمعنوي، وبما أن الجنة درجات فلا شك أن الشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله: سيكونون في أعلى الدرجات من الجنة، إنهم كما أخبر القرآن في درجة النبيين والصديقين، لأنهم أطاعوا الله في أمر من أشق الأمور على النفس وهو القتال ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ۝﴾(1)

ولكن الميزة العظمى التي أعدها الله للشهداء هي أنهم لم يموتوا بهذا الاستشهاد بل إنهم ما زالوا أحياء عند ربهم يرزقون :

قال تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝] ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾(2)

والمقابلة هنا بين مفهومين : مفهوم راسخ في أذهان الناس وهو أن القتلى في المعارك قد ماتوا وانتهت حياتهم، ومفهوم إسلامي جديد يريد القرآن أن يبثه في عقيدة المسلمين هو أن الشهيد لم يمت وإنما هو حي عند ربه يرزق ويفرح بالفضل الذي أعطيه، ويستبشر بمن سيلحق به من ركب الشهداء، وبنعمة الله وفضله.

والمفهوم الإسلامي عن حياة الشهيد بعد موته الظاهري يحفز المسلمين إلى السير في درب القتال في سبيل الله وهم واثقون أن لهم إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة وهي حياة لا تعدلها حياة.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ۝﴾(3)

---

(1) النساء : ٦٩- ٧٠

(2) آل عمران : ١٦٩- ١٧١

(3) البقرة : ١٥٤

٤- المقابلة في غزوة بدر :

في بعـــض ما ورد من آيات كريمة عن غزوة بدر صورة مجسمة لمشهد المعركة وهنا تؤدي المقابلة دورا هاما في تجسيد المشهد أمام القارئ والسامع واعادة تمثيل المعركة من جديد، ومن هذه الآيات :

قال تعالى :

١- ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝﴾ (١)

أ- فالمقابلة بين (أنتم بالعدوة الدنيا) (وهم بالعدوة القصوى) تحدد موقع المعركة والأرض التي دارت عليها، فالعدوة الدنيا قرب المدينة، والقصوى قرب مكة(٢).

ب- والمقابلة بين (ليهلك من هلك عن بينة) (ويحيي من حي عن بينة) تبين السبب في لقـــاء المـــسلمين والمشركين في بدر في مكان واحد على غير ميعاد وهو أن يعز الله المسلمين وينصرهم (فيصير الأمر ظاهرا والحجة قاطعة ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة فحينـــئذ (يهلك من هلك) أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مـــبطل لقـــيام الحجـــة عليه و (يحيي من حي) أي يؤمن من آمن عن بينة أي حجة وبصيرة(٣)) ويذهب الطاهر بن عاشور إلى أن الهلاك والحياة هنا يرمزان إلى معنى ذهاب الشوكة، ونهوض الأمة؛ فإن الكفار كانوا في عزة ومنعة، وكان المسلمون في قلة، فلما قـــضى الله بالنصر للمسلمين يوم بدر أخفق أمر المشركين ووهنوا، وصار أمر المسلمين إلى جدة ونهوض، وكان كل ذلك عن بينة(٤).

---

(١) الأنفال : ٤٢- ٤٤

(٢) الكشاف للزمخشري : ١٥٩/٢

(٣) تفسير ابن كثير : ٣١٥/٢

(٤) انظر تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور: ١٠/ ٢١ط الدار التونسية للنشر سنة ١٩٧٣

ت- والمقابلة بين عدد المشركين الفعلي (وهو كثير) وعددهم كما يراهم الرسول في المنام أو كما يراهم المسلمون في المعركة (وهو قليل) تهدف كما تذكر الآيات إلى حكمة قدرها الله أحسن تقدير وهي ثبات المسلمين وعدم فشلهم، فيقبلون على العدو وهم واثقون أنهم الأكثر عددا وعدة ولذلك تم لهم النصر بإذن الله.

١- وفي آيات أخرى عن غزوة بدر مقابلات أخرى لتؤكد الهدف من هذه المعركة ولتبين بعض ما دار فيها أو لتعلم المسلمين درسا من دروس التواضع ورد النصر الذي حدث لله وحده.

أ- ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝﴾ (١)

فالمقابلة هنا بين ما يوده المؤمنون الذين خرجوا يوم بدر وهو العير : (غير ذات الشوكة) وما يريده الله في هذا اليوم وهو إحقاقه الحق بمعركة تقطع دابر الكافرين، وحينئذ يحق الحق ويبطل الباطل.

وهذه المقابلة تؤكد الهدف الأسمى الذي أراده الله من وراء هذه المعركة.

ب- كما أن في قوله تعالى : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ }(٢)

مقابلة بين المؤمنين والكافرين تصور ثبات المؤمنين بسبب تأييد الله لهم بالملائكة، وفزع ورعب الكافرين مما لقوه من ضرب فوق الأعناق وتقطيع للأيدي والبنان.

ج- وأخيرا نجد في قوله تعالى :

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾(٣)

---

(١) الأنفال :٧-٨

(٢) الأنفال : ١٢

(٣) الأنفال : ١٧

مقابلـــة بسبين قـــتلهم وقتل الله، وبين رمى الرسول الحصى في وجوه الكفار ليلة الهجرة[1] ورمى الله، تهدف إلى إشعار المسلمين بفضل الله عليهم في هذه المعركة حتى لا تنسيهم نشوة الظفر يد الله الخفية التي مكنتهم من هذا النصر.

٥- المقابلة في معاهدات الصلح :

ومما يقترن بالجهاد تلك المعاهدات التي تعقب الحرب ويتفق فيها الطرفان المتحاربان علـــى شروط لهدنة أو للصلح والسلم، والإسلام ينادى دائما بالوفاء بالعقود والعهود والالتزامات والآيات التي تحض على الوفاء بالعهد كثيرة في القرآن مثل:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ ﴾[2]

و مثل قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤ ﴾[3]

ولكـــن أحداث التاريخ تثبت أن أعداء الإسلام غالبا ما ينقضون العهد والميثاق في كل مرة وهم لا يتقون.

ولذلك طلب القرآن من المسلمين أن يكونوا حذرين في التعامل مع أعدائهم حتى لا يؤخذوا على غرة : فطلب من المسلمين الاستعداد بالقوة الممكنة إذا أحسوا خيانة من العـــدو، فـــإذا مالوا بعد ذلك للسلم سالموهم عن قوة، ولن ينفع خداعهم حينئذ فالله يكفيهم قال تعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦١ ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/ ٢٩٥

(٢) المائدة : ١

(٣) الإسراء : ٣٤

فالمقابلة بين الآيتين هي مقابلة بين الأمر بنبذ عهد الأعداء إذا ظهر أو خيف منهم نقض لما تعاهدوا عليه، وبين المسالمة إذا ظهر منهم ميل شديد إليها (كما يميل الطائر الجانح[1]). فهي مقابلة بين الحرب والسلم لكن الروح الإسلامية في نبذ العهد تختلف عن روح الغدر عند الكفار في نقض العهد فالمسلمون مطالبون بأن يعلموا الكفار بأنهم قد نبذوا عهدهم، وأنه لا عهد بينهم وبينهم وبذلك لا يكون نبذ العهد خيانة وغدرا كما يفعل الأعداء

ت – وهذه مقابلة ثانية تبين أن الكفار غالبا ما تتملكهم العصبية الجاهلية، وهذه العصبية والحمية تدفعهم إلى محاولة استفزاز المسلمين لنقض عهدهم، ولكن المسلمين دائما محافظون هادئون ملتزمون بكلمة التقوى والوفاء، فهم أهل ذلك.

قال تعالى ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [2]

ففي الآية مقابلة بين حمية الجاهلية التي تملكت قلوب الكفار عام الحديبية فصدوا المسلمين عن المسجد الحرام، ومنعوا الهدى من أن يبلغ محله.

وبين هدوء المسلمين وثباتهم، ويقينهم أن الفتح قريب فالتزموا بكلمة التقوى التي ألزمهم بها الله سبحانه. و لم يحدث قتال وحدث صلح الحديبية.

هذا الصلح نفسه كانت إجراءاته الأولية وكذلك شروطه متقابلة حيث لا حظنا الحمية والعصبية في جانب المشركين. وهي حمية ظهرت في رفض سهيل بن عمر لاسم الرحمن الرحيم وفي عدم الاعتراف في العهد بصفة رسول الله، بينما كان التساهل والتسامح من جانب الرسول قد بلغ إلى الحد الذي جعل عمر يتساءل في دهشة بالغة: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ فلم نعطى الدنية في ديننا ؟[3])

---

(١) تفسير التحرير والتنوير : ١٠/ ٥٩.

(٢) الفتح : ٢٦

(٣) تفسير ابن كثير : ٤/ ١٩٨

خامسا : المقابلة في الآداب الاجتماعية وقواعد السلوك

يحرص الإسلام على أن يُنشِّئ أبناءه تنشئة اجتماعية صالحة قائمة على احترام الآخرين وتقدير مشاعرهم وظروفهم، ومبنية على توثيق روابط الأخوة الجامعة بين المسلمين بعضهم البعض، ولذلك يحثنا على معاملة الناس بمثل ما نحب أن يعاملونا به، والإسلام في هذا يهذب من جموح النفس ويحد من الأهواء العابثة ويرسي دعائم القيم الرفيعة والمثل العليا.

والقرآن مليء بمثل هذه الآداب التي تنظم الحياة الاجتماعية للناس وتضع لهم قواعد السلوك ومبادئ العلاقات.

وحسبنا هنا أن نشير إلى ما ورد من هذه الآداب بأسلوب المقابلة لنرى أثرها الفني والديني في الإقناع والتهذيب :

١- في آداب الزيارة والمجالس :

وردت هذه الآداب في سور كثيرة في القرآن الكريم، ومن ذلك ما ورد في سور النور : (٢٧ - ٢٩)

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

وفي سورة النور : (٥٨ - ٦٣)

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى
ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ
أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم
بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ
شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا
تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ
يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

والأحزاب (٥٣ — ٥٥):

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ
طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا
مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا
يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ
ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن
تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟
شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ
ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا
نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

والحجرات (٢ — ٥):

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ
بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ

ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

والمجادلة (١١) :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

وهي في مجموعها آداب تحض المسلمين على ضرورة الاستئذان قبل الدخول والاستئناس والتسليم على من في البيت، وعدم الدخول إن لم يكن رب الدار موجودا، وضرورة غض الأبصار، وعدم الأكل إلا بدعوة إلى الطعام والانتشار والذهاب بعد الطعام وعدم الجلوس مدة طويلة، والتفسح في المجالس، وعدم رفع الصوت بالمناداة أو الحديث وهي كلها آداب سبق بها الإسلام كل النظم والآداب التي توصلت إليها المجتمعات المُتَمَدْيِنَة في عصرنا الحديث والمقابلة التي وردت في هذه الآداب، جاءت ختاما أو تعقيبا عليها فقد ورد في سورة النور قوله تعالى :

لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾[1]

وورد في سورة الأحزاب أيضا قوله تعالى :

{إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾}[2]

ومجيء المقابلة بين علم الله لما نبديه وعلمه لما نكتمه أو نخفيه ختاما لتلك الآداب التي سبقتها للربط بين المبادئ الأخلاقية وبين المشاعر الدينية برباط متين، فالمسلم الحق حين تتلى عليه هذه الآداب ثم يعقب عنها بعلم الله الشامل الكامل لكل ما يظهر أو يخفى من كلام أو أفعال أو مشاعر، فإنه يستشعر الرهبة في نفسه ومن ثم فلن يقتحم بيتا بغير استئذان، ولن يتمادى في الجلوس بغير ما سبب، ولن يسمح لنفسه باقتحام عوارت البيوت بناظريه، كما أن في التعقيب بهذه المقابلة أيضا ربط التهذيب بالترهيب

---

(١) النور : ٢٩

(٢) الأحزاب : ٥٤

وإشعار المسلم بعين الله الرقيبه على تصرفاته ومشاعره، فلا يكون هناك مجال للخداع أو النفاق الاجتماعي الذي يظهر الملمس الحريري ويخفي تحته الجوهر الخشن.

والتربية الحديثة التي تعتمد في مبادئها على نظريات علم النفس أصبحت لا تغفل جانب الترهيب في محاولاتها لتهذيب النفوس وإصلاحها.

٢- المقابلة في محاربة الشائعات :

يحث القرآن الكريم أتباعه على التثبت من الأنباء قبل تصديقها، وينهاهم عن الجرى وراء الشائعات التي ليس لها سند من الحقيقة، وذلك لأن الناس إذا انطلقوا بعواطفهم وأفعالهم وراء الأخبار الكاذبة، فقد يؤدى ذلك إلى الفتن والاضطرابات وربما حمل الناس السلاح فتقاتلوا دون أن يكون هناك داع في الحقيقة لذلك. وقد سبق أن رأينا عند الحديث عن المقابلة في خطاب المؤمنين، حين تحدثنا عن (حديث الإفك[١]) كيف جاءت المقابلة بين (الهين والعظيم) في قوله تعالى : {وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم}.

أقول رأينا أن القرآن يحذر المسلمين من ترويج الشائعات أو تصديقها فهم يحسبون ذلك أمرا هينا ولكنه عند الله عظيم.

وهنا نجد القرآن الكريم يعتبر من يأتي بنبأ كاذب فاسقا، وهو سبحانه لا يريد لنا الفسوق بل يحبب إلينا الإيمان ويزينه في قلوبنا قال تعالى :

{يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝}[٢]

فالمقابلة في هذه الآيات بين الإيمان حببه الله إلينا وزينه في قلوبنا وبين الكفر والفسوق والعصيان كرهه إلينا.

وهذه المقابلة تأتي في سياق سورة الحجرات الحافلة بالآداب والقيم الحريصة على أن يبدو المسلم في صورة نظيفة عفة، وفي سلوك رقيق مهذب كما تأتي لتعلم المسلمين التروى الذي يناسب الإيمان المطمئن في القلوب وتخبرهم أن الاندفاع وراء الأنباء

---

(١) انظر ص (٢٥٦) من هذا البحث

(٢) الحجرات :٦-٧

الكاذبة هو فسق وكفر وعصيان لا يليق بالراشدين الذين تتسم خطواقم وأفعالهم بالثقة والاتـــزان. وذلك بعدما اندفع بعض المسلمين وراء النبأ الكاذب الذي أشاعه الفاسق الوليد بن عقبة بن أبي معيط حول بني المصطلق والذي زعم فيه أنهم حاولوا قتله وأنهم منعوه الزكاة وأنهم يستعدون لمقاتلة النبي[1].

٣- المقابلة في الإحسان إلى الوالدين :

ومن الآداب الاجتماعية التي شدد الإسلام في مراعاها، وقرنها بالإيمان بالله وعبادته؛ الإحـــسان إلى الـــوالدين وطاعتهما في كل شيء فيما عدا الشرك بالله، بل إنه أوصى بمـــصاحبتهما بالمعروف حتى لو كانا على غير الإيمان، وذلك لأن الأدب معهما يحفظ للأســـرة المـــسلمة كـــيانها وتماسكها، و لأن فضل الأم والأب على الإنسان لا يمكن إنكاره.

هذه مقابلة بين نموذجين من البشر : أحدهما آمن بربه فعرف قدر أبويه واستجاب لوصية القرآن في ذلك، والثاني : جمع السوأتين الكفر والعقوق، ومن ثم تقابل الجزاءان والمصيران. فالأول في الجنة والثاني مع الخاسرين. قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾[2]

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢٠٩ /٤ وأسباب النزول للسيوطي : ١٥٧ /٤

(٢) الأحقاف : ١٥ – ١٩ ورغم أن السورة مكية إلا أن الآية (١٥) مدنية كما نص المصحف الأميري على ذلك. وسياق الآيات التالية يوحي بأنها جميعا مدنية وخاصة أن السيدة عائشة نفت أن تكون آية (والذي قال لوالديه أف لكما) نزلت في أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر، وأيد الحافظ بن حجر نفي عائشة واعتبره أصح إسنادا وأولى بالقبول. انظر أسباب النزول للسيوطي : ١٥٣ /٤

وقـد جـاءت المقابلة بين هذين النموذجين على هذا التفصيل في السلوك والجزاء لتعطي الشخص فسحة للتأمل في كلا النموذجين فيختار الأهدى منهما سبيلا.

والوصية الـواردة في الآيات عامة لجنس الإنسان في كل زمان ومكان وليست مرتبطة بشخص معين فإن الإحسان إلى الوالدين من القيم المطلقة العامة التي تنسجم مع الفطرة والغريزة.

٤- المقابلة في آداب الصدقة :

إن مـن أقسى الأمور على نفس الفقير أن يشعر بأن الغني المتصدق عليه، قد تعالى وتكبر أو مَنَّ عليه بهذه الصدقة.

والإسلام حريص على مراعاة مشاعر الناس على اختلاف طبقاتهم ولذلك اعتبر أن الـصدقة المتـبوعة بالمن والأذى صدقة باطلة لا ثواب لها، لأن صاحبها مراء ومنافق، أمامن أخفى صدقته أو أخرجها ابتغاء مرضاة الله فهو المؤمن الكامل والمهذب.

وقد عرض لنا القرآن الكريم مقابلة بين من ينفق ابتغاء مرضاة الله ومن ينفق رياء أو يتبع صدقته بالأذى، بطريقة تمثيلية مصورة قال تعالى :

{يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾}(1)

وقد عرض المرحوم الأستاذ سيد قطب هذا المشهد المتقابل المصور عرضا فنيا رائعا حين قال "هذا المشهد مؤلف من منظرين متقابلين :

المنظـر الأول : قلـب صلد ينفق ماله رئاء الناس، ليغطي صلادة قلبه بغشاء من الـرياء، ويمثل هذا القلب صفوان عليه تراب خفيف يحجب صلادته عن العين كالرياء يحجب صلادة القلب الخالي من الإيمان، نزل على الصفوان وابل غزير فانكشف الحجر بجدبـه وقساوته و لم ينبت و لم يثمر، كذلك القلب الذي ينفق رئاء الناس لم يثمر خيرا و لم يعقب مثوبة.

---

(1) البقرة : ٢٦٤ - ٢٦٥

والمنظـــر المقابل : قلب عامر بالإيمان ينفق ابتغاء مرضاة الله، عن ثقة ثابتة في الخير عمـيقة الجذور في الضمير، هذا القلب تمثله جنة خصيبة، عميقة التربة في مقابل حفنة التراب على الصفوان، والجنة على ربوة في مقابل الحجر الذي تقوم عليه حفنة التراب، ليكون المنظر متناسق الأشكال، فإذا جاء الوابل لم يذهب بالتربة الخصبة هنا كما ذهب بغـشاء التراب هناك، بل أحياها وأخصبها ونماها — كذلك تحي الصدقة قلب المؤمن فيزكو ويزكو ماله ويضاعف الله له ما يشاء وتزكو معه حياة الجماعة المسلمة بالإنفاق وتصلح وتنمو وإن لم يصبها وابل فطل خفيف من الندى والرذاذ يكفيها"[١] .

وللمسلم بعد ذلك أن يختار ما بين الصفوان الصلد، والربوة الزاكية المثمرة وما بين الـرياء الذي سرعان ما يكشف عن الوجه القبيح لصاحبه، والإخلاص الذي يؤتي ثمرة مضاعفة، فالله بصير بالحالتين معط لكل حالة جزاءها العادل.

٥- المقابلة في رعاية أموال اليتامى :

اليتيم هو من فقد أباه دون البلوغ[٢]، ففقد بذلك الحنان والعطف والرعاية التي كان يـستظل بهـا في حياة والده ومثل هذا الطفل في حاجة إلى من ينسيه آلامه ويعوض حرمانه، وقد نشأ الرسول صلى الله عليه وسلم يتيما فعرف معنى اليتم، ولذلك يوصيه الله سبحانه بقوله {فأما اليتيم فلا تقهر[٣] }.

والإســـلام يوصي أبناءه برعاية اليتيم والحفاظ على ماله، ودفعه إليه بعد أن يصبح رشيدا.

وتأتي المقابلة في هذا الجانب فتوضح ما خفي، وتؤكد ما يحتاج إلى توكيد من المعاني والقيم.

قـــال تعـــالى : {وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾}[٤]

وقال تعالى : {وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ

---

(١) في ظلال القرآن : ٣٠٩/١

(٢) المعجم الوسيط مادة (يتم).

(٣) الضحى : ٩

(٤) النساء ٢ — والحوب : الإثم العظيم (انظر معاني القرآن وأعرابه للزجاج ٢/٤).

غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ }[1]

فالمقابلة في الآية الأولى بين الخبيث والطيب، وبين أموال اليتامى وأموال الأوصياء تؤكد الفرق الحاد الذي يجب أن يراعيه الأوصياء بين مال اليتامى ومالهم حتى لا يتبدلوا الخبيث بالطيب، ولا يعطوا الرديء في مقابل الجيد.

والمقابلة في الآية الثانية بين حالتين من حالات الأوصياء : الحالة الأولى:أن يكون الوصي غنيا فلابد أن يستعف عن أكل أموال اليتيم ولا يطمع ويكتفي بما رزقه الله.

والحالة الثانية: المقابلة هي أن يكون الوصي فقيرا فإنه يأكل من مال اليتيم قدر ما يكفيه (على سبيل الأجرة أو استقراضا على ما في ذلك من الاختلاف)[2] والمقابلة بهذا تضع للأوصياء حدودا قاطعة لكيفية التعامل في أموال اليتامى حتى يكبروا، هذا بالإضافة إلى ما يجب عليهم إزاءهم من الرعاية العاطفيه والنفسية.

---

(١) النساء : ٦

(٢) الكشاف للزمخشري : ٥٠٢/١

الفصل الثالث

المقابلة في القصص القرآني والأمثال

أولا : في القصص القرآني

تقديم :

اعتمد القرآن الكريم على القصة كطريقة من طرق التعبير القرآني ومن يتتبع القصص القــرآني يجــد أن معظمه وارد في السور المكية، ومعنى ذلك أن القصة استخدمت في القرآن كسلاح من أسلحة الدعوة في أول عهدها. وكوسيلة للإقناع واستخلاص العبر والدروس في وقت لم تكن الدعوة تملك فيه سوى الكلمة سلاحا تعتمد عليه في نشرها بين الناس.

وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى الهدف من سوق القصص فيه، فقال تعالى : {﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ }[1] وقال سبحانه : {﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ }[2] وقال {وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾}[3]

ومعنى ذلك أن القصة القرآنية خاضعة بالدرجة الأولى للأغراض الدينية وأنها تساق كما يقول العقاد : (للعبرة والموعظة، أو للقدوة وتثبيت العزيمة أو للتعليم والهداية[4]).

ويــضيف الدكــتور فتحي عامر إلى هذه الأغراض : تأكيد شأن الرسالة المحمدية وإثبات الوحي للرسول، وتأكيد وحدة الأديان جميعها، لأن الأنبياء جميعا تجمعهم تلك

---

(١) الأعراف : ١٧٦

(٢) يوسف : ١١١

(٣) هود : ١٢٠

(٤) حياة قلم للعقاد : ٢٧٢. كتاب الهلال العدد ١٦٥ ديسمبر ١٩٦٤.

الـرابطة النفسية العميقة في الدعوة لإله واحد، والتعرض لصنوف شتى من الاضطهاد والـتعذيب، والتقند بأحسن صفات الصبر والعزيمة[1]. والقصة في القرآن الكريم تعتمد علـى عرض وقائع من تاريخ الأمم السابقة وصور لمصارع الغابرين والمكذبين ونماذج لأصحاب اليقين والإيمان وتستعرض موكب الأنبياء الحافل بالجهاد المضني لإرساء قيم التوحـيد والخير بين الناس. وهي في كل ذلك سجل تاريخي وثيق وإن لم يعتمد على التسلسل الزمني للأحداث، إنها تأخذ من التاريخ ما فيه الغنى لكل سياق أو مقصد يعنى به الدين، فليس المقصود بها تفصيل التواريخ ولا تسجيل الوقائع والسنين[2].

إن الغـرض الأساسـي مـن وجودها في القرآن ديني كما قلت، ومع ذلك فإن الخـصائص الفنية بارزة في عرضها (شأن التعبير القرآني كله يؤلف بين الغرض الديني والفني[3]).

ويتحقق الغرض الديني من التأثير الوجداني، واستخلاص العبرة والموعظة فيقبل الناس على الإيمان خوفا من أن يحيق بهم مثل ما حاق بالأمم السالفة أو إعجابا وتأسيا بالمثل الـرفيعة التي تعرضها القصة القرآنية. ويتحقق الغرض الفني بجمال العرض الذي يعتمد على الواقعية وصدق الأداء ولا يعتمد على الخيال المجنح أو التزويق الكاذب.

ولسنا هنا بصدد بحث القصة في القرآن الكريم حتى يلزمنا المضي في هذا التقديم إلى أبعد من ذلك، ولكننا هنا نعرض – فقط – لما ورد من مقابلات في القصص القرآني، لنلقـي الـضوء على الأثر الفني أو الديني لإيثار القرآن التعبير عن هذا الموقف أو ذاك بأسلوب المقابلة.

وهذه نماذج لذلك :

---

(١) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني : الدكتور فتحي عامر :٢٢٩

(٢) حياة قلم : للعقاد :٢٧٤

(٣) التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ١١١ ط بيروت

١- المقابلة في قصة قابيل وهابيل :

وردت القصة في سورة المائدة مختصرة دون ذكر لاسم قابيل أو هابيل وإنما أشارت فقــط إلى أنهما ابني آدم عليه السلام، و لم تذكر السورة من القصة إلا اللقطة التي تمثل عنصر الصراع بين جانبين متقابلين في حياتنا أما بقية القصة فيمكن الاطلاع عليها في المصادر الأخرى(١).

قال تعالى : {۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾}(٢)

إن المقابلة في هذا المقطع من قصة ولدي آدم هي مقابلة بين الخير والشر الكامنين في الــنفس الإنسانية. ولقد أذكى هذا التقابل عنصرا من أهم عناصر القصة القرآنية وهو الــصراع بــين الحق والباطل. والخير والشر. والأثرة والإيثار والحب والبغض، إذ يمثل هابيل جانب الخير والطيبة والتسامح، لذا تقبل الله قربانه واستحق رضا والده والفوز بما اقترعا عليه وهو الزواج من أخت قابيل(٣).

---

(١) انظر تفاصيل القصة في تفسير ابن كثير ٤٢٠/٢ وقصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار :٣٧ ط مكتبة دار التراث، القاهرة، وقصص القرآن، لمحمد أحمد جاد المولى ١١، ط بيروت وقصص من القرآن لمحمد زهران : ١٠ مكتبة غريب القاهرة.

(٢) المائدة : ٢٧ – ٣٢

(٣) قصص الأنبياء : ٣٧

كما يمثل قابيل جانب الشر والأنانية والحقد، ولذلك لم يتقبل الله قربانه، وأصر على قتل أخيه فأصبح من الخاسرين، ومن النادمين.

والمغــزي الــديني من هذه القصة واضح من التعقيب الوارد عليها، وهو التنفير من جــريمة القتل، وإظهار بشاعتها وشمول أضرارها للناس جميعا (فكأنما قتل الناس جميعا) وكذلك في الحث على حفظ الأنفس وحياتها (فكأنما أحيا الناس جميعا)، وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه القصةتأتي تمهيدا لتشريع بعض الحدود كحد قاطعي الطريق والخارجين علــى القانــون وكحــد السرقة[1] فتتهيأ النفوس بهذا التمهيد لتقبل هذه التشريعات الجديدة.

أما الغرض الفني فقد تحقق كما قلت من إبراز عنصر الصراع وهو من أهم عناصر العمل القصص.

٢- المقابلة في قصة نوح عليه السلام :

ورد ذكر نوح عليه السلام في ثلاثة وأربعين موضعا من القرآن الكريم، وهو يعد النبي الثاني ممن ذكروا بعد آدم عليه السلام، والأول هو جده الأكبر إدريس عليه السلام[2] وهي قصة طويلة ومتفرقة في أعطاف القرآن الكريم، وحياته في قومه بلغت ألف سنة إلا خمسين عاما قضاها كلها يدعوهم بمختلف وسائل الدعوة إلى ترك الأوثان وطلب المغفرة من الله وحده، ووعدهم بما يحبونه من عاجل الدنيا بالعيش الرغد وكثرة المال والولد {فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾}[3]

واللقطــة التي أعرضها هنا تصور نوحا عليه السلام بعد أن قطع شوطا طويلا جدا في دعــوة قــومه إلى الله – يجأر بالشكوى إلى ربه من صلادة قلوبهم ونفورهم وكأنه يقدم إلى ربه عريضة الدعوى متضمنة الجهد الجهيد والصبر الطويل ومدى ما لقيه من عناء في دعوتهم إلى الله. وما قابل ذلك من نفور وإعراض، ولعله بهذا يطلب من ربه أن يستجيب لدعوته عليهم بعد ذلك ألا يذر على الأرض من الكافرين ديارا.

---

(١) ورد حد قاطع الطريق في الآية (٣٣) وحد السرقة في الآية (٣٨) من السورة

(٢) قصص الأنبياء : ٤٥

(٣) نوح : ١٠- ١٢

قال تعالى : {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ }[1]

فالمقابلة في هذا المقطع بين (الليل والنهار) تصور انشغاله الدائم بالدعوة طول الوقت إن ليلا أو نهارا.

والمقابلة بين هذا الإقبال والانشغال من جانبه بما يحقق لهم الغفران والسعادة وبين النفور والإعراض المتمثل في صم الآذان واستغشاء الثياب والإصرار على الكفر والاستكبار من جانبهم، تبين مدى العناء الذي واجهه من قومه مما جعل اليأس من إصلاحهم يتسلل إلى قلبه.

وكذلك المقابلة بين الدعوة جهارا وعلانية والدعوة سرا وإسرارا تظهر عدم تقصيره فيها؛ وتؤكد لجوءه إلى كل وسائل الدعوة، سواء عن طريق الاجتماعات العامة، أو عن طريق الإقناع الفردي والتأثير السري ولكن دون جدوى.

وقد تحقق الغرض الفني من هذه المقابلات في تصوير البطل في إحدى مراحل الصراع، وهي تلك المرحلة التي يلجأ فيها إلى الابتهال والاستعانة بالله على قومه؛ المرحلةالتي تسبق الحل عن طريق العنف بعد اليأس من كل الوسائل التقليدية للإقناع.

أما الغرض الديني فقد تحقق من عرض هذه القصة على كفار مكة. فهي تحمل معنى التهديد لهم بعقاب مشابه لما حل بقوم نوح {مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ }[2] وذلك لأن الشبه بين عناد قوم نوح وعناد كفار مكة شبه كبير، فهؤلاء يتمسكون باللات والعزى {وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ }[3] وأولئك قد مكروا مكرا كبارا {وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ }[4]. والتهديد بعرض مصارع الغابرين من الأمم السالفة وسيلة من الوسائل التي لجأت إليها الدعوة وخاصة في مكة.

---

(١) نوح : ٥- ٩

(٢) نوح : ٢٥

(٣) النجم : ٢٠

(٤) نوح : ٢٣

٢- المقابلة في قصة إبراهيم عليه السلام :

نختار من قصة إبراهيم عليه السلام مشهدا من مشاهد الحوار والجدال الذي كان يدور بكثرة بينه وبين قومه، وهو يعرض قضية التوحيد التي هداه الله إليها بعد رحلة الحيرة والشك في بدء حياته.

وذلك لنرى ما تؤديه المقابلة في عنصر الحوار القصصي من دور هام.

أ- قال تعالى في سورة الأنبياء :

{قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝
قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ }

{ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۝ }

{ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ
وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ۝ }

لقد سخر سيدنا إبراهيم من هذه التماثيل التي عكفوا على عبادتها بحجة أنها ميراث الآباء، فوسمهم وآباءهم بالضلال المبين، ودار بينهم وبينه هذا الحوار الذي ظهر فيه التقابل في سؤالهم إياه : (أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين بين الحق واللعب، ولقد كان السياق يقتضى أن يقولوا : أجئتنا بالحق أم بالباطل لكنهم – والله أعلم – عدلوا عنها إلى (أم أنت من اللاعبين) لأنهم من تجربتهم لإبراهيم منذ نشأته، عرفوا أنه لا يقول الباطل أبدا { ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝ }(١)

ولذلك ظنوه يلهو أو يلعب، مما يدل على زعزعة العقيدة في نفوسهم حين لم يفرقوا بين الحق والباطل أو بين الجد واللعب.

ويظهر التقابل أيضا في رد إبراهيم على سؤالهم حين رَدّ عليهم بمضمون الحق لا اللعب وهو أن العقيدة التي جاء بها هي عقيدة ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن، فخلق السموات والأرض ليس لهوا أو لعبا كما ظنوا قال تعالى : { وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ }(٢)

---

(١) الأنبياء : ٥١

(٢) الأنبياء : ١٦

كمـــا يظهر التقابل مع استمرار الحوار بينه وبينهم، بالمقابلة الساخرة بين ما لا ينفع وما لا يضر في عقيدهم المهترئه.

ثم هذا التقابل الذي تتدخل فيه القدرة الإلهية فتكون طرفا في الحوار وهوالتقابل بين ما قالوه في النار {حرقوه وانصروا آلهتكم} وما قالته العناية الإلهية {يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم}.

وأخيرا هذا التقابل بين ما أرادوه لإبراهيم من الكيد وما أراده الله له من النجاة ولهم من الخسران المبين ولقد اكتسب الحوار في هذه القصة حيوية وجدة بهذه المقابلات التي تظهر التناقض بين ما يدعو إليه سيدنا إبراهيم، وما يتمسكون به من الزيف والضلال.

ثم إن هـــذه المقابلات — أيضا — تتطور بالحوار في اتجاه صاعد نحو العقدة فالحل، فالآيـــات التي لم تُذْكَرْ هنا تَذْكُرُ أن الحوار بينهما قد تطور إلى تحطيم الأصنام وجعلها جذاذا، ثم إلى الإعداد لحرق إبراهيم عليه السلام ونجاته من النار.

ب- وفي سورة العنكبوت يظهر لنا طرف من قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه بعد أن نجاه الله من كيدهم وظهر أنه على الحق، نرى فيه التقابل واضحا وعجيبا قال تعالى :

{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾}(1)

فالنار التي أعدوها لإبراهيم وألقوه فيها لتحرقه، كان الله ناصره وحافظه منها.

تقابلـــها تلك النار التي أعدها الله لهم في الآخرة مأوى ومثوى، ليس لهم ناصر أو حافظ يمنعهم منها.

والمودة التي حرصوا عليها في الدنيا ورفعوها فوق العقيدة يقابلها يوم القيامة الكفر والتلاعن والخصام والتبرؤ.

وهـــي مقابلـــة بين صورة قريبة في الدنيا. وصورة بعيدة في الآخرة، ولكن الآيات تطوى الزمن في لحظة لتعقد تلك المقارنة المؤثرة الموحية بين حاليهم في الدنيا والآخرة.

---

(1) العنكبوت : ٢٤- ٢٥

ج- وفي ختام قصة إبراهيم عليه السلام يرد قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (١)

إنه الختام السعيد لهذه القصة، وإنها المكافآة للبطل على جهوده المخلصة التي بذلها طوال الأحداث، لقد عوضه الله عوضا مزدوجا متقابلا في الدنيا والآخرة، :

وهبه في الدنيا ذرية صالحة حملت مشعل النبوة والكتاب وبناظر ذلك في الآخرة أنه من الصالحين، ومن المعروف أن جزاء الصالحين في أعلى منازل الجنة ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ (٢)

٤- المقابلة في قصة يوسف عليه السلام :

على كثرة ما في قصة سيدنا يوسف عليه السلام من المواقف المثيرة، إلا أننا نختار من مشاهدها ما ورد بأسلوب المقابلة، لنتبين الدلالات الفنية والدينية فيها.

أ- المشهد الأول : بينه وبين امرأة العزيز : التي فتنت بجمال يوسف فراودته عن نفسه بعد تهيئة الجو الكامل له، فكان من جوابه الرفض التام مستعيذا بالله الذي يؤمن به أن يعصيه، ومذكرا لها أن الواجب الإنساني يأبى أن يقابل المعروف بالجحود، فربه أي سيده الذي رباه وائتمنه على عرضه وأسرار بيته لا يكون جزاء معروفه خيانة الأمانة، والطعن في الشرف وهنا أحست امرأة العزيز بصدمة عنيفة ضد رغبتها الجامحة وبطعنة في كبريائها (فهمت به جذبا إليها وانتقاما، وهم بها تخلصا ودفاعا، لولا أن رأي برهان ربه أي تمثل له عقاب الله على فتكه بها، فرأي الفرار من وجهها متجها إلى الباب وهي تلاحقة ممسكة بقميصه من خلفه، وتطور هذا المشهد إلى الأسوأ بوجود زوجها لدي الباب فبادرت بالاتهام. بل بإصدار الحكم على يوسف : (٣) قال تعالى :

---

(١) العنكبوت : ٢٧

(٢) النساء :٦٩-٧٠

(٣) المصطفون الأخيار، عطية صقر : ١٠٤- ١٠٥ ط : مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع - الكويت.

{وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾}(١)

والمقابلات التي وردت في هذه الآيات تصور المأزق الذي وقع فيه سيدنا يوسف والأزمة العنيفة التي حاصرته، وبلغت ذروتها حين فوجئ بالزوج على الباب فازداد التعقيد، ورأي سيدنا يوسف أن الصدق وحده هو المنجي، فاعترف بأنها هي التي دعته، وترسل العناية الإلهية شاهدا من أهلها ليعرض فكرة تحل هذا التعقيد، ويعرف من المعتدي وهي قَدُّ القميص فإن كان من الأمام فهي صادقة وهو كاذب وإن كان من الخلف فهي كاذبة وهو الصادق وتنفرج الأزمة حين يرى القميص وقَدْ قُدَّ من الخلف، وينتهي الموقف ببراءة يوسف وتخطئة الزوجة.

وهذه المقابلات نلمحها في الآيات بين عفة يوسف وطهارته وأمانته وقوة إرادته وبين خيانة امرأة العزيز، ودنسها وجريها وراء شهوتها. ونراها بين شغفها به وإعراضه عنها.

كما نراها في منطقية الدليل على براءته وهو القميص قُدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين، في مقابل افتراض كذبه لو كان عكس ذلك.

ونراها أخيرا بين الزوجة الخائنة، والزوج الطيب المتسامح الذي يكتفي في مثل هذا الموقف بالعتاب الخفيف وبطلب الاستغفار من الذنب.

---

(١) يوسف : ٢٣-٢٩

وهذه المقابلات أظهرتنا على الغريب من النماذج البشرية، وعلى التقابل في النفوس والضمائر، ما بين الخيِّر منها والشرير، والعفيف منها والدنئ وذي الإرادة القوية، وضعيف الإرادة.

كما بعثت في القصة الحيوية والحركة، ونقلت مشهد الصراع أمامنا فكأننا نراه الآن حيا شاخصا بعد أن عفت عليه القرون.

ومن الناحية الدينية والأخلاقية، فإن المشهد يقدم لنا المثل الأعلى للبطولة حيث صمد يوسف (وقبل أن يبعث ويكون رسولا)[1] أمام مغريات الجمال والسلطان لا خوفا من البشر – فقد كانت كل الظروف مهيأة، ولكن استعصاما بالمثل واستمساكا بالقيم، ومن أجل ذلك كان تكريم الله له في هذا الموقف الحرج بإظهار براءته، وبجعله بعد ذلك قيِّما على خزائن الأرض.

ب – المشهد الثاني في السجن :

لم يهدأ بال امرأة العزيز بعد أن طعنها يوسف في كبريائها . وبعد أن شاع خبرها في المدينة . وأمام إصراره على الطهارة والاستعصام بحبل الله لم يهدأ بالها إلا حين ألقت به في السجن بعد أن فضله يوسف على الغواية والصبابة . وفي السجن بدأ يمارس علمه وحكمه الذي ألهمه الله إياه، واشتهر في السجن كمعبر للرؤى والأحلام، وتمر عليه في السجن السنون، ويحلم الملك حلما مفزعا ويحار في تفسيره كل من حوله، فيطمئنونه بأنه أضغاث أحلام[2] ويتطوع أحد من أفرج عنهم ممن كانوا زملاء السجن مع الصديق يوسف وخبر قدرته على تأويل الأحلام ويعرض رؤيا الملك على يوسف .

وفي تأويل للرؤيا تظهر المقابلات العجيبة بين ما رآه الملك في الحلم وما سيتحقق وقوعه في الواقع والمستقبل . قال تعالى :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا

(١) المصطفون الأخيار : عطية صقر : ١٠٦

(٢) أضغاث أحلام : تخاليطها وأباطيلها (كلمات القرآن : ١٣٦) .

﴿قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝﴾ (يوسف: ٤٦ – ٤٩)

فإن الرؤيا نفسها فيها مقابلة بين :

(١) سبع بقرات سمان وسبع عجاف

(٢) وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات

ويقابل هذه الرؤيا المتقابلة تعبير لها متقابل أيضا :

(١) فالبقرات السبع السمان والسنبلات السبع الخضر : تؤول وتقابل بالزراعة الجادة والسعي الدءوب سبع سنين . تكفي إطعامهم ويخزن الباقي في سنابله لسبع عجاف أخرى .

(٢) والبقرات السبع العجاف والسنبلات اليابسات: تؤول وتقابل بسبع سنوات شداد عجاف ينعدم فيها المطر وينتشر الجدب والجفاف. وتأكل هذه السنوات العجاف ما خزنوه من الغلال في سنوات الجدب والدأب .

وهنا نلاحظ أن هذه السنين العجاف يأتي بعدها عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون: يترل المطر فتخصب الأرض وتنبت الزيتون والفواكه وكل ما من شأنه أن يعصر.[١]

هذا العام وهو عام الرخاء الكامل، لا يقابله رمز في رؤيا الملك فما هو السر في ذلك ؟ ولماذا صرح به يوسف ؟ وعلى أي شيء يدل ؟ أغلب الظن – كما يقول الأستاذ سيد قطب – أن هذا من العلم اللدني الذي علمه الله يوسف فبشربه الساقي (زمينه في السجن) ليبشربه الملك والناس بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخي رغيد[٢]

وهذه المقابلات بين الرمز في الرؤيا وما يقابلها من أحداث، تقوى النسيج القصصي، وتكسبه التماسك والقوة، بالإضافة إلى دلالتها على ذكاء البطل وحسن تدبيره . وهذا قد أدى بدوره إلى الإفراج عن يوسف عليه السلام وإخراجه من السجن وزيرا على خزائن الأرض ومن الناحية الدينية والأخلاقية أفادت بيان شرف العلم وأثره، فبهذا التأويل بلغ يوسف هذا المنصب المرموق .

---

(١) كلمات القرآن : ٣٧ .

(٢) في ظلال القرآن : ٤/ ١٩٩٤ .

ج – بين يوسف وإخوته :

وهذه مقابلة قليلة الكلمات ولكنها تؤدي معاني بلاغية وفنية كبيرة . قال تعالى :

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ (يوسف : ٥٨)

فماذا أفادت المقابلة بين (عرفهم) و (منكرون) في الأسلوب القصصي ؟

أعتقد أنها تضيف إلى القصة عنصر التشويق والإثارة، وتتيح للبطل (يوسف عليه السلام) أن يطور الأحداث بمعرفته، ويديرها تجاه الهدف الذي يريد أن يصل إليه.

وفي الأسلوب القصصي نلاحظ أن البطل عندما يتخفى أو يخفى على بقية الشخوص بحيث يعرفهم ولا يعرفونه، فإن ذلك يتيح له أن يضع من الخطط والأحداث ما يكفل له – بحرية تامة – الوصول إلى هدف معين يخدم في تنمية العمل القصصي .

وهنا نجد أن معرفة يوسف عليه السلام لإخوته، وجهلهم به، قد أتاحت له أن يطور الأحداث كما يريد، فطلب منهم أن يحضروا أخا لهم من أبيهم هو (بنيامين : أخوه لأمه وأبيه وهو أصغر من يوسف[1]) ولقد كان إحضار (بنيامين) بداية لسلسلة من الأحداث الشيقة، بدأت باتهامهم بالسرقة ثم استبقاء بنيامين الذي وجد صواع الملك في رحله لكي يكشف له يوسف عن شخصيته، ثم تتابع الأحداث وتنتهي باستقدام يوسف لأبويه ورفعهما على العرش . وَخَرَّ الجميع له سجدا لتتحقق رؤيا يوسف صبيا .

على أن في المقابلة بين (عرفهم: ومنكرون) جمالا يضاف إلى ما لمسسناه من أثرها الفني، فقد كان السياق يقتضي (عرفهم وهم لم يعرفوه)، ولكن التعبير ب (منكرون) يدل على أنه كان من طبيعة الأمور أن يعرف أخوة يوسف أخاهم، ولكنهم بفعلتهم المنكرة معه صغيرا قد أصبح يوسف غريبا منكرا عندهم كأن لم يكن في يوم من الأيام واحدا من أبناء يعقوب[2].

د – مقابلة آخر القصة بأولها :

ومن الطريف في قصة سيدنا يوسف ربط بدئها بختامها، فلقد بدأت برؤيا يوسف الصبي وانتهت بواقع يوسف وزيرا على خزائن مصر حفيظا لها عليما بأمورها، قد أوتي الملك والحكمة وبين البدء والختام سارت الأحداث في تسلسل وترابط .

---

(١) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار : ١٦٧ .

(٢) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب : ٤٥٨، ط : دار الفكر العربي، مصر، ١٩٧٤ .

والمقابلة التي أعنيها : بين قوله تعالى في مطلع السورة :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ (يوسف : ٤) .

وقوله سبحانه في نهايتها :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف : ٩٩ — ١٠٠) .

فيمكن مقابلة أحد عشر كوكبا بأخوة يوسف الأحد عشر[(١)]

ومقابلة الشمس والقمر بأبيه وأمه

ومقابلة سجود الكواكب والشمس والقمر ليوسف في الرؤيا

بالسجود له بعد أن بلغ ما بلغ في ملك مصر في دنيا الواقع .

وهكذا يتصل المشهد الختامي بمطلع القصة، وتتقابل الرؤيا مع الواقع في نسيج محكم قوي يخدم الغرض الفني من جهة، ويدل على تأصيل القيم الدينية والأخلاقية من جهة أخرى، بما بين المطلع والختام من معاني الصبر على الظلم، ومقاومة النزعات الجسدية، وذم الحسد والكيد وكل ما أفادته قصة يوسف من هذه العبر والعظات .

٥ – المقابلة في قصة أصحاب الكهف :

وأصـــحاب الكهف كما أخبر عنهم القرآن الكريم فتية آمنوا بربهم فزادهم الله هـــدى، قامـــوا يدعون إلى التوحيد في عصر فشت فيه عبادة الآلهة من دون الله دون سلطان بيّن فلما أحسوا بصدود قومهم ومحاربتهم لهم أوَوْا إلى الكهف فضرب الله على آذانهـــم وظلوا نائمين فيه سنين عددا : ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا . ثم بعثهم الله وأعثر عليهم قومهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها .

والمشهد الذي نعرض له هنا يصور عناية الله بهم وهم نيام طوال هذه المدة في حين يحسبهم الرائي أيقاظا . قال تعالى :

(١) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار : ١٥٥

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الكهف: ١٧ - ١٨) .

والمقابلــة هــنا توضح كيف حفظهم الله من عوامل الطبيعة الشمس والهواء ومن عوادى البشر، فيظنهم الرائى أيقاظا فلا يقترب منهم، بينما هم رقود في سبات طويل .

كمــا توضح المقابلة أثر عناية الله بهم في نفوس البشر . فهى آية تهدى من ينتفع بها أما من أصم عقله فإنه ضال لن يجد من يرشده .

ومن الناحية الشكلية، فإن المقابلة ظاهرة بين طلوع الشمس وغروبها، وبين تزاورها عنهم جهة اليمين في الصباح حتى لا تتعامد عليهم فتؤذيهم وقرضها عنهم جهة الشمال في الغروب حتى يظلوا في الوسط لا تصيبهم الشمس بحرها ولظاها .

وظاهرة أيضا بين أيقاظ ورقود، وبين الهدى والضلال .

وهــذه المقابلات من الناحية الفنية وصفت بدقة بالغة حالات الشخوص في القصة، هــذا الوصــف الذي ظهرت فيه عناية الله بهم ليظلوا آية من آيات الله . وقدرته على البعث .

ونلاحــظ من الناحية الفنية أيضا أن القرآن لم يهتم بمكان الحدث أو زمانه أو أسماء الأشخاص

(لأن التــسجيل التارخــى ليس هو المقصود، إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة، وهي تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان)[1] .

إن المكـــان هنا كهف . وما أكثر الكهوف والمدينة التي بعثوا أحدهم إليها بورقهم لينظــر أيها أزكى طعاما . . مدينة بلا عنوان، والأشخاص كذلك، لأن هذه أمور لا تقدم ولا تؤخر في العبرة المأخوذة من القصة، وهى الدلالة على قدرة الله على البعث، وهـــي القضية التي كان الكافرون ينكرونها . إن القرآن ليس كتاب تاريخ وإن حوى الكــثير مـــن وثائقه، وليس كتابا في فن القصص، وإن ظَلَّ يُعْجِز أَمْهَرَ القصاصين عن مجاراته .

---

(١) في ظلال القرآن : ٤ / ٢٢٨٩ .

٦ – المقابلة في القصص التعليمي بين لقمان وولده :

لم يتعرض القرآن الكريم لقصة لقمان، وإن أفرد باسمه سورة كاملة لكن ما ورد في شـأنه هـو الوصايا التي وصى بها ابنه، وهي طريقة من طرق القرآن الكريم في عرض القصة، قد يأتي بها كاملة وفي سورة واحدة كما في قصة يوسف، وقد يأتي بها متفرقة في عديد من السور .

وقد يختار من القصة مشهدا واحدا، لأن فيه العبرة .

وقد يحمل القصة كلها في أية أو آيتين كما في قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ (فصلت : ١٣)، دون ذكـر لأحداث القصه والناقة وسيدنا صالح، لأن الغرض هنا هو الطرق بشدة على أفئدة المشركين ترهيبا وتخويفا .

وفي قـصة لقمـان لم يورد بشأنه سوى ما وصى به ولده، ليعرض على المشركين صورة مشرفة للوالد الحريص على مستقبل ابنه، وعلى توجيهه وجهة التوحيد الخالص وطاعـة الوالدين إلا في الشرك، والنهى عن الكبر والأمر بالمعروف والصلاة، إلى آخر هـذه الفـضائل في مواجهة ما كان يعم المجتمع المكي من عادات مرذولة ومن تواص بالكفر جيلا بعد جيل .

قال تعالى : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ (لقمان : ١٦-١٧) .

فقـد جاءت في ثنايا هذه الموعظة مقابلات تؤدى دور التأثير في الوليد الناشئ حتى يستجيب للنصيحة الخالصة الصادرة من قلب الأب إلى الابن .

هذه مقابلة بين حبة الخردل الصغيرة المتناهية في صغرها وبين الصخرة الضخمة، قد تـوارت في أعماقها حبة الخردل فلا يكاد يراها أو يصل إليها أحد لكن علم الله نافذ إليها .

ومقابلـة بين السموات والأرض، تبين شمول علم الله بما فيهما حتى ولو غيبت في تضاعيفهما حبة الخردل المذكورة .

ومقابلـة بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تأتي بعد أن هيأ لقمان ابنه لتقبلهم بعرض مثل لشمول علم الله وإحاطته بالصغيرة والكبيرة ما خفى منها وما ظهر .

ثم مقابلة بين علاقة الابن بربه متمثلة في إقامة الصلاة وعلاقة الابن بالبشر متمثلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما تلا ذلك من النهى عن المنكر والخيلاء والقصد في المشي وغض الصوت .

وهذه المقابلات أفادت من الناحية الفنية تصوير حرص الأب على تربية ابنه وتنشئته تنشئة سوية متوازنة تلبي كل حاجاته النفسية والاجتماعية والروحية .

ومما لا شك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق المسامع بشغف وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة، فلا تمل ولا تكل، أما الدروس التلقينية والإلقائية فإنها تورث الملل . والمعهود – حتى في حياة الطفولة – أن يميل الطفل إلى سماع الحكاية وتعي ذاكرته ما يروى له فيحاكيه ويقصه.(١)

كما أفادت من الناحية الدينية عرض نموذج للمثل الأعلى في التربية الإسلامية التي يهدف إليها القرآن في تربية المسلمين .

٧ – المقابلة بين الإيمان والكفر في قصص الأنبياء :

نعرض هنا لنخط الرئيسي الذي ينتظم معظم القصص القرآني، وخاصة قصص الأنبياء . . وفي يقيني أن المقابلات الواردة في هذا القصص تهدف أساسا إلى تصوير الصراع بين دعوة الإيمان ودعوة الكفر، وهذا الصراع هو الخط الرئيسي الذي يقوم عليه القصص القرآني، وصولا إلى الهدف منه وهو كونه عبرة لأولى الألباب .

وقد عرضت سورة الأعراف لقطات سريعة لقصص سيدنا نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وهذه اللقطات تعتمد على المقابلة في المواقف بين كل نبي وقومه بين دعوة الربوبية الخالصة، وأثر هذه الدعوة في نفوس القوم .

ويلاحظ في هذا المجال أن المدعوين جميعا، قد انقسموا إلى فريقين متقابلين فريق لم يستكبر ولم يتكبر وشرح الله صدره للإيمان والتوحيد وفريق هم (الملأ) أصحاب المصلحة في الإفساد والكفر، يستكبر ويستنكف عن قبول دعوة الحق، لأنها تسلبهم السلطان على النفوس، وتقضى على المباءة والمستنقع الآسن الذي فيه يمرحون .

ثم يكون الصراع بين الفريقين وتحسم القضية في النهاية بنتيجة متقابلة تناسب المواقف المتقابلة، وهى هلاك المتجبرين ونجاة المؤمنين والآيات التي تصور ذلك في سورة

---

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان : ٣١٠، ط ٦، مؤسسة الرسالة : بيروت، ١٩٧٨ .

الأعـراف محصورة من قوله تعالى :﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ (الأعراف إلى قوله تعالى :﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ (الأعراف)

ولا نجـد من الضروري إثبات كل هذه الآيات هنا، بل نكتفي بإيراد ما يمثل خط الصراع في المواقف المتقابلة .

فموقــف الأنبياء يتمثل في الدعوة إلى التوحيد من منطلق حرص هؤلاء الأنبياء على قومهم وخوفهم على مصيرهم إن هم استمروا على الضلال .

١ – يقول نوح عليه السلام لقومه :

﴿ . . . لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ (الأعراف) .

٢ – ويقول هود عليه السلام لقومه عاد :

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (الأعراف) .

٣ – ويقول صالح عليه السلام لقومه ثمود :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ (الأعراف) .

٤ – أمـا لوط عليه السلام فلم يقل لقومه كما قال سابقوه : ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾، وإن كان ما دعا إليه في الحقيقة لا يخرج عن مضمون الدعوة إلى التوحــيد فقد خرج قوم لوط عن الفطرة السليمة، ومن يؤمن بالله الواحد لا يمكن أن يخرج عن سنته في الكون وهي (أنه خلق الزوجين الذكر والأنثى)، وأن التقاءهما لعمــارة الكون هو الفطرة السوية، أما الانحراف عن ذلك إلى الشذوذ الجنسي وإتيان الذكران، فهو مخالفة للفطرة، أي مخالفة للتوحيد .

ولــذلك تــوجه لــوط مباشــرة إلى هــذا الشذوذ عند قومه . فبدأ بالاستفهام الاستنكاري:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (الأعراف) .

٥ – وأما شعيب عليه السلام فقد قال لأهل مدين :

﴿ . . . يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ . ﴾، ثم اتبع ذلك بدعوهم إلى الوفاء بالكيل والميزان وعدم الإفساد وعدم الصد عن سبيل الله، مذكرا إياهم بفضل الله عليهم ﴿ ..... وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (الأعراف) .

هـــذا هـــو الجانب الأول من المقابلة : الرسل يدعون إلى التوحيد والهدى والفطرة والعـــدل، ويحذرون أقوامهم من الضلال المؤدي إلى العذاب ويحضونهم على التقوى، ويقدمـــون لهم البينات من ربهم وينهونهم عن الإسراف في مناوأة الحق وعن الانحراف عن الفطرة السوية إلى ابتغائها عوجا.

فما الموقف الذي يقابل به أقوامهم هذه الدعوة السامية ؟

١ – إن قوم نوح يتهمونه بالضلال المبين :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الأعراف) .

ويتعجبون من مجيء الوحي والذكر على رجل منهم ينذرهم ويرجو لهم الرحمة وهو موقف مقابل ومعاكس تماما لموقف نوح الرسول، إنه الإعراض التام عن دعوة الهدى، في مقابل حرصه عليها وخوفه عليهم، إنه الضلال في مقابل الهدى والسخرية والتهكم في مقابل الحكمة والنصح والإشفاق .

٢ – وقوم هود يتهمونه بالسفاهة وبالكذب على الله : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (الأعـــراف)، ومـــا به سفاهة أو كذب وإنه لناصح أمين، ويتعجبون كما تعجب قوم نوح – من كون الرسول رجلا منهم ويسخرون من دعوته إلى التوحيد، ويستعجلون مـــا أوعدهم به من العذاب، ويجادلون في أسماء اخترعوها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان .

وهو موقف شبيه بموقف السخرية والعناد الذي وقفه قوم نوح ومن ثم يقابل موقف هود الناصح الأمين الحريص على الأخذ بأيديهم إلى الرشاد .

٣ – وها هم أولاء قوم صالح، وخاصة الملأ منهم، يقفون موقف العداء والكبر من صالح ومن تبعه من المستضعفين، ويجاهرون في غرور وكبرياء : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (الأعراف)، ولا يكتفون بكلمة الكفر، بل يقدمون الدليل العملي على كفرهم وعنادهم : ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (الأعراف) .

٤ – أما قوم لوط : فإنهم يقابلون دعوته إلى التطهر والفطرة السليمة بالإجماع على طرده هو ومن اتبعه من القرية : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (الأعراف)، والعجب كل العجب من منطق يدعو إلى إبعاد الطهر والنقاء من قريتهم كي لا يبقى فيها إلا الدنس والفساد .

٥ – وبماذا قابلت مدين دعوة شعيب ؟

لقد هددوه بالإخراج عنوة من قريتهم إن لم يعد هو وتابعوه إلى ملتهم تلك الملة التي تبخس الناس أشياءهم، وتفسد الأرض بعد إصلاحها، وتقعد بكل صراط تتوعد وتهدد وتصد عن سبيل الله وتبتغيها عوجا : ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (الأعراف) .

وبعد أن يعرض القرآن كل موقف وما يقابله، يعرض النتيجة والجزاء الملائم لطبيعة كل فريق، وهي نتيجة متقابلة أيضا تقابل الفريقين والموقفين، إذ تدور الدائرة على الظلم والظالمين، وينجي الله المؤمنين :

١ – ففي قصة نوح يكون الختام : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (الأعراف)

٢ – وفي قصة هود : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأعراف) .

٣ – وفي قصة صالح : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (الأعراف) .

٤- وفي قصة لوط : ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝﴾ (الأعراف)

٥- وفي قصة مدين : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝﴾ (الأعراف).

لقـد رأيـنا في هذه اللقطات القصيرة من قصص الأنبياء تركيزا شديدا على إبراز المواقـف المـتقابلة، وعـن طريقها يتجسد الصراع ويظهر للعيان، والصراع من أهم العناصر المحسوسة في هذه اللقطات، لأنه موجود دائما في حياتنا بين الخير والشر، ولا تكـاد الحياة تخلو من صورة من صوره، وهو هنا يشتد ويشتد بين النبي وقومه إلى أن تتعقد الأمور، فيكون الحل هو هلاك المكذبين ونجاة النبي ومن معه من المؤمنين .

أما الغرض الديني من سوق هذه القصص في القرآن الكريم فقد جاء صريحا في التعقيب على هذه المواقف في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝﴾ (الأعراف)، وفي هذا تلميح إلى كفار مكة بأن يؤمنوا حتى لا يصيبهم ما أصاب قوم نوح أو قوم صالح ثم تأتي الآيات بعد ذلك تحمل معنى التهديد لأهل مكة : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝﴾ (الأعراف) .

ثانيا : في الأمثال القرآنية :

تقديم :

وكمـــا اعـــتمد القرآن الكريم على القصة سلاحا من أسلحة الدعوة، وطريقة من طـــريق القـــرآن للـــتذكير بما حدث للقرون الأولى، عل في ذلك عبرة لأولى الألباب، اســـتخدم القـــرآن المثل كذلك باعتباره طريقة من طرق التعبير القرآني يكشف به عن نماذج مؤمنه بلغ بها اليقين النفسي، والاطمئنان للإيمان درجة كبيرة. ونماذج كافرة بلغ بها الحقد والعناد والمهاترة مبلغا عظيما. ونماذج منافقة يصدر عنها القول الحسن في فعل بذئ وتظهر في أشكال جذابه، وبواطن مظلمة، وللمثل دلالته الفنية التي تجسم الأفكار، وترسم الصور وتقرب إلى الأفهام ما هو بعيد عنها .(١)

وتـــؤدى المقابلـــة في الأمثال القرآنية دور المقارنة بين النماذج الإنسانية والأفكار والمعتقدات، فتضع أمام القارئ المثل في مقابل المثل، والفكرة تجاه الفكرة وتترك للعقل حرية التنقل بينهما فيختار المؤمن منهما ما يتوافق مع الفطرة والهدى .

وبهـــذه الطريقة كما يقول عبد القاهر الجرجاني يكسب التمثيل المعاني منقبة ويرفع مـــن أقدارها ويشب من نارها، ويضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعوة القلوب إليها(٢)

وهذه طائفة من الأمثال القرآنية كان للمقابلة فيها دور بارز في نقل الفكرة القرآنية إلى القارئ وفي تقريب المعنى المستهدف إلى الأذهان بطريقة تمثيلية جذابة تخدم الغرض الفنى والديني في آن واحد

مع التنبيه هنا إلى أن لله المثل الأعلى وأنه : ﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى) .

١ – المقابلة في مثل الشرك والتوحيد :

لكـــى يؤدى المثل دوره في التأثير وتقريب المعنى لا بد أن تكون مادته مأخوذة مما يحيط بالبيئة التي سيضرب فيها المثل ولذلك يمثل الله للشرك بالعبد المملوك وبالشخص الأبكم العاجز عن الكلام والإفهام، ويمثل للتوحيد بالحر يتصرف كما يشاء وبالفصيح يأمر بالعدل ويتبع المنهج القويم،

---

(١) المعاني الثانية للدكتور فتحى عامر : ٤٤٥ .

(٢) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني : ١٠٨

قال تعالى : ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ (النحل) .

فالعبد المملوك الذي لا يستطيع التصرف إلا بأمر سيده، لا يمكن أن يتساوى مع مقابله وهو الحر الذي رزق رزقا حسنا يتصرف فيه سرا وجهرا كيف يشاء، وانهم ليرون ذلك واقعا تحت أنظارهم فكيف هم يسوون بين الله سبحانه وبين ما يعبدون من دونه : بين الله المالك المتصرف، وبين أي شئ آخر لا حول له ولا طول ؟ .

فالمثل بهذا الاستفهام الإنكاري (هل يستوون ؟) يعتبر صفعة لهؤلاء المشركين، ووصمة عار عليهم لخطل رأيهم وفساد عقيدتهم .

وكذلك المثل الثاني الذي يعرض في صورة متقابلة بين رجل أبكم عيي لا يقدر على شيء بل هو عبء على غيره ورجل آخر يملك القدرة على إثبات وجوده وفعاليته بين الناس حين يأمرهم ويسوسهم بالعدل ويتبع المنهج المستقيم . . . . . إن العاقل لا يمكن أن يسوى بينهما، فكيف هم يسوون بين الله بكل صفاته، وبين الأصنام والأوثان ؟

ويذهب ابن جرير الطبري إلى أن المثل في الآية الأولى : إنما هو مثل للكافر والمؤمن، على اعتبار أن الكافر لا يعمل بطاعة الله، ولا ينفق من ماله شيئا في سبيل الله، فهو كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شئ فينفقة، وأن المؤمن في مقابل ذلك يعمل بطاعة الله، وينفق في سبيله فهو كالحر في تصرفه[1] ولا بأس من انصراف المثل للكافر والمؤمن، ولو أن السياق يرجح انه مثل للشرك والتوحيد، نظرا لورود المثل — كما يقول ابن قتيبة[2] — في سياق الحديث عن الشرك في قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (النحل) .

---

(١) انظر تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) لابي جعفر محمد بن جرير الطبري، ١٤ / ٩٩، ط بولاق، ١٣٢٩ هـ.

(٢) انظر (تأويل مشكل القرآن) ابن قتيبة : ٣٨٤، تحقيق السيد صقر، ط ٢، دار التراث : القاهرة، ١٩٧٣ .

ومما يشبه ما سبق، تلك المقابلة بين المشرك والموحد في هذا المثل الذي ورد في سورة الزمر :

قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الزمر) .

فالمقابلة هنا بين عبد يملكه شركاء يتخاصمون في ملكيته وأمره وعمله، فلا يستطيع هذا العبد أن يرضي جميع نزعاتهم ورغباتهم المتعارضة، وعبد لسيد واحد قد عرف السيد إمكانات عبده وعرف العبد رغبات سيده، فأصبح مستريحا لطريقته إنهما لا يستويان .

فكذلك المشرك والموحد، لا يستويان ولايلتقيان : المشرك موزع ومشتت بين الآلهة والمؤمن موحد الوجهه والنية والعمل، عارف بطريقه ماش فيه على هدى وبصيره .

٢- المقابلة في مثل نور الإيمان وظلمات الكفر :

والآيات التي تعرض هذا المثل من سورة سميت باسم النور دلالة على ما فيها من نور الله وهدايته .

قال تعالى : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ (سورة النور) .

والمقابلة هنا بين نور الله المشرق على الكائنات، وبين ظلمات الكفر التي تغشى جوانب الكون والنفس حين تضل عن نور الله فما لها من نور بعده .

وقد صور المثل نور الله بطريقة محسمه متخيلة، مقابلة تماما لظلمات الكفر .

فإشعاعات النور واللألاء المنبعثة بقوة وصفاء من مصباح مسقى بزيت الزيتون المقدس المضيء من غير نار، وقد وضع في زجاجة بلورية تشبه الكوكب الدرى فأفاض نورا على نور يغمر الأكوان والنفوس باهدى واليقين .

في مقابل تلافيف الظلمات الشبيهة بظلمات بحر طاغي الأمواج بعضها فوق بعض، وفوق هذه الأمواج الصاخبة اللاحبة سحاب أسود داكن فتتكون ظلمات بعضها فوق بعض، لا يرى الشخص فيها يده إذا أخرجها . . فأنى للكافر في وسط هذه الظلمات أن يستهدى، وقد فقد نور الله ؟ .

وقد وضحت المقابلة بين المثلين الفرق الهائل بين نور الإيمان وظلمات الكفر، وفي هذا حث على اتباع نور الله، وهجر الكفر وظلماته .

ويذهب الحكيم الترمذي[1] إلى أن هذه الآيات مثل قلب المؤمن وأعماله وقلب الكافر وأعماله :

(فنفس المؤمن مثل بيت وقلبه مثل قنديل ومعرفته مثل السراج وفمه مثل الباب ولسانه مثل المفتاح والقنديل معلق فيه، دهنها من اليقين والفتيلة من الزهد، وزجاجها من الرضا، وعلائقها من العقل إذا فتح المؤمن لسانه بإقرار ما في قلبه، فاستضاء المصباح من كونه إلى عرش الله تعالى . فكلامه نور، وعمله نور، وظاهره نور، وباطنه نور، ومدخله في الاعمال نور، ومخرجه منها نور، ومصيره يوم القيامة نور . . . . أما الكافر فان قلبه مظلم في صدر مظلم في جسد مظلم)[2]

(١) الحكيم الترمذي هو (أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن شير الترمذي المؤذن المعروف بالحكيم من عماء القرن الثالث الهجري، انظر الأعلام : ٧ / ١٥٦، دائرة المعارف الاسلامية : ٥ / ٢٢٧ .

(٢) الأمثال من الكتاب والسنة، لأبي عبد الله بن علي الحكيم الترمذي : ٢٦ — ٢٧، تحقيق : على محمد البجاوى، ط نهضة مصر : القاهرة، ١٩٧٥ .

ونحـــن نرى أن هذا إغراق في الصوفية يزيد في غموض المثل ولا يوضحه، والأقرب إلى الفهـــم أن يكون هذا مثلا لهدى الإيمان الذي ينير البصر والبصيرة، ولضلال الكفر الذي يختم على القلوب ويصيبها بالرين والصدأ .

٣- المقابلة في مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ (إبراهيم).

فالكلمة الطيبة هنا سواء أكانت كلمة التوحيد أم كلمة الحق أو عمل المؤمن توضع في هذا المثل في مقابل الكلمة الخبيثة وتشبه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة الثابتة الشامخة، لا تزعـــزعها العواصف أو تلعب بها الأنواء فأصلها ثابت وفرعها في السماء وفي مقابل هـــذا تـــشبه الكلمة الخبيثة شجرة خبيثة مهما تكاثرت أغصانها والْتَفَّتْ فروعها وظن الناس أنها شجرة نافعة فإن مآلها أن تجتث من فوق الأرض فلا يكون لها بقاء أو يقر لها قرار .

ويعقـــب هذا المثل تقرير مفاده أن المؤمنين يثبتهم الله بالقول الثابت وبتلك الكلمة الطيـــبة الثابـــتة في الدنـــيا والآخرة . . . في مقابل ضلال وزعزعة الظالمين الكافرين (وهكـــذا تـــبرز الأمثال الأمر المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، فيتقبله العقـــل، لأن المعـــاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم) .[1]

ومـــا يدور في فلك هذا المثل أيضا، قوله تعالى : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (الأعراف) .

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان : ٢٨٧، ط ٦، مؤسسة الرسالة : بيروت، ١٩٧٨ .

وهـــو تمثيل للقلب الطيب بالأرض الطيبة وبالتربة الخصبة تخرج بإذن الله نباتا مثمرا طيبا في مقابل القلب الخبيث الذي يشبه أرضا جدباء لا تنبت سوى الشوك والحنظل .

وقد فسر صاحب مجاز القرآن، قوله تعالى: ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ بقوله: ﴿ قليلا عسرا في شدة ﴾ مستشهدا بقول الشاعر :

لا تُنجزُ الوعدَ إنْ وعدتَ وإنْ . . أعطيتَ أعطيتَ تَافِهًا نَكِدَا[1]

وهو تفسير يصور الشدة والعسر والضيق المصاحب للكفر وخبث الطوية، في مقابل الثمر الطيب الكثير المصاحب للإيمان .

٤- المقابلة في مثل الكفر والإيمان (بين النساء) :

هذا مثل ضربه الله لامرأتين خائنتين، مقابل امرأتين مؤمنتين والأوليان هما امرأة نوح وأمراة لوط والأخريان هما آسيا امرأة فرعون ومريم ابنة عمران .

قال تعالى :﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ (التحريم: ١٠ - ١٢)

والمقابلة هنا متعددة الجوانب والأطراف، فهي مقابلة بالتناظر والتماثل إذا أخذنا كل مثل على حدة، لأن امرأة نوح تناظر وتماثل امراة لوط في الكفر والخيانة .

وكـــذلك امـــرأة فرعون ومريم ابنة عمران، فإنهما متناظرتان ومتماثلتان في الإيمان والطهارة .

فإذا قابلنا بين المثلين كانت المقابلة بمعنى التضاد .

ففي المثل الأول نموذج لامرأتين خانتا زوجيهما (خيانة إيمان لا خيانة فاحشة) لأن زوجـــات الأنبـــياء لا يـــبغين، وخيانـــتهما نفاقهما وإبطانهما الكفر وتظاهرهما على الرسولين، فامرأة نوح قالت لقومه إنه مجنون، وامرأة لوط دلت على ضيفانه[2]، فكان

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى : ٢١٧.

(٢) الكشاف للزمخشري : ٤ / ١٣١ .

نصيبهما النار، ولم يغن صلاح زوجيهما عنهما من الله شيئا وفي المثل الثاني نجد نموذجا عكسيا .

ففـــي مقابل هاتين المرأتين الكافرتين، امرأتان آثرتا الإيمان على الكفر، ولم تستجيبا لضغوط البيئة وعادات المجتمع، فامرأة فرعون آثرت الآخرة على الدنيا وفضلت قصور الجـــنة على قصور فرعون، فهي تدعو ربها أن يبني لها بيتا في الجنة وتستجير بالله كي ينجيها من فرعون وعمله .

ومريم طهرها الله وفضلها على نساء العالمين .

ويبدو لي أن امرأة فرعون تقابل امرأة نوح وأن مريم ابنة عمران تقابل امراة لوط .

وذلـــك لأن امـــرأة فرعون تمثل الإيمان الراسخ والعقيدة الصلبة رغم أنف زوجها العاتـــي في كفـــره المتجبر في طغيانه بينما تمثل امرأة نوح – في مقابل ذلك – الكفر والتحريض على زوجها وسخريتها منه واتهامها إياه بالجنون(١)، بينما زوجها نبيٌّ صالح من عباد الله . فهو مقابل أيضا لفرعون في كفره .

كمـــا أن الـــسيدة مريم ابنة عمران بطهرها وعفافها ونقائها، وبراءتها مما ألصق بها اليهود من تهمة الزنا تقابل امرأة لوط التي كانت تشجع قوم لوط على ارتكاب جريمة هـــي أبشع من جريمة الزنا وهي (اللواط) وتدلهم على أضياف زوجها حتى يمارسوا معهم هذه الجريمة الشاذة .(٢)

والمـــتأمل في هـــذين المثلين من خلال سورة التحريم يرى أنهما قد سيقا في معرض تأديـــب زوجات النبي محمد صلى الله عليه وسلم حتى يحتذين بامرأة فرعون وبمريم في الإيمان والطهارة، ويعتبرن مما صارت إليه امرأتا نوح ولوط حين لم يغن عنهما زوجاهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين .

تعقيب :

وهكـــذا نرى من خلال هذا الفصل أن المقابلة تأتي في القصص القرآني لهدف ديني هو العبرة والعظة كما تأتي لغرض فني يختلف من قصة لأخرى .

---

(٢) تفسير ابن كثير : ٤ / ٣٩٣ .

(٣) نفسه : ٤ / ٣٩٣ .

فقــد تأتــي لتزكية عنصر الصراع وتحليته، هذا الصراع الذي ظهر جليا بين الخير والـــشر كما في قصة قابيل وهابيل ابني آدم . أو بين دعوة الإيمان ودعوة الكفر كما رأينا في قصص الأنبياء (نوح وهود وصالح ولوط وشعيب) في سورة الأعراف .

أو قــد تأتــي المقابلة في القصص القرآني لتصوير الأزمة والعقدة كما في قصة نوح وهــو يــشكو قومه إلى ربه، أو في قصة يوسف وامرأة العزيز حين ألفيا سيدها لدى البــاب أو لتطويــر الحوار في اتجاه صاعد نحو العقدة فالحل كما رأينا في حوار سيدنا إبراهيم مع قومه .

أو لتأكــيد أهمية الوصف الدقيق لأحوال الشخوص وتحديد حالاتهم كما في قصة أهل الكهف .

أو لاظهار مدى حرص الآباء على إرشاد أبنائهم كما في قصة لقمان وفي جميع هذه الأمور، جاءت المقابلة في القصص القرآني مصورة ومعبرة قوية ومتماسكه تربط معظم الخطــوط والخــيوط ببعــضها في نسيج محكم وقوى، وإن كان مختلفا عن المعهود في القصص الأدبي .

كمــا جــاءت في الأمثال القرآنية أيضا لتؤدى دورا هاما هو إظهار التناقض بين النماذج موضع المثل حتى يختار العاقل النموذج الطيب والمثل الرفيع، ويطرح غيره .

الفصل الرابع

مقابلات متميزة في القرآن الكريم

تمهيد :

في خـــلال رحلة البحث الطويلة عن المقابلة في القرآن الكريم استطعت بفضل الله وتوفيقه – أن أضع يدى على مقابلات فريدة في القرآن الكريم، تمتاز عن غيرها بالجدة والطرافة .

وأشـــهد أن مالفـــت نظـــرى إلى مـــثل هذه المقابلات في القرآن، إنما كان بعض الإشارات غير المقصودة من جانب الزمخشرى في الكشاف والزركشي في البرهان وغير ذلك من المصادر العديدة التي استعنت بها .

وعلى سبيل المثال، فإن الجملة القصيرة التي نقلها الزمخشرى عن أبيٍّ بن كعب وهو يـبحث عن السر في عدم تصدير سورة (براءة) بالبسملة، وهو (ان في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود[1]) .. كانت هذه الجملة حافزا لي على محاولة تبين ما بين السورتين من تقابل، ثم محاولة البحث عن نظائر لمثل هذه المقابلة .

ومثلها إشارة الزركشي في البرهان إلى أن (في القرآن سورتين أولهما ﴿يأيها الناس﴾ إحداهما تشتمل على شرح المبدأ والثانية تشتمل على شرح المعاد، وهما سورتا (النساء والحج[2])، وذلك في خلال حديثه عن خطاب الجنس في القرآن الكريم .

وقد دفعتني مثل تلك الإشارات العابرة إلى البحث عن المقابلات المتميزة في القرآن الكريم، فاهتديت – بفضل الله – إلى العديد منها، ورأيت في تسجيلها هنا دليلا جديدا علـــى إعجاز القرآن الكريم وسمو بلاغته وتفرده، عن غيره من أساليب البشر بالجديد والطريف .

---

(١) الكشاف للزمخشرى : ٢ / ١٧١ .

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٢ / ٢٢٧ .

ومن هذه المقابلات ما يأتى :

أولا - المقابلات بين السور :

وردت المقابلـة بين السور في القرآن الكريم في أكثر من صورة، ويمكن لنا تصنيفها على النحو التالي : -

أ - مقابلة بين مطلع السورتين فقط :

وذلك كالمقابلة التي التقطناها من إشارة الزركشي بين مطلع سورتي النساء والحج، ففي مطلع سورة النساء شرح للمبدأ أي بداية الحياة، قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾ (النساء) .

وتـستمر الـسورة بعـد ذلك في تشريع النظم والقوانين التي تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض في الدنيا: كرعاية اليتامى، والنساء، والزواج والميراث .

ويقابل ذلك مطلع سورة الحج الذي يشتمل على شرح المعاد ونهاية الحياة على الأرض وبداية يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝ ﴾ (الحج) وتستمر السورة بعد ذلك في الحديث عن يوم البعث وما فيه من حشر ونشر وجنة ونار، إلى الربع الأول .

ونحـن نلاحـظ — مـع هذا التقابل بين السورتين — أن القضيتين اللتين وردتا في مطلعـيهما من الخطورة بمكان، ومن ثم كان الخطاب في كليهما ب ﴿ يأيها الناس ﴾ رغم ندرته في القرآن المدني، فإن رعاية اليتيم قضية إنسانية باعتبار أن اليُتْمَ موجود في كـل زمان ومكان، وكذلك اليوم الآخر، فإنه قضية عامة لم تخل أية أمة من الأمم من تصوره على نحو من الأنحاء . . . ولذلك صدر الخطاب في السورتين المتقابلتين بتقوى الله فهي العاصمة من زلل الدنيا، والمنجية من زلزلة الآخرة.

ب — مقابلة بين أهم ما في السورتين :

وأعـني بهـا تلـك المقابلة التي أشار الزمخشري إليها دونما قصد بين سورة الأنفال وسـورة التوبة أو (براءة) حيث ورد في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود، ومن ثم لم تصدر (براءة) بالبسملة على اعتبار أنهما قرينتان، فهما كسورة واحدة .

ويمكن توضيح نقاط التقابل بين السورتين فيما يأتي : --

١- حفلـت سورة الأنفال بذكر العهود التي يجب على المسلمين أن يلتزموا بها في معاملـة الأعداء في الحرب والسلم على السواء ففي الحرب : فيها بيان أحوال معاملة الأعداء حال وفائهم بالعهد أو خيانتهم له، وكيف يحل المسلمون معهم العهد إن خافوا خيانـتهم، وبيان معاملة الأسرى، والأمر بالاستعداد للعدو بما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل بغرض الترهيب والتخويف وكسر الشوكة .

قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (الأنفال) .

وفي حالة السلم : بينت السورة أحكام السلم إن طلبوا السلم والمهادنة وكفوا عن حالـة الحرب، فأمر الله المسلمين بألا يأنفوا من السلم وأن يوافقوا من سأله منهم .(١)
قـال تعـالى : ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ (الأنفال) .

ولقـد كـان من نتائج هذه التوجيهات في سورة الأنفال، كثير من المعاهدات بين المسلمين واليهود، وبين المسلمين والكفار، ومن أهم هذه المعاهدات صلح الحديبية بين الرسول وكفار مكة قبل الفتح .

٢- أمـا سورة براءة فإن اسمها يعني (الخروج والتَفَصِّي "التنصل" مما يُتْعِب ورفع التبعة) ولما كان العهد يوجب على المتعاهدين العمل بما تعاهدوا عليه ويعد الإخلاف بـشيء منه غدرا على المخلف كان الإعلان بفسخ العهد براءة من التبعات التي كانت بحيـث تنـشأ عن إخلاف العهد فلذلك كان لفظ براءة هنا مفيدا فسخ العهد ونبذه ليأخذ المعاهدون حذرهم .(٢)

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ١٠ / ٥٨ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير، ١٠ / ١٠٤ .

والآيـــات الأولى من السورة تتحدث عن نبذ العهود التي كانت قائمة بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين، في مقابل ما تضمنته سورة الأنفال من ذكر للعهود .

ونبذ العهود في السورة إشعار وإعلان للأعداء أن ما بينهم وبين المسلمين من عهود مطلقة سوف تنتهي بعد أربعة أشهر : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾ (التوبة) .

أما العهود المقيدة بمدة معلومة، فيجب على المسلمين الوفاء بها إلى أجلها ما لم يبدر من الطرف الآخر ما يشير إلى الغدر أو النقض : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝﴾ (التوبة) .

وتستمر السورة بعد ذلك في بيان كيفية نبذ هذه العهود وما يترتب عليها، وفي بيان الأسباب وراء اتخاذ هذا القرار الخطير في تاريخ الإسلام : ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝﴾ (التوبة)

وقد بين السيد رشيد رضا الحكمة في ذلك بقوله : (ثبت بالتجربة لهم في حالي قوتهم وضعفهم أنهم لا عهود لهم، ولا يؤمن نقضهم وانتقاضهم، فلا يمكن للمسلمين أن يعيشوا معهم بحكم المعاهدات المرعية، مع بقائهم على شركهم الذي ليس له شرع يدان) [1].

---

(١) تفسير المنار، ١٠ / ١٥٠، السيد محمد رشيد رضا، ط ١، مطبعة المنار : مصر، ١٩٣١م

ولهذا تفصل السورة القول في نبذ هذه العهود إلى أن تصل إلى الحسم والتحديد في نبذ عهود المشركين وأهل الكتاب على السواء . قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ۝﴾ (التوبة) .

ج- مقابلة بين معظم ما في السورتين :

ونلمس ذلك في المقابلة بين سورتي (المؤمنون)، و (المنافقون) والتقابل بين السورتين هو تقابل بين معظم ما فيهما وليس التقابل الكلي كما سنراه فيما بعد . . .

وأوجه التقابل بين السورتين :

أولا : التقابل في الاسم ما بين (الإيمان والنفاق) .

ثانيا : التقابل في النزول، فسورة (المؤمنون [مكية]) وسورة (المنافقون [مدنية]) .

ثالثا : التقابل في الموضوعات التي تعالجها كلتا السورتين .

ففي معظم السورتين نجد حديثا صريحا مكشوفا عن صفات كل من المؤمنين والمنافقين ونرى تحديدا لمعالم شخصية كل منهما، ثم حديثا عن عاقبة كل فريق :

فالمؤمنون: يعاجل القرآن بوصفهم أولا بالفلاح: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝﴾ وهو هنا مسوق في المقدمة للبشارة والطمأنة، ثم تفصل السورة بعد ذلك القول في صفات هؤلاء المفلحين، وهي صفات تكشف عن طبيعة الإيمان وأثره في نفوس المؤمنين هذا الأثر الذي يشمل مختلف الجوانب للعلاقة السوية بين المؤمن وربه ومجتمعه وأسرته :

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾ (المؤمنون).

وبعد ذلك تأتي نتيجة التمسك بهذه الصفات النبيلة التي تمثل معلما من معالم الشخصية المؤمنة :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ (المؤمنون) .

أمــا المنافقون : فإن سورتهم تبادر بإبراز أهم معلم من معالم النفاق، وهو الظهور بوجهين : الحديث إلى النبي بوجه الإيمان وفي نفس الوقت إبطان الكفر والكذب :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ (المنافقون) .

وقـبل الاستطراد في تحديد ملامحهم تَصِمُهُمْ بسوء الأعمال : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ (المنافقون)

إنهـم بـتلك الأيمان المغلظة التي يحلفونها لتأكيد إيمانهم وصدقهم بينما هم يخفون الكفر، إنما يصدون الناس أو يصدون أنفسهم عن سبيل الله، فبئس هذا العمل وساء ما كانوا يعملون .

ثم تواصـل السورة بيان صفاتهم : إنهم ذوو أجسام فارعة تعجب الناظرين ما داموا في صمت، فإذا تحدثوا أظهر حديثهم أنهم خواء من كل معنى أو قيمة، كما أنهم جبناء تطـير قلـوبهم هلعـا وفـرَقًا من كل صيحة، متكبرون يَلْوُونَ رءوسهم صدا وعلوا وبالإضـافة إلى ذلك فهم مناعون للخير، محرضون على البخل بينما خزائن السموات والأرض كلها لله، ثم هم يستغلون الخلافات وينمونها، ظنا منهم أنهم هم الغالبون، وإنَّ العزةَ لله ولرسوله وللمؤمنين ولكنَّ المنافقين لا يفْقَهُون (الآيات ٤ – ٨) .

ثم تـستمر سـورة (المؤمنون) بعد ذلك – شأن السور المكية – في سوق دلائل الإيمـان في الأنفس والآفاق، وفي عرض قافلة الأنبياء عليهم السلام من نوح إلى محمد الخـاتم – إلى أن تنتهـي بعرض صورة من صور عاقبة التكذيب يوم القيامة، وتقرير التوحيد ووصم الكافرين بالخسران وعدم الفلاح .

أما (المنافقون) فلأنها من قصار السور نراها تلجأ — بعد تلك الحملة العنيفة على المنافقين — إلى تحذير المؤمنين من الأفعال التي يمكن أن تقربهم من صفات المنافقين .

وبالمقارنـة بـين الـسورتين نرى أن معظم ما في السورتين متقابل : إن المؤمنين أصـحاب منهج واضح وشخصية محددة لا لفَّ فيها أو دوران، ومن ثم كانوا الوارثين للفـردوس وكانوا المفلحين، بينما المنافقون مُتَلَوِّنُونَ تَلَوُّنَ الحِرْبَاء لا يثبتون على وجه واحد انتظارا وتربصا، آمنوا ثم كفروا فطبع الله على قلوبهم .

والمقابلـــة في هـــذا الباب مقابلة معانٍ وليست مقابلة ألفاظ، وفيها كما يذكر ابن الأثير: (باب عجيب الأمر يحتاج إلى فضل تأمل وزيادة نظر) [(1)]

د – مقابلة بين كل ما في السورتين :

وقـــد وجـــدت هذا التقابل في موضعين : الأول بين سورة الشمس وسورة الليل، والثاني أشار إليه أحد الواعظين – بين سورة الماعون وسورة الكوثر .

١– بين سورة الشمس وسورة الليل :

إن المـــتأمل في هـــاتين السورتين يبهره هذا التقابل التام بينهما ويمكن حصر وجوه التقابل بينهما فيما يأتي :

الوجه الأول : التقابل بين اسمي السورتين (الشمس والليل) .

الوجه الثاني : الـــتقابل بـــين القـــسم فيها : فالقسم في الشمس ﴿ والشَّمسِ وضُـــحَاهَا ﴾ يقابله في الليل ﴿ والليلِ إذا يغشَى ﴾ . وفي الشمس ﴿ والقمرِ إذا تَلاها ﴾ يقابَل في الليل ب ﴿ والنَّهارِ إذا تَجَلَّى ﴾ .

الوجه الثالث : التقابل بين المقسم عليه في كل منهما .

فالمقـــسم عليه في سورة (الشمس) أو جواب القسم: أن من زكّى نفسه وطهَّرها ونماهـــا وأعلاها فقد ربح وفاز، ومن سلك سبيل الشر وطاوع داعي الشهوة البهيمية ودسّـــى نفسه أي أنقصها وأخفاها، فقد خاب وخسر[(2)]. أي أن المقسم عليه هنا هو النفس من الداخل أو هو الإرادة والعزيمة الداخلية للإنسان: تقوى وتشتد فتزكو النفس وتسمو، وتضعف وتخور فَتَتَدَسَّى النفس وتَخْمُلُ وتلؤم وتصاب بالغواية والفساد .

أما المقسم عليه في سورة (الليل) فإنه السلوك الخارجي أو الفعل وهو مقابل تماما لـــما رأيناه في الشمس وهو النفس من الداخل إنه هنا السعي والحركة الظاهرية المترتبة على الإرادة .

فالذي طهر نفسه وزكاها من الداخل (في الشمس) أعطى واتقى وصدق بالحسنى في (الليل) فيسر الله له الأمور .

والذي دساها وأخملها هناك : بخل واستغنى وكذب بالحسنى هنا فضيق عليه .

إن المقسم عليه في سورة الشمس شيء لا تراه العيون، خفيٌّ في نفس الإنسان .

---

(١) المثل السائر ٢ / ٣٠١

(٢) تفسير (جزء عم) للأستاذ الإمام محمد عبده، ٤٧، ط كتاب الشعب .

أما المقسم عنيه في سورة الليل فهو السعي الظاهر الملموس . وهذا هو وجه التقابل بين المقسم عليه في كلتا السورتين .

الوجه الرابع: التقابل بين مثل الكفر ومثل الإيمان في السورتين .

وأعني به ذلك التقابل بين الصورة القبيحة لتكذيب ثمود وكفرها وعصيانها حين عقرت الناقة وخالفت ما أوصى به رسول الله (صالح) وبين الصورة الوضيئة المشرقة لمن يؤتي ماله يتزكى به وتتطهر نفسه وتنمو ابتغاء رحمة ربه الأعلى . ومن ثم كان التقابل أيضا بين نتيجة الكفر والتكذيب ﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴾، ونتيجة الإيمان والتطهر هي البعد عن النار ولهيبها وله بعد ذلك الرضا ﴿ ولسوف يرضى ﴾ .

وهكذا رأينا التقابل التام بين السورتين في المطلع والوسط والختام .

٢- بين سورة الماعون والكوثر :

وعلى الرغم من قصر السورتين، وقصر الكوثر عن الماعون، إلا أن الإمام البيضاوى ألمح إلى وجه التقابل بينهما وهو يفسر قوله تعالى في سورة الكوثر ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ حين قال : فَدُمْ على الصلاة خالصا لوجه الله خلاف الساهي عنها المرائي فيها، (وانحر) البُدْن التي هي خيار أموال العرب وتَصَدَّقْ على المحاويج خلافا لمن يَدُعُّهُمْ ويمنع عنهم الماعون فالسورة كالمقابلة للسورة المتقدمة .(1)

ثم وضح صاحب (درة الناصحين في الوعظ والإرشاد) نقلا عن شيخ زاده وجه المقابلة بين السورتين، بأن الله وصف المنافقين في سورة الماعون بأربعة أمور :

بالبخل : وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ ﴾

وبترك الصلاة : وهو المراد من قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ﴾.

وبالرياء في الصلاة : وهو المراد من قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ ﴾.

وبمنع الزكاة : وهو المراد من قوله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝ ﴾ .

فذكر في مقابلة ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ﴾ قوله ﴿ فَصَلِّ ﴾ .

وذكر في مقابلة ﴿ يُرَآءُونَ ﴾ قوله ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ أي خالصة لوجهه تعالى .

---

(1) أنظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي المتوفى ٧٩١هـ - ٥٧٨، ط ١، المطبعة البهية المصرية، ١٩٢٢م .

وذكـــر في مقابلـــة الـــبخل ومنع الزكاة والمعونة، قوله ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ لأن بذل خيار الأموال يقابل البخل، ثم إن صرفها على المحاويج يقابل الماعون .[1]

. . . . وهكـــذا ظهـــر لنا وجه التقابل بين السورتين، وهذا يدل على أن القرآن الكريم حافل بالأسرار البلاغية التي تنتظر من يكشف سترها ويجليها للناس فيقبلون على القرآن – علما وفهما وسلوكا – كما يقبلون عليه منهجا ودستورا .

ثانيا : مقابلات في السورة الواحدة :

وهـــي المقابلات التي تكون في داخل السورة، وتأتي بصور متعددة أيضا على النحو التالي :

أ – مقابلة بين مطلع السورة وختامها :

ومـــثل هـــذه المقـــابلات يتخذها القرآن عادة وسيلة للربط الفني بين أوائل السور وأواخـــرها ممـــا يوحى بالوحدة الفنية التي تلتزمها السورة على كثرة ما بداخلها من موضوعات .

وقد ورد التقابل بين مطلع السورة وختامها في موضعين هما :

١- سورة (المؤمنون) .

٢- وسورة (يوسف) .

ففي مطلع سورة (المؤمنون) يرد قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ ، وفي خـــتامها يـــرد قوله تعالى : ﴿ ..... إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ في سياق تقرير الخـــسران الأكبر لمن يشرك بالله ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ (المؤمـــنون)، ومـــن أجل ذلـــك يطلـــب الله من الرسول ومن المؤمنين التوجه بالدعاء طلبا للرحمة واستعاذة من الكفر ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (المؤمنون) .

وفي سورة يوسف عليه السلام يتقابل ما رآه سيدنا يوسف في المنام في مطلع السورة مع ما تحقق بالفعل في واقع الحياة . في أواخر السورة ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (يوسف)، هذه هى رؤيا يوسف، تقابلها الحقيقة في آخر السورة ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟

---

(١) أنظر (درة الناصحين في الوعظ والإرشاد) تأليف عثمان بن حسن بن أحمد الشاكر الخوبرى من علماء القرن الثالث عشر الهجرى، ص ٢٨٩ – ٢٩٠، ط الحلبى : القاهرة .

عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (يوسف) وقد سبق توضيح ذلك وتفصيله عند الحديث عن المقابلة في قصة يوسف عليه السلام .

ب- مقابلة بين مجموع السورة وآخر آيتين فيها :

وأعني بها ما ورد من مقابلة بين مجموع سورة (القمر) وبين آخر آيتين فيها .

فـإن الـسورة في مجموعها تُرَوِّعُنَا بجوٍّ الفزع والرعب الذي ينبعث من تصوير ما ينتظر المكذبين بالبعث، وتغشانا سحب الهول والدمار في موجات متلاحقة سريعة من مصارع المكذبين والمعاندين .

وإن استعراضـا سـريعا لبعض آيات السورة ليطلعنا على هذا الجو، ويلهبنا بتلك السياط .

قال تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ .

وقال : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ .

وفي تصوير مصارع المكذبين يغرقنا طوفان نوح ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ وتزلزلنا رياح عاد ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ وتصخ آذاننا صيحة ثمود ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ وتحصبنا حصباء لوط ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ ويؤخذ آل فرعون أخذ عزيز مقتدر .

وينتقل هذا الجو الرعيب إلى الكفار من أهل مكة والمكذبين بالبعث في مواجهة مباشرة مع العذاب في الدنيا والآخرة ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ

ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾.

وعندما تشرف السورة على الانتهاء، ينتهي هذا الجو العصيب المليء بالخوف والفزع والذي تتخلله مطارق منتظمة تشيع فيه روح القلق والتوتر ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ متكررة عقب كل موجة من موجات العذاب .

ثم ينتهي هذا المشهد الصاخب فإذا بآخر السورة يطل بمشهد آخر، ففي كلمات معدودة يذوب الرعب ويتوارى الخوف ويحل محله الأمن والسكينة : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾. (وهي صورة للنعيم بطرفيه : نعيم الحسّ والجوارح ونعيم القلب والروح في تعبير جامع شامل يلقي ظلال النعماء واليسر حتى في لفظه الناعم المنساب وليس لمجرد إيقاع الفاصلة تجئ كلمة ﴿نَهَرٍ﴾ بفتح الهاء، بل كذلك لإلقاء ظل اليسر والنعومة في جرس اللفظ وإيقاع التعبير[1]) . وهكذا يتقابل الأمن واليسر والسهولة في آخر السورة مع الكرب والفزع والدمار في مجموعها كطريق من طرق التعبير القرآني الفريد الذي يربي النفوس تارة بالعنف والترهيب وأخرى باللين والترغيب .

ج - مقابلة تشطر السورة شطرين متقابلين :

وهي تلك المقابلة العجيبة الواردة في سورة الحجر في قوله تعالى : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ (الحجر)، وليس وجه العجب هنا هو المقابلة بين الآيتين . وإنما العجب والروعة في أن هذه المقابلة تتوسط سورة الحجر فتشطرها شطرين متقابلين أيضا : الشطر الأول من السورة تكثر فيه الآيات المعبرة عن غفران الله ورحمته بعباده، والشطر الثاني المقابل تكثر فيه الآيات المعبرة عن العذاب الأليم وجدير بالذكر أن السورة تسع وتسعون آية وأن المقابلة واقعة في آيتي تسع وأربعين وخمسين : أي في منتصف السورة تماما .

ونزيد هذا الأمر إيضاحًا فنستعرض بعض جوانب الرحمة والغفران في الشطر الأول من السورة، ثم بعض جوانب العذاب الأليم في الشطر الثاني .

---

(١) في ظلال القرآن، ٦ / ٣٤٤٢ .

فمـــن مظاهـــر رحمة الله بعباده وبالخلق أجمعين في الشطر الأول من السورة حفظ القـــرآن الكريم من التغيير والتبديل على مر العصور في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر) .

وحفظ السماء من كل شيطان رجيم : ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (الحجر)، وبسط الأرض وتثبيتها بالجبال الرواسي كيلا تميد، وإنباتها من كل لون ونوع من النباتات بميزان حكيم يراعي احتياجات البشر والمخلوقات جميعها، وتصريف الناس والدواب في معايش هيأها الله لهم بقدر معلوم وتسخير الرياح للقيام بعملية تلقيح النباتات، وسوق المطر لسقيها، كل ذلك رحمة من الغفور الرحيم : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الحجر) .

ومن مظاهر الرحمة والمغفرة أيضا حفظ الله لعباده المخلصين من غواية الشيطان :

﴿ ... وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (الحجر) .

ثم يختتم الشطر الأول من السورة بما يناسب الشطر الأول من المقابلة وهو وعد الله للمتقين بالجنات والعيون والأمن والسلامة، وتطهير الصدور من أي آثار دنيوية، والاستقرار في هناء مقيم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الحجر) .

أمـــا الـــشطر الـــثاني من السورة فإنه يقابل الشطر الأول منها، لأن فيه الكثير من جوانب العذاب الأليم في الدنيا والآخرة .

ومن هذه الجوانب :

مـــا حـــل بقوم لوط عليه السلام نتيجة خروجهم عن الفطرة السوية جزاء عادلا لـــشذوذهم ودنـــسهم : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ

مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ (الحجر ٦٦)، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ (الحجر) .

وما حل بأصحاب الأيكة : (وهم قوم شعيب[1])، ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ [2](الحجر) .

ومثله ما أصاب أصحاب الحجر وهم قوم ثمود كما ذكر ابن كثير، حين خالفوا نبيهم وأعرضوا عن آيات الله : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ (الحجر) .

وكذلك تهديد المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين، وتخويفهم من مغبة السؤال عما كانوا يعملون في الدنيا حين تحالفوا على الكفر والتكذيب وجزَّءوا الكتاب المنزل عليهم فآمنوا ببعضه وكفروا بالبعض الآخر : ﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ أي النذير بعذاب يحل على المكذبين من قريش كما حل على السابقين : ﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ (الحجر) .

ونحن نرى أن كل هذا مناسب للشطر الثاني من المقابلة ﴿ وأنَّ عذابي هُو العذابُ الأليمُ ﴾، وبهذا العرض اتضح لنا أن شطرى السورة متقابلان تقابل آيتى : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾، ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على إحكام البناء الفنى في القرآن الكريم، وسمو هذا النسق التعبيرى على أى نسق آخر . وهذا من إعجاز القرآن الكريم .

د - سور كاملة يغلب على أسلوبها التقابل الجزئى :

وقد لمست هذا في سورتى الليل والرعد .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/٥٥٦ .

(٢) وإنهما لبإمام مبين : يعني أن قرى قوم لوط والأيكة بطريق واضح يأتمون به في أسفارهم (كلمات القرآن : ١٥٣) .

١- في سورة الليل :

تتميـــز سورة الليل بكثرة المقابلات بين آياتها، وقد أجملت الدكتورة بنت الشاطئ هذا التقابل والتفاوت بقولها : (أنه يبدأ باللّفْت إلى ما هو حسي مدرك في تفاوت ما بين غشية الليل وتجلي النهار، وخلْقَة الذكر والأنثى، توطئة إيضاحية لبيان تفاوت مماثل في ســـعي الـــناس : بين من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ومن بخل واستغنى وكذب بالحـــسنى، ثم تفـــاوت الثواب والعقاب في الأخرى : الأشقى الذي يصلى نارًا تلظّى، والأتقَى الذي يُجنَّبُها بما ابتغى وجه ربه الأعلى ولسوفَ يرْضَى)[1]

ونـــزيد هـــذا الأمر وضوحا وتفصيلا فنقول إن المقابلة في هذا السورة موجودة في القسم والمقسم عليه . وفي مثل الهدى والضلال وعاقبة كل نموذج .

إنها في القَسَم بالليل إذا يغشى الكون وما فيه، يقابل النهار حين يتجلى فيصبح كل ما في الأرض ظاهرًا واضحا (وهما آنان متقابلان في دورة الفلك ومتقابلان في الصورة . ومـــتقابلان في الخصائص . ومتقابلان في الآثار)[2] وفي القسَم بخلق الزوجين الذكر والأنثى، وهما متقابلان في كل شيء .

وفي المقسم عليه وهو اختلاف وتفاوت سعي الناس وسلوكهم وما يترتب على هذا السلوك المتقابل من نتائج وعواقب متقابلة أيضا : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝﴾ (الليل) .

إن ســـعي الناس مختلف ومتقابل في دوافعه وطريقه ونتيجته، فالمخاطبون جميعا من ذكـــر وأنثى ينقسمون إلى نموذجين متباينين أشد التباين، نموذج يعطي الجهد والنفس والمـــال وكـــل شـــئ ويتقي الله ويخشاه فيتبع أوامره ويجتنب نواهيه ويصدق بالعقيدة الحسنى، ولذلك يسره الله لليسرى والسهولة والنجاة .

وفي مقابل ذلك نجد النموذج الثاني يبخل بنفسه وماله وعرقه ويستغني عن هدى الله ونوره معتزا بما لديه من مال أو جاه ويكذب بالعقيدة وما يتبعها، لذلك - حين اختار هـــذا النموذج طريق الضلال بمحض إرادته وجد طريق الضلال والعسر والمشقة سهلا يسيرا .

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم، للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ١٠٣/٢، ط ٣ دار المعارف : مصر

(٢) في ظلال القرآن، ٦ / ٣٩٢١ .

أما نتيجة هذا السلوك المتقابل يوم القيامة، فإن الآيات تبينه في جو من التقابل يتلاءم مع مقدماته .

فإن من بخل واستغنى وكذب بالحسنى وسار في طريق العسرى ينذره الله نارا تلظى، يشقى فيها جزاء كذبه وتوليه عن الحق والهدى . ويقابل ذلك نجاة الأتقى الذي تزكى بماله ابتغاء وجه ربه الأعلى . . .

وهكـــذا رأيـــنا المقابلات تغلف جو السورة كلها، فكأن الله العزيز يقسم بمشاهد مـــتقابلة في الكـــون ومشاهد متقابلة في النفس الإنسانية على حقائق متقابلة في سلوك النـــاس وســـعيهم، ونـــتائج متقابلة مترتبة على هذا السلوك، ويتم ذلك كله في ربط وإحكام لا يتميز بهما في هذه الدقة والروعة سوى الأسلوب القرآني الفريد .

٢- في سورة الرعد :

سارت سورة الرعد كلها في أداء فني رائع أبرز عناصره هو المقابلة وحين نستعرض آيـــات هذه السورة يروعنا هذا التقابل بين مشاهد الطبيعة المحسوسة : الشمس والقمر والسموات والأرض، والليل والنهار والرواسي والأنهار، والنخيل صنوان وغير صنوان، والظلمـــات والنور، والزبد يذهب جفاء، والماء يمكث في الأرض لنفع الناس، والغدو والآصال .

والتقابل في الأشياء المعنوية بين السيئة والحسنة، والخوف والطمع والطوع والكره، والـــنفع والضر، والحق والباطل، والوفاء بالعهد ونقض الميثاق والسر والعلانية، والقطع والوصل، وبسط الرزق وقَدْره، والضلال والهدى والمحو والإثبات .

كمـــا تتقابل مشاهد النفس وحركات البشر مما يتصل بعلم الله وإحاطته بتلك المـــشاهد وهـــذه الحركات، كالتقابل بين غيض الأرحام وزيادتها والغيب والشهادة وإســـرار القول والجهر به، والاستخفاء بالليل والسَّرَب بالنهار والتقابل في تأثير دعوة الإيمـــان على النفوس، بين الداعي إلى الحق والداعي إلى الشرك ومن يستجيب ومن لا يستجيب؛ ومن يعلم أن القرآن حق ومن هو أعمى، وبين الله القائم على كل نفس بما كـــسبت ومـــا جعلوا له من شركاء، وبين الذين يفرحون بالكتاب المنزل إلى الرسول والذين ينكرون بعضه .

ومـــن هـــذه المقـــابلات الفنية البليغة بين جزئيات السورة يشع لون من الموسيقى المستماوجة الـــنغمات بـــين المعاني والألفاظ يشتد وقعها مع البرق والرعد والصواعق

والسـجود طوعا وكرها، ويهدأ مع الصابرين ابتغاء وجه ربهم والمنفقين سرا وعلانية، والـدارئين بالحـسنة السيئة، في صورة فريدة من التناسق البليغ لهذا النسق الراقي من التعبير القرآني الفريد .

ثالثا : نماذج أخرى متنوعة :

وهـذه طائفة من النماذج الفريدة للمقابلة في القرآن الكريم لا تندرج تحت عنوان معين ولهذا آثرنا الحديث عنها كنماذج متنوعة . ومن هذه النماذج :

١- مقابلة في النفس البشرية :

عـرض القرآن الكريم لظاهرة شائعة في نفوس البشر، تتصل بغريزة الإنسان ويظهر تأثيرهـا على قوله وفعله كلما دعا إلى ظهورها داع . . وتلك الظاهرة هي ما يعترى الإنـسان من كبر وغرور وإعراض عن الله في حالة الرخاء والنعمى وما يقابل ذلك في وقت الشدة والضيق من إقبال على الله ولجوء إليه واستعانة به .

وهمـا خطـان متقابلان في النفس الإنسانية تقابل الشدة والرخاء والعسر واليسر، والقـرآن الكـريم حين يعرض لهذين الخطين المتقابلين في نفس الإنسان إنما يحاول أن يهـذب من انحرافها ويصلح من فسادها دون تصادم مع الفطرة والغريزة والآيات التي تعبر عن هذا التقابل، وتحاول تقويم الإنسان من خلاله كثيرة في القرآن الكريم . . . .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الزمر) . أعقبت هذه الآية بآيتين أخريين تحاولان تهذيب هذا السلوك عن طريق تهديد الإنسان بعذاب قد يصيبه مثلما أصاب من ساروا في هذا الدرب الخاطئ :

﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (الزمر) .

ومثل هذه الآيات كثيرة في القرآن الكريم ومنها قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ (الإسراء)

فالمقابلة هنا ترد في صورة ملموسة لكل البشر بين حالة الإنسان عطبت به السفينة أو طغـى علـيها موج البحر فمسه الضر مسا خفيفا، فلم يجد من يستعين به إلا الله، وحالته حين نجاه الله إلى البر معرضا ناسيا كفورا . . .

ولأن هـــذا ســـلوك شائن في نفس الإنسان، فإن القرآن يعمد إلى تضخيمه وتنويع الإيقاع عليه، ثم يلجأ إلى تهذيبه والحد منه، فالآيات عقب هذا تهديد بخسف جانب البر حـــتى تنداح فيه مياه البحر، كما تهدد بإرسال قاصف من الريح في رحلة أخرى يغرق فيها هؤلاء الجاحدين :

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (الإسراء) .

وللاطـــلاع علـــى المـــزيد من مثل تلك الآيات يرجع إليها في مواضعها في القرآن الكريم[1] .

٢ – مقابلة ثلاثية :

عهـــدنا في المقابلات السابقة في هذا البحث أن تكون بين طرفين اثنين: لفظين أو مـــوقفين . . ولكـــن القـــرآن الكريم الذي لا تنقضي غرائبة يطلعنا على العجيب من الأســـاليب البلاغية التي لا يرقى إليها البشر . . ها هنا مقابلة بثلاثة أطراف وردت في قوله تعالى :

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الروم) .

إنها مقابلة ثلاثية ذات حد وسط وطرفين :

والحـــد الوسط هنا هو القوة، يقابلها الطرف الأول والثالث وهو الضعف (ضعف – قوة – ضعف) .

والآيـــة تتحدث عن قدرة الله في خلق الإنسان وأطوار حياته، فكأن القوة هنا هي الخط البياني الصاعد في حياة الإنسان هذا الخط الذي يمثل حدًّا وسطا لمقابلتين : الأولى بين الضعف والقوة، والثانية بين القوة والضعف، ولكنها في الأولى تمثل الضعف المتدرج الـــصاعد نحـــو القوة، ذلك الضعف المادى والنفسى منذ أن يبدأ الإنسان نطفة فعلقة فمضغة فعظاما ولحما، ثم يولد طفلا ويتدرج إلى الصبا والشباب إلى أن يصل إلى أقصى

---

(١) وردت هذه الآيات في سورة (الزمر : ٨ – ٩)، (الإسراء : ٨٣)، (فصلت : ٤٩، ٥٠ – ٥١)، (الحج : ١١)، (الفجر : ١٥ – ١٦)، (الروم : ٣٣، ٣٦ – ٣٧) .

مراحل القوة وفي المقابلة الثانية التي بين القوة والضعف، يظهر لنا هذا الخط البياني وقد بدأ في النزول والانحدار إلى مظاهر الضعف الجسدية والنفسية . . .

وبهـــذه المقابلـــة بين الماضي والحاضر والمستقبل، أو بين الصبا والشباب والكهولة، تتـــضح صـــورة الحـــياة للإنسان، وتتمثل أطوارها أمام ناظريه، فيحاول أن يأخذ من المراحل الأولى في حياته زادا ورصيدا ينتفع به في المراحل التالية .

وعلى هذا النمط من المقابلة الثلاثية يمكن اعتبار المقابلة في قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ مقابلة ثلاثية أيضا ذات حد وسط هو (يميتكم) وطرفين أولا هو (يحييكم) وثالثا هو (يجمعكم إلى يوم القيامة) .

وهـــذه المقابلة تأتي ردا على منكرى البعث الذين يطلبون من الرسول إحياء آبائهم في الدنيا بعدما ماتوا : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ (الجاثية) .

لتبين لهم أن الإحياء مرة أخرى في الدنيا لا داعي له، إنما سيكون ذلك يوم القيامة، وإذا كان الغرض من طلبهم هو إثبات قدرة الله على البعث، فلينظروا إلى قدرة الله على الإحياء والإماته في كل لحظه من لحظات الحياة .

٣- مقابلة رباعية :

بـــين أربعة طوائف أو مواقف، لكل فريق موقف يقابل أو يناظر الفريق الآخر . . وأعـــنى بهـــا تلك المقابلة الواردة في سورة الأحزاب والتي تصور مواقف الأطراف التي اشتركت في غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق .

والأطراف الأربعة هم :

(١) الكفار (الأحزاب) .

(٢) المؤمنون .

(٣) المنافقون .

(٤) اليهود .

ولكـــل طرف موقف مقابل أو مناظر للطرف الآخر، من بداية المعركة إلى نهايتها، وقد صورت الآيات[١] هذه المواقف ونتيجة كل موقف من قوله تعالى في الآية العاشرة من السورة :

---

(١) الأحزاب : ١٠ – ٢٧ .

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾ [١٠] .

إلى قوله تعالى في الآية السابعة والعشرين: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [٢٧] .

١- فالكفار : أو الأحزاب تقاطروا على المدينة بدافع الثأر والانتقام مما حل بهم من هزائم سابقة، وهذا الفريق كان من الكثرة والرهبة والاستعداد بحيث أطبق على المدينة مـــن أعلى الوادي ومن أسفله ﴿ إذ جَاءُوكُم من فَوْقِكم ومن أسفلَ منكم ﴾ وبحيث بـــث الرعب والفزع والهلع في قلوب المؤمنين فزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظُن بالله الظنون، كان موقف الكفار اذن هو التجمع الحزبي من جميع القبائل للإجهاز على الدعوة في المدينة .

٢- أمـــا المؤمنون : فقد صورت الآيات موقفهم أثناء المعركة تصويرا رائعا : إنهم في البداية :

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ لكنهم سرعان ما اتخذوا من شعورهم بالزلزلة سببا في انتظار النصر، ذلك أنهم صدقوا قول الله تعالى من قبل: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (البقرة) وهاهم أولاء يزلزلون، فنصر الله اذن قريب ومن ثم قالوا: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾[1]

٣- والفريق الثالث : هم المنافقون :

أصابهم الزلزال فلم يثبتوا له، وفاجأهم الهول فكشف عن زيف إيمانهم وكشأن المنافقين في جميع الأحوال، انطلقوا يرجفون ويثبطون : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ ثم شرعوا يبثون روح الهزيمة بين الصفوف

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ

---

(١) انظر في ظلال القرآن، ٢٨٤٣/٥

فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وهم إذ يبدون حرصهم على الدفاع عن عورات بيوتهم المزعومة في المدينة، جبناء مستسلمون ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ .

ويستمر القرآن في رسم صورة مزرية لموقف المنافقين ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ وهو: (تصوير لما يحدثه الخوف من تغيير في ملامحهم حيث تدور أعينهم في محاجرها شاخصة في ذهول محملقة لا تكاد تبصر، وحين يذهب الخوف تراهم وقد حل الادعاء الكاذب فيهم محل الخوف والاضطراب وطالت ألسنتهم السليطة على المسلمين)[1]

٤- وأما اليهود :

فهم الذين ظاهروا الكفار والمنافقين وساعدوهم بالمال، نقضت قريظة ما كان بينها وبين رسول الله من العهد وكان ذلك بسفارة حيي بن أخطب النضرى أثناء الغزوة، وحرض بنوالنضير قريشا على حرب النبي ووعدوهم النصر والإعانة .[2]

هذه هي المواقف المتقابلة أو المتناظرة أثناء الغزوة .

موقف الكفار ضد موقف المؤمنين؛ لأن الكفار معتدون والمؤمنين معتدى عليهم .

موقف المؤمنين ضد موقف المنافقين، لأنه الصلابة والعزيمة ضد الذبذبة والتخذيل والتخاذل .

وموقف المؤمنين مضاد لموقف اليهود .

ثم يتناظر موقف الكفار مع موقف المنافقين وكذلك مع موقف اليهود، حيث يلتقي الجميع على هدف واحد، وإن اختلفت الوسائل . . .

ثم تأتي المقابلة في نتائج هذه المواقف كما تصورها الآيات :

فالكفار : أو الأحزاب ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ .

---

(١) تفسير سورة الأحزاب، دكتور مصطفى زيد، ٦٨، ط ١، دار الفكر العربي : القاهرة، ١٩٦٧

(٢) تفسير ابن كثير، ٣ / ٤٧٠ .

والمؤمنــــون : ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

والمنافقون : تــولت الآيات فضحهم وكشفت خداعهم وأظهرت مدى جبنهم وتناقضهم (١٣ – ٢٠) .

واليهود : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾.

والـــذي أريد أن أسجله هنا : هو أن هذه المقابلة الرباعية هي مقابلة مواقف كلية بالدرجة الأولى بين هذه الأطراف، ومع ذلك فإن في داخل هذه المقابلة الرباعية الشاملة توجد عدة مقابلات جزئية تكون أو تساهم في إبراز هذه المواقف المتقابلة . . .

ومن ذلك :

١– المقابلــة بين ﴿ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ...﴾، وهي تصور مدى إطبــاق الأعــداء من كل جانب على المدينة، هذا الإطباق الذي ضغط على أطرافها فضغط معه على صدور المسلمين، فضاقت حتى بلغت القلوب الحناجر .

٢– المقابلــة بين ما قاله المنافقون وضعاف القلوب في تلك المحنه، وما قاله المؤمنون الصادقون :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ، ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ . وهي مقابلة تصور البون الشاسع بين الخوف والثقة، وبين التزعزع والثبات.

٣– مقابلـــة بين من ﴿ .. وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ فنقـــضوا العهد وفروا و لم ينفعهم الفرار من الموت أو القـــتل وبـــين ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ وهـــي مقابلة تصور مدى التزام المؤمنين بالعهود التي يقطعونها على أنفسهم، ونقض المنافقين ومرضى القلوب للعهود .

٤– مقابلة بين طرف صريح وآخر ضمني :

وهذا النوع من المقابلات القرآنية ألمح الزمخشري إليه وهو يفسر قوله تعالى :

﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الأحزاب)
فالمقابلة هنا بين ما أعده الله للكافرين من عذاب أليم وما أعده للصادقين من ثواب عظيم .

ذكر الزمخشري أن الطرف الأول من المقابلة قد فهم مما دل عليه قوله تعالى : ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ .... ﴾ (1) .

ويضيف إلى ذلك أن سؤال الصادقين عن صدق عقيدتهم وقوة إيمانهم يوم القيامة أمام الملأ إنما يمثل تكريما لهم يستحقون عليه الثواب العظيم في مقابل ما أعد لمن كذبوا وكفروا من العذاب الأليم .

ومثل هذه المقابلة قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّـٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (الشورى) .

فالمقابلة هنا بين طرف صريح هو (الظالمون) وآخر ضمني لم يصرح به ولكن يفهم من قوله تعالى : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ وهذا الطرف هو (المؤمنون) لأن الله وليهم ونصيرهم .

وعلى غرار ذلك تأتي المقابلة بين (مسّ الشيطان الذي يعمي ويغشي العيون) و(تذكر الله الذي يبصّر ويهدي) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف)، فالطرف الأول من المقابلة وهو العمي من مس الشيطان، ضمني لم يصرح به وفهم من المقابل وهو ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ .

رابعا : خصائص المقابلة في القرآن الكريم :

نستطيع من خلال ما عرضناه من مقابلات قرآنية – أن نضع لها ملامح عامة تميزها عن المقابلة التي ألفناها في كلام البلغاء والمفسرين ومن ثم يستبين لنا الفرق بين تصورهم للمقابلة وبين واقعها في القرآن الكريم .

ومن هذه الملامح والخصائص :

١ – أن المقابلة القرآنية ذات مفهوم متسع يضم في أعطافه كثيرا من الألوان البديعية القريبة من معنى التقابل كالطباق والتناسب والعكس والتبديل والتقسيم واللف والنشر.

---

(1) الكشاف للزمخشري، ٣ / ٢٥٣

٢- أن المقابلـــة في القـــرآن الكـــريم، لا تتسم بالتفرد والانعزال، بل هي متداخلة ومترابطة في تركيب بديع مع ما يسبقها أو يلحقها من مقابلات أخرى، مكونة سلسلة من المقابلات يسلم بعضها إلى بعض، فتتأكد الوحدة العضوية في داخل المشهد الواحد.

خذ مثلا : تلك المقابلات المتداخلة في أول سورة الأنعام في قوله تعالى :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝﴾ (الأنعام) .

فقـــد بينا في موضعها من هذا البحث[1] أن المقابلات المتعددة منها لا تنفصل عن بعضها .

فالمقابلـــة بين السموات والأرض مع المقابلة بين الظلمات والنور، إذا اعتبرنا ما في السموات من مصادر للضياء والنور، وما في الأرض من عتمة الطين وظلماتها .

ثم المقابلـــة بـــين الطين والخلق، وبين الموت والبعث، وما بين المقابلتين من تناسب وارتـــباط، لأن كليهما إحياء من عدم، ثم ما بين الأخريين وما سبقهما من الظلمات والنور، إذا رمزنا بالطين والموت إلى الظلمات وبالخلق والبعث إلى النور ثم ما بين خلق الكون ممثلا في (السموات والأرض) وخلق النفس ممثلا في (خلقكم من طين) وقد رأينا هذا التداخل والترابط فيها أوردناه للزركشي من مقابلات متعددة يستنبطها ذوو الخبرة والتأمل من آية واحدة .[2]

٣- أنها قد تأتي في القرآن الكريم ضمنيه تفهم من سياق الكلام ولا يصرح بشئ من طرفيها المتقابلين، كتلك المقابلة بين الزمان والمكان المفهومة ضمنا من قوله تعالى :

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾ (الأنعام)، فبين الآيتين تقابل ضمني بين هيمنة الله وسيطرته على المكان ممثلا في السموات والأرض وسيطرته على الزمان ممثلا في ﴿ ما سكن في الليل والنهار ﴾ ومعنى

(١) انظر ص (١٦٩) من هذا البحث .
(٢) انظر ص (١١٩) من هذا البحث .

ذلك أن المقابلة القرآنية لا تقتصر على مجرد التقابل بين الألفاظ، بل تتسع وتمتد لتشمل المقابلات الضمنية المفهومة بين آية وآية .

وقد تأتي بطرف ضمني وآخر صريح كما رأينا[1]

٤- أنها قد تكون مقابلات حقيقية وقد تكون مقابلات مجازية . . فمما ورد بالألفاظ الحقيقية دون تأويل، تلك المقابلة بين الحياة والموت، وبين الأنعام والأناسي، وبين الماء العذب والماء الملح الأجاج في قوله تعالى : ﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ (الفرقان)، ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ (الفرقان) .

ومما ورد بألفاظ مجازية قوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (الأنعام)، فالمعنى المقصود هنا (ضالا فهديناه) .

٥- أنها قد تأتي بلفظ واحد أو صفة واحدة في مقابل ألفاظ أو صفات متعددة ويكون ذلك غالبا إذا كان في هذا اللفظ غناء وكفاية، كمقابلة لفظ (المفلحون) بـ (الخسران واللفح والكلوحة والتبكيت) في قوله تعالى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (المؤمنون)،

فالفلاح هنا يقابل كل هذه الأشياء، ربما لأن في الفلاح على صغر لفظه كل ما يريد الإنسان من الفوز والنجاة . ومعنى ذلك أنها في القرآن، لا تشترط التماثل العددي بين الأطراف[2].

٦- أن السمة الغالبة على المقابلات القرآنية أنها مقابلات مواقف كلية . وهي سمة تكاد تطرد في مشاهد القيامة – على الأخص، ويكفي للتدليل على ذلك أن نعود

---

(١) انظر ص (٣٥٩) من هذا البحث .

(٢) انظر مقابلة أربعة بثمانية في سورة الرعد (٢٠ – ٢٥) وشرحها في هذا البحث ص (١٢٦) من الباب الثاني .

لقـــراءة أى مـــشهد مـــن هذه المشاهد، فنجد أن المقابلة فيه توضح موقف الفريقين وجـــزاءهما بـــصورة قد تمتد لتشمل صفحة كاملة من آيات القرآن الكريم وقليل من الباحـــثين هم الذين فطنوا إلى أن في مقابلة المعاني والمواقف بابا عظيما يحتاج إلى فضل تأمل كابن الأثير والزركشي[1] ومن قبلهما أشار الزمخشري إلى أن المطابيع لا يراعون الطـــباق والملاحظة إلا في المعاني[2] ولكنهم لم يتجاوزا ذلك القول إلى الناحية التطبيقية وقصروها على التقابل في الفواصل القرآنية .

٧- وأنه في داخل الموقف الكلي والصورة الشاملة للمقابلة، تلعب المقابلات الجزئية دور اللُّحْمَـــة والسَّدَى لهذا الموقف أو ذاك، ومن شأن هذه المقابلات الجزئية في داخل الإطـــار العام أن تعطيه التماسك والحيوية، وأن تضفى عليه لمسة الجمال الفني والتأثير المطلـــوب نلمس ذلك في المقابلات الجزئية بين إعطاء الكتاب للمؤمن باليمين وإعطائه للكافر من وراء ظهره، وبين الحساب اليسير والسرور وما يقابله من العسر المؤدى إلى الهلاك والسعير، وبين سرور الكافر في الدنيا وشقائه في الآخرة، وشقاء المؤمن وكدحه في الدنـــيا وســـروره في الآخرة . . كل ذلك في إطار الموقف الكلي لأصحاب اليمين وأصحاب الشمال في قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝﴾ (الإنشقاق) .

٨- أن القـــرآن الكـــريم لا يلتزم بالترتيب في المقابلة فقد عهدنا في الشعر غالبا أن الصفة الاولى أو اللفظ الأول يقابل بالأول والثاني بالثاني وهكذا .

كما في قول المتنبي المشهور :

أَزُورُهم وسَوادُ الليلِ يَشفَع لِى ... وأَنْثَنِى وبَياضُ الصُّبحِ يغْرِىَ بِى

أمـــا القرآن فإنه أحيانا يلتزم بهذا الترتيب كما في آية الليل المشهورة ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝﴾.

وأحيانا لا يلتزم هذا الترتيب كالمقابلة بين المؤمنين والمنافقين في السلوك والمصير في قوله تعالى :

---

(١) انظر المثل السائر لابن الأثير، ٢ / ٣٠١، والبرهان في علوم القرآن للزركشي، ٣ / ٤٦٣ .
(٢) الكشاف للزمخشري، ٤ / ١٤٥ .

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (التوبة) .

فالصفات الأربع في المؤمنين تقابل بأربع في المنافقين بدون ترتيب وهى :

صفات المؤمنين	صفات المنافقين
(١) الأمر بالمعروف	(١) الأمر بالمنكر
(٢) والنهى عن المنكر	(٢) والنهى عن المعروف
(٣) وإقامة الصلاة	(٣) وقبض الأيدى
(٤) وإيتاء الزكاة	(٤) ونسيان الله

والمتأمل في هـذه الصفات يرى أن الصفة الثالثة من صفات المؤمنين وهى إقامة الصلاة بمعنى التذكر الدائم له إنما تقابل بالصفة الرابعة للمنافقين وهى نسيان الله، والرابعة في صفات المؤمنين وهى إيتاء الزكاة تقابل بالثالثة في صفات المنافقين وهى قبض الأيدى، وربما يرجع ذلك إلى بلاغة التقديم والتأخير وقد أشار حازم القرطاجنى في المنهاج إلى أنه (ليس يشترط تحاذى عبارتي المعنيين المتقابلين في طرفى الكلام في الرتبة . . . . . وأنشد فيما لم تتحاذ فيه عبارتا المعنيين المتقابلين :

أَسَرْناهم وأنعَمْنا عليهم . . وسَقَّينا دماءَهم الترابا

فَمَا صَبَرُوا لِبَأسٍ عند حَرب . .ولا أدَّوا لِحُسْنٍ يَدٍ ثوابا

فقابـل مـا في صدر البيت الأول بما في عجز الثاني، وما في عجز الأول بما في صدر الثاني [(١)].

ولكـن ينقص حازما وغيره أنهم لم يفطنوا إلى وجود مثل هذا النوع من المقابلات في القرآن الكريم. ولذا لم يستشهدوا له إلا بالشعر .

٩- وقد تأتى المقابلة بين طرفين مقابل طرف واحد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ .... ﴿٦٤﴾ ﴾ (المائدة : ٦٤)، وذلك لأن الموقف البلاغى يقتضى مقابلة اثنين بواحد .

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنى، ص ٥٣ .

فالطرف الأول هنا قول اليهود إن يد الله مغلولة .

ولشناعة التهمة وعظم جرمها، فقد نفى الله قولهم هذا حين قابلة بشئين :

الأول : الدعاء عليهم بغل أيديهم

الثاني : تقرير أن يديه مبسوطتان

١٠- وقف البلاغيون عند حد مقابلة خمسة ألفاظ بخمسة في بيت أبي الطيب المشهور

أَزُورُهم وسَوادُ الليلِ يَشفَعُ لِي   وأَنْثَنِي وبَياضُ الصُّبحِ يغْرِيَ بِي

ولكنا وجدنا الزركشي في البرهان قد وضع يده على مقابلة خمسة بخمسة وسته بسته في القرآن الكريم [1].

١١- أن المقابلة في آية واحدة قصيرة مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (الجن : ١٠) . قد يتفرع عنها مقابلات أخرى بالنقيض أو النظير أو الخلاف كما رأينا أيضا عند الزركشي[2].

١٢- أن القرآن الكريم حافل بالمقابلات المتميزة عن غيرها بين السور وبعضها أو في داخل السورة الواحدة، كما رأينا في الفصل الأخير من هذا البحث .

١٣- أن المقابلة في أسلوب القرآن المكي تختلف عنها في المدني، وقد أوضحنا أن السر في ذلك إنما يرجع - ضمن ما يرجع - إلى تطورات الدعوة الإسلامية وظروف البشر واستعدادهم .

١٤- أن المقابلة في القصص القرآني ترتكز على تجسيد عنصر الصراع وإبراز التفاوت النفسي والعقلي بين الشخوص .

١٥- وأنها قد تأتي لبيان التقابل بين صورة وصورة أو أكثر من ذلك كما رأينا عند سيد قطب في صورتي البث والجمع في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾(الشورى) فصورة البث والجمع يلتقيان في سطر واحد بينما الخيال نفسه يكاد يستغرق مدى أطول في تصورهما واحدة بعد الأخرى[3]، وقد فصلنا هذا في موضعه من البحث [4]

---

(١) انظر ص (١٢٤) من هذا البحث .

(٢) انظر ص (١١٧) من هذا البحث .

(٣) التصوير الفني، ٧٥

(٤) أنظر ص (١٣١) من هذا البحث .

١٦- وأخــيرا - وهو الأهم - أن أسلوب المقابلة لم يتخلف عن مصاحبة القرآن الكــريم بأجمعــه، فلا تكاد صفحة من صفحات المصحف الشريف تخلو من وجودها سواء بالتضاد أو التناسب أو الخلاف أو ما يدور في فلكها من ألوان بديعية أخرى، فلا بدع أن نقول مع الزركشي إن القرآن كله وارد على أسلوب المقابلة، وأنها تمتد لتشمل الكائنات والزمانيات والوسائط الروحانيات والأوائل الالهيات(١) .

وكأن هذه الثنائية الضدية التي تنتظم العالم كله - كما أشرت من قبل - دليل على أن الله وحده هو المتره عن الشريك والضد والنظير .

---

(١) أنظر ص (١٢٢) من هذا البحث .

الخاتمة

رأينا في هذا البحث كيف ارتبط مفهوم المقابلة بالطباق، واشتركا في معنى التضاد والمواجهة، كما اشتركا في المساواة بين الشيئين أو في مراعاة النظير والتماثل بين الشيئين، وكيف خلط علماء البلاغة بين الطباق والمقابلة والتجنيس والعكس والتبديل. وكان هذا دافعا لنا إلى بحث موضوع المقابلة في القرآن الكريم من خلال رؤية أشمل وأعم من المصطلحات المحددة والتعريفات الضيقة.

من ثم خرجت هذه الدراسة بمجموعة من النتائج نذكر منها :

١- تتبع البحث مفهوم المقابلة والطباق وبعض الألوان البديعية القريبة منهما منذ القرن الثاني الهجري وحتى القرن الثامن، ووضع بين يدي القارئ العربي آراء مجموعة ضخمة من اللغويين والنقاد والبلاغيين حول هذا الفن وما يشترك معه من قريب في معنى التقابل، وتوصل إلى أن الأفضل هو ضم هذه الألوان جميعها تحت اسم المقابلة.

٢- اطمأن البحث إلى ما ارتآه بعض علمائنا الأفاضل من أن الطباق والمقابلة من الأصالة العربية بمكان وليسا من تأثير الفكر اليوناني، وإن لم ينكر عنصر التأثير والتأثير بين الآداب المختلفة.

٣- أكد البحث أن المقابلة ومعظم ألوان البديع. لا يمكن فصلها عن عناصر الأسلوب، وعاب تمزيق البلاغة إلى معان وبيان وبديع، واستنكر النظر إلى البديع على أنه تابع وذيل للمعاني، يجلب للزينة والتحسين فقط.

٤- أنكر البحث على الباقلاني استبعاده البديع من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم بحجة أنه مقدور عليه بالتدريب والتعود، وأثبت وأيد القول بالإعجاز القرآني عن طريق ما فيه من البديع وغيره، وأنه معجز جملة وتفصيلا.

٥- أشاد البحث ببعض العلماء الذين نظروا إلى المقابلة نظرة واسعة واهتموا بمقابلة المعاني والمواقف كالزمخشري وابن رشيق وغيرهما لأنهم بذلك يقتربون بالفعل — من مفهوم المقابلة القرآنية كما بحثناه.

كما حمد لكل الدارسين اعتمادهم على القرآن الكريم في الاستشهاد لآرائهم في المقابلة وغيرها.

٦- أخذ البحث على غالبية العلماء تداخل المصطلحات، وعدم تحديدها وخلطهم بـين شواهد بعض الألوان القريبة من المقابلة كالعكس والتبديل واللف والنشر، واتخذ من هذا التداخل عندهم سندا لتوحيد هذه الألوان في القرآن الكريم وضمها تحت اسم المقابلة القرآنية.

٧- وفي الجانـب التطبيقي من البحث، أثبت الباحث أن أسلوب المقابلة لم يتخلف عـن ركب القرآن الكريم في جميع المواقف والمشاهد والصور تقريبا وذلك حين عرض البحث نماذج كثيرة من المقابلات القرآنية في سائر السور.

٨- حرص الباحث على تحليل هذه المقابلات وعرضها بأسلوب واضح مظهرا وجه الـتقابل فـيها والمغـزى البلاغي لإيثار القرآن الكريم التعبير عن هذا الموقف أو ذاك بأسـلوب المقابلـة وهو كونها طريقا من طرق الوضوح والقوة والجمال في الأسلوب القرآني عامة، بالإضافة إلى أثرها الخاص في كل موقف.

٩- بين البحث أهمية المقابلة في القصص والأمثال القرآنية والدور الذي أداه أسلوب المقابلة فيهما، وهو تجسيد الصراع في القصص واستخلاص العبرة من المثل.

١٠- اهتم البحث بعقد عدة مقارنات بين أسلوب المقابلة في القرآن المكي والمدني مبيـنا الفـرق بينهما سواء في الطبيعة العامة لكل منهما، أو في تناولهما لموقف معين مـرجعا هـذا الفـرق إلى طبيعة الدعوة الإسلامية وتطورها، وظروف المجتمع المكي والمدني.

١١- كما اهتم أيضا بعقد مثل هذه المقارنة بين تناول الشعر لفكرة معينة بأسلوب المقابلة، وتناول القرآن لنفس الفكرة، ليظهر مقدار السمو والرفعة في التعبيرالقرآني .

١٢- اسـتخلص الـبحث من القرآن الكريم طائفة من المقابلات المتميزة والفريدة وأفرد لها فصلا خاصا بها، وهي مقابلات لم يعرض لمعظمها أحد من السابقين على حد علمنا وهي تدل على إعجاز القرآن الكريم وسمو بلاغته.

١٣- انفرد البحث - أيضا - ببيان السمات والخصائص التي تميز المقابلات القرآنية عن غيرها، وبها يظهر مقدار التفاوت بين تقعيد البلغاء والأدباء للمقابلة وبين واقعها في القـرآن الكريم مما يجعلنا ندعو إلى المزيد من الدراسات والبحوث التي تستجلي عظمة القرآن وأسراره البلاغية والتي تعين على فهم القرآن وتذوقه. وتدفع إلى العمل بما فيه.

وفي النهاية أحب أن أقول إن في صحبة القرآن الكريم متعة لا تعدلها متع الدنيا بأسرها، فإن أكن قد وفقت في تقديم المقابلة القرآنية تقديما يرضى عنه الله ورسوله، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء؛ وإن تكن الأخرى فحسبي ما شعرت به من السعادة والمتعة في مصاحبة القرآن الكريم، وعلى الله قصد السبيل.

د. كمال عبد العزيز

المراجع

مراجع البحث ترتيبا هجائيا

أولا : القرآن الكريم .

ثانيا :

١- ابن أبي الأصبع المصري بين علماء البلاغة، الدكتور حفني محمد شرف، ط ١، مكتبة نهضة مصر
٢- ابن قتيبة، الدكتور محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر .
٣- ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، محمد عبد المنعم خفاجي، ط ٢، دار العهد الجديد للطباعة، القاهرة، ١٩٥٨م .
٤- أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، الدكتور محمد زغلول سلام، ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م .
٥- أسباب النزول، النيسابوري (الإمام أبو الحسن على بن أحمد الواحدى)، ط : عالم الكتب، بيروت .
٦- أسرار البلاغة في علم البيان، الإمام عبد القاهر الجرجاني، تعليق الأستاذ محمد عبد العزيز النجار، ط : صبيح، القاهرة، ١٩٧٣م .
٧- الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب العربية، الأستاذ أحمد الشايب، ط ٦، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٩٦٦م .
٨- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، الجرجاني (أحمد بن على بن محمد)، تحقيق : الدكتور عبد القادر حسين، ط : دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٨١م .
٩- الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان البلخي، تحقيق : الدكتور عبد الله شحاته، ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م .
١٠- الأضداد في اللغة، محمد بن القاسم بن بشار الأنباري النحوي، ط : المطبعة الحسينية، القاهرة .
١١- الأطول (شرح تلخيص المفتاح)، عصام الدين بن عربشاه الإسفراييني، المطبعة العامرة، القاهرة، ١٢٨٤هـ .
١٢- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الازرق، الدكتورة بنت الشاطئ، ط : دار المعارف، مصر .
١٣- إعجاز القرآن، الباقلاني (أبو بكر بن الطيب)، تحقيق : السيد أحمد صقر، ط ٤، دار المعارف، مصر .

١٤ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ط ٦، القاهرة، ١٩٥٦م .
١٥ـ الأعلام، خير الدين الزركلي، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠هـ .
١٦ـ الأمثال من الكتاب والسنة، الحكيم الترمذي (أبو عبد الله محمد بن علي)، تحقيق : علي محمد بجاوي، ط : نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٥م .
١٧ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، الإمام البيضاوي، ط ١، المطبعة البهية المصرية، ١٩٢٢م .
١٨ـ الايضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ط : صبيح، القاهرة، ١٩٧١م .
١٩ـ البديع، ابن المعتز العباسي، شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي، ط ٢، دار العهد الجديد للطباعة، القاهرة، ١٩٥٨م (ملحق بالكتاب رقم ٣ من هذا الثبت) .
٢٠ـ البديع في ضوء أساليب القرآن، الدكتور عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م .
٢١ـ بديع القرآن، ابن أبي الاصبع المصري العدواني، تحقيق : الدكتور حفني محمد شرف، ط ٢، دار نهضة، مصر، ١٩٥٧م .
٢٢ـ البرهان في علوم القرآن (٤ أجزاء)، الزركشي (الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله ابن بهادر)، تحقيق : محمد ابو الفضل إبراهيم، ط ١، الحلبي، مصر، ١٩٧٥م .
٢٣ـ البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب، تحقيق : الدكتور حفني شرف، ط : مكتبة الشباب، القاهرة .
٢٤ـ بغية الايضاح، عبد المتعال الصعيدي، ط ٦، مكتبة الآداب ومطبعتها، مصر .
٢٥ـ بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، الدكتور إبراهيم سلامة، ط ٢، الانجلو المصرية .
٢٦ـ البلاغة تطور وتاريخ، الدكتور شوقي ضيف، ط ٢، دار المعارف .
٢٧ـ بلاغة العطف في القرآن الكريم، دراسة أسلوبية، الدكتور عفت الشرقاوي، ط : دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م .
٢٨ـ بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، الدكتور فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف، الاسكندرية .
٢٩ـ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، الدكتور محمد محمد أبو موسى، ط ١، مكتبة وهبة، القاهرة .
٣٠ـ البلاغة الواضحة، الأستاذ علي الجارم، ط ٤، دار المعارف، ١٩٣٩م .
٣١ـ البيان والتبيين، الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، تحقيق : الأستاذ عبد السلام هارون، ط ٤، الخانجي، مصر، ١٩٧٥م .
٣٢ـ تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق : السيد أحمد صقر، ط ٢، دار التراث، القاهرة .

٣٣- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الأصبع العدواني، تحقيق : الدكتور حفني محمد شرف، ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة .
٣٤- تحفة المريد على جوهرة التوحيد، الإمام إبراهيم البيجوري، ط : صبيح، القاهرة، ١٩٥٤م .
٣٥- التصوير الفني في القرآن، الأستاذ سيد قطب، ط : بيروت .
٣٦- التفسير البياني للقرآن الكريم، الدكتورة بنت الشاطئ، ط ٣، دار المعارف، مصر .
٣٧- تفسير البغوي، المعروف بمعالم التنزيل، على هامش تفسير الخازن، ط ٢، الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥م .
٣٨- تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط : الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٣م .
٣٩- تفسير جزء عم، الأستاذ الإمام محمد عبده، ط : دار الشعب، مصر .
٤٠- تفسير سورة الأحزاب، الدكتور مصطفى زيد، ط ١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٧م .
٤١- تفسير الفخر الرازي، المشتهر ب (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب)، الإمام محمد الرازي (فخر الدين)، ط ١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م .
٤٢- تفسير القرآن الكريم، الشهير ب (تفسير المنار)، السيد محمد رشيد رضا، ط ١، مطبعة المنار، مصر، ١٩٣١م .
٤٣- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (الحافظ عماد الدين ابو الفدا إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي)، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة .
٤٤- تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥٥م .
٤٥- تلخيص الخطابه، ابن سينا، ط : وزارة التربيه والتعليم .
٤٦- تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة، نجم الدين أحمد بن إسماعيل ابن الأثير الحلبي، تحقيق : الدكتور محمد زغلول سلام، ط : منشاة المعارف، الاسكندرية .
٤٧- تلخيص المفتاح، الخطيب القزويني، ط : صبيح، القاهرة .
٤٨- تهذيب السجستاني في غريب القرآن، الشيخ محمد مرسي، ط ٢، دار الكتاب العربي، مصر .
٤٩- جامع البيان في تفسير القرآن، ابن جرير الطبري، ط : دار المعرفة بيروت، ١٩٨٠م .
٥٠- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، ط ١٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م
٥١- حاشية قطب الدين التحتاني على الكشاف (رسالة دكتوراه) بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة، الدكتور إبراهيم طه الجعلي، ١٩٨١م .
٥٢- حياة قلم، عباس محمود العقاد، كتاب الهلال، العدد ١٦٥، دار الهلال، ١٩٦٤م .

٥٣ـ دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت الفندي وآخرين، ط : بيروت .
٥٤ـ دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة، الشيخ عطيه صقر، ط : مؤسسة الصباح، الكويت، ١٩٨٠م .
٥٥ـ درة الناصحين في الوعظ والارشاد، عثمان بن حسن الخوبرى، ط : الحلبى، القاهرة .
٥٦ـ دلائل الاعجاز في علم المعاني، الإمام عبد القاهر الجرجاني، تصحيح : الشيخ محمد عبده، تعليق الناشر : محمد رشيد رضا، ط ٦، صبيح، القاهرة، ١٩٦٠م .
٥٧ـ ديوان ابن المعتز، عبد الله بن المعتز (الخليفه العباسي)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م .
٥٨ـ الذُّرَّةُ في خدمة الزراعة، الدكتور محمد يوسف الشواربي، المكتبة الثقافية العدد : ٣٦، وزارة الثقافة، مصر .
٥٩ـ رسالة التوحيد، الأستاذ الإمام محمد عبده، ط : صبيح، القاهرة، ١٩٦٥م .
٦٠ـ الزمخشري، الدكتور أحمد الحوفي، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٦١ـ سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح : عبد المتعال الصعيدي، صبيح، ١٩٦٠م .
٦٢ـ السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق : إبراهيم الإبياري وآخرين، ط ٢، الحلبي، ١٩٥٥م .
٦٣ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، ط : دار الآفاق الجديدة، بيروت .
٦٤ـ الصيغ البديعي في اللغة العربية، الدكتور أحمد إبراهيم موسى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩م .
٦٥ـ صحيح البخاري، ط : دار الشعب، القاهرة .
٦٦ـ الصور البديعية بين النظرية والتطبيق، الدكتور حفني محمد شرف، ط ١، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٦٦م .
٦٧ـ علم النفس ودراسة التوافق، الدكتور كمال دسوقى، ط ٢، سلسلة تكنولوجيا العلوم الاجتماعية، مصر .
٦٨ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد، ط ٤، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢م .
٦٩ـ الغاية والتقريب، القاضي أبو شجاع (أحمد بن الحسين بن أحمد الاصفهانى)، مكتبة الجمهورية، مصر .
٧٠ـ فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، الدكتور فتحي عامر، ط : المجلس الاعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥م .

٧١ـ الفكر الديني في مواجهة العصر ، الدكتور عفت الشرقاوي ، دار الحقوق للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤م .
٧٢ـ الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، ابن قيم الجوزية ، ط : مكتبة المتنبي ، القاهرة . وقد صحح الدكتور زكريا سعيد نسبة هذا الكتاب واسمه وجعله تحت اسم (مقدمة تفسير ابن النقيب) وطبع ١٩٩٤م في مطبعة الخانجي ـ مصر
٧٣ـ في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ط ٧ ، دار الشروق ، ١٩٧٨م .
٧٤ـ في فلسفة الحضارة الإسلامية ، الدكتور عفت الشرقاوي ، ط ٣ ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨١م .
٧٥ـ القاموس المحيط ، الفيروزابادي ، ط ٢ ، المطبعة الحسينية المصرية ، القاهرة ، ١٣٤٤هـ .
٧٦ـ القرآن وعلم النفس ، عبد الوهاب حمودة ، سلسلة المكتبة الثقافية العدد السابع ، مصر ، ١٩٦٢م .
٧٧ـ قصص الأنبياء ، عبد الوهاب النجار ، ط : مكتبة التراث ، القاهرة .
٧٨ـ قصص القرآن ، محمد أحمد جاد المولى ، ط : بيروت ، ١٩٧٨م .
٧٩ـ قصص من القرآن ، محمود زهران ، مكتبة غريب ، القاهرة .
٨٠ـ القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، الأستاذ عبد الكريم الخطيب ، ط : دار الفكر العربي ، مصر ، ١٩٧٤م .
٨١ـ قواعد الشعر ، ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى) ، تحقيق : الدكتور رمضان عبد التواب ، ط ١ دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٦م .
٨٢ـ الكامل في اللغة والأدب ، المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) ، ط : مكتبة المعارف ، بيروت .
٨٣ـ الكبائر ، شمس الدين الذهبي (الحافظ) ، ط : دار الكتب الشعبية ، بيروت .
٨٤ـ كتاب الخطابة لأرسطاليس ، ترجمة وتقديم وتحقيق : الدكتور إبراهيم سلامة ، ط ٢ ، الانجلو المصرية ، ١٩٥٣م .
٨٥ـ كتاب سيبويه ، تحقيق : عبد السلام هارون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧م .
٨٦ـ كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر ، أبو هلال العسكري ، تحقيق : علي محمد بجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٢ ، الحلبي ، مصر .
٨٧ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ، الزمخشري واعتمدت فيه على طبعتين ، ط : مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، و ط : دار الفكر ، بيروت .

٨٨ـ كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار، للشيخ تقي الدين أبي بكر بن محمد الحصني الحسيني الدمشقي، ط ٢، صبيح، القاهرة .
٨٩ـ كلمات القرآن، الشيخ حسنين محمد مخلوف، ط ٨، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م .
٩٠ـ لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، ط : كتاب التحرير، العدد الخامس، القاهرة، ١٣٨٢هـ .
٩١ـ لسان العرب، ابن منظور، تحقيق مجموعة من أساتذة دار المعارف، ط : دار المعارف، مصر .
٩٢ـ ما يقال عن الإسلام، عباس محمود العقاد، سلسلة كتاب الهلال، العدد : ١٨٩، دار الهلال، مصر .
٩٣ـ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ط : مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٨م .
٩٤ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، ط، الحلبي، مصر، ١٩٣٩م .
٩٥ـ مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق : محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٤٥م .
٩٦ـ المجتمع الإسلامي، الدكتور أحمد شلبي، ط ٢، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م .
٩٧ـ محاضرات في تفسير سورة الاسراء، الشيخ عبد العظيم معاني، دار العلوم، ١٩٦٥م .
٩٨ـ مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ترتيب : محمود خاطربك، ط ٨، المطبعة الأميرية، ١٩١٩م .
٩٩ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، الإمام النسفي (أبو البركات عبد الله ابن أحمد بن محمود)، ط : الحلبي، مصر .
١٠٠ـ مذكرة التوحيد، حسن السيد متولي، مكتبة الكليات الازهرية، القاهرة، ١٩٨٣م .
١٠١ـ مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار الشروق .
١٠٢ـ المصطفون الأخيار، الشيخ عطية صقر، ط : مؤسسة الصباح، الكويت .
١٠٣ـ المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، الدكتور فتحي أحمد عامر، منشاة المعارف، الاسكندرية .
١٠٤ـ معاني القرآن، الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد)، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م .
١٠٥ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق : علي محمد بجاوي، ط : دار الفكر العربي، بيروت .
١٠٦ـ المعجم الوسيط، إخراج مجمع اللغة العربية، ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٩٧٣م .

١٠٧ـ مفتاح العلوم، السكاكي (سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر)، الحلبي، القاهرة .
١٠٨ـ المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني، تحقيق وضبط : محمد سيد كيلاني، ط : دار المعارف للطباعة والنشر .
١٠٩ـ مقالات في النقد الأدبي، الدكتور محمد مصطفى هدارة، ط ١، دار القلم، مصر، ١٩٦٥م .
١١٠ـ من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٥٠م .
١١١ـ المنتخب من أدب العرب، جمع وشرح : أحمد الاسكندري وآخرين، ط : دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٥٣م .
١١٢ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق : محمد الحبيب بن خوجة، ط ١، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦م .
١١٣ـ منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ط ٧، دار الشروق، ١٩٨٣م .
١١٤ـ منهج الزمخشري في تفسير القرآن، الصاوي الجويني، دار المعارف، مصر .
١١٥ـ من وصف القرآن ليوم الدين والحساب، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، الدكتور شكري عياد .
١١٦ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن)، ط : كتاب الشعب .
١١٧ـ نقد الشعر، أبو الفرج قدامه بن جعفر، تحقيق : كمال مصطفى، ط ٣، الخانجي، مصر، ١٩٧٨م .
١١٨ـ النكت في إعجاز القرآن، للرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق : محمد خلف الله، والدكتور محمد زغلول سلام، ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م .
١١٩ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، ط ١، دار الكتب، مصر، ١٩٢٩م .
١٢٠ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني (أبو الحسن علي بن عبد العزيز)، شرح وتصحيح : أحمد عارف الزين، ط : صبيح، القاهرة .
١٢١ـ وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر)، تحقيق : الدكتور إحسان عباس، ط : دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٧م .
122- William Words Worth، "Preface to lyrical Ballads in English critical Essays"، Ed، the Anglo Egyptian Book shop، Cairo، 1974.

محتويات الكتاب

أسلوب المقابلة في القرآن الكريم

دراسة فنية بلاغية مقارنة

في هذا الكتاب : يربط المؤلف بين ظاهرة التقابل في الكون كله وظاهرة التقابل في الأسلوب القرآني ، و يبين أن هذه الثنائية الضدية المذكورة في قوله تعالى (ومن كل شيء خلقنا زوجين)إنما هي دليل على تفرد الله ووحدانيته .

وستأخذك الروعة والدهشة وأنت تطوف مع المؤلف في رياض المقابلة القرآنية الواسعة المدى والتي تمتاز عما درج عليه البلاغيون القدماء في درس المقابلة ، إذ يوضح المؤلف أن المقابلة القرآنية مقابلة ممتدة بين المواقف الكلية المتعارضة : بين المؤمنين والكافرين ، وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وبين القرآن المكي والمدني ، كما هي ممتدة أيضا في القصص القرآني .

ويكتشف المؤلف مقابلات رائعة بين سورتين وبين أوائل السور وأواخرها . ومن خلال أسلوب المقابلة يتحقق الغرض الديني والجمالي من البلاغة القرآنية . والكتاب بابان رئيسيان : نظري يهم المتخصصين ، وتطبيقي يمتع المثقفين والقراء العاديين .

